المنظمة العربية للترجمة

ماكس فيبر

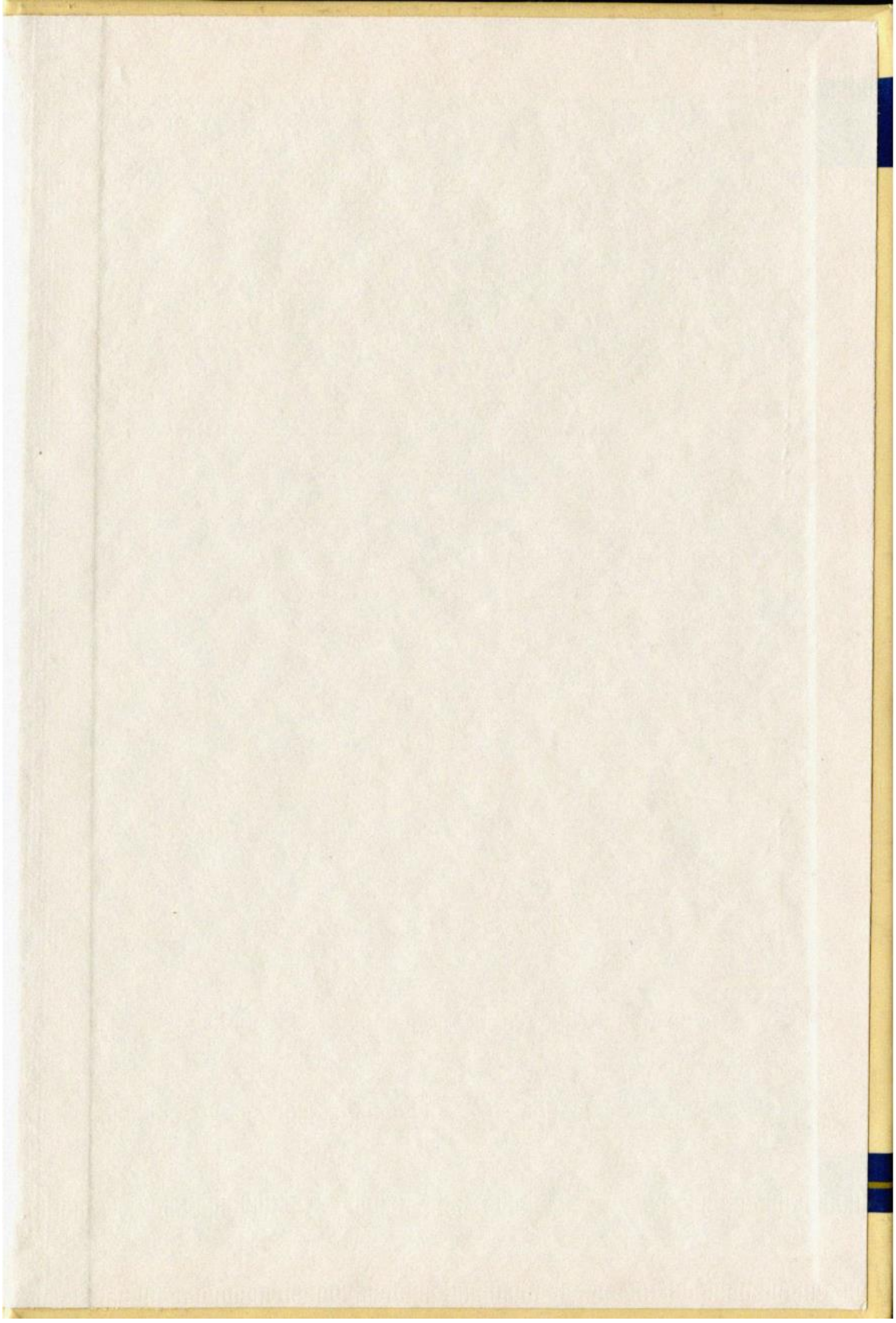
العلم والسياسة بوصفهما حرفة

ترجمة

جورج كتورة

أعمال ماكس فيبر (١)

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية



العلم والسياسة

بوصفهما حرفة

لجنة ترجمة أعمال ماكس فيبر

جورج كتورة (منسّقاً)

رضوان السيد

عزيز العظمة

غانم هنا

منير الفندري

المنظمة العربية للترجمة

ماكس فيبر

العلـم والسـياسة بوصفهما حرفة

إعداد: ولفغانغ مومسن، ولفغانغ شلوشتر، برجيت مورغنبرود

ترجمة

جورج كتورة

مراجعة وتقديم

رضوان السيد

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
فيبر، ماكس
العلم والسياسة بوصفهما حرفة/ ماكس فيبر؛ ترجمة جورج كتورة؛ مراجعة رضوان السيد.
413 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية؛ لجنة ترجمة أعمال ماكس فيبر)
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-82-392-8
1. العلوم - مقالات ومحاضرات. 2. الممارسة السياسية. أ. العنوان. ب. كتورة، جورج (مترجم). ج. السيد، رضوان (مراجع). د. السلسلة.
329

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Weber, Max
Wissenschaft als Beruf 1917/1919, Politik als Beruf 1919



المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، تموز (يوليو) 2011

المحتويات

تصدير

إنتاج ماكس فيبر الضخم وانتشاره الواسع وتأثيره الواضح في العلوم الإنسانية، إجمالاً، وفي العلوم الاجتماعية، تخصيصاً، هو مما لا يحتاج إلى إثبات أو توكيد: من الصعب أن نتصور بلداً له من هذه العلوم نصيبٌ جديّ لم يتسرّب إليه شيء من نصوص ماكس فيبر أو، على الأقل، من بعض مقولاته. يكفي النظر في مرجعيات البحوث الاجتماعيّة، وفي لغات مختلفة، للتأكّد من أن ماكس فيبر هو ممن لهم حضور واسعُ التفرّع، فكأنه لا استغناء عنه.

وما يدعو إلى التساؤل، في شيء من الحيرة، أن هذه المكانة العلمية التي نقلتها الترجمة إلى العديد من لغات العالم لم تحفّز العرب، مترجمين وناشرين، على استقبالها بجدٍّ وباهتمام ذي دلالة معرفيّة: كل ما في الحصيلة متفرقاتٌ أو شذرات قد يكون لها فضل المبادرة، لكن لها، في كل الحالات، عيبُ التجزئة وقلّة التحقيق والتدقيق، خصوصاً وأنها تعتمد، في الغالب، لغةً وسيطة غيرَ الألمانية التي وُضع النص فيها. هكذا لا يوجد من أعمال ماكس فيبر، في العربيّة، حتّى الآن، ما يُطمأَنّ إلى ترجمته وإلى اعتماده مرجعاً علمياً موثوقاً به.

من المفيد، والحال هذه، أن تُقدم المنظمة العربية للترجمة على سدّ هذا الفراغ بترجمة أحد عشر مجلداً من أعمال ماكس فيبر. لكن لماذا هذه المجلدات تحديداً؟ لا شك في أنّه كان بالإمكان أن تزداد عدداً أو تنقص كما كان بالإمكان تغيير قائمتها، حذفاً وإضافةً، ولكن الضمانة هي في أن الاختيار كان نتيجة نقاش طويل ودقيق، وأنه لا ارتجال فيه: لقد شكّلت المنظمة لجنة علميّة ممّن لهم تمكّن من اللغة الألمانية ولهم في العلوم الإنسانية والاجتماعية تخصصٌ ومكانة. وقد أفضى جهد هذه اللجنة إلى اختيار أحد عشر مجلّداً رأت فيها ما يمثّل فكر ماكس فيبر، تمثيلاً كافياً، من أوجه نظرية ومنهجيّة مختلفة، مع إسناد الأولويّة لما ارتفع مردوده المعرفي في السياق العربي.

هكذا كان الإجماع على ضرورة ترجمة كلّ ما احتوى العنوان الشهير «الاقتصاد والمجتمع»، وهو آتٍ في خمسة مجلدات:

1 ـ الجماعات

2 ـ الجماعات الدينيّة

3 ـ علم اجتماع القانون

4 ـ السيطرة

5 ـ المدينة

أما ما تبقى من أعمال ماكس فيبر فقد اختيرت منه المجلدات الحاملة للعناوين الآتية:

6 ـ العلم والسياسة بوصفهما حرفة

7 ـ الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

8 ـ السياسة في الحرب العالمية الأولى

9 ـ علم اجتماع الموسيقى

10 ـ المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع

11 ـ الرسائل (وقد استُخرج من مجلداتها الأحد عشر ما يكوّن مجلداً واحداً ذا فائدة علمية واضحة، واستُغنيَ عن البقية لما فيها من جزئيات حياة فيبر اليومية ومن جزئيات علاقاته الشخصيّة).

هذا الاختيار وازاه جهد جماعي واسع لتوحيد استعمال المقابل العربي للمصطلحات الألمانيّة، لكي لا يختلف استعماله من مجلد إلى آخر (باستثناء ما يتطلّبه السياقُ، طبعاً)، ولكي لا ينحرف معناه أو يلتبس في ذهن القارئ. وقد أفضى هذا الجهد إلى وضع مسرد ألماني/عربي ضم ما يقارب خمسمئة مصطلح وارد في نصوص ماكس فيبر تم مد المترجمين به لاعتماده من قِبل الجميع.

والطبعة الألمانية المعتمدة(□) هي طبعة غير مسبوقة، من حيث تحقيقها وتدقيقها، ومن حيث ما ضمّت من حواشٍ وتعليقات تساعد كثيراً على فهم النص وعلى معرفة سياقه. هذا إضافةً إلى ما وضع المتخصصون من مقدمات واسعة، مدخلاً شارحاً لكل مجلد. ومن الجدير بالإشارة أن هذه الطبعة المعتمدة بدأ الإعداد لها عام 1972، وصدر أول مجلداتها سنة 1984، ولايزال إنجازها جارياً، إذ لم يصدر منها، قبل كتابة هذا، إلاّ **إثنان وثلاثون** مجلّداً من بين **ستةٍ وأربعين** مجلّداً تم الإعلان عن قرار صدورها، ومنها ما ننتظر صدوره لترجمته ونشره (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية).

(□) Max Weber, *Gesamtausgabe (MWG)*, hg. von Horst Baier... [et al.] [Tübingen: J.C.B Mohr (Paul Siebeck), 1984 -).

إن المنظمة العربية للترجمة، وهي تُقدم على ترجمة ما رأته أساسياً من أعمال ماكس فيبر، تأمل أن تكون أنجزت عملاً كبيراً، وتأمل أكثر أن تتسع الفائدة منه. ومهما يكن، فالجهد المبذول لم يكن يؤتي ثماره لولا الحرصُ وروح البذل في منظمة علمية غير حكوميّة وغير ربحيّة، ولولا المساهمة الجادة التي تميّز بها الزملاء، سواء كانوا من أعضاء اللجنة العلمية أو من المترجمين. لهؤلاء، جميعاً، جميل الشكر على ما قدموا لصالح المعرفة العربيّة.

الطاهر لبيب

المدير العام للمنظمة العربية للترجمة

تقـديـم

العلم والسياسة
مشروع ماكس فيبر للدولة الألمانية
بعد الحرب الأولى

1 ـ تمهيد: اختلفت تقديرات الدارسين لأعمال ماكس فيبر (1864 ـ 1920) بشأن تاريخ كتابته لمحاضرتيه: «العلم بوصفه حرفة»، و«السياسة بوصفها حرفة» في ما بين العامين 1917 و1919. والثابت أنه ألقاهما تباعاً في أواخر العام 1918 أو مطالع العام 1919. وهذا يعني أمرين اثنين، **أنهما أولاً كانا من بين آخر ما كتبه، وأنه ألقاهما في شهور الاضطراب والثورات** التي أعقبت هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وسقوط القيصرية، وشيوع الفوضى والصراع على مستقبل المجتمع والدولة بين التيارات السياسية المتنافسة والمتدافعة لتحديد الموقع والحصّة في البلاد التي كانت تمرُّ بتحولاتٍ عاصفة. كان النظام القديم قد تهاوى، وكانت معالمُ الوضع الجديد لمّا تبزُغْ. ولأنّ البُنى السياسية والإدارية والعسكرية للدولة كانت قد تلقّت ضربةً قاسية، فإنّ الشبان المنتظمين وغير المنتظمين في تياراتٍ سياسية، والمجنّدين العائدين

من الجبهات المنهارة، هم الذين احتلّوا الشوارع والساحات مكتسبين قوىً وتطلعات، ومُنشئين كومونات وسُلطات في ما بين برلين وميونيخ. إلى هذه القوى الجديدة توجّه ماكس فيبر السوسيولوجي وعالم السياسة البارز، بهاتين المحاضرتين، وفي الإطار الجامعي والأكاديمي الذي اعتاد عليه وبنى سُمْعته في أوساطه على مدى عقدين ونيِّف. وبالنظر إلى هذه الاعتبارات والظروف، فإنّ المُفاجئ ليس الجديد الثوري الذي أتى به السوسيولوجي وعالم السياسة، بل المفاجئ إصراره على البقاء في الأُطر التي كانت قد صارت معروفة لتفكيره في سوسيولوجيا المعرفة أو الدولة الحديثة البازغة في أوروبا مع بزوغ الرأسمالية المعقلنة وأصولها الاجتماعية والثقافية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فهو باعتباره من الكَنْتيين الجُدد، ما زحزحتهُ الأحداث العاصفة والثورية لعامي 1918 و1919 ـ بما في ذلك صعود التيارات اليسارية المتطرفة ـ عن الاعتقاد أن ألمانيا ـ شأنها في ذلك شأن بريطانيا وفرنسا ـ لن تحيد عن الديمقراطية الليبرالية (على اختلاف أشكال الحكومات)، والتي تُمثّل مقتضى التطور التعقيلي والعقلاني لقرون أوروبا الثلاثة الأخيرة. لقد رأى ماكس فيبر المؤرخ للأديان والنُظُم، والسوسيولوجي المعني بالفهم وبناء المفاهيم، أنّ أوروبا الحديثة (والولايات المتحدة)، إنما تقوم على ثنائية العلم والعمل السياسي. العلم باعتباره معرفةً، وباعتباره تقنيةً وتقدماً واحترافاً، والعمل السياسي باعتباره مشاركة في إدارة الشأن العام (= الوطن)، وباعتباره حِرفةً واختصاصاً (= البيروقراطية والمهامّ الاستشارية في التقليد الأميركي)، وباعتباره في الحاضر والمستقبل قيادةً زعاميةً شعبيةً ودولتية. في كلّ هذه الحقول والمهامّ في المجال العلمي، كما في المجال السياسي والإداري، يكون الاحترافُ (= Beruf) ضرورياً، لكنْ يكونُ ضرورياً أيضاً لدى فيبر: الإحساس بالدعوة أو الرسالة (= Berufung) أو ما يقارن ويقاربُ

الواجبَ وأخلاقياتِه عند كَنْت. ولننصرفْ إلى قراءةٍ فاهمةٍ أو تحليليةٍ لمحاضرتي ماكس فيبر، نعود بعدها، أو بعدهما، للإدلاء بملاحظاتٍ ختامية.

2 ـ **العلم بوصفه حرفة**: اختار فيبر لمحاضرته بدايةً مقارنةً بين بناء المؤسسات الجامعية وأنظمتها في كلّ من ألمانيا والولايات المتحدة. أمّا التجربة الألمانية فقد اعتمد فيها على خبرته هو مع تلك المؤسسات. وأمّا التجربة الأميركية، فقد اعتمد في عرضها على الزيارة التي كان قد قام بها إلى الولايات المتحدة على مدى شهرين ونصف (صيف 1904)، كما اعتمد على قراءاته بهذا الشأن وتجارب زملائه وأساتذته الذين هاجروا إلى هناك. فالمتخرج بالدكتوراه الأولى بأحد الاختصاصات في العلوم الإنسانية والاجتماعية بألمانيا، يكونُ عليه العمل لسنواتٍ قد تطول من دون أجرٍ في أحد معاهد التعليم العالي بالبلاد. وخلال تلك الفترة التي تتضمن مغامرةً ومجازفات، يُتاح له إذا كان محظوظاً العمل على شهادة التأهُّل التي تُمكّنه، ودائماً إذا كان محظوظاً واعتنى به أساتذته، من الحصول على منصبٍ بإحدى الجامعات (خارج الجامعة التي حصل فيها على شهادته الأولى). إن **الاحتراف** أو صنعة العلم بألمانيا شاقّة وتقتضي صبراً وجَلَداً ومتابعةً لا يتحمّلها إلاّ الأقلّون. ويلاحظ فيبر هنا أنه بسبب هذا المسار غير المؤكد اتجهت الجامعاتُ الألمانية في العلوم البحتة والتطبيقية إلى الطريقة الأميركية في التوظيف منذ البداية، حرصاً على تسيير المؤسّسات، وحرصاً أيضاً على إحراز التقدم في المجالات العلمية والعملية التي تتطلبها الاحتياجات الاجتماعية، والمسارات التي تقتضيها المعارف الحديثة من تكاليف وأعباء ومختبرات وأدوات أخرى كثيرة، والتي لا يُجدي فيها دائماً الجهد والصبر الشخصي الفردي مهما بلغ طَولُه.

أمّا في التقليد الأميركي، وفي سائر المجالات: فإنّ المتخرج يحصل على وظيفة بعد الدكتوراه مباشرةً. والحصول على وظيفة المساعد (Assistent) ليست بديهيةً بالطبع لأنها تدخل في مسار التنافس، لكن لا مقارنة بين هذا الجهد التنافُسي، وذلك الذي يتعرض له المتخرج الألماني. والفرق الآخر بين النظامين الجامعيين في كلّ من ألمانيا والولايات المتحدة، أنّ المتخرج الألماني الذي يصبح مُحاضراً من دون مرتّبٍ ثابت، لا يحصلُ على عددٍ كبير من ساعات التدريس بعكس زميله الأميركي. وقد يتيحُ ذلك له الانصراف أكثر للبحث العلمي، بيد أنّ هذه المراتبية الصارمة بين المحاضر والأستاذ تُحبط المبتدئ وتكبح طموحه. والدليلُ على نقص النظام بألمانيا (والذي يشعر فيبر رغم ذلك بشيءٍ من الاعتزاز به!)، أنّ الألمان أنفسهم صاروا يلجأون ـ كما سبق القول ـ إلى النظام البيروقراطي الأميركي في تخصصات العلوم التطبيقية. ويلاحظ فيبر أمراً آخر، فالنظام المعمولُ به في ألمانيا ـ على عكس المعتقد ـ لا يُوصِلُ في الغالب النابغين من الخريجين إلى مناصب الأستاذية، بل يفوزُ بهذه المناصب في الغالب الأوساط من الكهول الذين يُظهرون تلاؤماً وخضوعاً كاملاً للنظام التحكّمي هذا، ثم إنّ المتخرج الألماني عليه أن يكون بارعاً في التدريس (ليحظى) بسُمعةٍ بين الطلاب، وفي البحث العلمي (= الكتابة العلمية) لكي يجتاز مناقشات التعيين، وهذان أمران لا يتوافران دائماً أو في الغالب لدى الشخص المتقدم الواحد، ويضرب فيبر لذلك مثالين عن أستاذين كبيرين هما هلمهولتز (Helmholtz) ورانكه (Ranke)، واللذين ما كانا محاضرين جيّدين، وكانت سمعتهما سيئة بين الطلاب المستمعين في قاعات الدرس!

يسارع فيبر بعد هذا التقديم عن الإرغامات الخارجية للعلم، إلى موضوعه الأثير والمحبّب، وهو الدعوة أو الرسالة أو النداء

الحميم لأجل العلم أو الشغف والإحساس الداخلي الغلّاب. فالعلوم تتجه إلى التخصيص الضيّق والدقيق، بحيث يصبح من العسير «الإبداع» من طريق الموسوعية التي تقتضيها العلوم الاجتماعية أحياناً. فلابد، لكي تحقق تقدماً ملموساً، من المُضيّ وبشغفٍ في موضوع أو موضوعين وعلى مدياتٍ متمادية عمراً وجهداً. والنتائج البارزةَ واللافتة قد لا تأتي أبداً، إنما من دون الشَغَف المقترن بالانشغال الدائم و«الجنوني» قد لا تأتي الحدوس الكبرى حتى في العلوم البحتة والتطبيقية. وهكذا فهناك الفكرة الطارقة بإلحاح، وهناك العمل الدؤوب، ولا بديل لأحدهما عن الآخر. والعمل العلمي مقيّد بعجلة التقدم ومساره، بينما لا يوجد في ميدان الفنّ تقدم بالمعنى ذاته، ولذا فقد يبقى العمل الفني ويُخلَّد، بينما يجري تجاوز كلّ الإنجازات العلمية، إمّا بالتقادم أو لثبوت الخطأ. وهذا الأمر أو الفرق يطرح السؤال عن **معنى العلم**. فالمرء يمارس العمل العلمي لأغراضٍ عمليةٍ بحتة. بيد أن الأكاديمي أو رجل العلم قد يزعم أنه يمارسه من أجل **العلم ذاته**، وليس لينتفع به شخصياً أو ينتفع به الآخرون. فأين يبدو التقدم العلمي، وما معنى عمليات «العقلنة» الساعية عبر العصور لتحديد المفاهيم أو المعاني؟ إنّ عملية «التعقيل» هذه، والتي اتخذت مسارات متطاولة، رمت إلى «**إزالة السحر** عن العالم»، أو بالأحرى إزالة سحر العالم! لقد زالت الأوهام ووجوه الغموض، وتوطّد الاقتناع بأنّ كلّ ظاهرة يمكن فهمها وبالتالي العمل على التحكم بها بالتعقيل والضبط، لكنها لا تلبث باستمرار التقدم أن تتجه يقينيتها إلى الزوال أو التجاوز. لقد حاول تولستوي أن يتأمل ظاهرة «الموت»، وهل لها معنىً أو مغزى. واقترح أنه لا معنى للموت عند الإنسان المتمدّن، لأنه يقع وسط مسار التقدم اللانهائي، والذي يموت لا يقف أبداً على الذروة الواقعة في اللانهاية. وأعاد فيبر السؤال عن المعنى وسط التباين الهائل بين الماضي والحاضر،

وذكر هذه المرة مثال كهف أفلاطون في **الجمهورية**. واستنتج أنّ أفلاطون (بل سقراط) كان يكتشف للمرة الأولى ما صار يُعرف بالمفهوم (Begriff) أو إدارة التصور الذهني. أما الإدارة الكبرى الثانية المكتشفة للعمل العلمي لدى الإغريق فهي: الاختبار العقلاني؛ باعتباره وسيلةً إلى التجربة التي يمكنُ ضبطها على نحوٍ موثوق. أما التجربة كمبدأ للبحث فيرجع الفضلُ فيه إلى عصر النهضة. بيد أن المعنى أو المغزى أو الحقيقة النهائية لا تلبثُ أن تتفلّت منا مرةً أخرى. فهل نلتفت إلى توجّه المتدينين الذين يعتبرون العلمَ سبيلاً إلى الله باعتباره الحقيقة النهائية؟ إنّ هذا الاعتقاد هو إحدى السُبُل للخلاص من عقلانية العلم وتعقليته. بيد أنّ نيتشه بنقده القاتل دمّر علينا هذه اليقينية أيضاً عندما نفى «المعنى» من الديني، ونفى المعنى عن وهم السعادة من طريق العلم. يقول تولستوي إنّ العلم بلا معنى لأنه لا يقدم جواباً عن السؤال الأوحد الذي يستأثر باهتمامنا: ماذا يجب أن نفعل، وكيف ينبغي لنا أن نعيش؟ وفي الزمن الأخير هناك من يذهب إلى الموضوعية المتطرفة باعتباره العلم الصحيح هو ذاك الخالي من الافتراضات المسبقة. إنما هل هناك علمٌ من دون شروط وافتراضات «ضرورية»؟ وفي النهاية ينبغي القول إنّ هذه القضية لا حلّ لها، لأنّ العلم لا يطرح أسئلةً من هذا القبيل! ثم يحاول فيبر دراسة مغزى أو مآل عدم طرح الأسئلة من جانب العلم عن «الحقائق»، فيذكر الطب، كما يذكر علم الجمال، والفقه الروماني، والظواهر السياسية والاجتماعية. ويلاحظ أنّ الأسئلة هنا وهناك إنما هي عن الأشكال والأدوات، وليس عن الجواهر والحقائق.

ومن دون مقدّماتٍ ينتقل فيبر إلى طرح السؤال عن مهمة العالِم أو الأستاذ في قاعة الدرس: هل عليه أن يتخذ موقفاً سياسياً أو اجتماعياً حتى لو كان ذلك داخلاً ضمن نطاق اختصاصه؟ ويجيب

مباشرةً: إن اتخاذ موقفٍ سياسي وعملي هو شيء، والقيام بتحليل علمي للبنيات السياسية ومواقف الأحزاب شيءٌ آخر تماماً. والموقف السياسي من وقائع راهنة من مهامّ الداعية والغوغائي ولا مكان لذلك على المنبر الجامعي في قاعة المحاضرات! فالمهمة الأولى للمعلم النافع هي في تعليم طلاّبه الاعتراف بحقائق «غير ملائمة» والإقرار بوجودها. ثم يبسط فيبر معاني «غير الملائم» أو غير «المريح» منذ القديم وإلى اليوم وفي الفلسفات والديانات. ويذهب إلى أنّ الطلاب الذين يتطلبون من أساتذتهم المواقف والتفصيلات، إنما يتوقون إلى قائد وليس إلى معلّم. وإذا كان الأمر كذلك فما هي المساهمة الفعلية والإيجابية التي يُسديها العلم أو التعليم إذاً إلى الحياة العملية والشخصية؟ ويجيب المحاضر عن السؤال في نقاطٍ أهمّها أنّ الأستاذ مهمته إلقاء الضوء أو إسداء الوضوح أو إكسابه. وهذه هي حدود العلم أو لنقل إنها الاستقامة والنزاهة في تأدية واجب الوضوح الذاتي وتوليد الإحساس بالمسؤولية. لكننا عندما نبحث في الفارق بين العالم والداعية، وما هو علم وما هو غير علم يعرض لنا السؤال القائل: هل اللاهوت علم؟ ويلاحظ فيبر أنّ كل الديانات تتضمن لاهوتاً، والفلسفة الإغريقية هي أصل اللاهوت المسيحي، بينما هناك «لاهوتات» تعود بمجموعها إلى الهندوسية. ومن ناحية الشكل: فإنّ اللاهوت يستوفي شروط العلم، لأنه يتضمن عقلنةً وتقعيداً أو كما يقول علماء الكلام المسلمون: قياساً للغائب على الشاهد. لكنّ اللاهوت يملك إضافاتٍ خاصة بالمؤمنين تتصل بالخلاص مثل الوحي والنبوة، وهذه لا تدخل في باب العلم، بل في باب الإيمان. بيد أنّ هؤلاء الذين يريدون من طريق ذلك أن يُضفوا على حياتهم معنىً هم أشرف بكثيرٍ من العلماء الوضعانيين الذين يزعمون تحقيق السعادة من طريق العلم. نحن في زمن «زوال السحر من العالم أو بالأحرى زوال سحر العالم»، ولا مكان في زمن العالم هذا للنبوءة

الأكاديمية. فيبقى أنّ **الفضيلة الوحيدة داخل قاعات المحاضرات الجامعية هي فضيلة الاستقامة الفكرية المجرّدة**. ونقطة على السطر.

3 ـ **السياسة بوصفها حرفة**: بدأ فيبر حديثه عن مهنة السياسة، بتعريف «السياسة» مفرداً ومصطلحاً ومفهوماً. فالسياسة تتناول أنماط النشاط ومساراته في سائر الحقول، فهناك سياسة معرفية، وسياسة تعليمية، وسياسة ريفية أو مدينية لإحدى البلديات، بل ويمكن الحديث عن سياسة المرأة الماهرة في السيطرة على زوجها. بيد أن فيبر أوضح أنه معنيٌّ من بين سائر السياسات بإدارة الاجتماع السياسي الذي يُسمّى دولة، وبالتأثير الذي تمارسُه هذه السياسة أو تلك على الإدارة. وكما يقول المناطقة، فإنّ فيبر في تعريفه للدولة إنما بحث عن الخاصية المميّزة لها وهي القوة، فكلّ الدول تقوم على القوة (والطريف أن فيبر ينسب هذا القول إلى تروتسكي الذي كان يفاوض في برست ليتوفسك عام 1917 باسم السلطة السوفياتية الجديدة مع الألمان لعقد صُلحٍ منفردٍ بين الدولتين). بيد أنّ هذه **القوة** أو هذا الإرغام، لكي يكوِن القيام به ممكناً في المدى الطويل، لابدّ أن يتمتع بنوعٍ أو شكلٍ من أشكال المشروعية. ويكون ذلك في زمن الدولة القومية خاصاً بإقليم معين له حدود. فالدولة إذاً في أخصّ خصائصها هي جهاز يحتكر العنف المشروع في إقليم معين. وبذلك فإن السياسة تكون: مجمل الجهود المبذولة بهدف المشاركة، بالسلطة أو التأثير في توزيعها، سواء بين الدول، أو بين مختلف المجموعات بداخل الدولة نفسها. وهكذا فإنّ السياسي هو كل إنسانٍ يمارس العمل العامّ طموحاً للسلطة، إمّا لأنه يعتبرها وسيلةً لخدمة أهدافٍ أخرى مثالية أو أنانية، أو لأنه يريدها لذاتها على سبيل الاستمتاع.

ومن هذا التحديد للدولة بأنها هي الهيئة صاحبة «الحق

المشروع» والحصري في ممارسة السيطرة على بقعةٍ معينة، والذي يقوم بذلك فرداً أو جماعةً هو السياسي، مضى فيبر قدماً للحديث في الشروط والظروف التي تجعل من ذلك العنف أو الإرغام مقبولاً أو مشروعاً، فذكر **الأنماط الثلاثة للسلطة** (Typologie) التي تحدث فيها كثيراً في السوسيولوجيا السياسية التي تميّز بها وهي: **النمط التقليدي** للسيطرة والشرعية (البطركية والمشيخية أو السيادة الإقطاعية)، و**النمط الكاريزمي** الذي يعتمد على السحر الشخصي والإلهامي والبطولي لفردٍ معيّن. وهذا النوع من السيطرة هو الذي كان يمارسه النبي، والزعماء الحزبيون، والمليك المتفرد والديماغوجي أو زعيم الحزب السياسي. **والنمط الثالث** هو السيطرة القانونية أو الدستورية التي يمارسها الممسكون بزمام الأمر في الدول الحديثة. ولا توجد هذه الأنماط بشكلٍ صافٍ كما صوّرها فيبر، كما إنّها لا تنفصل عن بعضها بشكلٍ مطلقٍ أيضاً، وهي من حيث البنية والممارسة والعلائق المتشابكة تتأثر بالطبع بالعوامل الخارجية، والأخرى الداخلية. وينظر فيبر بعدها في النمط الثاني الكاريزمي، والقائم على الثقة بالشخص سواء كان نبياً أو ساحراً أو قائداً عسكرياً، أو ربما ديماغوجياً قيادياً كما عرفه الغرب الحديث. إنه نمطٌ للسلطة قائم على الدعوة أو الرسالة، والاعتماد على الألَق الشخصي في إنجاز المهمات التي نذر نفسه للقيام بها، وحظي بالثقة من الجمهور أو رجالات الحزب في هذا الصدد. على أنّ فيبر سُرعان ما ينتقل إلى الوسائل والأدوات التي تحتاج إليها السلطة في الأنماط الثلاثة لإنفاذ مقتضيات سطوتها. ذلك أنّ كل مشروع سلطوي يتطلب استمراراً إدارياً، وتوجيهاً لنشاط الرعايا باتجاه الطاعة الواجبة، والتصرف بالوسائل المادية (ومنها القوة الفيزيقية). فهناك حاجة إلى وجود الإدارة الفعالة، والوسائل المادية للإنفاذ. وهذان الأمران لا يتوافران بوجود النمط المذكور للشرعية، بل لابد من

توافر عنصرين مساعدين لهما علاقة بالمصلحة الشخصية، وهما: الأجر المادي والشرف الاجتماعي. والأجور المادية والمكافآت ووجوه النفوذ والامتيازات الأخرى في كلّ الأنماط هي السبب الحاسم للتعاضد الذي ينبغي أن يتوافر للإدارة وفيها. ثم يمضي فيبر في تعداد وتصنيف «وظائف» ومهمات الإدارة، وكيف تقوم بها في القديم والحديث. فالإدارة لدى الملوك والإقطاعيين، تختلف في طرائق القيام بالوظائف، عن الإدارة في زمن الرأسمالية، والإدارة في عصر الأحزاب والقيادات السياسية الحديثة. فالوسائل والطرائق والامتيازات كانت موزّعة في الأزمنة التقليدية، وهي في الأزمنة الحديثة تميل إلى القطع والاحتكار والمركزة في قبضةٍ واحدة. ويضرب فيبر مثلاً على ذلك ما فعلته **الثورة** (ويقصد الاضطرابات التي سبقت ولحقت انهيار السلطة القيصرية عام 1918). ويعتبر أن ذلك جرى ويجري في سائر بقاع الأرض، ويصفه باعتباره ظاهرة، وهي ظاهرة ظهور رجال السياسة المحترفين. ورجل السياسة المحترف بسبب جدَّة هذه الظاهرة يحتاج إلى تحديد. فالعمل السياسي يمكن أن يمارس باعتباره نشاطاً ثانوياً مثل النشاط الاقتصادي، ويمكن أن يُصبح نشاطاً رئيساً لدى الشخص أو الفئة من الناس العاملين في السياسة أو إدارة الشأن العام، وهذا هو معنى الاحتراف. فالمرء إما أن **يعيش من أجل السياسة**، وإمّا أن **يعيش من السياسة**. ولذلك صِلَةٌ بالمسألة الاقتصادية، فالذي يرى في السياسة مصدراً دائماً للدخل، يعيش منها، والذي يمارسها باعتبارها دعوةً أو رسالةً حتى لو كانت لأهدافٍ شخصية (نفسية أو اجتماعية) يحيا من أجلها. وأما الذي يعمل من أجل السياسة ينبغي أن يكون مرتاحاً اقتصادياً حتى لا يضطر إلى الاهتمام بوسائل العيش كلّ الوقت. والمحاضر لا يقصد بذلك أن صاحب المنشأة الاقتصادية مؤهّل للعمل السياسي المحترف، ذلك أنه لا يكون حراً لارتباطه بالمصالح

الاقتصادية لمؤسسته وزملائه من الطبقة نفسها. والشأن كذلك بالنسبة إلى الطبيب والمهندس وغيرهما. والطريف أن فيبر يعتبر فئة «المحامين» أكثر تأهلاً للعمل السياسي المحترف، لارتباط اختصاصهم الوثيق بالعمل العامّ من حيث العلاقة بالجمهور، ومن حيث «الخطاب». والمعنى المقصود أنّ «المشروع السياسي» ينبغي أن يوفّر للقائمين فيه وعليه دخلاً منتظماً. وبذلك فإنّ جميع الصراعات بين الميول الخاصة والميول المركزية في ألمانيا تدور هي أيضاً ـ في نظر فيبر ـ حول هذه المسألة، أي ما هي القوى التي ستتحكم بتوزيع الوظائف؟ ذلك أنّ الأحزاب السياسية تتأثر بذلك، أكثر مما تتأثر بخرق برامجها السياسية والاقتصادية المُعلنة. ويلاحظ المحاضر أنّ هذه التفاصيل الوظائفية شديدة الأهمية في فرنسا (أخذُ هذه الوظيفة أو تلك)، أكثر من برامج الأحزاب. ويكاد هذا الأمر أن يكون فريداً في أهميته في الولايات المتحدة، لأنّ كل حزبٍ يأتي إلى السلطة يسارع إلى تغيير كلّ الموظفين تقريباً، وليس ذوي الدرجات العليا في الإدارة فقط. ويلاحظ المحاضر أنّ هذه الميول الحزبية الضيقة تتناقض مع تطور مفاهيم ومهامٍّ الوظيفة العامة المعاصرة، والتي تتطلب «في أيامنا هذه» مجموعةً من العاملين المثقفين المتخصصين ذوي الكفاءة العالية. فمع الاعتراف بضرورات المهنية السياسية، والمرتبطة ببرنامج سياسي، ومجموعة من المصالح؛ يظلّ من الضروري الاهتمام بالتوازن لحُسن إدارة قضايا الشأن العام، والمصالح الطويلة الأمد للوطن والمواطن. وهذا الأمر والاهتمام بالتخصص والإدارة المستقرة بدأ يظهر أيضاً في الولايات المتحدة، ذات النظام الحزبي العريق، والتي ما عرفت المناصب والوظائف الدائمة والثابتة من قبل. والواقع أنّ هذا التطور في الوظيفة العامة عرف في أوروبا تطوراتٍ على مدى خمسة قرون، وصارت «التقنية» ضرورية أصلاً في القطاع العسكري مع بروز الضابط

المحترف، ثم الاحتراف في إدارة الشأن المالي للأمير. ولا ينبغي تجاهل تطورٍ آخر، هو ظهور فئة «المستشارين» ذوي النفوذ في حاشية الأمراء، وظهور الدبلوماسيين المتخصصين في العلاقات بين الأمراء والدول. وقد تطورت الاستشارات هذه من مجموعة من الأفراد يتناقشون بحضور الأمير ويظلّ القرار بيده وحده، إلى حين ظهور البرلمانات، والتطلعات السياسية لزعماء الأحزاب. ثم جاءت الإدارات المركزية (أو المكتب السياسي) للأحزاب، إلى جانب وصول زعيم الأكثرية البرلمانية (نتيجة الانتخابات الحرة) إلى رئاسة الحكومة.

إنّ التطور الذي حوّل السياسة إلى «مشروع» أو هيئة أو منشأة أو مؤسسة، تطلب إذاً تنشئةً خاصةً للذين يسهمون في الصراع على السلطة، وفقاً لمبدأ الحزب الحديث. وهكذا انقسم الموظفون إلى قسمين: الموظفون المحترفون (= التقنيون)، والموظفون السياسيون. فموظفو القضاء لا يتغيرون في العادة، بينما يتغير الموظفون السياسيون وينتقلون أو يفقدون وظائفهم إذا خسر الحزب الانتخابات. ويضرب فيبر أمثلةً على ذلك من فرنسا وبريطانيا وألمانيا. ولكلٍ من الفئتين خصائصها، فالموظفون الإداريون أو التقنيون صار مطلوباً منهم الحصول على شهاداتٍ جامعية في المجال الذي يعملون فيه، بينما يحصل تأهل الموظفين السياسيين بأشكالٍ أخرى. ولا يختلف ذلك عن إدارة الشركات، فالمساهمون الكبار أعضاء مجلس الإدارة لا تعرف غالبيتهم العمل التقني، ولذا فإنهم يوجّهون السياسات العامة للشركة، ويعينون الموظفين التقنيين المختصّين. وعندما يتّجه فيبر إلى زيادة التحديد في احتراف السياسي، يعود إلى ذكر التطورات في الثقافات والدول غير الأوروبية منذ العصور القديمة والوسطى. وهي تطورات سبق له أن درسها في كتبه عن سوسيولوجيا

الدين، وسوسيولوجيا الإقطاع في آسيا الوسيطة، وأوروبا الوسيطة. ويلاحظ المحاضر أنّ **الفئة الخامسة** من فئات الموظفين وأصحاب المراتب في عصر النهضة وما بعدها، هي فئة رجال القانون المتعلمين في الجامعات، وهو يعتبر تلك الفئة نتاجاً أوروبياً خالصاً. وتتشعّب ملاحظاته واهتماماته لإيضاح ظروف نشأة هذه الفئة بين الهند وإيطاليا وفرنسا والكنيسة الكاثوليكية. وتتضح أسبابُ اهتمامه بقراءة هذا التطور لدى فئة رجال القانون، بأنه يعتبرها أصل ظهور مهنة المحاماة، والتي يرى لها دوراً كبيراً في ظهور رجل السياسة المحترف في أوروبا الحديثة.

إنّ على رجل السياسة المحترف ألا يمارس العمل السياسي التزاماً بدعوته ودعواه ورسالته بالضبط، بل يكون عليه إلى جانب عمله السياسي، أن يمارس الإدارة بطريقة غير متحزّبة. وهذا ضروري لزعيم الحزب السياسي، ولكلّ الموظفين ذوي المعنى السياسي. فلدى الموظف الإداري اعتبار الدولة بنظامها العامّ، واعتبار شرف الوظيفة، حتى لو كان منتمياً إلى حزبٍ سياسي، وإذا لم يتوافر هذا الانضباط، فإنّ النظام كلّه ينهار. فالمسؤولية العالية هي شرط لنجاح السياسي المحترف، والانضباط العالي هو شرطٌ لنجاح الإدارة العامة للدولة رغم تغير الأحزاب السياسية التي تشكّل الحكومة. وهذا «الاحتراس» والتمييز لدى فيبر، يعود إلى تحليله شخصية «الديماغوجي»، أو الزعيم السياسي الشعبي، والذي صار لازمةً من لوازم النظام الحزبي الحديث. لقد صارت «الخطابة» جزءاً من عدة النجاح لدى السياسي الديمقراطي الحديث. وما تنبّه الباحثون إلى ذلك، وإنما تنبهوا إلى ديماغوجية الصحافي الذي أسرف في استغلال الخبر، بل أسرف أحياناً في اختراعه واستغلاله. ولا يعني ذلك أنّ الصحافة ليست فناً محترماً له أصول، بل لأن ظهور الصحافة الشعبية

اقتضى استحداث أساليب دعائية وشائعات وأساليب للتأثير في الجمهور (لصالح زعيم أو حزب أو ضدهما) لا تتوافر لها معايير الحدّ الأدنى للموضوعية. ويلاحظ المحاضر أنه بسبب نفور الفئات المحترمة من الجمهور من صحافة الإثارة (رغم وجود صحافة رزينة ومحترمة)، فإنّ ذلك سدّ على الصحافيين طريق الوصول إلى العمل السياسي الكبير، في ما عدا نماذج قليلة بالحزب الاشتراكي الديمقراطي في أيامه. ويذهب فيبر إلى أنّ ذلك يعود إلى سببٍ آخر أيضاً غير سوء سُمعة الصحافة التي كانت حسنةً في القرن التاسع عشر. والسبب هو أنّ الصحافي مرتبطٌ بالأجر الذي يتقاضاه في مهنته أو بدلاً من المقالة التي يكتبها، ولذا فهو لا يستطيع التفرغ للمهنة الأخرى المضنية والمكلفة: مهنة العمل السياسي الدائم أو العيش من أجل السياسة، وليس منها. وهكذا فهناك متأهلان للعمل السياسي: المحامي والصحافي. ولم يوفَّق الصحافي كثيراً للأسباب التي ذكرها المحاضر، فماذا عن موظف الحزب السياسي أو العامل له، والذي صار ظاهرةً أيامه؟ يلاحظ فيبر أنّ الحزب السياسي الذي يريد العمل والترشح للانتخابات على المستوى الوطني العام، مضطر إلى البحث عن مناضلين أحرار يتطوعون ويناضلون للحزب، وهو يرشحهم للانتخابات، ويصبحون جزءاً من عُدّته السياسية والإدارية. وبهذه الطريقة يصبح أكثر هؤلاء (وبخاصةٍ إذا نجحوا وأثبتوا جدارةً وولاءً)، سياسيين محترفين. وهو يلفت الانتباه إلى أنّ هذه الظاهرة (التحول من طريق الإفادة من التجمهر أو التجمع السياسي) ليست خاصةً بالدول الأوروبية الديمقراطية، بل لاتزال موجودةً في الدولة الروسية التي صارت سوفياتيةً في أيامه، إذ هناك حزبيون «جُدد»، ورجال إدارة واقتصاد قُدامى، اجتذبهم السادةُ الجدد، بما في ذلك عاملون في الشرطة القيصرية السابقة، فاحترفوا بقبول التحول أو الاضطرار إليه، العملَ السياسيّ الاشتراكي.

على أن فيبر يُصرّ، كما في سائر أجزاء محاضرتيه، على أنّ الظواهر الجديدة، مثل ظاهرة الحزب السياسي ـ لا تقطع مع السابق، وإنما تُشكّل تحولاً ضمن الظاهرة، له تاريخ تطورٍ طويل. فالحزب السياسي الحديث، والذي يعتمد على الانتساب الحُرّ والالتزام الطوعي ظاهراً، إنما هو تطوّر عن حزبياتٍ سابقةٍ مثل معسكرات النبلاء والأرستقراطيين ببريطانيا. وكان النبيل الذي يملك ويتزعَّم طائفةً من النبلاء، إذا غيّر تحالفه السياسي، فإنّ سائر أتباعه يميلون معه إلى العصبية وإلى حفظ المصالح. وما كانت لتلك الأحزاب أو التجمعات من الأعيان مراكز خارج المدن، وما كان النشاط السياسي يظهر خارجها إلاّ في فترة الانتخابات. وكان العامل في الصحافة المكتوبة هو الأكثر ممارسةً للعمل السياسي الدائم بحكم ملكية الصحيفة لجهةٍ أو تحالفٍ معيّن. ثم احتاج التجمع هذا إلى تنظيم أكثر للتحشيد وإثارة الاهتمام بأعمال برلمانية، فنمت الفروع الحزبية خارج المدن، واتجه الأمر إلى إدارة للحزب أكثر انضباطاً ومسؤولية، وصارت الاشتراكات الشهرية أو الفصلية التي يدفعها الأعضاء أكثر أهميةً بسبب زيادة النفقات، وزيادة عدد الموظفين والمتفرغين في الحزب. وصار الخطباء بالبرلمان، كما صارت الصحف، هي التي ترسم الخطوط العامة لبرنامج أو برامج الحزب. وعندما صارت الانتخابات تأتي ليس بالنواب فقط؛ بل بالحكومة والوزراء، ازداد التسييس لاتساع الفئات التي تريد الإفادة من وصول الحزب إلى السلطة، وما يعنيه ذلك من منافع ومصالح في شتّى الوزارات والإدارات. ولا شكّ في أنّ «الاقتراع العام» أحدث حالةً ثوريةً، وأنهى التقاليد الشعرية والعاطفية لسيطرة الأعيان والبرلمانيين على الخصوص. فالشعب بمجموعه صار مُشاركاً، وما عادت الولاءات الجزئية مفيدةً إلاّ بشكلٍ محدودٍ، ومن خلال الحزب أو الأحزاب التي ازدادت انتشاراً ومركَزيةً وتماسكاً وانضباطاً. وقد صبّ

ذلك كُلُه في النهاية في الاحتراف السياسي، حيث صارت العملية السياسية كلها تُصنع وبشكلٍ دائمٍ في مطابخ محترفة ودائمة. وهذا معنى «المؤتمر السنوي» لكل حزبٍ، والذي يضع البرنامج الجديد أو المعدّل، ويثبّت أو يغيّر البنية القيادية للحزب في صراعاتٍ بين الطموحين والمناضلين والساعين إلى التقدم إلى الصفوف الأمامية. وهنا ومن هذا الجانب يظهر الدور الزعامي لقائد الحزب ورئيسه. فالذين ينجذبون لزعامته الملهمة، ويساعدون على النجاح الانتخابي والحكومي من ورائه وإلى جانبه، ينتظرون الحصول على فوائد ومكاسب ومغانم. لقد حلّ المناضل الحزبي محلّ الأعيان المحليين والبرلمانيين التقليديين. وتجلّى ذلك في الحزب الديمقراطي الأميركي، والحزب الاشتراكي الألماني. لكنّ فيبر ينبهنا إلى أن هذا التطور أسهم فيه أيضاً حزب المحافظين البريطاني (التوري (Tory)) من طريق اللجنة الانتخابية الأساسية في مختلف الدوائر، أو ما صار يعرف بنظام «الكوكس». وقد ظهر نجاحُ هذه الاستفتائية الشعبية في انتخابات العام 1877 هناك، والتي أحلّت غلادستون محلّ دزرائيلي بسبب غوغائيته وسمعته الأخلاقية الطنّانة. لقد صار الناخبون والمناضلون آلةً متراصّة في يد زعيم الحزب، فتقدمت الآلة الحزبية (= الماكينة) في الاعتبار على كلّ ما عداها. ولأنّ زعيم الحزب سوف يصبح رئيساً للوزراء، أو رئيساً للدولة (كما في الولايات المتحدة)، وسوف يمارس سلطاته، في انفصالٍ شبه كامل عن البرلمانات، فإنّ آلته الحزبية سوف تحصل سريعاً على المناصب والأسلاب، وهو النظام الذي ساد منذ أندرو جاكسون في الولايات المتحدة، ومنذ غلادستون في بريطانيا. وعلى عادة فيبر في التفريع والتشقيق، يعود فيقسم الزعماء السياسيين إلى قسمين، أو بالأحرى إنه يقسم الوظائف الحزبية العليا إلى صنفين: الزعيم الديماغوجي أو الملهم الذي تتلبَّسُهُ المهمّة ويتلبّسها، ورئيس الآلة (المعلّم Der)

(Boss) أو الإدارة الحزبية، الذي يهتمّ بالعمل الحزبي التفصيلي، وبالمصالح القريبة والبعيدة للحزب. ولذا فقد يصل من طريقه إلى النيابة أو الوزارة باسم الحزب أكفاء وأهل خبرةٍ وثقةٍ ليس من الضروري أن يكونوا من قُدامى الحزبيين، بيد أن الشرط الضروري يبقى الولاء المتحقق أو المنتظر للحزب وزعيمه، ذي الوجهين أو ذي الوجه الواحد. فالبنية الحزبية الحديثة هي بنية رأسمالية شديدة الانضباط والتمركّز، وتُدار بطرائق الشركات دونما فلسفةٍ خاصة، وفي انفصالٍ شبه تامّ عن برامج الحزب المعلنة، وأعماله الهادفة إلى الفوز في الانتخابات، أو أنّ هذا هو رأي فيبر في التطورين الأميركي والأوروبي.

لا يتعرض ماكس فيبر للأوضاع في ألمانيا مباشرةً بين عامي 1917 و1919 إلاّ في الجزء الأخير من محاضرته. وهو يقول إنّ الوضع كان حتى العام 1917 يتميز بثلاثة أمور: **عجز البرلمان**، بما لا يؤهّلهَ لإنتاج زعماء سياسيين، **والأهمية** شبه المطلقة للموظف المتخصّص والمحترف، وهذا النمط لا يوفّر فرصةً لظهور السياسيين المحترفين، **ووجود أحزاب** سياسية تمتلك فلسفة سياسية، و«رؤيةً للعالم»، بخلاف البلدان الأوروبية والولايات المتحدة، لكنّ هذه الأحزاب مثل حزب الوسط (الذي كان يميل إليه فيبر)، والحزب الاشتراكي، بقيت أحزاب أقلية، وليست مؤهّلة لتُصبح أحزاب أكثرية جماهيرية. إنها بالأحرى أحزاب نُخَب عقائدية أو ليبرالية. أمّا الحالة الجديدة (التي يشكّ فيبر في ثوريتها)، فما أنتجت غير فقّاعات صابون سرعان ما تفجرت، وأساسها الأوساط الراديكالية لطلاب الجامعات. وفيبر متشائم بشأن المستقبل القريب، لأنّ الألمان إمّا أن يسيروا في المسار البريطاني والأميركي (الآلة الحزبية الصارمة) فيظهر المحترفون من دون دعوةٍ أو رسالة، أو يبقوا على الطابع التقني

المتخصص، فيبقى السياسيون التقليديون وأشباههم وإن ظهروا بمظهرٍ عصري. كانت ألمانيا في العام 1919 على وشك التحول إلى دولةٍ فدرالية، تنكمش في مجالسها المحلية ـ كما صار عليه الحال في جمهورية فايمار ـ على نفسها، وتصارع مشاكل ما بعد الحرب. ولذا لم يرَ فيبر أملاً في الإحياء والنهوض باتجاه الجمهورية الديمقراطية ذات الأحزاب الكبيرة والزعامية، فاتّجه إلى الأمل برئيس الرايخ، على أن يُنتخب انتخاباً مباشراً من الشعب، وليس من طريق البرلمان. كان فيبر متعطشاً لظهور الزعماء الشعبيين الكبار الذين تنتجهم انتخاباتٌ حرةٌ وسلميةٌ في ظلّ التعددية الحزبية الطليقة. لقد كانت وحدة ألمانيا المهددة أمراً أساسياً بالنسبة إليه، وما كان يرى سبيلاً لاستمرارها واستقرارها إلاّ من طريق عمل الجمهور الألماني بمجموعه، هذا الجمهور الذي يحركه زعماء سياسيون كاريزماتيون يمتلكون الحرفة والدعوة. ولا نعلم الآن، وبعد التطورات العاصفة والهائلة بألمانيا والعالم بعد عقدٍ ونصف على وفاة ماكس فيبر، لماذا كانت تُقلقه إلى هذا الحدّ روتينيات الديمقراطية التي يسودها المحترفون، المملّون وكثيرو الحسابات، وذوو الخطوات الصغيرة والمتوقّعة، ولا تُقلقه الكاريزماتيات الفاشية والشيوعية، والتي كانت قد ظهرت على حدود ألمانيا في إيطاليا وروسيا، بل وظهرت بداخلها؟ لقد أخذ على زميله الراحل ج. سيمل (G. Simmel) اعتباره لخطاب العقائديين الماركسيين الألمان: إثارة عقيمة، ليس لأنه كان يميل إليهم، فنحن نعرف أنهم ما كانوا يحظون بأيّ احترام لديه، إنما رغم ذلك كان يرى في حماسهم المنقطع النظير شبهاً بالدعوة (Berufung) التي يراها ضروريةً لرجل الدولة الحديث. وهكذا فقد كان يحدوه همّان: **الخلاص** من التقليدية الألمانية الفاضلة لكن المنقضية، **ودفْع الشباب** الألمان الليبراليين واليساريين للحفاظ على وحدة الشعب الألماني ودولته الواحدة، ومن طريق **الدعوة** التي ينبغي

حشْد الناس بواسطتها، بحيث يشاركون بمجموعهم في بنائها من جديد، بعد أن تحققت في المرة الأولى (1870) من طريق البروسيين ونبلاء فرسانهم وتقاليدهم التي ما عاد فيبر يرى أي أمل فيها. وهكذا فإنّ فيبر في المسألة الوطنية كان وظلّ مزيجاً من **كَنْت وفيخته**، أي المراوحة بين أخلاقيات الواجب والوعي الوطني أو القومي.

وكما سبق القول، فإنّ ماكس فيبر الذي ما تحدث في محاضرته عن «الموقف الراهن» بألمانيا إلاّ في ربعها الأخير، سارع في ختامها، بين التشاؤم والنصائح، إلى معالجة موضوع «السياسة والأخلاق» بأسلوبٍ عاطفي، ما فارقته خلاله نزعته العالمة، وإنما فارقته برودته وتاريخيته الشاسعة الآفاق. قال الرجل إنّ هناك ثلاث سمات محددةٍ تُسهم في صنع رجل السياسة والدولة، وهي: التوق والحماس لتحقيق أمرٍ معين، والشعور بالمسؤولية، والنظرة الثاقبة التي تُظهر له، بناءً على تشخيصه للموقف، ما يمكن وما لا يمكن عمله. وقد أضاف إلى سمة النظرة الثاقبة، وإلى الشعور بالمسؤولية فضيلةً أخرى وهي المسافة المعيّنة من الرجال والأشياء، ويعني ذلك من وجهٍ آخر: التجرد والنزاهة. وإذا كان التَوقُ أو الإحساس الدعوي والرسالي هو الشرط لكلّ ما عداه عند فيبر، فإنّ الأمرين الآخرين أفْضيا به إلى التمحور في صفحات محاضرته الأخيرة على التمييز بين أخلاق الاعتقاد (الذاتي والعامّ) وأخلاق المسؤولية. ومن بين «رذائل» أخلاق الاعتقاد ذكر الغرور، وشهوة السلطة والغطرسة، وعدم الاهتمام بنتائج التصرفات، والاعتماد على القوة والسطوة، والتبرير ذا الطابع الأخلاقي لسلوكاتٍ بائسة أو غير منطقية. وهو يذكر هذه الرذائل أو النقائص ليس لأنه يحب الوعظ الأخلاقي، بل لأنه شهدها وشاهدها وخَبَرَها في سلوك إدارة الدولة، وسلوك السياسيين في السنوات الأخيرة، وبخاصةٍ بين العامين 1917 و1919 عندما ازدهرت

ظاهرة التهرّب من مسؤولية الهزيمة، بل ومن مسؤولية الحرب. وهو يدين، استناداً إلى التفرقة السابقة (بين أخلاق الاعتقاد وأخلاق المسؤولية)، اللجوء إلى الراديكاليات ذات المظهر الديني (مثل الأخلاق المسيحية) أو ذات المظهر الماركسي (إطالة أمد الحرب من أجل إنضاج الظروف للثورة البروليتارية). فموعظة الجبل وأخلاقها الإطلاقية السلمية، أشرف بكثيرٍ من دعاوى وتبريرات أولئك الذين يستظلون بظلها مؤخّراً، والمادية التاريخية تصبح رثةً ومبتذلةً عندما تُستخدم لتبرير العجز عن الإحساس بآلام الناس، بل إنّ تبرير سياسات العنف والقوة بالغاية أو الغايات النبيلة، هي بالضبط التي تحكم بالفشل على أخلاقيات الاقتناع. وبسبب استعلاء هذه الظواهر التي يدمغها فيبر بالفساد الأخلاقي والسياسي والإنساني، يقول متشائماً إنه لو قُدِّر للمحاضر والمستمعين الالتقاء بعد عشر سنواتٍ، فربما يجدون أن «الرجعية» المزدولة قد عادت، لسأم الناس ويأسهمْ من الجمهوريين الجُدد. إنّ السياسة ـ يقول فيبر ـ هي مثل جهد مُثابرٍ ونشطٍ في ثقْبِ ألواحٍ من الخشب القاسي. فهذا العمل يتطلب الشَغَفَ والنظرةَ الثاقبةَ. والتنطح للمستحيل ليس جنوناً، إنما الرجل القادر على بذل هذا الجهد ينبغي أن يكون زعيماً، بل بطلاً. والذين ليسوا كذلك يكون عليهم التسلُّح بقوة النفس والعزيمة. إنّ السياسي الحق هو الذي يبقى قادراً بعد كلّ شيءٍ وجهدٍ ونتائج على القول: «ومع ذلك أو رغم ذلك» (أي سأظلُّ أحاول). وكلمة فيبر الأخيرة: هذا (السياسي) وحده هو الذي يمتلك «دعوة» السياسة!

4 ـ ملاحظاتٌ ختامية: ترتبط محاضرتا فيبر في العلم والسياسة وسياساتهما ومؤسساتهما ورجالاتهما، بأكثر من كونهما صادرتين عن مفكرٍ واحد، فهما وثيقتا الاتصال لصدورهما عن مفاهيم وتشخيصات واحدة أو متقاربة، ثم إنّ فيبر يستخدم في كليهما العُدّة المنهجية

والمعلوماتية والتاريخية والتنميطية التي استخدمها في أعماله السابقة كلّها تقريباً منذ مقالاته التي جمعها في «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»، وسوسيولوجيا الدين وسوسيولوجيا السياسة، والموضوعية في العلوم الاجتماعية. ففي كلّ هذه الأعمال، كما في المحاضرتين، يظلّ العنوان أو المظلّة الفاهمة: العقلانية أو التعقيل للظواهر والأشياء، وزوال سِحْر العالَم. وهو يترجَّح في هذا الصدد ويتردد بين عقلانية كَنْت وتعقيله من «الدين في حدود العقل وحده»، و«صراع الكليات الجامعية»، وإلى رفضية نيتشه المطلقة في قوله بموت الإله. ثم يعود فيستقرّ عند العقلانية التفكرية (Intellektuelle Rationalismus!)، وفيهما كما في الأعمال الأخرى يظهر **النموذج المثالي**، أو الـ Idealtypus، ثم التداخلات والقطائع ووجوه التواصل على أرض الواقع، والتي تجعل تلك النماذج أموراً نسبيةً تظلّ صالحةً لفهم الظاهرة، دون أن تنفرد بالحكم عليها. وفي المحاضرتين أيضاً، كما في سائر الأعمال، تظهر مقولة «أخلاق العمل» التي بنى عليها أطروحته الشهيرة بشأن تأثير البروتستانتية الكالفينية في نشوء الرأسمالية، وعن تلك المقولة شاعت في أعماله كما في محاضرتيه مسألة الدعوة أو الرسالة، والتي يحاول تعقيلها أو عَلْمنتها لدى **العالِم** ولدى **السياسي** ولدى رجل الإدارة ولدى المواطن الأوروبي سواء كان بروتستانتياً أو كاثوليكياً! وبشكلها القديم/ الجديد لديه تبدو لدى **العالِم** بوصفها تجرداً ونزاهةً على الإطلاق، ولدى **السياسي** باعتبارها أخلاق المسؤولية، وفي المسألة **الوطنية والقومية** باعتبارها أمراً مماثلاً لأخلاق الواجب لدى **كَنْت**، ووعي الجمهور لدى **فيخته**.

وإذا وصلنا إلى بنية المحاضرتين بالذات، نجدُهُ معجباً بالنموذج التقليدي والإنسانوي لأستاذ الجامعة الألماني. لكنه يلاحظ أنّ النظام الجامعيّ بالبلاد ما عاد ملائماً لإنتاج علماء كبار، ولا لخدمة قضية

التقدم الوطني. ولذا فهو يتطلع إلى تلقيح هذا النظام أو إصلاحه بالالتفات إلى النموذج الأميركي في هذا الصدد، والذي أثبت نجاحاً ما عاد يمكن إنكاره. لكنّ مسألة الدعوة والرسالية تظلّ مقلقة له، ولا يجد لها ملاذاً في الأزمنة المُعاصرة، فيصرّ على التجرد المطلق من جانب الأستاذ، وإن لم يُفصِّل في كيفية تحقيق ذلك، رغم التطورات المزعجة، والضرورات المعيقة التي أطال في تعدادها.

أمّا محاضرته في حرفة السياسة ودعوة السياسي، فعصبها عنده الحزب السياسي، والذي صار المَعْلَم الرئيسي في الغرب الحديث. وهو يتابع بمعارفه الفائقة التجربة الحزبية في أوروبا (خصوصاً بريطانيا)، وفي الولايات المتحدة. ويُقلقه الروتين الحزبي والآلة الحزبية في سائر الأنحاء، لكنه يرفض رفضاً قاطعاً التقليدية البيروقراطية الألمانية. ويقلقه أكثر عدم ظهور الزعيم الكاريزمي في الأحزاب بأوروبا والولايات المتحدة. فالاحتراف الذي استشرى خارج ألمانيا يخلو من إمكانيات ظهور الزعيم المجدّد والمسؤول أخلاقياً وسياسياً. أمّا في ألمانيا فالاحتراف السياسي متأخر، وبيروقراطية الدولة تقطع الأنفاس. وهو يشعر بالأمل نتيجة سقوط القيصر، وتغيّر النظام، وهذان الأمران من «فوائد» الحرب والهزيمة، إن كانت للحرب فائدة بالفعل! لكنه من جهةٍ أخرى لا يرى «حالةً ثورية» يمكن أن تُنتج نموذجه للحزب الجمهوري الكبير، ذي الزعامة الكاريزماتية، والذي يتمتع في الوقت نفسِه بأخلاق التواضع والنزاهة والمسؤولية. وكما سبق القول، فالطريف أنّ فيبر ما رأى خطراً قادماً في صورة دولةٍ توتاليتارية، يقودها زعيمٌ كاريزميٌّ مُلْهم، بل خشي أن يعود الألمان بعد عشر سنواتٍ ليروا أنّ «الرجعية» قد عادت، وبذلك فقد تجاهل إمكان قيام دولةٍ شموليةٍ على القوة والغَلَبة والحرب بذريعة الانتقام للهزيمة، وحشْد الجمهور من وراء القائد

التاريخي! والأحرى أنّ هذا الضيق الذي يبدو في كلامه من التقليديين والثوريين على حدٍ سواء، ما كان سببُه القصور في فهم الواقع المُعاصر له بألمانيا والعالَم، بقَدر ما كان سببه خضوعه منقطع النظير لنموذج الدعوة والداعية ومن أنبياء إسرائيل، وإلى مارتن لوثر وكالفن، وأبراهام لنكولن وغلادستون!

رضوان السيد

مراجع مختارة

Bauer, Leonhard and Herbert Matis. *Geburt der Neuzeit: Vom Feudalsystem zur Marktgesellschaft.* München: Deutscher Taschenbuch Verlag, 1988.

Frey, Christofer. *Die Ethik des Protestantismus von der Reformation bis zur Gegenwart.* Gütersloh: Gütersloher Verlagshaus G. Mohn, 1989.

Käsler, Dirk. *Einführung in das Studium Max Webers.* München: Beck, 1979.

Löwith, Karl. *Max Weber and Karl Marx.* With a new Preface by Bryan Turner. London: Routledge, 1993.

Mommsen, Wolfgang J. *Max Weber: Gesellschaft, Politik und Geschichte.* Frankfurt am Main: Suhrkamp, 1974.

————. *Max Weber und die deutsche Politik 1890 -1920.* Tübingen: Mohr, 1974.

Revault d'Allonnes, Myriam. *Le pouvoir des commencements: Essai sur l'autorité.* Paris: Seuil, 2006.

Schluchter, Wolfgang. *Rationalismus der Weltbeherrschung: Studien zu Max Weber.* Frankfurt am Main: Suhrkamp, 1980.

Schoeck, Helmut. *Geschichte der Soziologie.* Freiburg im Breisgau: Herder Verlag, 1974.

Weber, Max. *Die Protestantische Ethik II Kritiken und Antikritiken*, Hrsg. J. Winckelmann. Gütersloh: Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn, Siebenstern Taschenbuch, 1978.

ريكور، بول. **محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا**، تحرير جورج هـ. تيلور؛ ترجمة فلاح رحيم. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2002.

تمهيد

يضم هذا المجلد نص المحاضرتين، «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة»، اللتين ألقاهما ماكس فيبر في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 وفي 28 كانون الثاني/ يناير 1919، في إطار سلسلة المحاضرات التي عقدت في ميونيخ بعنوان «العمل العقلي بوصفه حرفة». وهي تطبع لأول مرة طبعة تاريخية نقدية. يضاف إليهما مخطوط رؤوس موضوعات استند إليها فيبر في محاضرته الثانية(*)، هذا إلى جانب التقرير الصحافي حول محاضرته الأولى، والعائد إلى العام 1917، والذي تضمن معلومات إضافية حول التشكل الأولي لنص فيبر. ولهذا السبب حمل هذا الجزء من المؤلفات الكاملة العنوان التالي:

«Wissenschaft als Beruf»
1917/ 1919
«Politik als Beruf»
1919

أرادت عصبة الطلاب الأحرار، جمعية إقليم بافاريا، وهي

[إن الهوامش المشار إليها بـ (*) هي من وضع المترجم، أما الهوامش المرقمة تسلسلياً فهي من أصل الكتاب].

(*) في هذه الترجمة إلى العربية قمنا بإعطاء صورة عن ذلك، دون ترجمة التفاصيل، علماً أن المقدمة التي ستلي، وكذلك التقرير عن هذه النشرة قد وسعا القول عن هذا المخطوط.

الجهة التي نظمت هذه السلسلة من المحاضرات أن تنشر جميع المحاضرات، ومنها محاضرات لخطباء آخرين، في جزء واحد. لكن بدل ذلك أصدر الناشر دنكر وهمبلوت (Duncker & Humblot) كلتا المحاضرتين بكتيبات مستقلة. ولهذا الغرض قام فيبر بمعاودة العمل عليهما وبتوسيعهما بشكل واضح كما يتبين من التقريرين اللذين نجدهما في مستهل كل نص من نصوصه. لاحقاً قامت ماريان فيبر بنشر النص الأول «العلم بوصفه حرفة» ضمن السلسلة التي أشرفت على إصدارها بعنوان «Gesammelte Aufsätze zur Wissenschaftslehre» كما ألحقت المحاضرة الثانية «السياسة بوصفها حرفة» بجملة كتاباته السياسية «Gesammelte politische Schriften».

أما هنا وتحقيقاً لرغبة الجهة المنظمة فتنشر المحاضرتان معاً في كتاب واحد. وفي المقدمة سنجد بحثاً في موقع هاتين المحاضرتين من مجمل أعمال ماكس فيبر. وتحاول التقارير بخصوص هذه الطبعة حول تكوّن النص وحول السياق التاريخي لكل منهما، والتفسير الموضوعي لهما، جميع هذه المعلومات تحاول أن توضح التلميحات إلى السياقات التاريخية التي لابد منها الآن، كما توضح الاستشهادات التي عاد إليها فيبر، وتسهم كذلك في إبراز ما لابد منه من معلومات تتناول خلفية محاضرتيه.

كانت الطريق إلى إنجاز هذه الطبعة أكثر صعوبة مما انتظرنا. فقد تبين أن إعادة التكوين التاريخية لنشأة هذه النصوص، ونظراً إلى غياب المصادر الواضحة، ليست بالأمر السهل، والمخطوط الذي نعيد نشره هنا، «بالصورة وبالنص» وما يستوجب ذلك من تصويبات أثار بالنسبة إلى الناشرين مسائل إضافية كبيرة. والأمر نفسه يقال على التحديدات التاريخية بشأن محاضرته «السياسة بوصفها حرفة»، علماً أنه قد تم الاستناد هنا، وإن جزئياً إلى المعطيات التي وردت في الجزء MWG I/16 من المؤلفات الكاملة، والذي حمل عنوان: **حول**

ولأن ماكس فيبر قد استند في محاضرتيه إلى إشارات متشابهة، فإن مسألة الشرح تصبح مسألة لا تخلو من الصعوبة. إذ إن إشاراته صريحة جداً، إلا أنها تنطوي على ترابطات خفية. غالباً ما يشير فيبر إلى أعماله الخاصة، وإلى أن أفق ثقافة ليس هو أفق ثقافتنا اليوم. كما إن لإشاراته علاقات بمعطيات وأقوال ذات طابع تاريخي ترتبط بأزمنة يصعب علينا اليوم تحديدها بوضوح. مع ذلك فنحن نأمل أنه قد تيسر لنا بما يكفي إيضاح هذه الأمور للقارئ النقدي، وكذلك أيضاً إيضاح الخلفية التاريخية والذهنية لهذه النصوص وعلى مدى مراحل تكونها.

المقدمة كتبها ولفغانغ شلوشتر (Wolfgang Schluchter)، أما التقارير بخصوص هذه الطبعة فكانت في الجزء الأكبر منها من نصيب ولفغانغ مومسن (Wolfgang J. Mommsen) بالتعاون مع برجيت مورغنبرود (Birgitt Morgenbrod)، استناداً إلى أعمال سابقة ساهم فيها فرانز بونفيغ (Franz Bonfig)، فعادت هنا أيضاً إلى مصادر يمكن أن تقدم موضوعات أو معلومات تاريخية توضح نشأة النص. إلى ذلك أبدت اهتمامها بشكل وافٍ بإيضاح ما ورد في التقارير الخاصة بهذه الطبعة، كما تولت التعريف بالأسماء العلم وبالمسارد الواردة في هذا الجزء.

ديسلدورف وهايدلبرغ آب/ أغسطس 1991
ولفغانغ مومسن
ولفغانغ شلوشتر

مختصرات

Ab. Bl.	Abendblatt/ Abendausgabe	جريدة مسائية/ الطبعة المسائية
Abt.	Abteilung	قسم
AfSS.	Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik	أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية
a. m.	am Main	على نهر الماين
Auffl	Auflage	طبعة
Ausg.	Ausgabe	طبعة (إصدار)
BA.	Bundesarchiv	أرشيف اتحادي
bes.	besonders	ولاسيّما (بخاصّة)
Bl.	Blatt	ورقة (صفحة من مخطوط)
BSB.	Bayerische Staatsbibliothek	مكتبة ـ منطقة بافاريا
ders.	derseble	المرجع (أو المصدر) نفسه
f. ff.		الصفحة التالية (الصفحات التالية)
GPS.	Gesammelte Politsche Schriften	مجموعة الكتابات السياسية

Hg. hg.	Herausgeber, herausgegeben	الناشر (نشر بعناية . .)
Jg.	Jahrgang	سنة (الإصدار)
Jh.	Jahrhundert	قرن (من الزمان)
Kap.	Kapitel	فصل
neubear.	neubearbeitet	تنقيح
Mo. Bl.	Morgenblatt	الإصدار الصباحي (من جريدة)
MWG.	Max Weber-Gesamtausgabe	ماكس فيبر - الأعمال الكاملة
NL.	Nachlaβ	تركة
S.	Seite	صفحة
u.	und	و
undat.	undatiert	من دون تاريخ
v.	von	من
vgl.	vergleiche	قابل
vol., vols.	volume (volumes)	مجلد (مجلدات)
WuG.	Wirtschaft und Gesellschaft	الاقتصاد والمجتمع

مقدمة

1 ـ ميزات محاضرتَي: «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة»

تعتبر محاضرتا ماكس فيبر «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة» نصوصاً مفتاحية تتضمن إجابته عن المسائل المركزية ذات العلاقة بالحضارة الحديثة. رأى بعضهم في المحاضرتين حجارة بناء صالحة لمذهب لاتزال مؤشراته تنضح حتى اليوم. وبالفعل فإنه يجيب هنا مباشرة، أكثر من أي مكان آخر، وبطريقة أساسية عن الموقف السياسي في عصره، وعن الأسئلة ذات المعنى التي ترتبط بذلك كله. إن هذا ما يجعل المحاضرتين مترابطتين داخلياً. ويضاف إلى الترابط الداخلي ترابط آخر خارجي. كانت ثمة مناسبة واحدة ودائرة مُهتَمّين واحدة الحافز لإلقائهما. وهذا هو السبب الذي حدا بنا أن ننشرهما معاً خلافاً لما كانت عليه اهتمامات كل من ماريان فيبر (Marianne Weber) ويوهانس فنكلمان (Johannes Winckelmann) بنشر محاضرة «العلم بوصفه حرفة» ضمن مجموعة الكتابات حول العلم، ومحاضرة «السياسة بوصفها حرفة» ضمن مجموعة الكتابات حول السياسة.

تتميز المحاضرتان من معالجات فيبر العلمية ومن محاضراته الأكاديمية، وتتميزان كذلك بالطبع من مقالاته السياسية ومن خطبه الانتخابية، إذ إنهما محاضرتان تبتغيان هدفاً آخر. إنهما نصوص «فلسفية» على المرء أن يصل معهما إلى معرفة الوقائع والتقدير الذاتي، وأن يعرف في الوقت نفسه أنهما عملان يخدمان قضية تتجاوز شخصية واضِعهما. ويتوقف على الاستعداد لعمل قنوع كهذا، يقوم على جهد العطاء وعلى الحفاظ على المسافة، بالنسبة إلى فيبر، مستقبل الأمة الألمانية ومستقبل الحضارة الحديثة أيضاً. لقد صب فيبر اهتمامه على الأمرين معاً. يرتبط الاهتمام بوضع الأمة، عنده، بالاهتمام بوضع الحضارة الحديثة[1]. لقد كان تفكير فيبر قومياً[2]. ومع ذلك، فقد وقف ضد الذين يعارضون أن يكون «العقل الألماني عقلاً خاصاً ناضجاً بحد ذاته وأرفع» من الفردية التنويرية والديمقراطية

---

(1) قابل كارل ياسبرز (Karl Jaspers)، في: Karl Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*, 2. Aufl. (München: Piper, 1958),
هنا نقلاً عن ياسبرز مجموع كتابات فيبر: Max Weber, *Gesammelte Schriften* (München: Piper, 1988), S. 81,
(من الآن وصاعداً: Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*).

(2) وسم ياسبرز فيبر عام 1958 بـ «آخر الألمان الوطنيين». المصدر نفسه، ص 50. والوطني لا يعني أنه قومي ولا أنه شوفيني. وقد كان فيبر على اطلاع شديد على هذا الفرق. والوطني لا يعني موالاة الدولة. فالأمة تعني عند فيبر تقديم القيمة «الداخلية»، والدولة تعني تقديم القيمة «الخارجية». وبالطبع لابدّ من ربط الجانب الخارجي مع الجانب الداخلي في الأمة والدولة، على أن تكون إحداهما تمثيلاً «للروح» والأخرى تمثيلاً «للشكل». وحول المظاهر الإشكالية في فكر فيبر السياسي يمكن العودة هنا إلى عمل مومسن التأسيسي: Mommsen Wolfgang J., *Max Weber und die deutsche Politik: 1890-1920*, 2. Aufl. (Tübingen: J.C.B. Mohr (Paul Siebeck), 1974),
(من الآن وصاعداً: Mommsen, *Max Weber und die deutsche Politik: 1890-1920*). بالنسبة إلى ياسبرز، كان فيبر «أكبر الألمان في عصرنا»، انظر: Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*, S. 50,

كما تُطرح في غرب أوروبا، وفي أميركا[3]. وكان تفكير فيبر كوزموبوليتياً أيضاً. ومع ذلك فقد وقف ضد أصحاب الضمير الأخلاقي الداعين إلى التهدئة الذين ينكرون وجود الدولة القومية الألمانية، مع ما يرتبط بوجودها من «مسؤولية أمام التاريخ»[4]. حتى حين كانت الدولة الألمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى في الحضيض[5]، وذلك بسبب سياستها القائمة على البهرجة والانفعال، والسياسة التي لم تلقَ تأييد المحافظين ـ الإقطاعيين وحسب، بل من جانب الأوساط البورجوازية أيضاً، فقد كان فيبر يأمل بالتحول، استناداً إلى تعبير ترايتشكي (Treitschke)، الذي ستنجزه الشبيبة من (الجيل) الثالث[6]. فإذا ما أريد الاستفادة من الفرصة المتاحة أمام الشبيبة (من الجيل) الثالث، فلابدّ إذاً من الأخذ مجدداً بالسلوك

---

(3) على سبيل المثال ماكس مورنبراشر (Max Maurenbrecher) الذي يرى في الحرب نقطة انطلاق الثقافة الألمانية، انظر: Max Maurenbrecher, «Der Krieg als Ausgangspunkt einer deutschen Kultur,» in: *Die Tat. Monatsschrift für die Zukunft deutscher Kultur*, 9. Jg. (1917), S. 104.

هذا وقد تعامل فيبر بشكل تقديري مع أفكار مورنبراشر، ولاسيّما في المؤتمرين اللذين عقدا حول الثقافة عام 1917 في لونشتاين (Lauenstein)، انظر: (MWG I/15, S. 701-707).

(4) انظر: (MWG I/15, S. 95 ff.)، على الألمان دون قيد أو شرط وبطريقة سلمية الاهتمام بخصوصيتهم وسط دائرة عصبة الشعوب، وأما هل يمكن أن يكونوا بهذا المعنى أصحاب توجه قومي مسالم، فذلك لا يتعلق بالألمان وحدهم أياً تكن رغبتهم حتى لو حبّذوا ذلك، انظر: (MWG I/16, S. 109).

(5) حول خطر هذه السياسة، ولاسيما السعي إلى انتصار سلمي مع ما يرتبط به من رغبات في ضم (مناطق أخرى). انظر فيبر: «Deutschland unter den europäischen Weltmächten» Ende 1916 (MWG I/15, S. 153-194, bes. S. 164-169).

(6) انظر عن ذلك خطاب فيبر حول إعادة بناء ألمانيا في 2 كانون الثاني/ يناير 1919 في هايدلبرغ أمام جمهور غالبيته من الطلاب، وما لحقه من تقارير عديدة أوردتها الصحف، (MWG I/16, S. 415-428, bes. S. 419-420).

السياسي وبخط التطور اللذين بدءاً مع أحداث العامين 1806/ 1807 والأعوام 1848/ 1849 ومتابعتهما. يفترض ذلك سياسياً أن تقف البورجوازية على رجليها أخيراً، وأن تتولى أمر قواها إلى جانب أمر قوى الطبقة العاملة السياسة الفعلية[7]: وبالتالي، على الشبيبة الأكاديمية أن تسهم بفعالية في هذا التحالف التاريخي. ولذلك عليها أن تتخلص من عدة أوهام: من وهم الزعم بإمكانية إحلال الخبرة مكان المعرفة العقلانية المحدودة علمياً، وكذلك من الوهم الذي يقول إن سياسة نزيهة لا تتنكر لحقائق ألمانيا ولا تتنكر للحياة السيدة، لهي سياسة أكثر أصالة من سياسة عقلانية، سياسة تقوم على تحمل مسؤولية السلطة. وتشكل المحاضرتان خطابين أُلقيا أمام الشبيبة الألمانية الأكاديمية والديمقراطية[8]. لقد كانتا، بل هما خطابان حول تقرير المصير الفردي والسياسي في ظل شروط الحضارة الحديثة.

وحتى يصار إلى استرجاع الموقف السياسي والذهني، **الموقف العالمي**[9] بشكل خاص، إلى ذهن السامع، ومن ثم إلى ذهن القارئ، فلا يكفي إذاً تشخيص القدر القومي وحسب. لابدّ إذاً من رؤيةٍ تتطرق إلى المنظور التاريخي العالمي. وقد اشتغل فيبر على

(7) انظر صياغته حول شكل الدولة المستقبلي: (MWG I/16, S. 106-107)، حيث يشير إلى مسألة يثيرها أكثر حسماً ودقة من مجرد إيجاد حل تقني لمسألة الدولة: «إذا ما كانت البورجوازية بجمهورها الأوسع تشكل ذهنية سياسية جديدة واعية ومستعدة لتحمل المسؤولية. فحتى الآن تسود، ومنذ عقود، ذهنية «**العلمنة**» إيجاد مأمن من حماية سلطوية، الانهمام القلق تجاه ما يفرضه التجدد من جرأة. باختصار: (ذهنية) **الإرادة الجبانة للإحساس بالعجز**». وبشكل مشابه، سبق لفيبر قبل انعطافة القرن، أن عبر عن رأيه المعارض للبورجوازية المتخمة، ولاسيّما في محاضرته «التدشينية» في فرايبورغ.

(8) انظر في هذا الإطار نداء الحزب الديمقراطي الألماني إلى الشبيبة الديمقراطية في 30/ 1/ 1919، والذي وقعه ماكس فيبر أيضاً، النص في: (MWG I/16, S. 514-517).

(9) Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*, S. 81.

الحضارة من حيث التطور التاريخي والعلم المقارن، بحيث شملت نظرته طبيعة كل الدوائر الثقافية الكبرى من دون أحكام مسبقة لما تنطوي عليها من قيم. ومن هذه الخلفية تبرز ماهية الأوساط الثقافية الغربية وما يرتبط بها من مسائل حياتية، ومنها ما يتعلق أيضاً بالمسائل الحياتية في ألمانيا بوضوح، ما يعني كذلك أن المحاضرات لا تتبع مقصداً عملياً وحسب، بل إنها تستعيد كذلك جملة من المعارف التي تتعلق بأهم ما يورد من معارف تتعلق بالبحوث حول الثقافات، وإضافة إليها أهم ما يبديه من قناعات سياسية[10].

السؤال الذي يطرح أولاً: كيف تم التوصل إلى إلقاء هاتين المحاضرتين؟ رغم أنهما تنتميان إلى أصل واحد، إلا أنهما لا تشكلان وحدة واحدة إطلاقاً، إذ إنهما لا تعالجان موضوعات مختلفة وحسب، بل لا ترقيان إلى الزمن نفسه، حتى وإن كانتا قد أصبحتا معدتين للطباعة في زمن واحد. فقد ألقيت المحاضرتان ضمن فاصل زمني يمتد لأكثر من عام. ألقيت المحاضرة الأولى «العلم بوصفه حرفة» في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، بينما أُلقيت الثانية «السياسة بوصفها حرفة» في 28 كانون الثاني/ يناير 1919[11]. وبين هذين التاريخين، وقعت هزيمة الدولة الألمانية العسكرية، وحصلت ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر. وبين هذين التاريخين عاد فيبر أيضاً إلى مخطوطاته حول الأنظمة والسلطات الاقتصادية والاجتماعية التي كان قد أهملها مع بداية الحرب[12]، وإلى العمل على تصحيح

(10) لا يعني هذا التأكيد بالطبع أنه قد ضمن أفكاره خبرات يومية، ولاسيما في محاضرته «السياسة بوصفها حرفة»، قابل مقدمة مومسن للجزء: (MWG I/16, S. 17 f.).

(11) حول التحديد الزمني للمحاضرات انظر لاحقاً، الفقرة الخامسة من هذه المقدمة.

(12) مع أننا لا نعلم التوقيت الزمني الدقيق الذي عاود فيه فيبر العمل على هذا المخطوط الذي سبق أن تركه، فإنه باستطاعتنا بالعودة إلى جزء من المحاضرة التي ألقاها في فيينا، الفصل الصيفي من عام 1918، القول إنه قد استعاد أجزاء من مساهمته في: =

الدراسات المقارنة حول التقنيات الاقتصادية في الحضارات الدينية وإنهائها، والتي تتابع إصدارها في أثناء ذلك وصولاً إلى اليهودية في العصور القديمة. وبين هذين التاريخين عاود أيضاً وأخيراً، مزاولة عمله الصحافي عن السياسة الخارجية، ولكن بوتيرة أقوى عن السياسة الداخلية، ولاسيما المسائل المتعلقة بالسياسة الدستورية وبالمشاركة في المعركة الانتخابية في المجلس الوطني الألماني[13]،

= Grundriβ der Sozialökonomik، عنوان المحاضرة بحسب الإعلان عنها هو: «Wirtschaft und Gesellschaft (Positive Kritik der materialistischen Geschichtsauffassung)»، وبحسب ماريان فيبر قدم فيبر نتائج بحوثه عن علم اجتماع الدين، والسلطة، ومن ثم عن علم اجتماع الدولة، أي إنه استعاد على الأرجح جزءين أساسيين من فصول أعدت لكتاب: *Grundriβ* وهما: «Die Wirtschaft und die gesellschaftlichen Ordnungen und Mächte».

قابل: Marianne Weber, *Max Weber: ein Lebensbild* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1926),

(أعيد طبعه طبعة ثالثة سنة 1984)، ومن الآن وصاعداً: (Weber, *Max Weber: ein Lebensbild*),

وعلى سبيل الاستكمال انظر: Theodor Heuss, *Erinnerungen 1905-1933*, 5. Aufl. (Tübingen: Rainer Wunderlich Verlag Hermann Leins, 1964), S. 225,

من الآن وصاعداً: (Heuss, *Erinnerungen 1905-1933*)، هذا وقد عرض فيبر في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1917 المبادئ الأساسية من دراساته حول علم اجتماع السلطة. حول ذلك، ثمة تقرير صحافي. انظر: *Neue Freie Presse*, Nr. 19102 (26 Okt. 1917), S. 10.

(13) بدأ فيبر عام 1917 متابعة منه لمقالاته السياسية المطولة صياغة ما اعتبره «مسائل تقنية تتعلق بالدولة» بهدف وضع نظام جديد لألمانيا. وقد كتب ذلك لحساب جريدة *Frankfurter Zeitung*، إذ كان بعد تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 مشاركاً حراً في التحرير. وقد شارك في كانون الثاني/ يناير 1918 في المعركة الانتخابية لصالح الحزب الديمقراطي الألماني الذي أنشئ حديثاً. هذا وقد نشرت أهم نتائج أعماله الصحافية السياسية تحت العناوين الآتية على التوالي: «Deutscher Parlamentarismus in Vergangenheit und Zukunft», «Die Staatsform Deutschlands»,

وكمنشور مستقل: «Parlament und Regierung im neugeordneten Deutschland» = (MWG I/15, S. 432-596),

فقد ترشح لمقعد عن الحزب الديمقراطي الألماني الذي تولى قيادته لاحقاً، وخسر هذا الترشيح في ظروف مؤذية[14]. أدى هذا الحادث، مع ما رافقه من أحداث في ذلك الوقت إلى تحفيزه من أجل الاهتمام بما يتعلق بتاريخ نشوء هذه المحاضرات. وتتناول الظروف الأخرى بشكل أساسي تأريخية العمل منذ أن أُقصي فيبر من الخدمة العسكرية في 30 أيلول/ سبتمبر 1915[15]، وبشكل أدق منذ ارتباطه بزمرة الطلاب الأحرار، في المجلس المحلي في ميونيخ في منطقة بافاريا، وهو المجلس الذي خطط ونفذ سلسلة هذه المحاضرات بعنوان «العمل الذهني بوصفه حرفة»[16].

2 ـ روايات أخرى حول نشأة هاتين المحاضرتين: ماكس فيبر خطيباً سياسياً ومعلماً أكاديمياً

لنبدأ مع رواية أخرى تتعلق بنشأة «هذه المحاضرات». قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى كان ماكس فيبر يعمل بشكل مكثف

= ومقالته: «Deutschlands Künftige Staatsform» (MWG I/16, S. 97- 146),
ولاحقاً نشرت مقالته: «Wahlrecht und Demokratie in Deutschland» (MWG I/ 15, S. 347-396).

(14) انظر مقدمة مومسن في: (MWG I/16, S. 15 f.).

(15) المصدر نفسه، ص 23 وما بعدها: فيبر الذي قدم التماساً يتعلق بتسريحه من العمل التطوعي في لجنة الاحتياط، ارتدى بعد الأول من تشرين الأول/ نوفمبر 1915 اللباس المدني، إلا أنه استمر يعمل لبعض الوقت في المكتب بهدف تدريب خليفته على العمل. قابل رسالة ماريان فيبر إلى هيلين فيبر المؤرخة 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1915. (محفوظات مكتبة الدولة، بافاريا [لن نثبت لاحقاً مصدر الرسائل إلا في حال تغيره (المترجم)]. وفيها: «ماكس فيبر يجول نهاره كله بالطبع في المكتب، وبلباسه المدني، إذ إن من سيخلفه لم يعتد القيام بواجبه، ولا يعلم ماذا سيكون الأمر بعد ذلك ـ مع ذلك فأنا حزينة ومنزعجة أن يكون ماكس مجبراً على ترك هذا العمل قبل نهاية الحرب، وهو العمل الذي اعتاد عليه، والذي قام به مع كل ما يسببه من إجهاد لنفسه بكل تفانٍ ووفاء للواجب».

(16) حول إنجاز سلسلة المحاضرات. انظر التقارير المتعلقة بنشرها.

على إعداد مساهماته في «مجمل الاقتصاد الاجتماعي»(17). مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ترك فيبر مكتبه، وبذلك تخلى أيضاً عن سلسلة واسعة من المخطوطات، وإن لم تكن قد اكتملت. وفي السنة التالية تولى مهمة إدارية استغرقت منه كامل وقته وأبعدته عن عمله العلمي، فقد أصبح عضواً عسكرياً في لجنة الاحتياط التطوعية في هايدلبرغ. وفي هذه الفترة الزمنية، وبعد تسريحه من هذه الخدمة، شرع بنشر أفكاره ذات المضمون السوسيولوجي الديني عن أخلاقيات الاقتصاد في الأديان العالمية، فشرع منذ شتاء 1915/1916 بشكل علمي على تعديل عمله وإنهائه. وبدأ في الوقت نفسه يتطرق عبر مقالاته الأولى إلى السياسة الخارجية، وبشكل خاص، إلى سياسة الحرب(18). كان يأمل أن يصار إلى الاستفادة منه سياسياً. وهذا ما حمله في الأرجح، في أواسط تشرين الثاني/ نوفمبر 1915، على التوجه إلى برلين. ومع أنه استمر هناك، وإن بتقطع، حتى أواسط العام 1916 في جهوزيته، فإنه وباستثناء إسهامه في بعض الجمعيات «الخاصة» مثل لجنة عمل فريدريش نومان من أجل أوروبا الوسطى،

---

(17) حول ما يتعلق بتاريخية هذه الأعمال قابل: Wolfgang Schluchter, *Religion und Lebensführung*, 2 Bände (Frankfurt: Suhrkamp, 1988), Band 2, Kap. 13 und 14, S. 557-634,

من الآن فصاعداً: (Schluchter, *Religion und Lebensführung*).

(18) انظر بشكل خاص معالجاته: «Zur Frage des Friedenschlieβens», و«Bismarcks Auβenpolitik und die Gegenwart» في: (MWG I/15, S. 49-92) والتي وضعها العام 1915. أبدى فيبر في تحليله للسياسة الخارجية عناية بوجهات النظر التي تتعلق بالأمن العسكري، وبما يخص المصالح المشتركة اقتصادياً كذلك بالثقافة الوطنية المشتركة. على كل أمة أن تصل إلى توازن مقبول حول هذه المبادئ العقلانية الثلاثة المرتبطة بالسياسة الخارجية، وهذا ما يجب على ألمانيا القيام به أيضاً. انظر: (MWG I/ 15, S. 189)، لقد كان فيبر منذ البداية موافقاً عن تفاهم سلمي يصار بموجبه التخلي عن بلجيكا في الغرب مقابل إقامة دولة بولونية وطنية، يمكن التلاعب بها ضد روسيا في الشرق.

وفي لجنة تابعة لجمعية تعمل في مجال الاجتماع السياسي، فإنه لم يقم إلا بشكل عفوي وغير رسمي بأي اتصال مع موظفين حكوميين من أصحاب الرتب العليا، الأمر الذي لم يكن ليشبع رغبته في أن يكون له نصيب في التأثير في سيرورة اتخاذ القرار السياسي[19]. وهكذا استفاد فيبر من وقته ليتدارس مراجع حول الصين والهند[20]. وتعتبر دراسته عن الهندوسية التي نشرها عام 1916/ 1917 على مراحل ثلاث في *Archiv für Sozialwissenschaft und Soziapolitik*، تكملة لدراسة عن الكونفوشيّة[21]، وهي تقوم أساساً على مخطوط سبق له أن توقف عن العمل فيه منذ العام 1914[22]، كما تعتبر ثمرة انشغاله العلمي المكثف في هذه المرحلة[23]. وبعد أن بحث في «الأمور الصينية والهندية» قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، بدأ فيبر يتعمق مجدداً منذ خريف العام 1916 في الديانة اليهودية. اشتغل على العهد القديم محللاً منه، بشكل خاص، كتب «الأنبياء، والمزامير، وسِفر أيوب»[24]، وانصب اهتمامه الآن بالتحديد على أنبياء النُذُر في

(19) انظر: (MWG I/15, S. 126-130, 134-152 und S. 645-647).

(20) انظر على سبيل المثال رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر بتاريخ 16 أيار/ مايو 1916 «أجد نفسي مرتاحاً وقادراً على العمل، بحيث بت أشغل نفسي بدراسة الأمور الصينية والهندية، إني أتشوق كثيراً لذلك».

(21) انظر: (MWG I/19).

(22) انظر: (MWG I/20).

(23) حول هذا المظهر من تاريخ أعماله انظر: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 2, Kap. 13, S. 557-596,

انظر أيضاً: التقارير الإيضاحية في الأعمال الكاملة (MWG I/19, S. 31 ff.)، وفي I/ 20 أيضاً.

(24) رسالة ماريان فيبر إلى هيلين فيبر في 12 تشرين الأول/ نوفمبر 1916، والمقاطع المقصودة في هذه الرسالة هي: «إن ماكس يتعمق الآن في (دراسة) **العهد القديم**، يحلل (فصول) الأنبياء، المزامير، وسفر أيوب ـ وهو يقرأ لي أحياناً في المساء بعضاً من جديده ـ وهذا أمر جيد يريح بعد كل عناء النهار».

مرحلة ما قبل السبي، وعلى استقلالهم عن السلطات السياسية وعن الشعب، كما اهتم كذلك بدراسة توجهاتهم السياسية الخارجية. فهل ثمة تشابه معين بين الوضع السياسي الخارجي في إسرائيل القديمة وما نجده في الرايخ الألماني؟ وهل شعر هو بتركيزه على تفحص هذا الوضع السياسي أن عليه بالذات أن يؤدي دور أنبياء النُذُر في مرحلة ما قبل السبي؟ إذ إنه في التعقيبات التي بدأ نشرها منذ العام 1917 عن الديانة اليهودية القديمة[25] يجعل من هؤلاء الديماغوجيين السياسيين الذين يعتبرهم الأُول في تاريخ العالم معلماً أدبياً يثير انطباعات قوية، بل يعتبرهم معلماً يؤشر في موضوعته التاريخية إلى ما هو راهن[26]. وبذلك بدا كأنه يتأرجح بين الحاضر والماضي البعيد. إذ إن العوالم الصينية والهندية واليهودية لم تكن على ما يبدو «مواضي» بالنسبة إليه، بل هي في الوقت نفسه «حواضر» أخرى[27].

لم يكن العام 1916 العام الذي شهد تعديل واستكمال أهم

---

(25) انظر (MWG I/21).

(26) حول دور الأنبياء في مرحلة ما قبل السبي، انظر: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 2, Kap. 7, 4, S. 173 ff.,

حول إسقاط الموضوعة التاريخية على الوضع الراهن انظر بشكل محدد: Weber, *Max Weber: ein Lebensbild*, S. 604-605,

«بحسب تقديرها، فإن أنبياء النُذُر هم الآن (العام) 1916 بمثابة الديماغوجيين السياسيين الأُول الذين ظهروا تاريخياً، وإن تحليله لسفر إرميا قد أماط اللثام عن كثير من مساهمات الطهريين. وبالصدفة نجد له في خطاب ألقاه في الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1918 أقوالاً صاغ فيها كما جاء في تقارير صحافية الحاجة إلى الاستقلال في المسائل السياسية كما يأتي: إنه لم ينتم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي مع أنه يتوافق مع الكثيرين من أعضائه إلى حد عدم التميز عنهم، «لأنه كان يصر على استقلالية آرائه فلا يتنازل عنها لا أمام الناس ولا أمام السلطات المستبدة»، انظر: (MWG I/16, S. 379).

(27) قابل حول ذلك الملاحظة الجيدة التي أبداها ياسبرز حول العلاقة بين وعي الحاضر ووعي الماضي عند فيبر، انظر: Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*, S. 83.

النصوص العلمية وأول نتائج العمل السياسي الصحافي بالانكباب على السياسة اليومية وحسب، بل كان أيضاً اكتساح العمل السياسي من خلال اعتلاء «منصات الخطابة». بعد الخطاب السياسي العلني الأول بعد مرضه، وبعد خطاب نورمبرغ في الأول من آب/ أغسطس أمام «اللجنة الألمانية القومية من أجل سلام مشرف» حين أبدى تحفظاً على «الإرشاد والتعليم»[28]، جاءت خطبة فيبر الكبيرة حول «الوضع السياسي العالمي بالنسبة إلى ألمانيا» أمام الاتحاد الشعبي التقدمي في 27 تشرين الأول/ أكتوبر 1916 في ميونيخ[29]، والتي أعدها لاحقاً للنشر[30]. إذا كان فيبر قد صاغ أفكاره في نورمبرغ بحذر، متعاملاً مع ممثلي الدعوة إلى سلام المنتصرين بكثير من الرقة واللطافة، فقد تخلى الآن عن كل التحفظات السياسية، ولاسيما تجاه دعاة «تمايز الألمان» (Alldeutschen). فقد تسلل الآن بالفعل إلى الدور الذي اتخذه الديماغوجيون السياسيون لدى أنبياء النُذُر في مرحلة ما قبل السبي. لقد شرع فيبر، من دون مهادنة، بمحاسبة سياسة التمايز التي يقول بها اليمين، مظهراً ما كان يعتبره بالدرجة الأولى أسباب الحرب السياسية، وليس الأسباب الاقتصادية، ومن أهم هذه الأسباب: تهديد روسيا سلطة الدولة الألمانية القومية المستقلة. ولهذا السبب يمكن تبرير دخول ألمانيا الحرب. ويفترض أن الحفاظ الناجح على ذاتها والتمسك بشرفها وبأمنها العسكري، يتطلب دون شك نظاماً جديداً، ولاسيما في وسط أوروبا. ولكن ذلك لا يفترض بالضرورة ضم مناطق أخرى. إذ يجب على سلطة الدولة الألمانية أن تظل على

---

(28) انظر التقرير الإيضاحي، والتقارير الصحافية حول الخطاب في: (MWG I/15, S. 648-689).

(29) (MWG I/15, S. 690-700).

(30) (MWG I/15, S. 153-194).

ارتباط بثقافة الجماعة القومية. وعلى هذه الأسس فقط يمكن التوصل إلى تفاهم حول السلام، بما في ذلك السلام مع روسيا، على أن تلجم هذه الأخيرة اندفاعها للتوسع، هذا الاندفاع الذي يرتبط بشكل حميم مع القيصرية بوصفها نظاماً. وفي وقت لاحق، شدد فيبر مجدداً، ولاسيما بعد ثورتي شباط/ فبراير وتشرين الأول/ أكتوبر في روسيا، على أن الإنجاز الألماني في هذه الحرب قد اقتصر على الإسهام في تجاوز النظام القيصري، وقد أزيلت، بالتحديد بعد القضاء على هذا النظام، العوائق الفعلية أمام سياسة خارجية قومية في أوروبا. إلا أن على التفاهم حول السلام أن يفترض مسبقاً أن يعترف خصوم ألمانيا في الحرب بها دولةً تمثل سلطةً قوميةً ذات تطلعات ثقافية خاصة بها. إذ إن ألمانيا ليست دولة صغيرة، بل دولة كبرى، وهي ليست مجرد دولة ذات ثقافة خاصة، بل دولة عظمى. ولهذا السبب تدخلت في ما تجر إليها السلطة من «ويلات». وعلى الألمان القبول بذلك دون زهو، باعتباره من «**مسؤوليتهم أمام التاريخ**». ومن يتجاهل ذلك، من خارج ألمانيا، بل حتى من داخلها، ليس إلا أحمق من الناحية السياسية. أضف إلى ذلك: «إن الأجيال اللاحقة لن تطلب محاسبة السويسريين، أو الدنماركيين، أو الهولنديين، أو النرويجيين عن تكوّن الثقافة على الكرة الأرضية. ولن يسيء إليهم شيء إذا لم نجد على هذا الجزء الغربي من كرتنا الأرضية إلا اتفاقية أنجلوسكسونية وبيروقراطية روسية. ذلك أنه ليس بمقدور السويسريين، أو الهولنديين، أو الدنماركيين الوقوف بوجه ذلك. أما نحن فإننا نقدر على ذلك، (إننا) شعب يقدر عدده بـ 70 مليون نسمة وعلينا **واجب** أن نكون دولة قوية وسط القوى العظمى في العالم[31].

(31) (MWG I/15, S. 192).

بذلك كان فيبر يرى مسبقاً في مرحلة النجاح العسكري نتيجة للحرب، إمكانيةً لإيجاد نظام جديد في أوروبا. وكان عليه أن يستند في ذلك إلى إمكانية قيام أحلاف بين الدول الكبرى مثل بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والنمسا ـ المجر، وإيطاليا، وألمانيا إلى جانب الدول الصغيرة والدول المرتبطة بها ثقافياً. إلا أن سياسة الحفاظ الألماني القومي المستمر على الذات تجاه الخارج تفرض إصلاحات في الداخل. وتفرض أن يكون ذلك مستقلاً أيضاً عما سيكون عليه حظ ألمانيا أو انتصارها في الحرب. وبقدر ما كانت تطول الحرب، كان اهتمام فيبر يزداد قوة بضرورة إيجاد نظام جديد لألمانيا من داخل أوروبا يعاد تنظيمها. وبقدر ما ازداد تفكيره في ذلك أيضاً ازداد جداله مع اليمين ومع اليسار أيضاً. واسترجع من خلال ذلك بعض أفكاره التي سبق أن أعلنها قبل الحرب مطوراً إياها بموجب الكوكبة السياسية الآخذة بالتحول باستمرار. هكذا حول نظره إلى ما اعتبره أفضل شكل للدولة من الناحية التقنية في الدول الحديثة الكبرى، أي الملكية البرلمانية[32]. لكن حين تخلت أسرة هوهنزولرن (Hohenzollern) بعد لجوء وليام الثاني إلى منطقة (Spa) العليا عن حقها، عاد فيبر وأعلن عن تمسكه بالنظام الجمهوري البرلماني باعتباره شكل الدولة الوحيد المناسب لألمانيا، إذ أيد انتخاب القيادة من عناصر منتخبة من العامة، وأيد الوحدة ضد العناصر الوحدوية الفدرالية. وأعلن أنه على السياسة في إطار هذا الشكل من أشكال

---

(32) باستثناء مؤلفاته الكبرى عن الدستور، ولاسيما التي تعود إلى الأعوام 1917 - 1918، مثل: «حق الانتخاب والديمقراطية في ألمانيا» والبرلمان والحكومة في نظام ألمانيا الجديد»، انظر: (MWG I/15, S. 347-396, S. 432-596),

عن خطابه حول إعادة بناء ألمانيا في 2 كانون الثاني/ يناير 1919 في هايدلبرغ، انظر: (MWG I/16, S. 415).

الدولة أن تنطبع بطابع القوى الليبرالية والاشتراكية الديمقراطية، لا بطابع القوى التي تأتي من اليمين، ولا من تلك الآتية من جهة اليسار.

تكتسب توجهات فيبر السياسية التي تتحكم بمواقفه السياسية الداخلية والخارجية إلى جانب بعدها السياسي جانباً مبدئياً أيضاً. إذ إن السياسة كانت بنظره، شأن الاقتصاد، والعلم والفن والجنسانية والدين تتبع دائرة لها قانونها الخاص، وهي دائرة يجب أن لا تتحدد بموجب مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية المهنية، ولا من قبل مثال «الأخوية» حصراً. إن زوج المرادفات الذي يتردد في مفهومه وفي علاقته مع السياسة ليس زوج النافع أو الضار، والصح أو الخطأ، أو الجميل والقبيح، بل زوج الشريف والمهين. إن الواجب السياسي الذي لا يرضي، لا يثير الشعور بعدم الرضا مثلاً أو الشعور بالذنب بقدر ما يثير شعوراً بالمهانة. وبالتأكيد إن «المسؤولية أمام التاريخ» هي التي ستحكم من كان سلوكه ضمن هذه القيمة الأخيرة. وكل سياسة سلطة محض بوصفها كذلك هي سياسة محكومة بالعدم، إذ ستبقى دون قوام لها من الداخل. والسياسة والواقعية التي قال بها فيبر، والتي سماها في محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» بسياسة المسؤولية، يجب أن لا نخلطها مع ما يعرف بسياسة الأمر الواقع. إلا أن القيم السياسية، وبغض النظر عن القيم التي تمت صياغتها ضمن حقوق الإنسان، ليست، أو ليست بالدرجة الأولى، القيم الإنسانية العالمية، بل القيم الثقافية ذات الصفة الخاصة، ولذلك فهي لا تسيء إلى حق السياسة الخاص بالتبرير الاقتصادي وحسب، بل ولحقها ببث (نظام) أخلاقي كلي. وبالتأكيد، فإن على السياسة التي لا تريد أن تتخلى عن سياسة السلطة المجردة، أن تستند، إضافة إلى القيم الثقافية، إلى القيم الأخلاقية أيضاً. ولذلك جعل فيبر واسطة عقد القسم الثاني من محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» العلاقة

الإشكالية باستمرار بين السياسة والأخلاق. ومع ذلك، وبقدر ما تقل أو تنعدم العلاقة بالقيمة الأخلاقية سواء في السياسة الواقعية أو سياسة المسؤولية، تزداد حقيقة أن السياسة ستكون محكومةً بالقوة العملية (Machtpragma). إلا أن الذي يتوسل القوة أداة، فهو كمن يقيم حلفاً مع القوى الشيطانية. وقد تكون الترابطات الوجودية الناضجة محكومة بروح الحب[33]، إلا أن الترابطات السياسية محكومة دائماً بروحية الصراع. إذ إن الخيرات الإنسانية والشرف القومي وهي جميعها قيم دون شك، لا تنفصل عن المصالح الفكرية أيضاً. لكن ذلك ليس سبباً يدعو إلى التوحيد بينها. إن التوتر قائم بين الواجبات الأخلاقية والسياسية، وتقرير المصير الأخلاقي، وحفظ البقاء الجماعي، والتوسع الذاتي: حتى لو سهلت الحرية السياسية الخارجية المنظمة تحقيق الحرية الداخلية، فإن هذا التوتر بين الأخلاق والسياسة حتى في ظل وجود ظروف ديمقراطية لا يمكن أن يختفي.

لهذه الأسباب نجد أن للتوجه السياسي عند فيبر أساساً في نظرية للقيم. وهذا ما يؤدي دوره بوضوح سواء في تكون هاتين المحاضرتين أو في سياقهما. صحيح أن هذه النظرية تتكرر باستمرار في مواقفه السياسية اليومية، إلا أنها تنفصل بعمق في أجزاء أخرى من مؤلفاته، ولاسيما في علم اجتماع الدين، وبوضوح كلي في مقالته الشهيرة بعنوان «تأمل وسيط» «Zwischenbetrachtung»[34]. عام 1916/ 1917 أضيف إلى ذلك حجر زاوية آخر. وهذا ما نجده في مقالة عن الحياد القيمي التي سبق أن أعدها فيبر منذ العام 1913 بخصوص ما يسمى بالجدل حول الأحكام القيمية في الجمعية السياسية الاجتماعية الذي حصل في كانون الثاني/ يناير 1914، وقد

---

(33) انظر الصياغة في محاضرته «العلم بوصفه حرفة» لاحقاً (خاتمة المحاضرة).

(34) (MWG I/19, S. 479-522).

كتب المقالة وتم توزيعها على «المطبخ الداخلي»، وها هو ينشرها مجدداً الآن مع بداية العام 1917 بعد أن أعاد النظر فيها[35]. وقد أضاف إلى المخطوط الأصلي «تأملات نظرية حول معنى القيم»، وإن «باختصار شديد». وهي تأملات تتعلق بالمفهوم الذي سبق أن تضمنته مقالته «تأمل وسيط»: إذ إننا نطرح موضوعات تتعلق بالقيم دون أن تحيل بعضها إلى بعض، أو أن تكون متناغمة في ما بينها، ولذلك نحن ملزمون باختيار قدرنا الخاص. وقد أراد فيبر في «العلم بوصفه حرفة» وفي «السياسة بوصفها حرفة» وبوصفه «ممثلاً لاندماج القيم»[36] تذكير الشبيبة بهذه المعرفة الإنسانية المريحة غير الكاملة التي لابدّ منها مع ذلك. ويريد كذلك التذكير أيضاً أن فهم حنينها إلى حياة متصالحة، ما لم يُصَر إلى مراقبة لامبالاة النظرة المركزة على الوقائع، فإن هذا التذكير سيصطدم بانقسامه المأسوي، أو سينتهي في نهاية الأمر إلى التكيف مع العالم أو إلى الهروب منه أو الزهد به[37].

استعاد فيبر في العام 1916 «المنبر الخطابي السياسي». وقد تابع بقوة في العام 1917 هذا التأثير في الرأي العام. إلا أنه شرع الآن

(35) قابل فيبر: معنى «الحياد القيمي» في العلوم الاجتماعية والاقتصادية، انظر: Max Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» in: *Logos*, Band 7 (1917), S. 40-88,

مـن الآن وصـاعـداً: (Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften»),

ولاحقاً ستصدر هذه المقالة في: (MWG I/12).

(36) المصدر نفسه، ص 57 وما يليها، حول الدلالة النسقية لهذه التأملات النظرية حول القيمة، انظر: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 1, S. 288 ff.

(37) انظر فصل «السياسة بوصفها حرفة» في نهاية هذا الكتاب. يميز فيبر بين ثلاثة أنواع من ردات الفعل: «إحساس بالمرارة، أو عدم الإحساس بشيء، مجرد قبول بليد للعالم وللحرفة، والنوع الثالث، وليس نادراً، الهروب الصوفي من العالم عند من أعطوا النعمة لفعل ذلك أو ـ غالباً وهذا الأسوأ ـ تحمل عذاب الأمر كما لو كان موضة». بالإمكان فهم الأمرين الأولين باعتبارهما تنويعاً من التكيف مع العالم.

وبشكل متزايد معالجة المواضيع الاقتصادية إلى جانب المواضيع السياسية. ففي 24 كانون الثاني/ يناير تحدث أمام جمعية العلوم الاجتماعية في ميونيخ حول «الأسس السوسيولوجية لتطور الدين اليهودي»[38]، مقدماً أثناء ذلك تقارير حول إسرائيل القديمة مستمدة من أعماله القديمة[39]. وفي 25 تشرين الأول/ أكتوبر حاضر أمام جمعية العلوم الاجتماعية في فيينا، حول «مسائل علم اجتماع الدولة». كانت واسطة عقد هذه المحاضرة موضوعاته حول علم اجتماع السيطرة بأنماطه الثلاثة المعروفة عن السيطرة الشرعية: السيطرة العقلانية ـ الشرعية، والسيطرة التقليدية والسيطرة الكاريزمية. وأضاف إليها أيضاً نمطاً رابعاً بناه على تطور المدينة الغربية: السيطرة الديمقراطية[40]. في هذه الأثناء عقد في لونشتاين (Lauenstein)

---

(38) ثمة تقرير عن هذه المحاضرة نجده في: *Das jüdische Echo*, Nr. 4 (26 Jan. 1917), S. 40 f.

وهي مجلة تعنى بالشؤون اليهودية وهي أسبوعية تصدر كل يوم جمعة. ألقيت محاضرة فيبر العلنية يوم الأربعاء مساءً أمام حضور كثيف من المستمعين في جمعية العلوم الاجتماعية، المصدر المذكور، ص 40.

(39) نهاية التقرير لافتة وفيها: «بشكل غير منتظر تابع عدد كبير من المستمعين ـ جلهم من اليهود ـ المحاضرة الشيقة التي يصعب التعرف إلى تسلسل مادتها (يعود ذلك جزئياً إلى أن الأستاذ فيبر قد افترض أنه سيكون أمام جمهور عالم. ولأنه أيضاً، وبسبب وجوب فهم الكل، وجب التوقف أكثر مما كان مقصوداً)، لكن المحاضرة تضمنت مع ذلك عدة تفاصيل مفيدة. وساد الانطباع عند عدد كبير من الحضور أن عليهم هنا التحقيق في الأمور. إذ كانت بالنسبة إلى العديد منهم من الأمور التي لا يعرفونها»، المصدر نفسه، ص 41.

(40) انظر التقرير حول ذلك في: *Neue Freie Presse*, Nr. 19102 (26 Okt. 1917), S. 10, حول أنماط السيطرة الثلاثة، أو الأربعة، انظر: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 2, Kap. 8, 6, S. 236 ff., Kap. 12, S. 535-554,

اقترحت كلية الحقوق في جامعة فيينا بالإجماع ماكس فيبر خليفة للأستاذ المتوفى إيوجين فون فيليبوفيتش (Eugen von Philippovich)، وقد توقف في هذه الأثناء في فيينا لإجراء مشاورات حول وظيفته المستقبلية.

المؤتمر حول الثقافة، من 29 حتى 31 أيار/ مايو، ومن 29 أيلول/ سبتمبر حتى 3 تشرين الأول/ أكتوبر. إلا أنه كان مؤتمراً خلف أبواب موصدة، وضمن وسط تم اختياره. غير أنه لاحقاً ألقى خطاباً سياسياً أمام الجمعية الشعبية للتقدم في ميونيخ في 8 حزيران/ يونيو، كان موضوعه الحديث عن الإصلاح الضروري في دستور الدولة (الرايخ) من أجل «**دمقرطة حياة دولتنا**»[41]. أضف إلى ذلك عزمه إلقاء محاضرة في أواسط أيلول/ سبتمبر في هابنهايم حول «الدولة والدستور» وذلك في إطار برنامج التثقيف الشعبي[42]. إلا أن هذا العمل بلغ ذروته في تشرين الثاني/ نوفمبر، إذ أُتيحت الفرصة أمام الرأي العام في ميونيخ، وعلى مدى ثلاثة أيام الاستماع إلى رجل السياسة كما إلى رجل العلم[43]: ففي الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر كان خطابه حول معاهدة صلح وتفاهم وضد الخطر الألماني الكلي[44]، وفي السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر كان خطابه بعنوان «العلم بوصفه حرفة»[45].

---

(41) انظر: (MWG I/15, S. 710-713).

(42) انظر: (MWG I/15, S.19)، هامش رقم 26. في رسالة لماكس فيبر يتحدد 18 أيلول/ سبتمبر موعداً للمحاضرة. أما في رسالة من ماريان فيبر إلى هيلين فيبر فالموعد هو 14 أيلول/ سبتمبر. فهي تكتب في رسالة مؤرخة في 13 أيلول/ سبتمبر «غداً سيلقي ماكس محاضرة في إطار تثقيفي في هابنهايم حول «الدولة والدستور». وسنسافر إلى هناك، وستكون هذه المرة الأولى بعد مضي 13 سنة، أي منذ سانت لويس التي أسمعه فيه محاضراً بشكل علني».

(43) شدد فيبر في بداية خطابه السياسي في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، بأنه يتكلم بوصفه سياسياً، لا بوصفه رجل علم (MWG I/15, S. 724)، وفي المقابل لاحقاً، وفي محاضرة، «السياسة بوصفها حرفة»، ومع أن الحديث هو عن السياسة، فقد تكلم بوصفه رجل علم لا كسياسي.

(44) انتهى الاجتماع باتخاذ توصية يعكس مضمونها موقف فيبر من المسائل السياسية والخارجية. وقد تم نشرها في: (MWG I/15, S. 722).

(45) تشير ماريان فيبر عدا ذلك إلى محاضرات أخرى ألقيت صيف 1917 حول الطبقات الهندية المغلقة، وحول الأنبياء اليهود، وحول الأسس السوسيولوجية للموسيقى، انظر: Weber, *Max Weber: ein Lebensbild*, S. 607, قد يكون للأمر علاقة بقراءات تمت ضمن دوائر مغلقة.

في العام 1917 سنحت فرصة أخرى، وفي أجل قريب: العودة إلى قاعة المحاضرات وإلى كرسي الأستاذية. فقد كان على فيبر أن يحل مكان إيوجين فون فيليبوفيتش المتوفى حديثاً. كذلك سعت جامعة غوتنجن ليكون فيها، وفي ميونيخ وهايدلبرغ كانت مسألة دعوته إليهما موضع نقاش على الأقل. ففي الصيف جاء العرض من فيينا، وقرر فيبر في نهاية الأمر بالرغم من تحفظات كثيرة لديه عدم رفض العرض بسهولة. وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر انتقل إلى فيينا لإجراء مفاوضات بشأن العرض، واقتُرح، لأول مرة بعد إبلاله من المرض، الشروع «بمحاضرة تجريبية»، على الأقل، في صيف 1918[46].

هكذا يصادف إلقاؤه محاضرته «العلم بوصفه حرفة» مرحلة معينة من تاريخ حياته. وهي المرحلة التي توجب عليه فيها، وبسبب المرض، التخلي جزئياً عمّا لم يستفد منه في حقل عمله الذي عاود استعادته بتصميم متنام، محاولاً تأكيد استعادته قوته لا بوصفه باحثاً وحسب، بل بوصفه سياسياً وأستاذاً كذلك. إنها مرحلة، خيمت عليها نفحة من التفاؤل والشعور بالحياة بعد تجربة المرض[47]. وانصرف كباحث، بكل حسم، إلى استكمال مشروعه حول أخلاق

(46) انظر رسالة ماريان فيبر إلى هيلين فيبر بتاريخ الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917: «أمس مساء عاد ماكس فرحاً بعد عشرة أيام من الغياب في فيينا. وقد توددوا إليه هناك كثيراً، ووافقوا على كل الشروط، إذ تمنى البدء في الفصل التالي بدرس اختباري لساعتين أسبوعياً، وعلى أن يرى إذا ما كانت قواه ستسمح له بأن يكون أستاذ كرسي... إلخ. ولا أدري إذا ما كان قد قرر نهائياً العمل في فيينا، إلا أن هذا الفصل الصيفي، والذي يستمر لثلاثة أشهر، والذي لا يلزمه بجهد تعليمي كبير، هو مناسبة مقبولة تؤهله زيادة اطلاعه السياسي. كما يغريه أن يعرف أحوال شعب جديد، وأنا بدوري علي أن أعطيه من كل قلبي».

(47) انظر على سبيل المثال رسالة ماكس فيبر إلى مينا توبلر (Mina Tobler) بتاريخ 28 آب/ أغسطس 1917 (ملك خاص)، والتي نجد فيها حول الوضع السياسي ما يأتي: «أنظر الآن إلى المستقبل بتفاؤل، مهما تبقى علينا من هموم. إذا كنا عقلاء وإذا كنا لا نعتقد بإمكانية السيطرة على العالم، فبإمكاننا إذاً أن نخرج بشرف، عسكرياً، أو مهما يكن من أمر آخر. لكن من الأفضل أن تكون الأمور قد شارفت على نهايتها».

الاقتصاد والديانات العالمية وتوسيعه باستمرار. وبتصوره لما ستكون عليه «المحاضرة التجريبية» في فيينا، والتي أعلن عنها لاحقاً بعنوان: «الاقتصاد والمجتمع» (النقد الموضوعي للمادية التاريخية)، يكون فيبر قد استعاد العمل على الأسس التي شرع بها، والتي كان عليه التخلي عنها بسبب اندلاع الحرب. أما السياسي في فيبر، فيتجلى في المواقف التي اتخذها بإلحاح وعبر عنها في مقالات كان لها أثرها، وفي منشورات منها على سبيل المثال: «قانون الانتخاب والديمقراطية في ألمانيا» و«البرلمان والحكومة في النظام الجديد في ألمانيا»[48]. وتجلى كذلك في خطب تناولت وضع السياسة الداخلية والخارجية للدولة كان قد دافع فيها عن آرائه حول معاهدة سلام وتفاهم، وعن دستور يأخذ بالنظام البرلماني، وعن الحياة الديمقراطية في الدولة الألمانية. أما في ما يخص توصية أحزاب الأكثرية في البرلمان الألماني إبرام الصلح المتخذ في 19 تموز/ يوليو 1917، وكذلك في ما يخص التطور في روسيا، فقد بدت معاهدة الصلح ممكنة من الناحية الفعلية؛ وأما الانتقال السريع في إدارة الدولة من بتمان هولفغ (Bethmann Hollweg) إلى ميخاليس (Michaelis)، ومن ثم إلى هرتلنغ (Hertling) فقد ضاعف من تأثير أحزاب الأكثرية في القرارات السياسية من خلال اللجان الفرعية، ما أكسب المطالبة بالحياة البرلمانية دعماً جديداً، مع أن هذه المطالبة قد اصطدمت لاحقاً بمعارضة عنيدة من جانب القوى المحافظة في بروسيا وفي الرايخ. ثم إن المعلم تابع حواره مع أقسام من الشبيبة الأكاديمية، وليس في إطار محدود كما كان معروفاً أثناء لقاءاته بعد ظهر أيام الآحاد في بيته في هايدلبرغ (Ziegelhäuser Landstraße 17)، بل في إطار أكبر،

(48) انظر: (MWG I/15, S. 347-396, S. 432-596),
صدر المقال الأول عام 1917، والثاني عام 1918.

إطار المؤتمرات الثقافية التي عقدت في بورغ لونشتاين (Burg Lauenstein). استغل فيبر الفرصة، كما حدث في بورغ لونشتاين للتوجه ببرودة جارحة ضد اللاعقلانية المتنامية وتمجيد الخبرة عند المثقفين الألمان(49). هذه الرومانسية الفكرية الحديثة لما هو غير عقلاني، والتي تمتد من تقديس - نيتشه وعبر حلقة - جورج (George - Kreis) إلى النقابيين الفوضويين قد صعبت بنظره - الحركة التعقيلة وتالياً الحركة العلمية، الأمر الذي اعتبره العديد منهم توجهاً غربياً، وبالتالي فهو توجه غير ألماني(50). وبالفعل، إن نزعة رفض الحركة الفكرية العلمية كانت نزعة واسعة الانتشار في أوساط الشبيبة

---

(49) في «مقدمته» لسلسة المقالات حول أخلاق الاقتصاد وديانات العالم في أيلول/ سبتمبر 1915 صاغ فيبر عباراته بشكل لاذع: «مهما كان الحاضر غير مبالٍ بالتطور الديني، وإذا ما كان مثقفونا الحديثون يشعرون بالحاجة، إلى جانب شعورهم بكل أنواع الأحاسيس الأخرى، إلى اختبار الوضع الديني بوصفه «تجربة»، وبالتأكيد من أجل تزويد أثاثهم الداخلي بلوازم قديمة أصيلة مضمونة (...)». انظر: (MWG I/19, S. 101)، مثل هذه الانتقادات لم تكن موجهة بالتأكيد ضد الناشر إيوجين ديدريش (Eugen Diederichs) الذي نظم مؤتمرات لونشتاين وحسب، بل ضد الدائرة المحيطة به أيضاً. بعد المؤتمر الأول كتب ماكس فيبر في رسالة إلى مينا توبلر، دون تاريخ [أوائل حزيران/ يونيو 1917]، (ملكية خاصة)، ما يأتي: «لم يكن المؤتمر يوم راحة بمناسبة العنصرة - لكن كان أمراً جيداً أن أكون هناك، إذ كان التحضير «خدعة» وكان علي أن «أقاطع الحضور» «بقوة». وحول فك الربط بين مفهوم الثقافة البورجوازية والتوجه الليبرالي السياسي، وحول طيف التيارات اللاعقلانية انظر أيضاً: Wolfgang J. Mommsen, *Der autoritäre Nationalstaat: Verfassung, Gesellschaft und Kultur des deutschen Kaiserreiches* (Frankfurt am Main: Fischer Taschenbuch, 1990), S. 257 ff., S. 284 ff.

(50) انظر الصياغة في «العلم بوصفه حرفة» (الصفحات الأخيرة من النص في هذا الكتاب)، حيث ساد في تلك الفترة الحديث عن مفاهيم متعارضة، عن ثقافة ألمانية وحضارة غربية، عن الروح الألمانية والعقل الغربي، عن عمق ألماني وعن سطحية غربية وعن الموسيقى وعن (مجرد) الأدب، وهذا ما عبر عنه لاحقاً توماس مان إلى حد ما بشكل كلاسيكي، انظر: Thomas Mann, *Betrachtungen eines Unpolitischen* (Frankfurt: Fischer, 1988), = S. 45 ff.,

الأكاديمية. وهذا ما عمد فيبر بنزعته العقلانية إلى التصدي له، مظهراً سعياً حثيثاً من أجل عفة فكرية وموضوعية لا غبار عليها، الأمر الذي جعل بعضهم لا يعتبرونه باحثاً وسياسياً ومعلماً وحسب، بل قائداً سياسياً وإنسانياً أيضاً. حتى في المؤتمرات الثقافية التي عقدت في لونشتاين قدر له أن يحرك، عدا بعض الرؤوس، بعض القلوب أيضاً[51]. وهذا ما كرره مجدداً في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 في محاضرته عن «العلم بوصفه حرفة». وقد أشار كارل لفيث (Karl Löwith) في تقرير استعاده من الذاكرة[52]، وهو في المنفى

= (ظهرت الطبعة الأولى في العام 1918، إلا أن ثمة مقالات صدرت قبل ذلك في الصحف والجرائد، ومنها بعض المطبوعات التي كانت تحظى بتقدير ماكس فيبر). هذا وقد قصد توماس مان من بعض انتقاداته حول بعض المهتمين بآداب الحضارات توجيه نقد لأخيه هاينريش، وكذلك قصد ماكس فيبر انتقاد أخيه ألفريد (Alfred) الذي ميز بين سيرورة اجتماعية وسيرورة حضارية وحركة ثقافية إذ حاول الربط نظرياً بين أشكال وقوانين تطورها. بشكل خاص حول علم اجتماع الثقافة، انظر: Alfred Weber, «Gesellschaftsprozeβ, Zivilisationsprozeβ und Kulturbewegung,» in: *AfSS*, Band 47 (1920), S. 1-49.

(51) انظر حول ذلك أيضاً التمييز الذي أقامه فيبر بين المعلم والقائد، في «العلم بوصفه حرفة»، ص 191 وما يليها من هذا الكتاب، وفي التقرير بشأن آراء المناقشين.

(52) يتضمن التقرير بعض الأخطاء الوقائعية، ما يلحق الكثير من التشويش. يحدد لفيث موعد المحاضرة بشكل خاطئ، ويزعم أنها قد طبعت حرفياً بالشكل الذي ألقيت فيه انظر: Karl Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933: ein Bericht* (Stuttgart: J. B. Metzler, 1986), S. 16,

من الآن وصاعداً: (Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933: ein Bericht*),

وبما أن لفيث كتب أن الحرب قد انتهت بالنسبة إليه شخصياً أولاً في كانون الأول/ ديسمبر 1917، فبالإمكان الاستنتاج أنه ما كان بمقدوره الاستماع إلى المحاضرة في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، ما يعني، أنها ألقيت في موعد متأخر عن هذا التاريخ أو أنها ألقيت مرة ثانية. وقد يكون هذا استنتاجاً متسرعاً أيضاً. بعد التدقيق في السجلات في جامعة ميونيخ يتبين أن لفيث كان مسجلاً في الفصل الشتائي لعام 1917/ 1918. إذ إن إشارته النابعة من التذكر يمكن، بل يجب أن تكون متوافقة مع تاريخ 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. أما أن لا يكون نص المحاضرة متوافقاً مع النص المنشور لاحقاً، فذلك ما يمكن استنتاجه =

تأثير هذا الخطاب والانطباع الذي تركه في مجموعة من الطلاب أبدوا حساسية شديدة تجاه تجربة الحرب: «تكثفت في عباراته تجربة وعلم حياة بكاملها، استعاد كل شيء من داخله بشكل مباشر، متفكراً به بعقل نقدي، مظهراً بشكل قوي البعد الإنساني مما يظهر شخصيته. تتفق حدة موقفه مع رفضه لكل حل رخيص. لقد مزق كل حجب التمنيات، ومع ذلك كان على الجميع الشعور بأن قلب هذا العقل الواضح كان مفعماً بإنسانية عميقة»[53].

حين ألقى فيبر بعد ذلك بعام محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» ضمن إطار السلسلة نفسها من المحاضرات أمام جمهور مماثل، كان الأثر الذي أحدثه مختلفاً. بشكل مختصر، لكن بحزم علق لفيث قائلاً: «لم تواجه المحاضرة الثانية بعنوان «السياسة بوصفها حرفة» الاندفاعة الكافية»[54]. أكد فيبر نفسه هذا الانطباع بشكل غير مباشر، إذ قبل عدة أيام من إلقائه محاضرته كتب إلى إلسي يافي ما يأتي: «ستكون المحاضرة سيئة. ترد في ذهني وفي قلبي أمور أخرى غير هذه «الوظيفة ـ الدعوة»»[55]. تردد لوقت طويل، قبل أن يقبل لاحقاً إلقاء هذه المحاضرة. وقد وجب الأمر، على ما يظهر، خضوعه لضغط سياسي حتى يقبل أخيراً بإلقائها[56]. ما الذي تغير؟ وماذا حصل؟

= بالعودة إلى تاريخ طباعة النص. انظر التقرير حول النص المنشور عن المحاضرة لاحقاً، وحول تحديد موعدها أيضاً.

(53) انظر: Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933: ein Bericht*, S. 16-17,

(54) المصدر نفسه، ص 17.

(55) رسالة فيبر إلى إلسي يافي (Else Jaffé) (الخميس صباحاً) 23 كانون الثاني/ يناير 1919 (ملكية خاصة).

(56) انظر حول ذلك التقرير الإيضاحي الملحق بإصدار «السياسة بوصفها حرفة»، ص 218 من هذا الكتاب.

لقد ساء الوضع السياسي الذي كان فيبر يرقبه بحذر شديد في العام 1917. وقد رأى أن ألمانيا، وقد صارت بفعل الحرب، وبسبب ما اقترفته من خطأ، واحدة من «الشعوب المنبوذة على هذه الأرض»[57]. فقد اعتبر أن سياسة البهرجة التي يمارسها اليمين، بالتوافق مع عجز القيادة السياسية تحت حكم بتمان هولفغ، ثم لاحقاً مع هرتلنغ، قد استبدلت بالعسكر الأولية السياسية، الأمر الذي أدى إلى إضعاف الموقع الدولي لألمانيا. إذ إن السياسة التي قال بها العسكر بالتحالف مع اليمين بإعلان حرب غواصات غير محدودة، والتي وقف هو ضدها منذ البداية[58]، قد أدت إلى دخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا. وكذلك أدى الأمر، بسبب السياسة التي نادى بها العسكر تجاه السياسة مع روسيا، إلى الإطاحة بالفرصة التي بدت ممكنة في برست ـ ليتوفسك للتوصل إلى سلام مع روسيا، الأمر الذي كان يمكن أن يشكل أساس صلح شامل حتى مع القوى الغربية أيضاً. جعلت هذه الأخطاء المزدوجة، التي اقترفها النظام القديم بحق السياسة الخارجية، فيبر يسترجع فكرة الثورة. هكذا بدأ يأمل خيراً من وصول كورت أيسنر (Kurt Eisner)، الذي كان رئيس وزراء بافاريا، إلى السلطة، والذي كان كما لاحظ فيبر أنه بالتحالف مع جماعة اليسار، ومن خلال نشر وثائق إدانة الحلفاء سيؤمن تحقيق العفو. كان لهذه الأمور القاسية ولفقدان الكرامة مع انعدام سياسة تضع الغايات النهائية في عين الاعتبار وقعها القاسي على فيبر[59].

---

(57) انظر تقرير جريدة (*Heidelberger Neuesten Nachrichten*) عن خطابات فيبر الانتخابية في الثاني من كانون الثاني/ يناير 1919 التي ألقاها في هايدلبرغ بشأن إعادة تنظيم ألمانيا، في: (MWG I/16, S. 419).

(58) (MWG I/15, S. 99-125).

(59) قابل لذلك (MWG I/16, S. 432, S. 453-454)، ثم لاحقاً التصريحات المليئة بالغضب عن ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ قبل مقتلهما، المصدر نفسه ص 441.

أضف إلى ذلك أن التطورات السياسية الدستورية التي فرضتها مثل هذه المجموعات لم تكن كافية لجعل ألمانيا قوية في الداخل، ولا أن تقود الألمان في نهاية الأمر داخلياً للعمل بسياسة واقعية، سياسة تقوم على تحمل المسؤولية. وبالنسبة إليه، كانت الأمور حين قدم محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» بينما كانت ألمانيا عديمة السلطة كلياً، مشابهة للعصر الذي كان فيه نابليون عندما كانت الهيمنة الخارجية على الأبواب. فقد كان الأفق السياسي مسدوداً بشكل نهائي. وقد رأى، كما جاء في عباراته عند نهاية محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» أن ألمانيا ستواجه «ليلاً قطبياً تسيطر عليه عتمة جليدية وقسوة شديدة»[60].

في هذه الأثناء كان على فيبر أن يعوض عن ذلك بالعودة إلى اقتراح قديم: العودة إلى العمل التعليمي، الأمر الذي دأب على استذكاره باستمرار منذ العام 1917، وهو أمر يستوجب منه التضحية بأكثر مما كان يقدر. بالطبع: يعتبر الدرس التجريبي إبان الفصل الدراسي الصيفي في فيينا عام 1918 نجاحاً مثيراً. هذا ما تشهد عليه عدة تقارير، بما فيها تقارير وضعها فيبر نفسه. وعلى سبيل المثال لخص ثيودور هويس (Theodor Heuss)، الذي حضر إحدى هذه المحاضرات، انطباعه كما يأتي: «لقد أصبح فيبر محط إثارة الجامعة، «على المرء» أن يكون قد رآه وسمعه ـ هكذا، فهو قد دُعي ليلقي دروسه في الصالة الكبرى حيث يقوم عدد من الفضوليين الذين لا حياء عندهم بفتح الأبواب أو إغلاقها باستمرار. بكل إخلاص كنت أشعر بالغضب من كل ذلك، خاصة وأني قد لاحظت كيف كان يتألم مما يجري، وقد فاتحته بالأمر». ولم أنسَ الجواب الذي بادرني به إطلاقاً:

---

(60) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 368 ـ 369.

«إنك محق: لا يمكنني أبداً في هذه القاعة أن أطلق كلمة «زهد» أبداً»[61]. ومع ذلك لم يكن لهذه الظروف الخارجية، التي لا قيمة لها، أثر يوازي الأثر الكبير الناجم عن الالتزامات بإلقاء أحاديث على منصات التدريس أو المنصات العامة، وهذا ما كان يشكل صعوبة بالغة بالنسبة إليه. إذ إنه كتب بعد الساعات الأولى يقول: «يا إلهي! هل هذا إلا إرهاق! إن عشر محاضرات ليست شيئاً مقابل ساعتين. مجرد تقيد بالاستعداد، وبقدرة الناس على النقل... إلخ»[62]. «إذ [...] لا شيء، لم يتغير شيء على الإطلاق حتى بعد مرور عشرين سنة»[63] [...]. وبالنظر إلى الأمر من وجهة نظر التدبر مع قواه الخاصة، تظل تجربة فيينا في قاعة المحاضرات مقابل المنابر الكلامية ومقابل ما يكتب القدر هي التجربة الأكثر قسوة. فقد أنهكه الدرس التجريبي كلياً، وجعله «متبلداً» و«متعباً ذهب لونه». في حزيران/ يونيو عام 1918، وبعد وقت قصير من رفضه استدعاءً لشغل منصب في جامعة فيينا أثناء الفصل الدراسي الجاري كتب إلى مينا توبلر ما يأتي: «لقد كان ذلك بالطبع ـ وأكثر مما كنت أنتظر ـ مبعثاً للألم، بل إن ذلك فاق حدود إمكاناتي. ولكن لا جديد في هذا كله ـ أما «الجانب الآخر»، فبما فيه من عزلة أكيدة ومقابل كل الأصحاء وحتى من الأقرب إلي فإني قد تعودت عليه»[64].

إن رفض فيبر قبول شغل كرسي دراسات في فيينا لا يعود بالطبع إلى رفضه، بعد هذه التجربة المؤلمة، العودة إلى أي وظيفة

(61) انظر: Heuss, *Erinnerungen 1905-1933*, S. 225.

(62) رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر، الثلاثاء (7 أيار/ مايو 1918).

(63) رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر «غير مؤرخة» [16 حزيران/ يونيو 1918].

(64) رسالة ماكس فيبر إلى مينا توبلر بتاريخ السبت صباحاً (15 حزيران/ يونيو 1918). ملكية خاصة.

تعليمية، بل بسبب رغبته لأسباب سياسية، البقاء في ألمانيا[65]، ولأن ثمة عروضاً مهنية أفضل عرضت عليه في هذه الأثناء. فقد كانت إحدى هذه الإمكانات تتمثل بأن يخلف ليو برنتانو (Leo Brentano) في ميونيخ، وهي المدينة التي كان، بعد هايدلبرغ وبعد التطورات التي حصلت بين 1916 و1918، الأكثر التصاقاً بها[66]. وكان من الواضح حين ألقى محاضرته «السياسة بوصفها حرفة»، أنه على الرغم من تجربة فيينا، سيعود مجدداً إلى ممارسة العمل التعليمي. ولذلك أسبابه الاقتصادية أيضاً. إذ إن فيبر لم يعد قادراً لوقت طويل العيش بعد الآن **من أجل** عمله. فقد وجب عليه أيضاً العيش **من** عمله مجدداً إذ كان بحاجة إلى مرتب دائم.

بقدر ما كان يرغب في تحصيل هذا المرتب كلياً بواسطة قلمه أو كسبه له بوصفه أستاذاً مساعداً حراً، فإن الأمر بدا له أنه لن يظل ممكناً بعد ذلك. إذ إن العودة وحدها إلى كرسي أستاذية أو كرسي أستاذية فوق العادة هي التي قد تؤمن له استقراراً مادياً. إلا أن ذلك، وكما بدا من الدرس الاختباري في فيينا، يعني مزيداً من

---

(65) جاء، من ضمن أمور أخرى، في كتابه الذي حمل إلى الوزارة في فيينا رفضه التعليم، ما يأتي: «إن النية في الانتقال إلى فيينا تولد فيَّ الإحساس بالتخلي عن كل انشغال سياسي. إلا أنه يصعب وفي ظل الظروف الراهنة الانسحاب من واجب العمل السياسي حتى لو كان ذلك في أجزاء بسيطة من ألمانيا». رسالة ماكس فيبر في (5 حزيران/ يونيو 1918) إلى وزارة الثقافة والتعليم (مطبوعة على الآلة الكاتبة، مع تصحيحات من ماكس فيبر).

(66) انظر ليبسيوس، م. راينر (Lepsius, M. Rainer) ماكس فيبر في ميونيخ، خطاب بمناسبة إزاحة الستار عن لوحة تذكارية في: *Zeitschrift für Soziologie*, 6 (1977), S. 103 - 118,

من المعلوم أن فيبر بعد عودته ألقى بانتظام العديد من الخطب العامة: في جمعية التقدم، في جمعية العلوم الاجتماعية، وأمام اتحاد الطلبة الأحرار في ميونيخ. كذلك كانت مقالاته تنشر دورياً في: *Münchner Neuesten Nachrichten* وفي *Frankfuter Zeitung*. يضاف إلى ذلك علاقاته الشخصية مع إلسي يافي.

الحذر في كل الأحوال. وقبل وقت قصير من إلقائه محاضرته «السياسية بوصفها حرفة» كتب إلى إلسي يافي أنه كان يعي تماماً، «إن قبولي الوظيفة التعليمية والخروج بالطبع من كل عمل «سياسي» يعني كسبي لصحتي، إذ ليس بإمكاني تحقيق الأمرين معاً (الصحة والسياسة)»[67].

قبل فيبر دعوة جامعة ميونيخ في آذار/ مارس من العام 1919، رغم عرض إمكانيات أخرى فعلية متنازلاً عما كان يراه في هذه الأثناء، بل يمكن القول أخيراً عن: نهاية اللعبة، فرساي، أي في الواقع عن حبه الأثير، عن السياسة[68]. لقد كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر الإقرار بفشل سياسي، وما تبع بعد ذلك من استغراق في العمل العلمي لم يكن إلا هروباً من حيث الشكل فقط، إذ عبر عن ذلك في ما تبقى له من عمر لم يتجاوز سنة ونصف، مفسراً بذلك متابعة مزاولته المعركة السياسية، لكن بوسائل أخرى[69]. إن ذلك يعني أن هذا التنازل، الآن، ونسبةً إلى ما تميزت به حياة فيبر من تنقل بين العلم والسياسة مجرد تضحية دون شك، تضحية ما كان له أن يقوم بها في أي وقت من الأوقات. ومن الممكن أنه يجب أن لا نحمّل الوضع أكثر مما يحتمل، إذ إن أمل فيبر كان قد خاب، لدرجة أنه لن يتحمس لفرساي، لا لاستراتيجيتها ولا لأهدافها[70]. ومع ذلك، يجب علينا في البحث عن العوامل أن لا نقلل من قيمة الحدث. إذ إنه منذ نهاية الحرب، على الأقل، لم يعد بالإمكان بالنسبة إلى فيبر، وبغض النظر

---

(67) رسالة فيبر إلى إلسي يافي في (20 كانون الثاني/ يناير 1919) (ملكية خاصة).

(68) عن السياسة باعتبارها حباً أثيراً، انظر رسالة إلى مينا توبلر، دون تاريخ.

(69) انظر: Guenther Roth, «Weber's Political Failure,» *Telos*, No. 78 (Winter 1988/ 1989), S. 136-149.

(70) انظر مقدمة مومسن للجزء (MWG I/16, S. 30 f.).

عن التركيبات السياسية التي صارت أكثر رخاوة، الاختيار بين التزامه العلمي والتزامه السياسي اليومي. بالتأكيد: إن التطور السياسي الحاصل منذ ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر، وبالشكل الذي تحقق فيه هذا التطور قد سهل له الابتعاد عن السياسة اليومية. لكن ذلك لا يعني بالمطلق، أن خياره كان سيصبح مختلفاً لو قُدّر له نجاح أكبر في عمله السياسي اليومي. ذلك أن فيبر كان فعلاً صاحب قضية سياسية ذات مستوى رفيع، فقد كان إنساناً ذا قيمة عامة، إلا أنه لم يكن في الواقع رجل سياسة محترف. ولم يكن، في كل الأحوال، سياسياً حزبياً يقدر أن يعتاش كلياً من السياسة. ولذلك فقد ارتكب، كما كان يرى هو بالذات، عدة أخطاء تكتيكية[71]. كان عليه أن يظهر حاجة كبيرة في الاستقلال عن السلطات السياسية، وعن الشعب أيضاً. وكان عليه كذلك أن يبدي استقامة صريحة تجاه وضع لم يكن مريحاً[72]. إلا أن إسهامه الحاسم في السياسة الألمانية لا يقوم من خلال ممارسته للسياسة اليومية والمؤقتة[73]، ولا عبر إسهامه الجزئي كذلك في الصحافة السياسية مع ما له من تأثير[74]، بقدر ما يقوم على فكره

---

(71) حول الصفات الثلاث التي يتميز بها السياسي، «الحماسة، والشعور بالمسؤولية وبعد النظر» (انظر الصياغة في «السياسية بوصفها حرفة»، ص 341 من هذا الكتاب). إلا أنه في مواقفه السياسية اليومية أسقط بعد النظر كما يُستدل من خطاباته الانتخابية في كانون الأول/ ديسمبر 1918 وعام 1919. ثم إنه وبسبب الجهد الحماسي في المعركة الانتخابية أسقط أحياناً ما كان قد سجله بقلمه. وقد اقترف بعض الأخطاء التكتيكية كما حصل في أثناء ترشحه لانتخابات مجلس النواب، انظر: (MWG I/16, S. 15).

(72) هذا ما رآه بوضوح كارل ياسبرز، انظر: Jaspers, *Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph*, S. 67-68.

(73) من حيث الأساس يمكننا فقط تأويل التزامه مع الحزب الديمقراطي الألماني فقط.

(74) يشار هنا بالتأكيد إلى التأثير المرتبط بالقرارات حول دستور سياسي التي أوصلت في نهاية الأمر إلى دستور دولة فايمار: انظر حول ذلك رأي مومسن: (MWG I/16, S. 12)، «إن تأثيره قد ترك مع ذلك آثاره: فقد تمكن، على الأقل، على هذا الصعيد، وإن بشكل غير مباشر وبواسطة عضو آخر، أن يؤثر في القرارات السياسية الراهنة، وإن لم يكن =

السياسي الذي يجعل الممارسة السياسية ممكنة، وتستحق اسمها. وفي هذا السياق تندرج محاضرته «السياسة بوصفها حرفة». إذ إنه يتنازل فيها بوعي كامل عن الإشارات المباشرة إلى المواقف السياسية اليومية، علماً أنه أشار إليها مراراً[75]، محاولاً بدلاً من ذلك تقديم إسهام يتعلق بنظرية السياسة، أو بحسب تعبيره: «حول نظرية الدولة وعلم اجتماع الدولة»[76]. وفي هذا الاعتبار صارت المحاضرة التي قدمها، والمعدة للطباعة رسالة سياسية، وفي الوقت نفسه «وثيقة حول حالة الفكر الديمقراطي في تلك اللحظة الحساسة من التاريخ الألماني» كما ورد في صياغة صائبة أطلقها إيمانويل بيرنباوم مقدماً نظرة استرجاعية حول الوضع[77].

كان لقرار فيبر العودة إلى الجامعة والانقطاع عن كل عمل سياسي إلى جانب أسبابه الخارجية أسباباً داخلية قوية أيضاً. وبالرغم من خطبه السياسية العديدة وعمله السياسي الصحافي الكثيف، وبالرغم من تنامي التزامه بالسياسة اليومية، فقد ظل أيضاً ومنذ العام 1916 وحتى العام 1919، باستمرار وبالدرجة الأولى رجل العلم. فقد توالت دون انقطاع إصدارات مخططاته حول علم

= بالشكل الكافي». يستند هذا الرأي إلى العمل الصحافي الذي مارسه فيبر، وإلى إسهامه في العمل الاستشاري حول إعداد الدستور الذي قام به في إدارة الدولة في أثناء عمله في وزارة الداخلية بين 9 و12 كانون الثاني/ يناير 1918 في برلين.

(75) انظر «السياسة بوصفها حرفة» بداية النص.

(76) انظر ص 265 ـ 266 من هذا الكتاب.

(77) انظر: Immanuel Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber,» in: René König und Johannes Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, 2. Aufl. (Köln/ Opladen: Westdeutscher Verlag, 1985), S. 21,

من الآن فصاعداً: (König und Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*).

اجتماع الدين والأخلاق في الديانات العالمية. وفي الأرجح، إن لم يكن من المؤكد، أنه وباستثناء «مقدمة» دراسته عن الكونفوشيّة ودراسته بعنوان «Zwischenbetrachtung» أصدر دراساته، مستعيداً في ذلك مخطوطات قديمة تعود إلى شتاء العام 1915/1916، بالشكل الذي نعرفها فيه الآن[78]. إلا أن هذه المخطوطات تشكل فقط النتائج المرئية لبرنامج عمل ثقافي نظري وثقافي تاريخي ضخم، كانت معالمه قد وضعت حتى قبل الحرب العالمية. وما كان خروج فيبر من العمل التطوعي إلا ليكسب هذا المشروع معالم واضحة. إذ خضع المشروع بعد ذلك للتكثيف، والاختصار وللتوسيع أيضاً. إذ إنه منذ عام 1915 كان قد توقع، إلى جانب ما كان قد قدمه منذ إعلان الحرب من إسهامات موسعة وفي مستقبل ليس ببعيد، إعادة العمل على «الأخلاق البروتستانتية». وحين قرر فيبر العودة إلى الجامعة، كان العمل الذي قام به في إطار هذا المشروع المزدوج متقدماً جداً. إذ إن حياة التأمل، التي تقتضيها متطلبات تحقيقه، كانت ومنذ زمن طويل في حالة صراع مع الحياة العلمية التي تتمثل بالممارسة السياسية الفعلية اليومية. ورغم الألم الذي تسببه له قاعات المحاضرات[79]،

(78) انظر البرهان على ذلك: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 2, Kap. 13, S. 557-596.

(79) ينطبق ذلك أيضاً على الفترة التي قضاها في ميونيخ، حيث نال كما في فيينا نجاحاً باهراً في محاضراته. ألقى محاضراته أمام مئات الطلاب، وعادة في قاعة محاضرات كبرى. مع ذلك، لم تسبب له المحاضرات أي سعادة. «إن قراءة المحاضرة أمر إلزامي - وغير مريح، ولا يناسبني ذلك على الإطلاق. إن أسلوب الكتابة وأسلوب التخاطب أمران مختلفان، وهذا ما يحاول العديد من الناس نسيانه أو الإقلال من شأنه». «أما المحاضرة فهي تقتضي استخدام أسلوب خطابي، إذ إن على الطلاب الشباب التمكن من كتابة ما يملى. وأنا أعرف مدى جدوى ذلك». من رسالة إلى مينا توبلر في 3 كانون الثاني/ يناير (1920). وقد سبق له في رسالة سابقة أن قال: «إن الأمر المضني في المحاضرات، وأنا أترقب ذلك مسبقاً، =

فإن بإمكان هذه القاعات، وخلافاً لما هو عليه الأمر على المنابر السياسية الخطابية، أن تستخدم بشكل مباشر لإطلاق برنامج عمله. إن التخلي عن السياسة اليومية قد جعل حياة فيبر من هذه الناحية حياة أكثر سهولة[80]. فقد قبل الدعوة للذهاب إلى ميونيخ في ظل هذا الشرط، أي أن يتاح له أيضاً أن يدرّس بدلاً من مادة الاقتصاد الوطني مواد علم الاجتماع ونظرية الدولة[81]. إذ يجب أن تشكل الكتابة، والكلمة (الملقاة) وحدة كاملة بقدر الإمكان. لقد سبق له أن حاضر في فيينا حول علم اجتماع الدين والسلطة استناداً منه إلى ما سبق له وحضره في كتاب **المجمل** (*Grundriß*). وفي الفصل الصيفي من عام 1919، وهو أول فصل دراسي له في ميونيخ، أضاف إلى تقديمه للمفاهيم الأساسية «المقولات العامة حول العلم الاجتماعي»[82].

= هو: إن أسلوبي يختلف حين أحاضر عنه حين أكتب. باستطاعتي وبشكل طليق أن أتحدث بشكل «حر» وبالاستعانة بملاحظات. أما في المحاضرات فعلي أن أعمد إلى اختيار صياغات مسؤولة، وهذا متعب للغاية، على الأقل، بالنسبة إلي، لذلك علي أن أتكلم بأسلوب كتابي، أي أن أتعب وأتألم وهذا ما يسبب ألماً في الدماغ»، رسالة إلى مينا توبلر، السبت (26 تموز/ يوليو 1919). (ملكية خاصة).

(80) لهذا التبسيط أيضاً جانبه الشخصي: إذ إن المجموعة التي تضم ماكس فيبر، ماريان فيبر، مينا توبلر، إلسي يافي، ألفريد فيبر قد تغيرت. والعودة إليها تعطي صورة كاملة. وهذا ما لن نقوم به هنا. ولا تعني العودة (إلى الجامعة) إبعاد فيبر عن التدخل في الأحداث السياسية اليومية، كما هو الحال بشأن القضية ضد إرنست تولر (Ernst Toller) وأوتو نويراث (Otto Neurath)، أو في قضية أركو (Arco). إلا أن ذلك لا يغير شيئاً في الأمر، ذلك أن فيبر، وكما يقول مومسن «قد اتخذ لنفسه دور العالم طيلة حياته» (MWG I/16, S. 37).

(81) راجع رسالة ماريان فيبر إلى هيلين فيبر بتاريخ 17 شباط/ فبراير (1919). «ثمة عرض من بون، تدريس لساعتين أسبوعياً، مع كل ما يريد مقابل MK 20,000، مرتب مضمون!!. وهذا مثير حقاً. وإذا قبلت ميونيخ أن يدرس ماكس علم الاجتماع بدلاً من الاقتصاد، وإذا قبلت بوقت محدود (أربع ساعات)، فإننا سنذهب بالطبع إلى ميونيخ، علماً أن المرتب المعروض هناك متواضع جداً».

(82) قابل: رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر، الاثنين، بعد الظهر (16 حزيران/ يونيو =

هكذا وبعد محاضرته عن «السياسة بوصفها حرفة» تخلى فيبر عن المنبر الخطابي السياسي، ليجد نفسه مجدداً منكباً على الكتابة، وفي قاعات التدريس. وبالرغم من العمل العلمي الكثيف الذي حققه كان عليه أن يحقق أيضاً برنامج عمل ضخم. وكانت نواة هذين المشروعين الكبيرين «القوى والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية» و«مجموع الدراسات حول علم اجتماع الدين». وكان يقدر للأول أن يتكون من عدة أقسام، والثاني من أربعة أجزاء[83]. أضف إلى ذلك أنه أراد العودة إلى ما ابتدأ به العام 1910. وقد عاد إليه أيضاً على مدى أعوام، لكن دون أن ينهيه. ونعني بذلك علم اجتماع الموسيقى والفن وفن العمارة والآداب، وهو حقل بالغ الأهمية وربما كان جورج لوكاش محاوره العلمي الأساسي فيه منذ العام 1912 حتى العام 1918[84]. إلا أن فيبر قد أبدى اهتمامه بأن ينهي الأعمال التي كان قد بدأها بين تشرين

= 1919). منذ لحظات قمت بإرسال الإعلان ـ عن المحاضرة إلى رئاسة الجامعة، وسأبدأ يوم الخميس (5 ـ 6). (عن المقولات العامة والمختلفة في العلم الاجتماعي) وقد تم الإعلان عن التدريس لمدة ساعتين أسبوعياً طيلة الفصل الشتوي لعام 1919/ 1920 «تاريخ علم الاقتصاد» إلى جانب ساعتين وعن «الدول، الطبقات، والمراتب». إلا أنه تخلى عن هذه المحاضرات من أجل القسم الأول الذي حاضر فيه بمعدل أربع ساعات تحت العنوان الآتي: «Abriß der universalen Sozial - und «Wirtschaftsgeschichte»» . أما في الفصل الصيفي من عام 1920 فقد حاضر بمعدل أربع ساعات حول علم الاجتماع السياسي، «نظرية الدولة»، وبمعدل ساعتين عن «الاشتراكية». وإذا ما استثنينا تاريخ علم الاقتصاد، فإن هذه الموضوعات تظل على انسجام مباشر مع إسهامه في الكتاب الأساسي *Grundriß*. وأما تاريخ علم الاقتصاد فقد عرضه فيبر بإلحاح من الطلاب فقط. ففي رسالة له إلى مينا توبلر (من دون تاريخ (الأرجح في 15 كانون الثاني/ يناير 1920) نجد حول ذلك ما يأتي: «هذه المادة تشعرني بالملل لما تستوجب من عجلة لا تليق بها».

(83) انظر: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 2, S. 610 und S. 579.

(84) قرأ فيبر مخطوط لوكاش عن الجمالية بشكل دقيق، إذ كان لوكاش قد أعدها بين 1912 و1918 لتكون رسالته من أجل التأهل في الفلسفة في جامعة هايدلبرغ. ونحن نجد انعكاساً لهذه القراءة في محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، انظر ص 199 من هذا الكتاب. أما =

الثاني/ نوفمبر 1917 وكانون الثاني/ يناير 1919، وأن يقدمها لتكون جاهزة للطبع. هذه كانت خطته، وهي تهدف لتأسيس علم الاجتماع التفسيري، الذي يعتبر نظرية في الممارسة والنظام والثقافة، وهو علم يقع تحديداً بين علم النفس والعقدية القانونية، وهو نقيض «ما يحققه الفلاسفة الهواة من إنجازات»، إذ تطور بشكل علمي موضوعي، ولخدمة المعرفة التاريخية، وفي الوقت نفسه من أجل معرفة الحاضر وميوله التطورية أيضاً[85]. إن على علم كهذا يقوم على الخبرة أن يقدم معرفة تتعلق بالذات وبمعرفة تاريخية موضوعية. كما إن عليه أن يحمل للشبيبة الأكاديمية العازمة على العمل باستقامة بُعد النظر والشعور أن مستقبل هذا الوطن السعيد لن يكون محكوماً بهذه الفضائل المعاشة التي ارتبطت «بقسوة القلب»، وهي قسوة أصبحت «عائقاً أمام تحقق كل الآمال»[86].

وبالفعل، لقد وضع فيبر أمله بألمانيا وبشكل متزايد، وإلى جانب النظام التقني لطبيعة الدولة، في السلوك الأكاديمي عند الشبيبة. فقد عاد ليذكر في خطابه حول إعادة بناء ألمانيا في الثاني من كانون الثاني/ يناير 1919 أن الوطن (Vaterland) «ليس أرض **الآباء**، بل هو أرض **الأبناء**»[87]. وعلى هذه الشبيبة، بإمكاننا أن نتابع، أن

= الشريك الآخر في هذا السجال فكان بالطبع عازفة البيانو مينا توبلر التي كانت شريكة نقاشاته حول مسائل الموسيقى.

(85) في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 كتب فيبر إلى ناشر مؤلفاته بول سيبيك (Paul Siebeck)، معبراً عن رغبته في إعطاء الجزء الخاص به من (*Grundriß*) طابعاً تعليمياً «أنا أعتقد أنه الأجدى بالنسبة إلى هذا الأمر، وحتى يصار أخيراً إلى التطرق إلى علم الاجتماع بشكل موضوعي، بدلاً من التوجه الذي يقوم به الفلاسفة غير المختصين. يجب بالطبع أن لا نستنتج من ذلك أنه أراد أن يكتب كتاباً يتميز بالتجريد والجفاف. فقد نفى فيبر هذا بقوة». انظر ملاحظته إلى الناشر بداية العام 1920. والرسالتان من محفوظات سيبيك، ميونيخ.

(86) هكذا في «السياسة بوصفها حرفة»، الصفحة الأخيرة من النص.

(87) (MGW I/16, S. 419).

تتعلم معنى أن تمارس حياتها، وأن تكوّن شخصيتها. وبتتبع علم اجتماع فيبر، نجد أن هذه الأشكال قد افترضت أيضاً وجود «روح» محددة بشكل مسبق. في رسالة لافتة إلى أوتو كريسيوس (Otto Crusius)، أستاذ فقه اللغة الكلاسيكية في ميونيخ وأحد المشاركين في المؤتمر الثقافي في لونشتاين كتب فيبر في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، أي قبل أن يسقط في المعركة الانتخابية، أن الحل الذي يعمل عليه في المسألة الثقافية يتعلق بالدرجة الأولى باستعادة «الاستقامة» الأخلاقية. ولا يوجد وسيلة من أجل تحقيق هذا الواجب الأخلاقي القوي إلا «المنتدى الأميركي» - و**الحصري**، أي **اختيار** الأشخاص المنتسبين إلى جمعيات من كل الأنواع، وذلك في سن الطفولة أو في سن الشباب **دون** أخذ الغايات في الاعتبار: توفر الشروط في ذلك شبيبة ألمانية حرة، تتمتع «بالعقل»، وتتمتع، إلى جانب ذلك، بالموضوعية وبرفض كل أنواع التخدير العقلية أيضاً، بدءاً بالتصوف وصولاً إلى «التعبيرية». بذلك فقط يمكن خلق شعور بالحياء، يمكنه وحده أن يولّد «موقفاً سياسياً وإنسانياً أيضاً يكون بديلاً للشعور المقيت القائم على استعراض الانكسار الداخلي»[88]. من هنا يبدو لنا كيف يربط فيبر هذا الأمل بالشبيبة الألمانية الحرة، ومنها أيضاً رابطة الطلاب الأحرار، وكيف بإمكاننا اعتبار هاتين المحاضرتين أمام رابطة الطلاب الأحرار في ميونيخ جزءاً من موقفه في هذا السياق. هذا ما يقود إلى السؤال، كيف تسنى لفيبر أن يطور علاقته مع الشبيبة الألمانية الحرة، وبشكل خاص مع رابطة الطلاب الأحرار، وبذلك نطرح السؤال الآخر عن الرابط الدقيق مع قصة إطلاق هاتين المحاضرتين «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة» أيضاً.

---

(88) انظر: Weber, *Max Weber: ein Lebensbild*, S. 647 f.

النص المشار إليه هنا مأخوذ مباشرة من الأصل: أرشيف الدولة المركزي.

3 ـ التاريخ الدقيق لهاتين المحاضرتين

في أثناء دراسته القانون وعلم الاقتصاد السياسي على مدى فصول ثلاثة في جامعة هايدلبرغ، بدأها في الفصل الصيفي عام 1882، التحق فيبر بحزب «Alemannia» في هايدلبرغ. وأيد بوصفه طالباً طريقة حياة هذا الحزب وأخلاقياته الخاصة، وهذا ما كان يدور حول قدراته على الاكتفاء وحول طريقته في ممارسة لعبة المبارزة بالشيش. ومع أنه، منذ حداثة سنه بوصفه عالماً، شكك في تحليلاته عن البورجوازية الألمانية المتسلطة التي كانت في طور التكون، بالقيمة التربوية ذات العلاقة بتكوين روابط طالبية وجيش احتياطي، فقد ابتعد بمرور الوقت عن هذه المؤسسة التي تقول «بأخلاق» و«بشرف» عسكري أو طالبي بشكل واضح(89)، إلا أنه خرج، في الأرجح، بعد ثورة 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 عن التزامه هذا، ولاسيما في جداله حول القيمة الرمزية لارتداء الألوان(90). تحدث فيبر، في بداية الأمر، في تجمعات عامة عن ماهية اللون كما لو كان عبثاً أو مجوناً إقطاعياً لا ينتمي إلى الحاضر ولا يفيد أحداً أبداً، إذ إنه في كتاب انسحابه وفي تبريره لشكل الحياة الطالبية نفى أن يكون له أي أثر في النظام الجديد في ألمانيا أو في قدرتها على الإصلاح. فقد أوضح في محاضرة له في 13 آذار/ مارس 1919 حول «الطالب والسياسة»، التي ألقاها قبل قبوله بوقت قصير دعوة جامعة ميونيخ، أمام جمهور مكوّن حصرياً

---

(89) انظر: Wolfgang Schluchter, *Rationalismus der Weltbeherrschung. Studien zu Max Weber* (Frankfurt: Suhrkamp, 1980), Kap. 4, S. 167 f., من الآن وصاعداً: (Schluchter, *Rationalismus der Weltbeherrschung. Studien zu Max Weber*).

(90) (MGW I/16, S. 191-195)، تاريخ انسحابه غير واضح.

من الطلاب[91]، أوضح أن تحفظه السياسي على جوهر الألوان يستند إلى «إقصائيته عن قاعدة القدرة على رد الاعتبار أو الاكتفاء»[92]. والحالة الإقصائية هذه تستبعد عملية الدمقرطة. فهي تستند إلى فهم خاطئ للموقع الذي يتميز به الأكاديمي. ويجب علينا، في كل الأحوال، أن لا نؤسس رأي فيبر المعلن هذا على أطروحاته المهنية، بل علينا أن ننسبها إلى سياق حياة روحية أرستقراطية ترفض من خلال سياق حياة محددة عودة انبعاث الإقطاع، ولا تكون عائقاً بوجه حياة من ليس أكاديمياً.

هكذا يعلن فيبر رفضاً جذرياً بوجه الحركة الطالبية التي ترتدي لوناً معيناً. إذ إنه يعتبر ذلك، من حيث الشكل والروح، أمراً لا يتوافق مع شكل الدولة الذي يسعى إليه مستقبلياً، أي شكل الجمهورية البرلمانية. إلا أن رفضه يطال أيضاً جزءاً من الحركة الطالبية التي لا تلتزم ارتداء لون معين. ويتضح هذا، في كل الأحوال، من التقرير الذي سبق حول المحاضرة. ينتقد فيبر «المظاهر

---

(91) ألقيت المحاضرة أمام الاتحاد السياسي للطلاب الألمان، في ميونيخ. وفي الإعلان الرسمي عنها جاء ما يأتي: «يسمح بدخول الطلاب فقط». عدا ذلك أعلن فيبر رسمياً خلال هذا الحفل أنه سيودع العمل في السياسة بقبوله كرسي ليو برنتانو (Lujo Brentano). وفي 14 آذار/ مارس 1919، أوردت **جريدة ميونيخ** (*Münchener Zeitung*) الملاحظة الآتية: «في اجتماع طالبي، سنعود للحديث عنه في موقع آخر، أعلن السياسي الديمقراطي، الأستاذ ماكس فيبر (هايدلبرغ)، أنه في اللحظة التي يلتزم فيها القبول بالانضمام إلى الجسم التعليمي في جامعة ميونيخ، فإنه سيودع العمل في السياسة. إن كلاهما من الأمور الصعبة، أي ممارسة العمل السياسي وتقديم وقائع نافعة ومعارف ترتبط بالعلم. ويعتقد الأستاذ فيبر، في الأرجح، أن قبوله الأستاذية في ميونيخ بدلاً من برنتانو سيوجب عليه القيام بواجبات ومهام علمية كبيرة، غير ما كان عليه الأمر في هايدلبرغ حيث كان وكما هو معروف من المتحمسين سياسياً». انظر: (MGW I/16, S. 483). وما لم تكن تعرفه الجريدة، في الأرجح، أن فيبر، ومنذ مرضه، لم يساهم بأي نشاط تعليمي.

(92) (MGW I/16, S. 482-484).

التي باتت معروفة في أوساط حركة الشبيبة الأحرار التي تقوم في الأساس على التحرر من السلطة التي جرى الترويج لها بقوة في الأدبيات الشديدة الحذر، إذ إن على هذه أن تناسب أجساد الذين يتمتعون بسلامة العقل». ومع أنه لم يأتِ على ذكر أي اسم، فإن ما لا شك فيه، أنه كان يعني بذلك غوستاف فينكن (G. Wyneken) وأنصاره[93]. فقد سبق له أن دخل في نقاش نقدي معه أثناء انعقاد المؤتمر في لونشتاين بورغ. ومن ثم أبدى تعاطفه، بشكل واضح، مع المجموعات الطالبية، مثل الطلاب الأحرار على سبيل المثال، لأنهم كانوا أصحاب توجه يقول بأن فكرة الجامعة هي عبارة عن هيئة

---

(93) قابل بشأن ذلك التقرير حول أول مؤتمر عن الثقافة عقد في لونشتاين بتاريخ 29 إلى 31 أيار/ مايو 1917، حيث نجد ما يأتي: «قصد فيبر التوجه بنقده إلى حركة الشبيبة التي كانت تعمل على ما يظهر ضمن الاتجاه الذي قال به فينكن، وقد فعل ذلك مُظهراً قسوة كبيرة، إذ إنه أضاع جزءاً كبيراً من التعاطف الذي لقيه من جانب الحضور أول الأمر. انظر: (MWG I/15, S. 703).

إن رفض فيبر لما يقول به فينكن نجده أيضاً في موقع آخر، حيث نجد ربطاً مباشراً بمحاضراته عن العلم بوصفه حرفة والسياسة بوصفها حرفة. ففي رسالة من فريتيوف نواك (Frithjof Noack) في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924 إلى ماريان فيبر، والتي يتابع فيها استقصاءاته حول ظروف نشأة هاتين المحاضرتين نجد ما يأتي: «أبدى فيبر سروره لعدم الوقوع على فينكن ليقدم محاضرة حول التعليم والتربية: إذ كان من المدجلين على الشبيبة». ثم إن لهذا الرفض وقع آخر، إذ إن ألفريد فيبر شقيق ماكس كان نفسه من مؤيدي فينكن. حول تأثير فينكن على عقول أخرى، راجع رسائله مع فالتر بنيامين الذي كان من مؤيديه أول الأمر قبل أن يختلف معه كلياً. انظر حول ذلك: «Götz von Olenhusen, Irmtraut und Albrecht, Walter Benjamin, Gustav Wyneken und die Freistudenten vor dem Ersten Weltkrieg,» in: *Jahrbuch des Archivs der deutschen Jugendbewegung*, 13, (1981), S. 99 - 128, und Walter Benjamin, *Gesammelte Schriften*, hg. von Rolf Tiedemann und Hermann Schweppenhäuser (Frankfurt: Suhrkamp, 1977), Band II, S. 9 - 87, S. 60-66,

حول العلاقة بين جمعية الطلاب الأحرار والتجمع الحر. الجزء الثاني ص 824 ـ 888 الرسالة التي أعلن فيها فالتر بنيامين ارتداده عن فينكن هي على الصفحات 885 ـ 887.

تؤمّن التربية والعلم، وتؤمن بتربية الاستقلالية والاعتماد على الذات من خلال التعامل مع مسائل الاختصاصات العلمية والتنازل في عملها عن كل وعي استثنائي مصطنع، وكل تربية تعتمد التكتل السياسي أو الحزبي[94].

وبالفعل، فقد احتلت جمعية الطلاب الأحرار، في إطار الحركة الطالبية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى وضع النظام الألماني الجديد في ألمانيا بعد الحرب العالمية، موقعاً متميزاً إذ أدت دوراً بالغ الأهمية من حيث التطور التاريخي. وبالرغم مما لاقته هذه الحركة من مقاومة وقذف من جانب خصومها على اختلافهم، سواء كانوا يهوداً أو اشتراكيين، متطرفين أو مسالمين، منادين بالعمل الجماعي أو ذاتيين، فإن هذه الحركة تعتبر في العصر الحديث «الحاملة بوعي لكل الجهود الاجتماعية، التي جعلت نصب عينيها سعادة كل الطلاب الضعفاء اقتصادياً». أضف إلى ذلك أنها كانت، من خلال التركيز على العمل الطالبي الجماعي في المعاهد العليا وعلى وجوب إيجاد لجنة طالبية عامة، الممهد لوجود حركة طالبية موحدة كبيرة، ما أوصل إلى الهدف في العام 1919 بتأسيس اتحاد الطلاب الألماني[95]. توافقت معركة الحركة آنذاك مع بنية النظام القيصري من حيث الترابط الوثيق مع الموقع المتميز الذي خصت به الجمعيات المهنية التشاركية. وحركة

---

(94) حول هذا الأمر الأخير، انظر التقرير الصحافي في: (MWG I/16, S. 484)

(95) انظر: Friedrich Schulze und Paul Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*, 4. (München: Verlag für Hochschulkunde, 1932), S. 381,

طبعة منقحة كلياً.

من الآن وصاعداً: (Schulze und Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*).

الطلاب الأحرار التي بدأت باسم Finkenschaftsbewegung[96]، حركة تعتبر نفسها تجمعاً مضاداً للجهود التي كان يبذلها الطلاب لتأسيس هيئات وجمعيات مع بداية القرن. أما الهدف الذي أخذت هذه الحركة على عاتقها تحقيقه، فقد جعلها تتخذ قراراً جرى التعبير عنه عام 1906 إبان عقد مؤتمر الطلاب الأحرار في دولة فايمار. وقد جاء في القرار بين أمور أخرى: «إن الهدف الأخير والأسمى بالنسبة إلى حركة الطلاب الأحرار هو إعادة العمل بالحياة الأكاديمية القديمة، وتوحيد الحركة الطالبية بكاملها في جسم واحد مغلق، يصار إلى الاعتراف به من جانب السلطة في كل معهد عالٍ باعتباره يشكل كلاً إلى جانب الجسم التعليمي وكلية هيئة التدريس بحيث يكون ذلك جزءاً أساسياً من التعليم العالي يصار إلى إنزاله قانونياً في الدستور. ولا يمكن لهذه الحركة الطالبية الشاملة أن تحصل على تمثيلها من خلال لجنة فرعية تضم فقط بعض المنتسبين إلى أحزاب معينة، بل تُمثَّل عبر لجنة تضم كل الطلاب، وتستند إلى أسس برلمانية بحيث تجد كل مجموعة من الشباب الأكاديميين تمثيلاً مناسباً لها يشارك فيه كل الطلاب بشكل متساوٍ سواء من حيث الأكلاف أو من حيث الاستفادة، ولا يكون هذا التمثيل محجوباً عن أي جزء من الحركة الطالبية، حتى لو كان هذا الجزء قد تنازل عن التمثل فيها»[97].

كانت حركة الطلاب الأحرار بوصفها حركة تجميعية «لغير

---

(96) تم استخدام تعبير (Finken) طائر البرقش/ الدج أول الأمر على سبيل التهكم، كما استعمل أيضاً تعبير (Wildc) ومعناه (الحيوان الكاسر).

(97) Schulze und Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*, S. 420,

قابل أيضاً: Felix Behrend, *Der freistudentische Ideenkreis* (München: Bavaria- = Verlag, 1907),

المنتسبين» إلى جمعية أو نقابة (Nichtinkorporierten) ـ بلغة ذلك الوقت ـ حركةً تعددية منذ نشأتها. وقد قامت على مبدأ التسامح والحياد، تقدّر القناعات المستقلة، وتقتصر في عملها السياسي على الاهتمام بالشؤون والأمور الأكاديمية(98). هكذا استطاعت أن تجمع تحت سقف واحد، بشكل متزايد، الطلاب ذكوراً وإناثاً أيضاً من أصحاب الاتجاهات السياسية المختلفة ممن يقولون بنظريات مختلفة في رؤيتهم للعالم. إلى جانب ذلك، تختلف هذه الحركة بشكل كبير من جامعة إلى أخرى. وبالتالي، فإن حركة الطلاب الأحرار في ميونيخ التي وجهت الدعوة إلى فيبر لإلقاء هاتين المحاضرتين، كانت حركة ذات شخصية خاصة(99). انضوت كل المجموعات بالطبع إلى شعار الإقرار بفكرة الجامعة الألمانية الكلاسيكية، وآمنت قبل أي

= بتكليف من جمعية الطلاب الألمان الأحرار، انتقد الطلاب الأحرار الطلاب الذين «يغتبطون بالألوان» باعتبارهم النموذج الأصلي بين الطلاب، كما انتقدوا مبدأ سيطرة الهيئة النقابية، كما انتقدوا أيضاً مجالس الشرب الباكرة، والتقسيم الطبقي، وضعف الاهتمام بالتعليم في الحياة الطالبية. انظر المصدر المذكور، ص 18، بدلاً من ذلك دافع الطلاب الأحرار عن التربية الذاتية في إطار الإرث الثقافي الأكاديمي المشترك، حيث يظل الفصل حاسماً لأفكار وحدة العلوم، وحدة البحث والتعلم، ووحدة المتعلمين والمعلمين.

(98) حول مبدأ التسامح والحياد، المصدر نفسه، ص 29. لا يعني مبدأ الحياد، في أي حال من الأحوال، التربية السياسة، بل على العكس، إذ إن من خصائص الطلاب الأحرار الإصرار على الثقافة السياسية، ولهذا السبب فهم يهتمون في الأقسام التي يدرّس فيها الشأن الثقافي، ولاسيما أقسام العلوم الاجتماعية. المصدر نفسه، ص 33.

(99) كتب إيمانويل بيرنباوم الذي قدم بعد دراسة له في فرايبورغ وكونيغسبرغ إلى ميونيخ ليصبح في ما بعد زعيم حركة الطلاب الأحرار في ميونيخ في مذكراته ما يأتي: «حتى الحركة الطالبية لجمعية الطلاب الأحرار قد شكلت بالنسبة إلي قوة جذب كبيرة. فقد شكلت هناك من حيث برنامجها منعطفاً كبيراً بالنسبة إلى الأفكار السائدة في أوساط الطلاب الأحرار، إذ إنها لم تعتبر كل الطلاب غير المنضمين إلى الاتحاد طلاباً أحراراً، بل أعلنت منظمتها بوصفها حزباً أكاديمياً يعمل من أجل المساواة والتمثيل الانتخابي الطالبي وفك الارتباط بماهية ثقافية طالبية خاصة. كان بيرنباوم في الثمانين من عمره حين كتب مذكراته». =

شيء آخر بالتربية عبر العلم وبحرية التعلم والتعليم الأكاديمية[100]. ولهذا السبب بالذات كان السؤال الذي يُتطرق إليه عادة، بل السؤال المفتوح على الدوام هو كيف تُعرض هذه الأفكار، وكيف يتم تحقيقها في نظام جامعي ارتفع عدد طلابه بشكل كبير جداً منذ تأسيس الدولة[101]، في حين كانت بنيته ترزح تحت عبء ضغط الاختصاصات المتنامية في العلوم، والعلوم الطبيعية منها بشكل خاص. هذا وقد أظهر فيبر ردة فعله على هذه المناقشات: إذ تطرق بتوسع إلى هذا التطور في محاضرته «العلم بوصفه حرفة».

بلغت الحركة الطالبية ذروتها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وينطبق ذلك كذلك على حركة الطلاب الأحرار التي ستتميز منذ البداية عن كل الحركات الأخرى. وخلافاً للحركة الطالبية الحرة قامت حركة الألمان الأحرار من توافق عدد من جمعيات حركة الشبيبة، وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1913 في مؤتمر عقد في مايسنر (Meissner) في منطقة كاسل. ومن بين الجمعيات الطالبية كانت «عصبة الأكاديميين الألمان»، التي كانت في الوقت نفسه ضد النقابيين، وضد الحركة الطالبية الحرة[102]. ومنذ تأسيسها عام 1913 ظهرت الانقسامات داخل حركة

= انظر: Immanuel Birnbaum, *Achtzig Jahre dabeigewesen.* Erinnerungen eines Journalisten (München: Süddeutscher Verlag, 1974), S. 45,

من الآن وصاعداً: (Birnbaum, *Achtzig Jahre dabeigewesen*).

(100) انظر: Behrend, *Der freistudentische Ideenkreis*, S. 5-8.

(101) بين 1872 وحتى 1919/ 1920 ارتفع عدد الطلاب الجامعيين من حوالى 16000 طالب إلى 118000 طالب انظر: Schulze und Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*, S. 428 und S. 465.

(102) انظر: *Freideutsche Jugend: Zur Jahrhundertfeier auf dem Hohen Meißner 1913* (Jena: Eugen Diederichs, 1913), =

الألمان الأحرار. إذ سرعان ما ظهر الخصام المعلن بين الجمعيات التي تنادت للاشتراك فيها، ولاسيما بين الجمعيات التي كانت تعتبر الحركة بالدرجة الأولى حركة شبيبة ثقافية، والجمعيات التي كانت تعتبرها حركة جمعية شبابية. وكان الشعور القومي الخاص الذي أدى إلى توافق الجمعيات على الانضمام في جمعية واحدة رغم كل الاختلافات في ما بينها هو ما أدى بسرعة إلى انقسامها بعد أن جمعها أولاً[103]. ومع نهاية الحرب سادت التيارات المسالمة أجواء عصبة الأكاديميين. وهذا ما عزز التقارب مع حركة الطلاب الأحرار التي لم تتنازل في هذه الأثناء عن «وحدتها» الثابتة إطلاقاً[104]. وكان جو الأفكار الهادئة المسالمة هو الجو السائد حتى داخل هذه الحركة، وحتى منذ اندلاع الحرب. وتتضح الدلالة المتنامية للتوجه عند هذا القسم من الحركة الطالبية بما تمثل في «قضية فورستر».

= حول الشبيبة الألمان الأحرار الذين احتفلوا بعيدهم المئوي عام 1913 في Hohen Meiβner.
وقد حضرت الجمعيات الآتية: Deutsche Akademische Freischar, Duetscher Bund abstinenter Studenten. Deutscher Vortruppbund, Bund deutscher Wanderer, Jungwandervogel, Österreichischer Wandervogel, Germania-Bund abstinenter Schüler, Freie Schulgemeinde Wickersdorf, Bund für freie Schulgemeinden, Landschulheim am Solling, Akademische Vereinigungen Marburg und Jena, Dürerbund, Comeniusgesellschaft, Bodenreform, Völkerverständigung, Frauenbewegung, Abstinenzbewegung, Rassenhygiene.

(103) انظر: Alexander Schwab, «Die Richtungen in der Meissnerbewegung,» in: *Studentenschaft und Jugendbewegung*, hg. vom Vorort der Deutschen Freien Studentenschaft (München: Max Steinebach, 1914), S. 34 - 46,
لكن جماعة فينكن سرعان ما ظهرت مجدداً (وقد تم التصدي لها أيضاً).

(104) انظر: Schulze und Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*, S. 459-460,
وقد ورد فيه ما يأتي: «إن الحركة، وبعد اندلاع الحرب، لم تعد موجودة إلا في ما يقارب خمسة معاهد عليا».

وكان فريدريش فيلهلم فورستر (Friedrich Wilhelm Foerster) أستاذ التربية في جامعة ميونيخ، وقد مثل منذ وقت طويل، سواء من خلال كتاباته أو أقواله نزعة مسالمة تقوم على أسس مسيحية[105]. ونجد في أساس موقفه وفي دروسه، منذ العام 1917، دعوته إلى إقرار تفاهم سلمي فوري. وتكوّنت من أجل الوقوف بوجه التأثير الانهزامي المزعوم لأفكاره في الحركة الطالبية، كما يروي إيمانويل بيرنباوم (Immanuel Birnbaum) في مذكراته: «قامت بين الطلاب والطالبات في ميونيخ، لجنة اعترضت على دعاية فورستر ونشرت الفوضى أثناء إلقاء محاضراته. وقامت في الوقت نفسه لجنة مضادة بحماية المبشر النشط بالسلام»[106]. وأيد الطلاب الأحرار في ميونيخ هذه اللجنة المضادة. وأعلنت عدة جمعيات طالبية حرة أخرى، كما في بريسلاو وكونيغسبرغ، وبما في ذلك عصبة الأكاديميين الأحرار أيضاً، قرارات مؤذية لفورستر[107]. أما فيبر فقد اتخذ في المحاضرتين اللتين ألقاهما موقفاً من «قضية فورستر» التي أثارت نقاشاً حاداً في أوساط الطلاب الأحرار في ميونيخ. حيث استغل في محاضرته «العلم بوصفه حرفة» الفرصة لإيضاح المبدأ

---

(105) حول موقف فورستر انظر كتابه: *Politische Ethik und Politische Pädagogik* مع الأخذ بالاعتبار الطبعات الألمانية الآتية، ولاسيما الثالثة المنقحة: Friedrich Wilhelm Foerster, *Politische Ethik und Politische Pädagogik* (München: E. Reinhardt, 1918), S. 327-348, («Cäsar und Christus»),

وفيه نجد سجالاً بين فورستر وأوتو بومغارتن، ابن أخت ماكس فيبر.

(106) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabeigewesen*, S. 59.

(107) انظر: Schulze und Ssymank, *Das deutsche Studententum von den ältesten Zeiten bis zur Gegenwart, 1931*, S. 459-460,

انظر أيضاً توضيح طلاب هايدلبرغ الذي حمل توقيع إرنست تولر وإليزابث هارنيش (Elisabeth Harnisch)، في: *Die Tat. Monatsschrift für die Zukunft deutscher Kultur*, 9. Jg., Heft 9 (1917/18), S. 820.

المنطقي في إطلاق أحكام قيمية حول الحرية وما يترافق معها من رديف مؤسساتي، حرية التعليم والتعلم، أي التطرق إذاً إلى وظيفة الجامعة ودور الدرس الأكاديمي. وتطرق في «السياسة بوصفها حرفة» أيضاً إلى سمة الطهارة الأخلاقية التي ترتبط مع المسالمة في المسيحية، وإلى ما يتعلق بذلك من وهم ومن ابتعاد عن معنى الواقعية.

تُظهر «قضية فورستر» بحد ذاتها أنه: رغم التعاطف الذي أبداه فيبر بوضوح لحركة الطلاب الأحرار، بخلاف ما كان يعتقده في الحركة النقابية، فإنه رأى في هذه القضية «حركة تطور ناقصة». إذ إن العديد من آرائه كانت في هاتين المحاضرتين، مما أثار سخط الأعضاء المنتمين إلى هذا الوسط، وقد كانت بالفعل ذات طابع تحريضي. ولا يعود ذلك إلى نزعة فيبر المناهضة للسلم فقط، والتي صدمت آنذاك، كما ما زالت تصدم العديد من الناس. بل إن الأمر يعود أساساً إلى تشخيصه لمرض «الشبيبة الأكاديمية» التي كانت تأتمر، وإن جزئياً، بما تراه جمعية الطلاب الأحرار. كما يعود كذلك، قبل أي شيء آخر، إلى العلاج الذي وصفه للشفاء من هذا المرض. وقد رأى فيبر هذا المرض متمثلاً في «حنين الشبيبة الأكاديمية للتحرر من العقلانية العلمية من خلال تجربة نمط عبادة الشخصية واعتبار النفس بما طورت من استعدادات، وكأنها المهمة وحدها»[108]. إذ إنه، وكما هو الحال في قضية فورستر، ينسب المعلم لنفسه دور القائد أو، وهذا هو الأسوأ، حين يمارس الزملاء وبطهارة أقل وضوحاً وبشكل شخصي نبوءة تتلوّن بلون

(108) هذا ما أورده فيبر في مقالته: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 45.

الأساتذة[109]، فإن هذا المزاج الأساسي المضر سيصبح أكثر قوةً وبالتالي، لا يعود له أثر بالمقابل. وبالفعل، فقد أسس فيبر خطابه «العلم بوصفه حرفة»، بما تضمن من هجوم عنيف على «الخبرة» أو التجربة بوصفها الصنم الأعلى عند الشبيبة الأكاديمية ومع تصورها التقييدي لمهمة الجامعة ولدور الأستاذ الأكاديمي، لتحالف رافض بين معسكرين طالما كان أحدها ضد الآخر: بين «أنصار الثقافة والتربية» والمتحمسين لاستعمال «العقل العلمي». ثمة دائرة صغيرة فقط، حسب ما كتب بيرنباوم بعد محاضرة «العلم بوصفه حرفة»، وافقت على موقف فيبر من دون تحفظ. وتنتمي إلى هؤلاء تلك الفئة التي كانت قد تنبهت إلى ذلك من خلال مقالة (الأستاذ) هوسرل في مجلة *Logos* «الفلسفة بوصفها علماً محضاً»، ومن خلال الجدال المنهجي عند المؤرخ والنقاش المثار حول أحكام القيمة في الاقتصاد الوطني[110].

بالفعل، إن فيبر وبفهمه الخاص للعلم وللسياسة وبتصوره لمهام الجامعة وقيمتها التربوية، ما كان يقدّر له أن ينتظر موقفاً لا تجزئة فيه، لا بين الطلاب ولا بين زملائه الأساتذة. فقد تبنى، وبشأن التيارات السائدة في عصره، موقفاً أقلّوياً. وكما أظهر بيرنباوم في ملاحظته، كان هذا الموقف قد نسج خيوطه بعمق في تاريخ السياسة والعلم في دولة الرايخ القيصرية. إن نقد هوسرل للمذهب الطبيعي[111] والجدل

---

(109) المصدر نفسه ص 43، يطلق فيبر على فورستر حكمه كما يأتي: «إني أقدر شخصياً فيه، وبحسب نواياه، طيب معدنه، ولكن كسياسي فإني لا أتقبل محاضراته [. . .]». انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 356 من هذا الكتاب.

(110) من رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. انظر لاحقاً التقرير حول نشر محاضرة فيبر «السياسة بوصفها حرفة».

(111) ينطبق ذلك أيضاً على نقد هوسرل في جعل نظرية المعرفة مجرد معرفة علم نفسية. ومن أجل الوقوف ضد هذا المذهب يستند فيبر أيضاً إلى بحوث هوسرل المنطقية. لا يعني ذلك الاستنتاج تعاطفه مع المنهج الفنومينولوجي. حتى الكَنْتية الجديدة في مناطق جنوب غرب ألمانيا كانت ضد جعل نظرية المعرفة مجرد معرفة علم نفسية.

حول أحكام المنهج وأحكام القيمة هي فعلاً في خلفيات هذا الموقف. وقبل أن يقدم فيبر محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، كان قد نشر، كما سبق وأشرنا، في مجلة *Logos* شهادته المعدلة حول الجدل في أحكام القيمة. وقد أودع مقالته تلك عدة حجج أعاد تلاوتها في محاضرتيه، وبشكل أخص في «العلم بوصفه حرفة». لذلك نرى أنه من المفيد إلقاء نظرة على هذا النص. وبذلك نصل أيضاً إلى فهم أوضح لما أشار إليه بيرنباوم عن ردات فعل سلبية على موقف فيبر.

في مقالته عن الحياد الأخلاقي (القيمي) يعتبر فيبر الحياد الأخلاقي مبدأً منطقياً، وحكمة تتعلق بالسلوك (الجامعي السياسي). وباعتبار الحياد الأخلاقي من المبادئ المنطقية، فإنه على علاقة بمجال المعرفة ـ التقويم ـ والوقائع ـ والتطبيق. هنا يبدو هذا الحياد على علاقة وثيقة بالنقد الجذري للمذهب الطبيعي. فقد حارب فيبر تحويل الوعي إلى أمر طبيعي، وحارب كذلك الأفكار والمثل، أي تحويل مجال التطبيق إلى أمر طبيعي. إذ يجب عدم جعل عمل ينطوي على معنى ما مجرد مظهر جسماني، ولا ربط التطبيق بفاعليته فقط. وحين يطبق ذلك، هنا أو هناك، لا يمكن تحاشي الوقوع في خداع نفس طبيعوي. هنا تتوافق أفكار فيبر مع أفكار ريكارت، وسيمل، وغيرهما، وبالطبع، مع أفكار هوسرل أيضاً[112]. وباستثناء هذه الفكرة يتابع فيبر أيضاً نظرية في القيم خاصة به، ممهداً لها

(112) كلاهما يعالج مثل خداعات النفس الطبيعوية هذه جزئياً عند المؤلف نفسه، كما عند فيلهلم أوستفالد (Wilhelm Ostwald) انظر حول ذلك: Edmund Husserl, «Philosophie als strenge Wissenschaft,» in: *Logos*, Band 1 (1911), S. 289 - 341 und S. 295, und Max Weber, «‹Energetische› Kulturtheorien [Rez.] Wilhelm Ostwald: Energetische Grundlagen der Kulturwissenschaft,» in: *AfSS*, 29, Band 2, Heft 1909, S. 575 - 598,

وستصدر هذه لاحقاً في الأعمال الكاملة (MWG I/12).

بمقدمات ثلاث على الأقل: عدم التجانس بين المجال المعرفي والمجال القيمي، ومدّ المجال القيمي إلى القيمة غير الأخلاقية، والتصادم بين مجالات القيم التي لا مجال لإيجاد حل لها بالوسائل العلمية[113].

يطالب فيبر الأستاذ الأكاديمي أن يميز لأسباب مبدئية بين مسألتين: الموضوعية المنطقية والمعرفة التجريبية من جهة، وذاتية التقويمات العلمية وقابلية حملها بشكل موضوعي من جهة أخرى. وحده، مَنْ يعي لاتجانس هذه المسألة، ومن يقوم بإيضاحها أيضاً، هو من يستطيع أن لا يجر سامعيه «لخلط مختلف المجالات مع بعضها بعضاً» ويتمكن كذلك من مجانبة الخطر حين يتطرق إلى تأكيد وجود الوقائع، «وحين يتخذ موقفاً من مسائل الحياة الكبرى، بالهدوء نفسه من دون تدخل المزاج»[114]. إذ على المعلم الأكاديمي تقع مهمة التعامل مع الأسئلة والمعرفة العلمية ودراستها وعرضها بموضوعية وحياد. وعليه من أجل تحقيق هذه المهمة أن يكون أهلاً لها. وسواء كان بصفته معلماً، أو كان عليه أن يعالج الفئة الثانية من المسائل، فإن ذلك بالنسبة إلى فيبر من القضايا العملية. ويقرر الموقف الذي يُتخذ بالمقابل المهمة التربوية التي يجب أن يقرَّ بها للجامعة. إذ إنه إذا تم قبول هذه المهمة الثانية بالإيجاب، فإنه لابدّ من إعطاء الجامعة قيمة تربوية شاملة. بالإمكان اعتماد هذا الموقف

(113) انظر حول ذلك بتوسع: Schluchter, *Religion und Lebensführung*, Band 1, S. 288 ff., في حكمه على علاقة فيبر بهوسرل يقول هلموت بلسنر: «كان فيبر يكن احتراماً شديداً لهوسرل. إلا أن الأمر لم يكن محبباً عنده»، انظر: Helmuth Plessner, in Heidelberg 1913, in: König und Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 30-34.

(114) انظر: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 41.

من دون الوقوع في التعارض طالما استمر الاعتراف بعدم تجانس مجالي المعرفة والتقويم، ثم إن على المرء أن يحسم الأمر، وهو أن الأستاذ الأكاديمي مازال إلى اليوم، نظراً إلى ما يتصف به من كفاءة، من يقع على عاتقه: إضفاء طابع خاص على الناس، ونشر القيم السياسية والأخلاقية والفنية والثقافية وغيرها[115]. ولنا أن نضيف أن هذا ما حلم به مؤسس الجامعة في برلين. وإذا نفينا هذا الأمر ـ وكذلك الفرضيات التي تمثلها فكرة الجامعة الألمانية الكلاسيكية هذه، وهي برأيه فرضيات سقطت بفعل تنامي النزعة الذاتية في الثقافة الحديثة[116] ـ فإنه لا يبقى إلا أن تقتصر التربية في الجامعة على تعليم اختصاصات معيّنة من جانب أصحاب الكفاءة في اختصاص ما[117]. وقد قال فيبر بوضوح أن موقفه لا يختلف عن ذلك أبداً[118]. لقد كان واجب الجامعة في أيامه تبعاً لذلك عدم تربية الإنسان على الثقافة، بل إعداده وجعله من أهل الاختصاص فقط[119].

إذا ربطنا هذا الرأي بردة الفعل السلبية التي تحدث عنها بيرنباوم، فلنا أن نفهم على الفور السبب الذي دفع ـ «أصدقاء الثقافة» ـ على عدم القبول بما أورده فيبر. فقد كانوا يرون في الجامعة في

---

(115) المصدر نفسه، ص 42.

(116) يقول فيبر ذلك في إطار العلاقة بالتطورات في الأربعين سنة الأخيرة في علم الاقتصاد. المصدر نفسه، ص 43.

(117) المصدر نفسه، ص 42.

(118) المصدر نفسه.

(119) من الناحية التوبولوجية، يميز فيبر بين أنواع ثلاثة من التربية: التربية الكاريزماتية التي تقوم على أساس علم ليس هو بالعلم اليومي، وهو العلم الذي يستند إلى ما لدى الإنسان من موهبة فطرية، والتربية الثقافية التي تقوم على أساس العلم الثقافي، وبواسطته ينمي الإنسان صفة معينة، والتدرب على اختصاص على أساس العلم التخصصي في اختصاص معين، إذ يصبح الإنسان بفضل ذلك قادراً على القيام بأمر نافع، انظر: (MWG I/19, S. 302 ff.).

الأرجح مؤسسة ثقافية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. أما ما يصعب فهمه بالمقابل: لماذا رُفض موقفه من جانب المتحمسين «لاستخدام العقل العلمي»؟ سيصبح الأمر أكثر وضوحاً حين نعمد لاحقاً للبحث بتفصيل في موقف فيبر. لقد رأى فيبر، بالتأكيد، في الجامعة مكاناً يعتمد التدريس بالفعل، وبدرجة أولى، حسب الاختصاصات. لكن ذلك لا يعني أنه يتحدث، مثل كل متحمس، عن اختصاص ساذج لا انعكاس له في العلوم الإنسانية. فقد سبق له في دراسته المعروفة عن التقشف البروتستانتي أن أبدى رأيه بشكل نقدي بخصوص الاختصاص في الإنسانيات. وقد وصف هناك أولئك الذين لا يرون محدودية الخبير الحديث، بعبارات فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche)، بأنهم من استحدث السعادة. وقد اختار لوصف هؤلاء صيغة: خبير دون روح، إنسان متلذذ من دون قلب[120]. صحيح أنه لابدّ من تعلم اختصاص معيّن، لكن ليس الاختصاص الذي لا يربّي في الوقت نفسه على الصلاح وعلى الاكتفاء الذاتي. إن التدرب على اختصاص كهذا يمكن أن يفهم بوصفه اختصاصاً ثقافياً. إذ إن هذا ما يجعل الوعي حاداً تجاه حدود الاختصاص الإنساني نفسه، في حين أن فحوى مسائل الحياة لا يمكن أن تحل بالتدرب على الاختصاص وحسب[121].

اعتبر فيبر إذاً، أن الجامعات غير قادرة على تخريج أناس يتمتعون بثقافة حسب الأسلوب القديم. هنا كان يفكر أيضاً بمثال «الإنسانية الكاملة الجميلة» التي كانت تتوجه الكلاسيكية الألمانية

(120) Max Weber, *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1920), Band 1, S. 204,

من الآن فصاعداً: (Weber, *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*).

(121) Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 42.

إليها[122]. إلا أنه كان يقاوم في الوقت نفسه، أن تكون الجامعات مكاناً لتعليم أناسٍ مختصين محدودين، أي خبراء لا روح فيهم. إن فيبر يريد الإنسان الخبير القادر على النقد الذاتي الذي تعلم أشياء ثلاثة: «**أولاً**، أن يقنع بالإنجاز البسيط لمهمة معطاة. **ثانياً**، الاعتراف بالوقائع، ولاسيما الوقائع الشخصية غير المناسبة، ثم أن يفصل تأكيده لها عن موقفه القيمي. **وثالثاً**، جعل شخصه خلف الشيء، أي أن يضغط، قبل أي شيء آخر، على الرغبة التي تتمثل بعرض ذوقه الشخصي أو مشاعره الأخرى دون أن يكون مدعواً لذلك»[123]. يريد فيبر لصاحب الاختصاص النقدي، صاحب المثل، أن يكون حراً

---

(122) انظر: Weber, *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*, S. 203,

رأى فيبر، كما هو معلوم، في أعمال غوته (Goethe) المتأخرة، فاوست القسم الثاني، وسنوات التجوال «Wanderjahren» وداعاً لهذا المثال. وقد أدى هذا التقويم دوراً في نقده للجهود الداعية لمثالية جديدة بالشكل الذي تطورت فيه في الحلقات التي تكونت حول الناشر إيوجين ديدريش، والتي قدر لها أن تؤدي دوراً مركزياً إبان انعقاد المؤتمر الثقافي في لونشتاين. حول طموحات الناشر إيوجين ديدريش انظر بشكل عام: Hübinger Gangolf, «Kulturkritik und Kulturpolitik des Eugen-Diederichs-Verlags im Wilhelminismus. Auswege aus der Krise der Moderne?» in: *Troetlsch - Studien*, Band. 4: Umstrittene Moderne. Die Zukunft der Neuzeit im Urteil der Epoche Ernst Troeltschs, hg. von Horst Renz und Friedrich Wilhelm Graf (Gütersloh: Gerd Mohn, 1987), S. 92-114, und Eugen Diederichs, *Leben und Werk. Ausgewählte Briefe und Aufzeichnungen*, hg. von Lulu von Strauss und Torney - Diederichs (Jena: Eugen Diederichs, 1936), S. 270 - 308,

حول الإنسانية، العضوية والانسجام، بوصفها مفاهيم رائدة في الكلاسيكية الألمانية، انظر: Georg Lukács, *Goethe und seine Zeit*, 2 Aufl. (Berlin: Aufbau Verlag, 1953), S. 57 - 75,

بالنسبة إلى فيبر يعتبر الكتاب التالي مهماً: Friedrich Gundolf, *Goethe* (Berlin: Georg Bondi, 1916),

من الآن وصاعداً: (Gundolf, *Goethe*).

(123) Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften», S. 44.

ومنفتحاً. ثمة شيء واحد لابدّ منه، فعلى الجامعة أن تهيئ أناساً يقررون مصيرهم بأنفسهم. ولذلك فهي بحاجة إلى أساتذة أكاديميين يعرفون الربط بين الإقدام والإحجام وتُعرف صدقيتهم بشكل مسبق.

إذا كان فيبر قد أصر بإلحاح على التمييز بين دور الأستاذ الأكاديمي الذي يتحدث إلى طلابه بوصفه الخبير العلمي من دور المواطن المثقف الذي يتوجه إلى جمهور عام، فإن هذا الأمر يذكرنا بما كتبه كَنْت عن التنوير[124]. إذ إنه يرى، كما اعتبر كَنْت سابقاً، أن هذه الأدوار تعود إلى المؤسسات التي تتميز تبعاً لأواليات الرقابة ومعايير العقلانية. وبخلاف الاجتماع العام وإلقاء الخطاب تخضع قاعة الدرس والمحاضرة «لامتياز عدم الخضوع للرقابة»[125]. إلا أن ذلك قد يتيح سوء الاستعمال. ولا يمكن إزالة هذا الخطر هنا من خلال مخاطبة الرأي العام، كالتوجه إليه عبر الصحافة مثلاً[126]، بل من خلال ما يقوم به الأستاذ الأكاديمي نفسه فقط من وضع حدِ لمهمته، كأن يمتنع عن كل دعاية على علاقة بالنوايا. علماً أن وضع حد شخصي كهذا قد وقع فيه فيبر نفسه كما سبق وأشرنا. ومع ذلك فقد سعى فيبر في قاعة التدريس إلى تحقيق ذلك. وقد كان للموضوعية، التي كان عليها أن تغطي بوضوح ما يعاني، على الأرجح، أثرها العميق في بعض

(124) أشار كَنْت إلى هذا الفرق مميزاً بين الاستخدام الخاص والاستخدام العام للعقل. انظر بهذا الخصوص: Was ist Aufklärung? A 487 - 488.

(125) انظر: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 43,

يتحدث فيبر عما يعتبره «عاصفة الحرية في غرفة التدريس». ويعني فيبر بذلك الحرية المؤسساتية. ولا يعني بالطبع عدم توجيه الطلاب أي نقد لما يلقى عليهم من آراء تتعلق بالدرس. وقد كان واضحاً بالنسبة إلى فيبر أن الشك والنقد هما «إكسير حياة العلم». وهذا ما يتطابق مع قول فيخته (Fichte): «إن النقد الجذري هو أب المعرفة». المصدر المذكور، ص 47.

(126) المصدر نفسه، ص 43.

السامعين[127]. إن على الأستاذ الأكاديمي أن يكون في عمله مسؤولاً، إلى جانب تعليم الطلاب، عن الأمور الآتية: أن ينظر في الوقائع وأن يعترف بها، وأن يضع نفسه دون تحفظ في خدمة أمر يتجاوز شخصيته مع تحقيق ما يلزم ذلك من مطلب يومي، وأن يفكر بموضوعية ووضوح، وأن يحس بالمسؤولية تجاه الأمر الذي يقوم به. وهذه

---

(127) من أفضل الأمثلة على ذلك التقرير الذي وضعته جولي ماير فرانك (Julie Meyer - Frank) التي كانت منذ الفصل الشتوي 1917/ 1918 طالبة في ميونيخ، وقد عاشت ذلك، عدا حضورها هاتين المحاضرتين، عبر المواظبة على محاضراته وندواته. وقد كتبت: «كان ماكس فيبر يحاضر بتشديد حاد، كما لو كان يرافق كقائد الأوركسترا بيده ذبذبة خطابه وإيقاعه، كانت يده بمنتهى الرشاقة، يد رجل كبير طويل. لقد استمعت لمحاضرات أساسية كبرى له حول أنماط علم الاجتماع وتاريخ الاجتماع والاقتصاد، كما شاركت في ندواته. وأنا أعلم أن نظريته حول الأنماط التي نجد أساسها في كتاب فيبر **الاقتصاد والمجتمع**، نظرية تشكل صعوبة كبيرة اليوم بالنسبة إلى الطلاب، إذ إنهم بالكاد يستطيعون الإلمام بها من خلال الصياغات المجردة. أما في الماضي فكنا نتابع ذلك بكثير من التوتر، بل بإثارة منتظرة، والجمل القصيرة التي كانت أشبه بضربات قضبان صغيرة تقدم تعريفات منطقٍ لاهوادة فيه. لقد كان عرضاً مجرداً، وأمثلة مليئة بالصور توصل بما فيها من دلالة إلى معرفة جديدة. لم أقم قطّ بأخذ ملاحظات في المحاضرات كما كنت أفعل بعناية معه، ولا بعده، ولم يكن لدي وعي شديد بما أتعلم كما كان الحال في محاضراته»، انظر: Julie Meyer -Frank, *Erinnerungen an meine Studienzeit,* in: *Vergangene Tage, Jüdische Kultur in München,* hg. von Hans Lamm (München: Langen Müller, 1982), S. 212 - 216.

من الآن فصاعداً: (Meyer -Frank, *Erinnerungen an meine Studienzeit*).

كانت جولي في الوقت نفسه عضواً في جميعة الطلاب الأحرار. أما ردة الفعل الأخرى فنجدها عند هلموت بلسنر (Helmuth Plessner) الذي تردد بدوره لسماع محاضرات فيبر حول نظرية الأنماط: «يردد الزائر سريعاً بعده ما كان يبدو له صحيحاً. ولم يكن يستمرئ العرض لا في المحاضرة ولا في الكتاب. وكان يكره النبوءة على منصة التدريس. سواء في قاعة مليئة أو أمام أحد التجمعات الطالبية التي كانت موجودة بكثرة في تلك الفترة؟ وكانت قدرته الخطابية مستبعدة حين يحاضر. وقدم في محاضراته عن الأنماط صورة حقيقية عن عالم زاهد في داخله. وحسب ما أذكره، كان ذلك كناية عن تعريفات وعن إيضاحات: حبيبات جافة منتقاة»، انظر: Helmuth Plessner, in Heidelberg 1913, in: König und Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 34.

فضائل تُطلب يومياً، أو ليس كل يوم، وهي غير رائعة. وسيكون بطلاً من يتمكن أن يتغلب على حياته اليومية، بدلاً من أن يتكيّف معها فقط. وبهذا المعنى كان فيبر يمتدح أمام طلابه صفة «السوية = الطبيعية». ولم يكن تقدير كهذا، بالطبع، يرضي الشبيبة التي تأثرت بشدة بالحرب وبالثورة. إذ إنها لم تعد تقبل بما هو عادي ويومي، بل باتت تبحث عما هو غير مألوف، ولا بالأستاذ البسيط، بل بالبطل أو النبي، ولا بالعقلانية العلمية غير القادرة على إيفاء المعنى حقه، بل بالأخلاقية الجوهرية أو بالتوحد الديني الصوفي الذي غالباً ما بدا نوعاً من التديّن المغلوط. لقد قدم فيبر نفسه نقيضاً للجوهرانية وللرومانسية. وهذا ما كان سبباً أضل العديد حتى الآن، سواء كانوا مع المذهب الأول أو مع المذهب الثاني. نشير إلى فيرنر مارهولتز (Werner Mahrholz) الذي كان، إلى جانب إيمانويل بيرنباوم، في موقع قيادي في حركة الطلاب الأحرار في ميونيخ، وقد نظما المحاضرتين اللتين نحن في صددهما. تحدث فيرنر إلى كثيرين من كل قلبه، وصرَّح بخصوص محاضرة «العلم بوصفه حرفة» في تشرين الثاني/ نوفمبر 1919 بما يأتي: «لقد كان الموقف محزناً بالنسبة إلى من يقدّمون المذهب الطبيعي بين الأساتذة: فقد أصبح العلم بالنسبة إليهم أكثر فأكثر شكلاً من أشكال الانتحار المؤدب، طريقاً نحو الموت بطريقة بطولية على النسق الرواقي»[128].

(128) انظر: Werner Mahrholz, «Die Lage der Studentenschaft,» in: *Die Hochschule*, 3. Jg., 8. Heft (Nov. 1919), S. 230,

أضف إلى ذلك أن مارهولتز كان رئيساً للجنة التي نظمت محاضرة فيبر «السياسة بوصفها حرفة». وكان يعرف فيبر منذ مؤتمر لونشتاين الثقافي، وقد شارك كلاهما فيه. وبشكل مشابه أورد إدغار يافي (Edgar Jaffé) بمناسبة انعقاد هذا المؤتمر، والإشارة، بالتأكيد، هي إلى ماكس فيبر ما يأتي: «لقد بدا العمل الرصين الذي اتخذ شكل موعظة توحي بالقبول كما لو كانت تتويجاً لهذا القبر بالذهب (ويعني به قبر العقل) المقدم من خلال آخر =

مع ذلك، كان ثمة دائرة أصغر على قناعة بما دافع عنه فيبر باعتباره الأسس الدينية المتحررة مثال الدعوة النسكية في الأوساط الغربية، وقد رأى هؤلاء فيه معلماً حصيفاً وقائداً يقول بهذا التوجه. وقد كان كارل لفيث أحد هؤلاء بالتأكيد[129]. ثمة أسماء أخرى يمكن إيرادها أيضاً[130]. ويبدو أن كثيرين منهم كانوا من أصل يهودي أو بروتستاني، وكانوا أصحاب توجه ليبرالي يساري أو اشتراكي ديمقراطي. وكان بعضهم الآخر من أصحاب الميول الاشتراكية. والذي ينسجم بقوة مع هذه الصورة هو إيمانويل بيرنباوم الذي سبق وأشرنا إليه مراراً. فقد حرص بيرنباوم بقوة على أن تُلقى هاتان المحاضرتان أمام جمعية الطلاب الأحرار في ميونيخ، وعلى أن تنشرا لاحقاً بشكلهما المعدل والموسع بالعنوان نفسه.

بدأ بيرنباوم دراسته في فرايبورغ مع (الأساتذة) غيرهارت فون شولتز غافرنيتز (Gerhart von Schulze-Gaevernitz)، وهاينريش ريكارت (Heinrich Rickert) وفريدريش مينيكي (Friedrich Meinecke)، ثم انتقل إلى كونيغسبرغ حيث انضم إلى جمعية الطلاب الأحرار قبل أن يأتي إلى ميونيخ، منقاداً على الأرجح، ليستفيد من تدريس ليو برنتانو وهاينريش فولفلين (H. Wölfflins). وكان جميع هؤلاء من الشخصيات التي كانت في بيئة فيبر العلمية. وقد تعرف إليه فيبر شخصياً في وقت لاحق أثناء نقاش سياسي دار

= أشعة شمس فقدت قوة دفئها»، انظر: Edgar Jaffé, «Lauenstein,» in: *Europäische Staats - und Wirtschaftszeitung*, II, Nr. 42 (20 Oktober 1917), S. 995.

(129) أشرنا إلى ردات الفعل هذه، انظر أعلاه هامش رقم 53.

(130) بعض هذه الأسماء نجدها في محضر الحديث بين بيرنباوم مع هورست هيللي (Horst J. Helle) في 3 آذار/ مارس 1982: *Max weber - Archiv*, München, S. 4.

كما نجد سواهم في: König und Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis.*

في منزل ليو برنتانو[131]. وبعد أن كان أول الأمر رئيس منظمة الشبيبة في الحزب التقدمي الشعبي في ميونيخ انضم، في خريف العام 1917، إلى الاشتراكية الديمقراطية[132]. وكان بيرنباوم عام 1913/ 1914 على رأس جمعية الطلاب الأحرار في ميونيخ. وقد شارك في أعمالها كذلك، حتى بعد انتهائه من دراسته وحتى قيام اتحاد الطلبة العام في ميونيخ، في سياق الثورة بشكل مكثف. وفي عيد العنصرة عام 1919 أصبح من أوائل المشاركين في مؤتمر الطلاب الألمان العام. وقد انتُخب أحد رؤساء المؤتمر الثلاثة[133]. وقد أسهم بشكل فاعل كي تحقق حركة الطلاب الأحرار، بالفعل، الأهداف التي وضعتها لنفسها. ونشأ الاتحاد الطالبي بعد هذه التطورات.

كانت المحاضرتان «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة»، على الأرجح، جزءاً من سلسلة محاضرات خططت عصبة الطلاب الأحرار ـ جمعية منطقة بافاريا[134] ـ لإنجازها، منذ صيف العام 1917. وقد أعطت لهذه السلسلة عنوان «العمل الذهني =

---

(131) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabeigewesen*, S. 60-61.

(132) يقول بيرنباوم إنه شارك في فرايبورغ مع عصبة الأكاديميين الأحرار، وهي جمعية طالبية لا شكل لها ذات ميول سياسية ليبرالية يسارية. (المصدر نفسه، ص 38). وفي أحد أحاديثه يذكر بيرنباوم أن فيبر قد أرسله إلى حزب SPD (الحزب الديمقراطي الاشتراكي) وليس هو فقط، بل صديقه أيضاً مارهولتز (Mahrholz)، وآخرين معهما! انظر الحديث المشار إليه في هامش رقم 130 أعلاه.

(133) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabeigewesen*, S. 75.

(134) أرادت «عصبة الألمان الأحرار ـ إقليم بافاريا»، المنظمة التي شكلها الطلاب الأحرار، أن تظل، بعد اجتيازها امتحانها في حركة الطلاب الأحرار، فاعلة بشكل مستقل، انظر شهادات شخصية عن التاريخ الاجتماعي في: Philipp Löwenfeld, in: *Jüdisches Leben in Deutschland*, Band. 2: *Selbstzeugnisse zur Sozialgeschichte im Kaiserreich*, hg. von Monika Richarz (Stuttgart: Deutsche Verlags - Anstalt, 1979), S. 310 - 324.

العقلي بوصفه حرفة». وقد تم ذلك بتحفيز أثارته مقالة بعنوان «المهنة والشبيبة» لألكسندر شفاب (Alexander Schwab) الذي نشر مقالته باسم مُغْفَل هو فرانز كزافيه شفاب[135] (Franz Xaver Schwab)، في المجلة الشهرية *Die weissen Blätter*، عدد 15 أيار/ مايو 1917[136]، أشار فيها إلى مهنة الأصنام التي يجب تحطيمها. والصنم المشار إليه هو، اليوم، العالم البورجوازي الأوروبي - الأميركي. إذ إنه يشكل النواة التي يدور حولها كل شيء. وقد تغلغل بين القوى الأصيلة في وجودنا، بين الحياة (الجسدية) والعقل أو الروح. علماً أنه عالم «غريب كلياً عن هذه القوى الأصلية في ألوهيتها المحض»[137].

لا ينبثق شيء من هذا الموقف إلا الاغتراب، اغتراب الحياة عن العقل، وبالتالي عن ذاتها أيضاً. إن إعادة المصالحة بينهما هو من متطلبات الساعة، وهذا ما لا يمكن التوصل إليه إلا حين تُتَجاوز السيطرة على الوظيفة وما يرتبط بها من تخصص/ أو اختصاص. وكما كان الأمر، سابقاً، بالنسبة إلى «الإغريق في زمن ازدهارهم»، فإنه بإمكان الشبيبة اليوم أن تتوصل إلى تحقيق إنسانية كاملة جميلة. ولابدّ لها أولاً من أجل ذلك أن تعترف بما يتهدد النفس من خطر الحرفة = المهنة. وهذا ما عليها أن تحققه بنفسها وكلياً عبر معارضة جذرية للعالم البورجوازي وما يرتبط به من أيديولوجيا، وعبر إيجاد فضيلة أخلاقية اجتماعية لا تنفصل من عوز العمل الوظيفي القائم على الاستعباد[138].

---

(135) انظر التقرير حول «العلم بوصفه حرفة»، الذي يلي مباشرة.

(136) انظر التفاصيل في التقرير حول: «العلم بوصفه حرفة».

(137) Franz - Xaver Schwab, «Beruf und Jugend,» in: *Die weissen Blätter. Eine Monatsschrift*, Jg. 4, Heft 5 (Mai 1917), S. 97 - 113.

(138) وفي هذا الإطار يتحدث شفاب أيضاً عن الإنسانية «الأوروبية - الغربية - الأميركية»، المصدر نفسه، ص 97.

قد لا تكون مناهضة شفاب الرومانسية للرأسمالية قد أثرت بشكل ما في حركة الطلاب الأحرار في ميونيخ. إذ إن مثل هذه الحركات الطالبية أو الشبابية على اختلافها لم تكن من الأمور النادرة في ذلك الوقت. إلا أن تأثير تأكيدات شفاب كان واضحاً، إذ إن أياً من المجموعات الطالبية أو الشبابية لم يسبق لها أن تعاملت قبل الآن بجدية مع مسألة المهنة، ومنهم الطلاب الأحرار أيضاً[139]. فقد أشار إلى الطريق الذي يمكن به الخروج من هذه القيم المثارة. ولابدّ للمرء بعد ذلك من التعامل مع الأعمال التي وصفها كل من ماكس وألفريد فيبر. إذ «إن الأخوين ماكس وألفريد فيبر في هايدلبرغ هما الوحيدان في عصرنا، ممن هم في مواقع مرموقة، قد باحا بشيء مهم عن الحرفة الدعوة»[140].

لا نعلم بالتحديد متى تم الاتصال لأول مرة بين بيرنباوم، أو أي عضو آخر من جمعية الطلاب الأحرار في بافاريا، وفيبر من أجل دعوته في إطار ردة الفعل على التحريض الذي تركه عمل شفاب للمشاركة في سلسلة المحاضرات التي تم التفكير بها حول «العلم والحرفة والسياسة والحرفة». وما نظن أنه كان السبب وراء ذلك سنجده بتوسع في التقرير الذي يرافق نشر هذين النصين لاحقاً. لا نهتم هنا بالمسائل التي تتعلق بالمسار الخارجي لتكوّن هذه المحاضرات، بل بما تنطوي عليه من جدل فكري. واللافت هنا، أن

---

(139) إلى جانب الطلاب الأحرار يذكر شفاب الجميعات التالية: George-Kreis, Wandervogel, Lietz und Wyneken, Wickersdorfer Kreis, Freischar und die abstinenten Studenten,

انظر المصدر نفسه، ص 105.

(140) المصدر نفسه، ص 104، انظر أيضاً التقرير حول «العلم بوصفه حرفة».

فيبر الذي ألقى محاضرته في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 حول «العلم بوصفه حرفة» مفتتحاً بها هذه السلسلة قد تناول استحثاث شفاب، على الأقل، بشكل غير مباشر. ولم يقوّض فيبر، دون رحمة، الأسطورة المتعلقة بالإنسانية الكاملة والطيبة التي تعلق بها شفاب وحسب[141]، بل برهن أيضاً أن الحرفة ومعنى الحياة هما بالضرورة من المتناقضات التي لا يمكن التوفيق بينها. وبالطبع، وهذه هي رسالته، فلابدّ من فهم هذا الترابط بالشكل الصحيح. وهذا لا يتحقق من خلال فك الحدود، بل من خلال ما يتأسف عليه شفاب من تحديد العمل المهني. إن ما ينطبق على العلم لا يرتبط الآن بوجود إنجاز فعلي نهائي ذي كفاءة ودائم: أي الإنجاز التخصصي[142]. إذ إنه وحده يستطيع الآن أن يتوسع بشكل مستمر دون تردد في التعاطي مع أمر محدد، وأن يستكمل ما ينجم عنه من متطلبات يومية متنامية، يكون قد تفتح اليوم فعلاً على المعنى المهم المتبقي لما هو حرفة أو دعوة[143].

قد يبدو معنى كهذا، يلحق بالحرفة أو المهنة، قابلاً للالتباس بالنسبة إلى العالم أو الأستاذ الأكاديمي. فهل هو كذلك بالنسبة إلى

---

(141) إذا كان فيبر قد عاد في محاضرته «العلم» إلى الفكر الإغريقي، فربما كان ذلك بسبب الطوباوية التي روّج لها شفاب، وليس كما يزعم لوكاش الذي كان يعد، باشراف فيبر، بحثه عن نظرية الرواية للطبع، وفيه يقابل العصر البورجوازي بوصفه عصر الإثم مع العالم اليوناني، انظر: Georg Lukács, «Theorie des Romans. Ein geschichtsphilosophischer Versuch über die Formen der grossen Epik,» in: *Zeitschrift für Ästhetik und allgemeine Kunstwissenschaft*, XI (1916), S. 221 - 271 und 390 - 431,

ولاسيما الفصل الأول حول الثقافات المغلقة.

(142) انظر «العلم بوصفه حرفة»، ص 162 من هذا الكتاب.

(143) انظر: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 45.

السياسي؟ أليس لديه أجوبة يقدمها بشأن المسائل الحياتية الجماعية الكبيرة التي لا يمكن التوصل إليها لا بالتخصص ولا بالتعليم؟ بالتأكيد، وبحسب فيبر، تخضع الديمقراطية الحديثة التي لا «تترك للسياسي امتياز عدم الخضوع للرقابة» في الدولة الكبرى للحالة البيروقراطية. إنها «ديمقراطية تخضع للبيروقراطية»[144].

هذا يعني أنه علينا أن نحسب معها «وجوب الاختصاص لسنوات طويلة، أو الخضوع للتخصص في فرع معين بإشراف من تمرسوا على أمر من هذا القبيل من الموظفين المختصين»[145]. هذا لا يعني أبداً أن يُترك لهؤلاء الموظفين المختصين المتمرسين، مهما كان الأمر، أمر القيادة السياسية. حتى الديمقراطية الحديثة في الدول الكبرى بوصفها ديمقراطية جماهيرية، تظل بحاجة إلى قائد. وتعتبر هذه الديمقراطية بالنسبة إلى فيبر الصورة النقيض لصورة الموظفين، والصورة النقيض لصورة العلماء أيضاً[146]. وبالطبع، فكما نجد تصورات عديدة عن العلماء وعن الأساتذة الجامعيين أيضاً، نجد كذلك صوراً عديدة عن القائد السياسي. وهذا ما ناقشه فيبر في المحاضرة الثانية عن «السياسة بوصفها حرفة»، حين أضاف، عندما

---

(144) انظر حول هذا المفهوم (MWG I/15, S. 606). وفي تأويل ذلك، انظر: Wolfgang Schluchter, *Aspekte bürokratischer Herrschaft*, Studien zur Interpretation der fortschreitenden Industriegesellschaft, Neuausgabe (Frankfurt: Suhrkamp, 1985), Kap. 3.

(145) انظر: (MWG I/15, S. 606-607).

(146) حول تمييز هذه الأدوار الثلاثة عن بعضها بعضاً، وحول تفاصيل علاقاتها المعيارية والمؤسساتية، انظر: Wolfgang Schulchter, *Wertfreiheit und Verantwortungsethik: Zum Verhältnis von Wissenschaft und Politik bei Max Weber* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1971).

عمد إلى نشر محاضرته، مقاطع عديدة على علاقة بوجهة النظر هذه، عارضاً في نهاية الأمر صورة سياسي المسؤولية بتحديده انطلاقاً من سياسي الغايات النهائية من جهة، وسياسي السلطة من جهة أخرى. يجب أن يكون سياسي المسؤولية قادراً على صياغة مواقف سياسية مقبولة، وأن يكون مستعداً لتمثيلها آخذاً على نفسه تحمل مخاطرها. وعليه كذلك أن يقحم نفسه مع «القوى الشيطانية» التي تكمن في كل شيء، بما في ذلك العنف المشروع[147]. وعليه أخيراً أن يكون قادراً على تحاشي آثارها المفسدة. باختصار، على السياسي أن يكون مندفعاً في خدمة قضية ما، وأن يتحمل المسؤولية بشأنها، وأن يحققها واقعاً في الحياة بكل بعد نظرٍ، وباتخاذه مسافة منها دون مهادنة للرأي. إن قائداً كهذا جدير أن يُتّبع[148]، إلا أن الأمر الحاسم هو أن لا يُقتدى به بناءً على مشاعر رومانسية[149] أو من أجل «عبادة السلطة»[150]، بل بقناعة عقلانية.

إن العالِم بوصفه خبيراً يمارس النقد الذاتي، والسياسي بوصفه قائداً مسؤولاً أخلاقياً هما شخصان، على ما يبدو، على طرفي نقيض ولا توفيق بينهما. هناك نجد معرفة موضوعية وهنا نجد هجوماً على ما يبدو غير ممكنٍ[151]. إلا أنه سرعان ما يبدو لنا أن هذا لم يكن رأي فيبر النهائي. إذ إن الشخصيتين تبدوان متقاربتين رغم ما فيهما من اختلاف.

(147) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 357 من هذا الكتاب.

(148) انظر ص 366 ـ 367 من هذا الكتاب.

(149) انظر ص 368 من هذا الكتاب.

(150) انظر ص 342 من هذا الكتاب.

(151) انظر الصياغة في: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 63.

علينا أن لا ننسى أولاً، أن فيبر في «السياسة بوصفها حرفة» وكذلك في «العلم بوصفه حرفة» قدم محاجة كان يقدّر لها أن تقيم تحالفاً اعتراضياً بين معسكرين طالما كانا في حراب دائم، وإذا جاز لنا أن نستخدم استعارة من بيرنباوم، نقول: بين «أصدقاء سياسة الحل النهائي» من جهة و«المتحمسين للاستخدام المحض للسلطة» من جهة أخرى. هذا، وقد تصدى فيبر بشدة في محاكمته لسياسيي الحل النهائي ولأنصارهم من بين الطلاب الأحرار، الذين «يؤخذون بالمشاعر الرومانسية»[152] ويبنون عليها الأوهام. والوهم الأساسي هو إمكانية أن نجد فعلاً سياسياً مهماً وجدياً لا يورط من يمارسه بعواقب السلطة. إن تصوراً وهمياً كهذا رآه فيبر، على الأرجح، متمثلاً في أنصار السلم، والنقابيين، وفي ممارسي الزهد، وقبل أي شيء آخر، في المنظّرين السياسيين الذين تحلّقوا حول حكومة كورت أيسنر الشيوعية. (بل إن اسم أيسنر قد طرح من جانب الأعضاء الراديكاليين في منظمة الطلاب الأحرار ليتولى إلقاء محاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة»)[153]. إن كل هذه التجمعات كانت بنظر فيبر من دعاة رفض العنف وقانونيته، أو من دعاة العنف، «العنف النهائي الذي يعني التوصل إلى موقف ينتفي معه كل استعمال للعنف»[154]. ويقترب الذين يرون في السلطة قيمة بحد ذاتها بواسطة الإيمان بالعنف من المتحمسين لاستخدام السلطة المحض. وبالطبع، فإنه ليس بمقدور «سياسيي السلطة الخلّص» هؤلاء الارتباط بقضية تتجاوز الأمر الشخصي. إذ إنهم يدورون في «الفراغ وفي اللامعنى»[155]، في حين

---

(152) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 368 ـ 369 من هذا الكتاب.

(153) انظر التقرير المرفق بنص «السياسة بوصفها حرفة».

(154) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 356 من هذا الكتاب.

(155) انظر ص 342 من هذا الكتاب.

ينطلق سياسيو الحل النهائي المتوهمون، وفي الأقل، أصحاب التوجه اليساري بينهم، من الأمل بتحرير الإنسانية انطلاقاً من الأفعال المباشرة[156].

وكما كان فيبر ضد الخبراء، فقد كان معارضاً كذلك لمحبي السلطة. إذ إنهم يجسدون جميعاً الصفات التي كان يمقتها في السياسة، أي اللامبالاة، وعدم تحمل المسؤولية، والزهو بالنفس. فقد كانت هذه بالنسبة إليه بمثابة التمثيل في السياسة، حيث يتخفى «عجزها وضعفها الذاتيين» خلف «حركة مليئة بالمباهاة، إلا أنها حركة فارغة كلياً»[157]. علماً أن سياسيي الغاية النهائية ليسوا

---

(156) قبل أشهر من إلقائه محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» كان فيبر قد أقام سجالاً مع التيارات الاشتراكية المتوهمة والواقعية، من خلال محاضرته «الاشتراكية» في 13 حزيران/ يونيو 1918 في فيينا، وقد صدرت في كتيب بعد إلقائها بوقت قصير. هنالك تناول فكرة الإضراب العام والرعب بوصفهما من وسائل قلب الحكم، وما يرتبط بذلك من أفكار تتعلق «برومانسية الأمل الثوري» التي كانت تسحر المثقفين، انظر: (MWG I/15, S. 628)، وفي محاضرته في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 في ميونيخ بعنوان «النظام السياسي الجديد في ألمانيا»، كان عليه أن يقيم سجالاً عنيفاً مع الأقلية في الأوساط الثقافية اليسارية التي تقول بأفكار ـ ثورية ـ انقسامية، ومنهم الفوضوي إريك ميهسام (Erich Mühsam) والبلشفي ماكس لفين (Max Lewien)، انظر: (MWG I/16, S. 359-369),

وفي محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» في 28 كانون الثاني/ يناير 1919 وجد فيبر بين الحضور، عدا الطلاب الأحرار، بعض الألمان الأحرار أيضاً ومجموعة من الطلاب الذين ينادون بأفكار ثورية شاعرية (تروملر، روت، وغيرهما)، وربما كان من بينهم أيضاً، إرنست تولر. وتعود علاقة فيبر بكل من إريك تروملر وإرنست تولر إلى اللقاء الثقافي في لونشتاين. وحول تكوين الجمهور أثناء محاضرته عن السياسة بوصفها حرفة، انظر رسالة فريتيوف نواك (Frithjof Noack) إلى ماريان فيبر في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924. وقد يكون من بين الأحرار الألمان الحاضرين أيضاً كنود ألبورن (Knud Ahlborn) الذي كان ينتمي إلى عصبة الأكاديميين الأحرار التي كانت الأقرب إلى حركة الشبيبة البروليتارية، والتي شاركت في اللقاء الثقافي في لونشتاين أيضاً.

(157) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 342 من هذا الكتاب.

كذلك، إذ هم في خدمة قضية فوق شخصية، فهم يسعون إلى شد الأزر الداخلي. وبالطبع نادراً ما يتحملون كل حقائق الحياة. لكن ذلك لا يعني إطلاقاً أنهم محكوم عليهم بالإخفاق باستمرار ولو كانوا يثبتون كفاءتهم بشكل موضوعي في تحمل «الرسالة» ولو كانوا يتحملون الاشتباك في ما يولده العنف من وبال، فإن فيبر كان مستعداً للاعتراف بأنهم قد اتخذوا السياسة حرفة لهم. إذاً، هم يأخذون بذلك علماً «بالمأسوية التي تحل بالفعل كاللعنة على كل عمل، وعلى العمل السياسي بشكل خاص»[158]. إذ يعلمون آنذاك بمحدودية هذا العمل ويعلمون أن السلوك السياسي يفرض عليهم، لهذا السبب، نوعاً خاصاً من وضع للحدود الشخصية. ثم إن الإلمام بمأسوية العمل السياسي من الأمور التي تقرر صفة السياسي المسؤول. إلا أنه، ومقارنة بسياسي الغايات النهائية، يصل إلى نتيجة بعيدة أخرى. إنه لا يكتفي بتحمل مسؤولية الغايات النهائية عن سلوكه السياسي، بل إنه يوسع هذه المسؤولية إلى ما تستتبع من نتائج لا يمكن ترقبها. إلا أن هذه المسؤولية الروحية أو العقلية، قد تكون مبررة إذا كان يمتلك الفضائل التي يقول عنها فيبر، إنها مما يجب على الطلاب تعلمها من معلميهم في قاعات التدريس. وهي الفضائل التي سبق أن أشار إليها وذكرها، أي الاكتفاء بإتمام المهمة المعطاة، والاعتراف أيضاً بالوقائع الشخصية غير المريحة، وعدم إقحام الشخص خلف القضية المطروحة[159].

---

(158) انظر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 342 من هذا الكتاب.

(159) انظر: Weber, «Der Sinn der «Wertfreiheit» der soziologischen und ökonomischen Wissenschaften,» S. 44.

4 ـ أهم أفكار المحاضرتين

أبدى فيبر إذاً في المحاضرتين اللتين ألقاهما على الطلاب الأحرار في ميونيخ الأفكار الأساسية نفسها، وهي أن تأخذ كلمة حرفة (Beruf) كامل المعنى «ما لم يُنجز النوع الخاص بالتعريف الذاتي الذي يستحقه» هذا التعبير[160]. ويختلف النوع الخاص بهذا التعريف في العلم عنه في السياسة. فأما التعريف نفسه باعتباره تعريفاً فلا اختلاف فيه. إن رسالة فيبر إلى الطلاب الأحرار تقوم على ما يأتي: إن العمل الفكري بوصفه حرفة يعني القناعة، ولا يعني مجرد الحياة الرضية، إنه يعني «الاقتصار على العمل التخصصي ولا يعني الاستسلام الفاوستي»[161]. لم يرق الإصرار على هذا الدافع الزهدي الأساسي سماعه لكثيرين. كذلك أثارت محاضرته «السياسة بوصفها حرفة»، وكما كان الحال بالنسبة إلى محاضرته الأولى «العلم بوصفه حرفة» وفي أوساط العديد من الطلاب الأحرار، مزيداً من الشعور بعدم الرضا. ولا يعود سبب ذلك لأن فيبر أطلق أحكاماً «بتعالٍ مطلق»، كما يقول أحد المشاركين، ضد فورستر وأيسنر أو العاملين في لجان العمال وفي الجندية[162]، ولأنه قد جمع، قبل أي أمر آخر، مثالية السياسي الباحث عن الغايات النهائية بشكل فظ مع كل

---

(160) المصدر نفسه، ص 45.

(161) وهكذا في نهاية دراسته عن البروتستانتية النسكية، انظر: Weber, *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*, Band 1, S. 203.

(162) انظر رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924، انظر أيضاً أقوال فيبر بوصفه شاهداً في الدعاوى ضد إرنست تولر وأوتو نويراث (Otto Neurath)، في: (MWG I/16, S. 485-495),

هذا وقد أوردت جولي ماير ـ فرانك، أنه وبعد وقت قصير من انتهاء محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» كان على الحضور إخلاء القاعة، لأن أنصار أيسنر كانوا يريدون =

السلوكيات السياسية المتورطة في السلطة، فقد أثار الانطباع أن لا علاقة بين السلوك السياسي والقيم. أما أن لا يكون فيبر قد قصد ذلك، فهذا أمر لا يقبل الجدل، إلا إذا كان لابدّ للمرء أن يستمع، من دون أن يرتبك، إلى العلاقة المعقدة التي تقوم بين السلطة والأخلاق والواقع، والتي أشار إليها دون شك من خلال طرحه لما كان يروّج له من سياسة أخلاق المسؤولية.

الحرفة/ الدعوة والتعريف الذاتي، الحرفة/ الدعوة بوصفها تعريفاً ذاتياً، هذه كانت إذاً رسالة فيبر إلى الشبيبة الأكاديمية. إن على من يريد أن يربط الحرفة بحد ذاتها بمعنى خاص، ومن لا يرى فيها كما كان يرى شفاب مجرد إكراه اقتصادي، فعليه في زمننا الحاضر أن يقرّ ويعترف بهذا «الدافع الزهدي الأساسي». وهذا ما يعتبر بالنسبة إلى فيبر، وكما هو معلوم، من صلب ممارسة الحياة البورجوازية منذ البداية. وعليه أيضاً أن لا يحيد عن ذلك ما لم يجب أن تتحول هذه إلى مجرد حياة أخلاقية. بالطبع إن الروح المسيحية التي شكلت بداية قوامها الداخلي قد انمحت منها منذ وقت طويل. وقد أظهر فيبر ذلك في دراسته عن النسكية البروتستانتية. لذلك لا يمكن تأسيس قيمة هذا الحافز على أساس ديني، بل لابدّ من تأسيسه علمانياً. وهذا ما حدث في هاتين المحاضرتين، إذ إننا نجد أن جلّ أعمال فيبر قد شكلت خلفية لذلك.

يجعل فيبر، من أجل تحقيق هذا التأسيس، كلا من المفهومين، حرفة والتعريف الذاتي، على علاقة داخلية مع مفهوم ثالث، أي مفهوم الشخصية، لكن عليه أن يجرد هذا المفهوم من كل

= تفجير الموقف. وكان فيبر قبل وقت قصير من المحاضرة قد أطلق على أيسنر صفة «مهرج الحفل الدموي». انظر: Meyer -Frank, *Erinnerungen an meine Studienzeit*, S. 213-214.

مضمون دلالي رومانسي. فقد سبق له باكراً في سجاله مع كنيز (Knies)، وفي تطرقه إلى مسألة اللاعقلانية، أن توجّه معارضاً لمفهوم الشخصية هذا «بشكله الرومانسي - **الطبيعاني**، الذي يحاول أن يجد في أساس الحياة الشخصية هذا الأساس الرطب، الذي لا ينفصل عن النباتي، أساس الحياة الشخصية [. . .] والقدسية الخاصة التي توسم بها الشخصية»[163]. وتوجّه فيبر في المحاضرتين بالنقد ضد مفهوم الشخصية بمعناها الرومانسي - الجمالي، المفهوم الذي يسعى عبر تجربة الحياة وعبر تشكلها، أن يرى في هذه القدسية عملاً فنياً[164]. ولا تشير، لا النظرة الطبيعية ولا النظرة الجمالية، إلى ما يخطر في بال فيبر، إذ إنهما لا تؤثران في العلاقة **الداخلية** الثابتة التي يكتسبها الشخص من خلال سيرورة تربية تحدد دلالة قيمه وحياته[165]، وبذلك تصبح **سيرورة قدرية.** يتناسب مفهوم الشخصية هذا بشكل قريب جداً مع مفهوم الفردية الإنسانية النسكية: نسكية، لأن السلوك المنهجي يتطلب خدمة قضية فوق شخصية وإنسانية، لأن هذه القضية تفترض الارتباط الثابت بالقيمة النهائية، فردية، لأن هذا الارتباط الثابت عبر سلسلة من القرارات النهائية يجب أن يكون ارتباطاً تم اختياره أيضاً. وحين يقيّض لهذه الارتباطات أن تتحقق،

(163) Max Weber, «Roscher und Knies und die logischen Probleme der historischen Nationalökonomie (Dritter Artikel) II. Knies und das Irrationalitätsproblem. (Fortsetzung.),» in: *Jahrbuch für Gesetzgebung, Verwaltung und Volkswirtschaft im Deutschen Reich*, hg. von Gustav Schmoller, 30. Jg., 1. Heft (1906), S. 81 - 120.

(164) انظر لاحقاً نص «العلم بوصفه حرفة» حين يقول إنه ثأر من شخصية لها وزن غوته، وأنه أراد بمحض الحرية أن يجعل من حياته عملاً فنياً.

(165) انظر: Weber, «Roscher und Knies und die logischen Probleme der historischen Nationalökonomie (Dritter Artikel) II. Knies und das Irrationalitätsproblem,» S. 108.

يتحول الشخص دون إرادة منه إلى شخصية. إذ إنها قد وجدت الآن ـ وكما جاء في نهاية محاضرته «العلم بوصفه حرفة» ـ شيطانها وتعلمت أن تطيعه، إذ إنها تستجيب للمطلب اليومي الذي يرفعها.

ليس صدفة بالطبع أن نجد عملين من أهم أعمال فيبر، دراسته عن البروتستانتية الزهدية، والعلم بوصفه حرفة، قد أشارا إلى عمل غوته المتأخر. هناك، وجد مفهوم الشخصية، الذي ظل نصب عينيه، صياغة أولية له. بالرغم من بعض الميول إلى ما في أعمال غوته من إنسانية ذات بعد جمالي وكوني، والتي اتخذ فيبر منها مسافة ما، فقد كانت «سنوات ضياع فيلهلم مايستر، أو الزهاد» وفاوست (الثاني)، المعنى الذي تطور منه الحافز الزهدي الأساسي، وإن بما يتجاوز الديانة المسيحية. وفي «أصل الكلمة» نجد أن الفردية، والطبع، والشخص بالتواطؤ مع «الشيطان» قد صارت واضحة مع العالم، بحيث إنه لا يمكن تجاوز خطر خسارة ما هو خاص، وما هو صدفة، وما هو داخل أو خارج، إلا عبر التحديد الذاتي. ومن ثم فإن تفسير استعارته لمفهوم الشيطان بالمعنى النخبوي ليس إلا إساءة إلى فيبر بالذات، وهذا ما فعله الجيورجي فريدريش غوندولف (Friedrich Gundolf) في كتابه عن غوته، إذ رأى أن الناس العظام العباقرة يمكن أن يكون لهم شيطانهم، وبذلك يكون لهم قدرهم الخاص. أما الإنسان العادي فليس له إلا «الخصال البسيطة، والآراء والاهتمامات والخبرات التي تُفرض من الخارج ولا تكون من الداخل»[166]. ذلك أن فيبر قد سعى إلى إرساء أرستقراطية عقلية، وليس إلى إرساء نمط نخبوي[167]. إن باستطاعة أي كان أن يجد شيطانه، وأن يصبح شخصية، وأن يمارس حياة حددها بنفسه، إذا ما

---

(166) انظر: Gundolf, *Goethe*, S. 4.

(167) هذا لا يميزه عن الجيورجيين وحسب، بل عن النيتشويين أيضاً.

قُدّر له أن يخدم قضية فوق شخصية اختارها بنفسه وبتفانٍ لا هوادةَ فيه. ويفترض ذلك بالطبع أن لا تقف الأفكار، وصور العالم التي بها يُؤوِّل المرء حياته، والنظام الاجتماعي الذي يجب عليه العيش في وسطه، بوجه الحافز النسكي البدئي. كما يفترض ذلك أيضاً، قبل أي شيء آخر، أن يكون الجيل واعياً بالعلاقة مع العمل الوظيفي، وأن يكون تحديده لوضعه ولتكوين شخصيته هادئاً باتجاه الخارج ومقبولاً من الداخل، ولاسيما في زمن الأزمة وفي زمن الثورة وما تثيره هذه من حماس[168]. هذا ما أرادت المحاضرتان أن تجيب عنه. وبذلك يعتبر النصّان من حيث الجوهر «نصين فلسفيين» يقدمان، في الوقت نفسه، المعرفة وفعل الإيمان.

5 ـ تحديد زمن المحاضرتين بحسب ما توصل إليه البحث إلى الآن

طالما كان تحديد زمن محاضرته «العلم بوصفه حرفة» موضع نقاش بين الباحثين. وقد كان لما نقله معاصرو ماكس فيبر في مذكراتهم الدور الحاسم في طرح هذا الإشكال. فقد اعتبروا أنه ألقاهما في شتاء 1918/1919، ما يعني أن الوقت الفاصل بين المحاضرة الأولى «العلم» والمحاضرة الثانية «السياسة» كان قصيراً جداً[169]. وفي الأرجح أن لـ ماريان فيبر الأثر الأبرز في تحديد وجهة هذه الذكريات، إذ سبق لها أن أعلنت في السيرة التي وضعتها عن

(168) إشارة إلى القول الذي ينهي به محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» إذ تنتهي بنص مُستقى من شكسبير.

(169) انظر: Karl Löwith, «Die Entzauberung der Welt durch Wissenschaft. Zu Max Webers 100. Geburtstag,» in: *Merkur. Deutsche Zeitschrift für europäisches Denken*, 18. Jg., Heft 196 (1964), S. 501 - 519, =

ماكس فيبر، أن المحاضرتين، «العلم» و«السياسة» ألقيتا في العام 1918، وأنهما نشرتا في العام 1919[170].

تثير هذه المعلومة الشكوك فعلاً، علماً أنها أثناء وضعها لكتابها كانت قد كلفت فريتيوف نواك (Frithjof Noack) القيام ببحث خاص لتحديد زمن هاتين المحاضرتين. وقد علمت آنذاك أن المحاضرة الأولى «العلم بوصفه حرفة» أُلقيت بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وأن المحاضرة الأخرى «السياسة بوصفها حرفة» أُلقيت بعد عام ونصف من الأولى، أي في شباط/ فبراير أو في آذار/ مارس من العام 1919[171]. ونقل يوهانس فنكلمان عن ماريان فيبر تحديدها موعد إلقاء «العلم بوصفه حرفة» في شتاء العام 1918/ 1919، وذلك في إعادة نشره هذا النص[172]، وبدوره تَعلق إدوارد بومغارتن (Eduard Baumgarten) في ما أصدره حول ماكس فيبر بهذا

= ولـه أيضـاً: «Max Webers Stellung zur Wissenschaft,» in: *Vorträge und Abhandlungen. Zur Kritik der christlichen Überlieferung* (Stuttgart/ Berlin/ Köln/ Mainz: W. Kohlammer Verlag, 1966), S. 228 - 252,

إلى جانب: Meyer -Frank, *Erinnerungen an meine Studienzeit*, S. 212-216,

لا مجال للاستفادة من عدم دقة معطياتهم كون كارل لفيث وجولي ماير ـ فرانك قد حددا موعد محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» التي لا شك في حصولها بتاريخ 28 كانون الثاني/ يناير 1919 (انظر لاحقاً التقرير المتعلق بالنشر)، بل إن كارل لفيث ذهب إلى حد القول بأن المحاضرتين أُلقيتا بعد مقتل كورت أيسنر وغوستاف لانداور (Gustav Landauer)، أي بعد الثاني من أيار/ مايو 1919. وتعتقد جولي ماير ـ فرانك كذلك أن موعد محاضرة «السياسة بوصفها حرفة» يجب أن يكون في حزيران/ يونيو 1919، إذ تتذكر أن ماكس فيبر أشار في معرض النقاش الذي أعقب المحاضرة إلى خبرته كعضو في بعثة السلام إلى فرساي في نهاية أيار/ مايو 1919.

(170) انظر: Weber, *Max Weber: ein Lebensbild*, S. 719.

(171) رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924.

(172) Max Weber, *Gesammetle Aufsätze zur Wissenschaftslehre*, 2. Aufl., hg. Johannes Winckelmann (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1951), S. 566.

الوقت القصير الفاصل بين المحاضرتين محدداً موعدهما في كانون الثاني/ يناير - شباط/ فبراير من العام 1919[173]. في السنوات التي تلت، جرى سجال، كان أساسه سؤالاً طرحه فنكلمان[174]، بين إيمانويل بيرنباوم وإدوارد بومغارتن. ففي حين يقول بيرنباوم، الذي كان في ذلك الوقت محرراً في جريدة *Süddeutsche Zeitung*، متذكراً أن الزمن الفاصل بين محاضرة فيبر الأولى، «العلم بوصفه حرفة» والمحاضرة الثانية «السياسة بوصفها حرفة» تعدى عدة أشهر[175]. ويرى بومغارتن، بسبب معرفته الجيدة بالرسائل المتبادلة ومن محيط فيبر الخاص، أن بإمكانه لهذه الأسباب تحديد المواعيد بدقة، وهي برأيه أن فيبر ألقى محاضرة «العلم بوصفه حرفة» في 16 كانون الثاني/ يناير العام 1919 أيضاً[176]. إلا أن ناشر هذا الجزء تمكن في نهاية الأمر من تحديد موعد إلقاء «العلم بوصفه حرفة» استناداً إلى تقارير من الصحافة اليومية في ميونيخ، وذلك في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1917 بشكل نهائي وأكيد[177]. ولا يعني ذلك على الإطلاق أن لا يكون فيبر ألقى محاضرته «العلم بوصفه حرفة»

---

(173) Eduard Baumgarten, *Max Weber. Werk und Person* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1964), S. 715.

(174) رسالة يوهانس فنكلمان إلى إيمانويل بيرنباوم في 8 حزيران/ يونيو 1970 (أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ).

(175) رسالة بيرنباوم إلى فنكلمان بتاريخ 15 حزيران/ يونيو 1970 (المصدر نفسه).

(176) انظر تفاصيل بومغارتن حول مسألة تحديد موعد إلقاء محاضرتي فيبر، المصدر نفسه.

(177) انظر: Mommsen, *Max Weber und die deutsche Politik: 1890-1920*, S. 289 f.

وكذلك: Wolfgang Schluchter, «Excursus: The Question of the Dating of «Science as a Vocation» and «Politics as a Vocation,» in: Guenther Roth and Wolfgang Schulchter, *Max Weber's Vision of History: Ethics and Methods* (Berkeley/ Los Angeles/ London: University of California Press, 1979), S. 113 ff., and ders., Rationalismus, S. 236 ff., Anm. 2, =

في شتاء العام 1918/ 1919 مرة ثانية. وفي حين أن بيرنباوم، الذي سُئِلَ في العام 1979 عن هذا الموضوع مرة أخرى اعتبر ذلك «احتمالاً ضعيفاً جداً»[178]. وأظهر تقرير وضعه كارل لفيث عام 1940، في أثناء وجوده في المنفى في اليابان نُشر عام 1986، أنه استمع إلى المحاضرتين في شتاء العام 1918/ 1919[179]، ما يفيد أن التقارب الزمني بين إلقاء المحاضرتين، كما جاء في التصور القديم، يعني أن إلقاء المحاضرة الأولى «العلم بوصفه حرفة» مرة ثانية قد يفتح المجال أمام الرأي العام لتأملات جديدة. إن ما لا شك فيه أن معطيات لفيث الزمنية في هذا التقرير هي معطيات شديدة الغموض. بذلك يكون قد بدأ دراسته في ميونيخ في الفصل الشتائي 1917/ 1918[180]، وليس - كما يستفاد من تقريره -[181] في الفصل الصيفي من العام 1918. ويستنتج من ذلك أنه كان حاضراً أثناء إلقاء فيبر لمحاضرته في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. وما يؤكد حضوره وصفه الصحيح نسبياً لمجريات ما حصل. إذ إنه يؤكد مثلاً أن فيبر ألقى محاضرته ارتجالياً، وأنه جرى تدوينها أو اختزالها[182]. وإذا لم يكن لفيث قد استمع إلى المحاضرة بتاريخ 7 تشرين الثاني/

= إلى جانب ذلك نجد في الصفحة رقم 17 من كتاب: *Gästebuchs Steinicke* (**كتاب الضيوف**)، المحفوظ في مكتبة مدينة ميونيخ، قسم المخطوطات إشارة تفيد أن الأستاذ ماكس فيبر ألقى محاضرة في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 في قاعة (Steinicke).

(178) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى مارتن ريزبروت (Martin Riesebrodt) بتاريخ 17 كانون الثاني/ يناير 1979. (أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ).

(179) انظر: Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933: ein Bericht*, S. 16 f.

(180) الأخبار من أرشيف جامعة ميونيخ بتاريخ 5 تموز/ يوليو 1989.

(181) انظر: Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933: ein Bericht*, S. 13 ff.

(182) المصدر نفسه، ص 16.

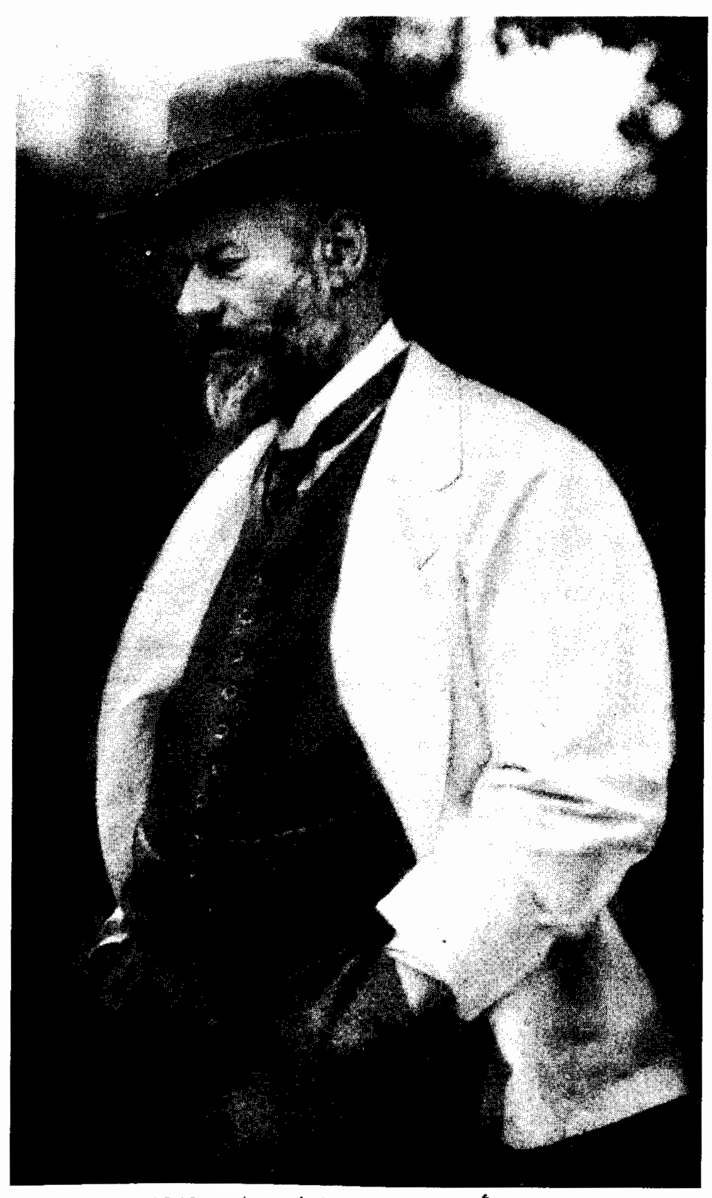
نوفمبر 1917، فإن فيبر يكون قد ألقى محاضرته بطلب من المديرين لها أنفسهم، وفي القاعة عينها أمام الجمهور نفسه مرتين وبشكل مرتجل. ويكون قد تم أيضاً تدوين المحاضرة المرتجلة مرتين. ولا نجد ما يدعم هذه الفرضية، لا في مراسلات عصبة الطلاب الأحرار مع ماكس فيبر، أو مع الناشر دنكر وهمبلوت، الذي قام بنشر نص المحاضرتين، ولا نجد ذلك ضمن مذكرات بيرنباوم المشار إليها[183]. وكذلك استناداً إلى معطيات بومغارتن وإلى مراسلات فيبر، يمكن إثبات الزعم، بأنه ألقى محاضرته «العلم بوصفه حرفة» في 16 كانون الثاني/ يناير 1919[184]، بأنه زعم لا يستقيم مع البحث الدقيق، ذلك أن المحاضرات التي يشير إليها فيبر في رسائله، والمتعلقة بالمحاضرات أمام الطلاب التي يستند بومغارتن إليها، ليست محاضرات فيبر أمام عصبة الطلاب الأحرار، بل إنها تتعلق بالمحاضرات حول «البورجوازية الغربية»[185] وبمحاضرة بعنوان «الطالب والسياسة»[186]، وهما محاضرتان أُلقيتا بدعوة من جمعية العلوم الاجتماعية في جامعة ميونيخ، وبالتالي، من اتحاد الطلاب الألمان القوميين. وقد ألقيتا بعد أكثر من تأجيل لهما في 12 و13 آذار/ مارس 1919.

(183) انظر: Birnbaum: «Erinnerungen an Max Weber,» in: König und Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 19-21, und *Achtzig Jahre dabeigewesen*, S. 79 ff.

(184) انظر أعلاه هامش رقم 176 من هذا الفصل.

(185) انظر جريدة: *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 112 (10 März 1919), S. 2, (MWG I/16, S. 557 f.).

(186) انظر جريدة: *München - Augsburger Abendzeitung*, Nr. 120 (14 März 1919), S. 3 (MWG I/16, S. 482-484).



صورة أخذت في بورغ لونشتاين 1917

العلم بوصفه حرفة

1 ـ تقرير خاص بالطبعة: مسيرة تكوُّن المحاضرة

إن أصل نص «العلم بوصفه حرفة» محاضرة ألقاها ماكس فيبر في إطار سلسلة من المحاضرات حملت «العمل الذهني بوصفه حرفة» عنواناً لها. وقد ألقيت في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917[1]. وكانت هذه السلسلة من تنظيم «عصبة الطلاب الأحرار، جمعية منطقة بافاريا». تكونت حركة الطلاب الأحرار[2] مع نهاية

---

(1) حول مسألة تحديد زمن إلقاء المحاضرة، انظر المقدمة، الفقرة 5.

(2) حول ما يأتي انظر: *Freistundententum. Versuch einer Synthese der freistudentischen Ideen*, hg. von Hermann Kranold in Verbindung mit Karl Landauer und Hans Reichenbach (München: Max Steinebach, 1913), and Hermann Kranold, *Die Freie Studentenschaft in Vergangenheit und Zukunft* (München: Georg C. Steinicke, 1914),

محاضرة ألقيت أمام الطلاب الأحرار في ميونيخ.

Immanuel Birnbaum, «Idee und Form der Freien Studentenschaft,» in: *Die Hochschule. Blätter für akademisches Leben und studentische Arbeit*, Nr. 8 (Nov. 1918), S. 321 - 325; Werner Mahrholz, «Geschichtliche Stellung der Freistudentenschaft,» in: *Das akademische Deutschland*, Band 2. (Berlin: C. A. =Weller, 1931), S. 593 - 599; Paul Ssymank, «Geschichtlicher Verlauf der

القرن التاسع عشر كردة فعل على التغيرات العميقة التي أُدخلت في جوهر التعليم العالي. ومن المظاهر التي رافقت تحول الجامعات، من تشكلات صغيرة نسبياً وواضحة إلى منشآت كبيرة تقنية متخصصة مع طلاب يزداد عددهم، نشير إلى تكوّن ما عُرف في عدة جامعات بروابط الطلاب الأحرار، إلى جانب الجمعيات الطالبية التقليدية مختلفة النوع والميول، بل بمواجهتها في بعض الأحيان. وقد توحدت روابط الطلاب الأحرار في العام 1900 ضمن جمعية واحدة شاملة هي «جمعية الطلاب الألمان الأحرار» رافعةً شعار تمثيل كل الطلاب الذين لا ينتمون إلى اتحادات أو جمعيات أخرى. وكان هدف «جمعية الطلاب الألمان الأحرار» كسر سيطرة النقابة - وهذا ما تم التعبير عنه في مؤتمر الطلاب الأحرار المنعقد في فايمار عام 1906 - «توحيد الحركة الطالبية في جسم نقابي مستقل قائم بذاته»[(3)]. إلى جانب ذلك بذلت حركة الطلاب الأحرار جهدها لتحسين الوضع الاجتماعي السيئ للعديد من الطلاب. هذا إلى جانب تطوير وتحسين

freistudentischen Bewegung,» in: *Das akademische Deutschland,* S. 599- 600; = Jürgen Schwarz, *Studenten in der Weimarer Republic*, Die deutsche Studentenschaft in der Zeit von 1918 -1923 und ihre Stellung zur Politik (Berlin: Duncker & Humblot, 1971), S. 147 - 152; Ulrich Linse, «Hochschulrevolution. Zur Ideologie und Praxis sozialistischer Studentengruppen während der deutschen Revolutionszeit 1918/ 1919,» in: *Archiv für Sozialgeschichte*, Band 14 (1974), S. 1-114, and Hans-Harald Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik* (Kronberg/ Taunus: Scriptor Verlag, 1977), S. 24 - 38,

وقد تم التطرق إلى هذه الحركة على غرار الجماعة التأسيسية في حزب العمال الشيوعي في ألمانيا.

(3) نقلاً عن: Ssymank, «Geschichtlicher Verlauf der freistudentischen Bewegung,» in: *Das akademische Deutschland*, S. 600.

الأفق الذهني عند الطلاب إلى ما يتجاوز الدراسة الجامعية الخاصة. ومن أجل ذلك أقام الطلاب الأحرار في عدة جامعات «أقساماً علمية» كانت تتولى تحضير إلقاء المحاضرات التي تروم إلى ما يتجاوز إطار «التعليم المهني» الضيق. وأسسوا، لاحقاً، ما يعرف «بالمحاضرات الدراسية ـ العمالية، بهدف تحقيق الربط بين العمال والأكاديميين»[4]. ومع نهاية القرن، حصل نقاش تناول التأسيس النظري لحركة الطلاب الأحرار[5]. وعرض فيليكس بيرند (Felix Behrend)، في العام 1907، برنامجاً سياسياً في مراحل التعليم العالي حول مضمون وهدف حركة الطلاب الأحرار[6]. واستناداً منه إلى مبادئ همبولت حول وحدة العلم وحريته، تناول بيرند بالنقد التكيف المتنامي للجامعات مع متطلبات النظام الرأسمالي الاجتماعي والاقتصادي، محذراً من أخطار «دراسية لا هدف منها سوى كسب المال» التي لا يمكن أن توصل إلا إلى «انعدام الثقافة». وانتقد، مع اعترافه الكلي بالإنجازات العلمية الفردية، ظاهرة النزعة التخصصية التي تدور حولها، والتي يحتاج إليها الفرد إذ تجعله يكتفي بالبقية الصغيرة المتبقية من العلم. «لابدّ إذاً من التوجه أكثر وأكثر إلى مسائل العلم المبدئية العامة»، ويجدر التوجه إلى «التساؤل عن أسس الثقافة» أيضاً[7].

---

(4) انظر: Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik,* S. 30.

(5) انظر: Hermann Kranold, «Der Werdegang des Freistudententums,» in: *Freistundententum. Versuch einer Synthese der freistudentischen Ideen,* S. 17.

(6) Felix Behrend, *Der Freistudentische Ideenkreis,* Programmatische Erklärungen, hg. im Auftrage der Deutschen Freien Studentenschaft (München: Bavaria-Verlag, 1907).

(7) المصدر نفسه، ص 8 وما يليها.

وفي سياق هذا النقاش، حول البرامج، ازدادت مقاومة إدارة التعليم العالي لأهداف حركة الطلاب الأحرار. وانتُقد كذلك بشدة زعمها تمثيل مجمل «الطلاب الأحرار»، أي بمن فيهم الطلاب غير النقابيين[8]. وتكوّن في قلب الطلاب الأحرار أيضاً اتجاه كان مستعداً للتخلي عن مبدأ التمثيل هذا، مريداً أن يكوّن من الطلاب الأحرار نوعاً من «حزب أكاديمي فاعل» ذي أهداف ثابتة واضحة المعالم[9]. ومن القائلين بهذا الاتجاه «النقدي»، نشير إلى كل من: ألكسندر شفاب، فالتر بنيامين (Walter Benjamin) هانس ريشنباخ (Hans Reichenbach)، وهرمان كرانولد (Hermann Kranold)، وكارل لانداور، وإيمانويل بيرنباوم[10]. وقد اشتكوا أن الجامعة لا تربي «أناساً يتمتعون برؤية مستقلة ومستقيمة عن العالم»، بل تُخرّج «خبراء»، فقط، لا يملكون، في أكثر الأحيان، فهماً للمسائل النقابية التي لا تقع في دائرة واجباتهم المهنية الضيقة[11]. وكان كل من شفاب، بنيامين وريشنباخ الأكثر تأثراً بتصورات حركة الشبيبة الألمانية التربوية بالشكل الذي اقترحه عليها غوستاف فينكن في برنامجه الإصلاحي[12]. وطالب هانس ريشنباخ، انطلاقاً من مثال القيادة والجماعة، «بالاقتحام الروحي

(8) انظر: Kranold, *Die Freie Studentenschaft in Vergangenheit und Zukunft*, S. 21 ff., and Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik*, S. 29 f.

(9) انظر: Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik*, S. 31.

(10) المصدر نفسه، ص 122، هامش رقم 121.

(11) Karl Landauer, «Die Verwirklichung der freistudentischen Idee im Rahmen der Gegenwartskultur,» in: *Freistundententum. Versuch einer Synthese der freistudentischen Ideen*, S. 44.

(12) انظر: Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik*, S. 122, Anm. 121, and «Götz von Olenhusen, Irmtraud und Albrecht, Walter =

في التعليم العالي»: «إذ إن التناقض بين الأستاذ والطالب يجب أن لا يبقى مستمراً. وطالب كذلك بأن تكون العلاقة بين القائد ورفاقه من الشبيبة علاقة صداقة»[13]. ويجب أن يكون الهدف من مثل هذه الجماعة، التي تريد أن تجعل الأعمال المشتركة مضموناً للحياة، «اختبار العلم» إذ إنه من «التجربة الإنسانية» ومن «الشعور النهائي المباشر» يمكن أن ينبع «الإيمان والتحقق بالقيم الروحية»[14].

إن الاعتراض على الجامعة، بوصفها مكاناً يقوم فقط بالإعداد المهني، قد أوصل ألكسندر شفاب، وهو أحد العناصر القيادية في دائرة الطلاب الأحرار التي تحلقت حول غوستاف فينكن[15]، إلى أن يقدم نقداً تناول «فكرة الحرفة ـ الدعوة» من أساسها. ومن المرجح جداً أن يكون هو من كتب مقالة «الحرفة والشبيبة» التي صدرت باسم مستعار، هو فرانز ـ كزافيه شفاب[16] (Franz-Xaver Schwab)،

= Benjamin, Gustav Wyneken und die Freistudenten vor dem Ersten Weltkrieg,» in: *Jahrbuch des Archivs der deutschen Jugendbewegung*, Jg. 13 (1981), S. 99- 128.

(13) Reichenbach, «Der Sinn der Hochschulreform,» in: Hans Reichenbach [et al.] *Studentenschaft und Jugendbewegung*, hg. vom Vorort der Deutschen Freien Studentenschaft (München: Max Steinebach, 1914), S. 11.

(14) المصدر نفسه، ص 8 وما يليها.

(15) نجد سيرة قصيرة عن ألكسندر شفاب (1887 ـ 1943) الذي كان، بعد دراسته، معلماً في المدرسة التي أسسها غوستاف فينكن، «Freien Schulgemeinde Wickersdorf»، فـي المراجـع الآتـية: Ulrich Linse, *Entschiedene Jugend 1919 - 1921*, Deutschlands erste revolutionäre Schüler - und Studentenbewegung (Frankfurt a. m.: dipa-Verlag, 1981), S. 261 - 264, Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik*, S. 24-58,

وفي هذا الأخير نجد تفصيلاً لتطوره العقلي والسياسي.

(16) نشر ألكسندر شفاب بعض مقالاته بأسماء مستعارة عديدة، راجع حول ذلك فهرست كتابات ألكسندر شفاب من الأعوام 1911 حتى 1921 في: Müller, *Intellektueller Linksradikalismus in der Weimarer Republik*, S. 163-165, =

في المجلة الشهرية *die weissen Blätter* (**الصفحات البيض**)، التي كان يصدرها رينيه شيكلي[17] (R. Schickelle). وتضمنت المقالة هجوماً مباشراً على التصورات التربوية والثقافية التي يقول بها الطلاب الأحرار[18] والجمعيات الشبابية الألمانية الأخرى مثل جمعية «Wandervogel» أو الأوساط المؤيدة لغوستاف فينكن[19]. وضم

= وهذه المقالة مذكورة هناك. وحول تحليل الأسماء المستعارة، انظر أيضاً: Immanuel Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten* (München: Süddeutscher verlag, 1974), S. 79,

ورسائل بيرنباوم إلى فنكلمان بتاريخ 14 كانون الأول/ ديسمبر 1960 و15 تموز/ يوليو 1970 (أرشيف ماكس فيبر - ميونيخ). وتصريح بيرنباوم في حديث له مع هورست هيللي (Horst J. Helle) في 3 آذار/ مارس 1982 محضر ص 7، المصدر نفسه.

(17) Franz Xaver Schwab, «Beruf und Jugend,» *Die weissen Blätter*, 4. Jg., Heft 5 (Mai 1917), S. 97 - 113,

هذا وقد نشر كل من إدوارد برنشتاين وإرنست بلوخ وكورت هيللر في المجلة نفسها.

(18) انظر: Schwab, «Beruf und Jugend,» S. 106.

(19) المصدر نفسه، ص 105. وجه شفاب نقده أيضاً إلى عصبة الطلاب الألمان الأكاديميين الأحرار، وجمعية الطلاب المتزهدين، وكذلك إلى جمعية الجماعات المدرسية الحرة. توحدت هذه المجموعات عام 1913 في شبيبة الأحرار الألمان، انظر: *Freideutsche Jugend.*: *Zur Jahrhundertfeier auf dem Hohen Meißner* (Jena: Eugen Diederichs, 1913),

هذا، ثم إن غوستاف فينكن كان قد انسحب وأنصاره من هذه الجمعية عام 1914. إلا أنه عاد وتقرب منها عام 1917، انظر: Heinrich Kupffer, *Gustav Wyneken* (Stuttgart: Ernst Klett, 1970), S. 96 -106,

ثمة فرق عضوي وتنظيمي بين الطلاب الأحرار والمنظمة الأكاديمية للألمان الأحرار وعصبة الأكاديميين الأحرار. ذلك أن عصبة الأحرار كانت منظمة بشكل نقابي يشبه شكل التنظيم الجماعوي، وقد وقفت موقفاً نقدياً إزاء العمل التربوي في أوساط الطلاب الأحرار، إذ اعتبرت ذلك متابعة «للعمل العقلاني» الذي يفرضه التعليم الجامعي، انظر: Immanuel Birnbaum, «Die Akademischen Organisationen der Meissnerbewegung,» in: *Studentenschaft und Jugendbewegung*, S. 47-55,

على أن ثمة تقاطعات ونقاط تماس يمكن معاينتها بين شتى الحركات، بحيث تلاشت الحدود في ما بينها مع سير الحرب.

شفاب، في نهاية الأمر أيضاً، «كافة» دعاة إصلاح الحياة «البورجوازيين» إلى لائحة انتقاداته العنيفة، مسمياً بشكل خاص الأوساط المتحلقة حول الشاعر ستيفان جورج[20] (Stefan George). ولم تعاين جميع هذه الحركات برأيه، أياً كان التقدير لعملها الثقافي أو التربوي، بما يكفي المشكلة الأساسية التي تعاني منها، «الإنسانية الأوروبية الغربية والأميركية»[21] و«العنف الذي يهدد بالخطر»[22]، وأثر المهنة في الخلاص، ما يؤثر بشكل خاص في سلامة النفس الإنسانية لدى الشبيبة، إذ إن المهنة هي «أفعى شائكة = Molach»، وغول مخرّب يقبع في قلب عالمنا، ويمد مخالبه، بشكل خاص، باتجاه كل ما هو شاب»[23]. جعل شفاب الواقع المتكامل الذي عاشه العالم الإغريقي[24] مقابل «الانحراف الحديث»[25] الذي يشهده العالم البورجوازي الأوروبي الغربي والأميركي. إذ إنه يرى أن مهمة كسب الرزق رغم الجهد الذي بذل لتحقيق اقتصاد عقلاني قد ظلت، في نهاية الأمر، وسيلة من أجل تحقيق حياة جيدة، وهذا ما حقق انسجاماً أمَّن التوازن للتوتر بين قطبي الحياة الإنسانية، أي القطب الجسماني والقطب الروحي. وأما اليوم، وبالمقابل، فقد أصبحت مهمة كسب الرزق غاية في حد ذاتها، وتحولت بذلك إلى مهنة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهذا ما يبعد عالمنا بشكل كبير جداً»، لا عن العالم اليوناني وحسب، بل كذلك عن كل مرحلة يمكن أن يتحقق فيها هذا التكامل مستقبلاً. «فقد أرسى التوتر المخيف بين

---

(20) انظر: Schwab, «Beruf und Jugend,» S. 104.

(21) المصدر نفسه، ص 97.

(22) المصدر نفسه، ص 105.

(23) المصدر نفسه.

(24) المصدر نفسه، ص 106.

(25) المصدر نفسه، ص 110.

الحياة والفكر، إلى حد الإشباع، تكامل الأشكال الجسمانية ـ الروحية»[26]. أما إذا أردنا أن نتخلص من هذا «الانحراف الحديث»، وأن نجعل من الحاجة إلى كسب الرزق فضيلة تقود حياتنا، فعلينا أولاً أن نقوم بنقد جذري للأفكار المتعلقة بالمهنة، وأن نتوقف عند ذلك عن أمثَلَة البحث عن الغذاء، وأن نجعل من المعركة من أجل التحصيل والملكية معياراً للقيم الإنسانية[27]. إذ إنه ليس من العراقة، أن يشارك المرء بروحه في المهنة: يجب أن لا يكون النجاح في المهنة «شرفاً، بل نجاحاً وحسب [. .]. ولا يمكن كذلك أن يكون عيباً أحياناً»[28].

لاقت أطروحات شفاب التحريضية، في أوساط أصدقائه القدامى في حركة الطلاب الأحرار، بعض الاستحسان. إثر ذلك، قررت عصبة الطلاب الأحرار، جمعية منطقة بافاريا ـ وهي المنظمة التي كانت تعرف بالطلاب الأحرار[29] ـ والتي كانت تضم بين قيادييها كلاً من إيمانويل بيرنباوم وكارل لانداور، تنظيم سلسلة من المحاضرات في ميونيخ تتناول المسائل المطروحة[30]. تأثرت خطة هذا الحفل وسير تنفيذه بأطروحتين كان شفاب هو الدافع لهما. إذ سبق لشفاب أن زعم أن إعادة العلاقة الطبيعية بين الحياة والروح، التي أضر بها العالم

---

(26) المصدر نفسه، ص 112.

(27) المصدر نفسه، ص 111.

(28) المصدر نفسه، ص 113.

(29) انظر: Philipp Löwenfeld, in: *Jüdisches Leben in Deutschland*, Band 2: Selbstzeugnisse zur Sozialgeschichte im Kaiserreich, hg. von Monika Richarz (Stuttgart: Deutsche Verlags - Anstalt, 1979), S. 316 f.

(30) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten*, S. 79,

رسائل بيرنباوم إلى فنكلمان (مذكورة في هامش رقم 16 أعلاه).

البورجوازي الحديث، قد صارت بالغة الصعوبة، ولاسيما حين ينحل تحصيل المال والعمل الذهني، أحدهما في الآخر، أو حين يأتي أحدهما قبل الآخر، أي حين يتحول العمل الفكري إلى مهنة. «تنطبق هذه الحالة على الفنانين، والمتعلمين، والأطباء، والقضاة، وموظفي الدولة، والأساتذة. لذلك لابدّ أول الأمر من العمل على الوقوف بوجه تأثير كل أمثَلَةٍ وكل تجلٍ أخلاقي لمهمة كسب الرزق، وإثبات أن جميع الناس ساعون للكسب المالي، بل والافتراض أساساً أنهم جميعاً أناس يسعون لكسب المال فقط»[31]. أضاف شفاب لاحقاً قولاً مفاده، إن «الشخصين الوحيدين في عصرنا اللذين أعربا في مواقع أكيدة عن آراء صحيحة حول المهنة» هما «الأخوان ماكس وألفريد فيبر في هايدلبرغ»[32]. ربما أراد شفاب بهذه الملاحظة أن يشير إلى سلسلة مقالات ماكس فيبر «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»[33]، وإلى أفكار ألفريد فيبر حول أنماط الثقافة الألمانية المعاصرة[34].

---

(31) انظر: Schwab, «Beruf und Jugend,» S. 111-112.

(32) المصدر نفسه، ص 104.

(33) ظهرت الصيغة الأولى في: *AfSS*, Band 20 (1904), S. 1 - 54, Band 21 (1905), S. 1-110, (MWG I/9),

ونُشرت الصيغة الثانية في: Max Weber, *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*, Band 1 (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1920), S. 17 - 206, (MWG I/18),

لم يتبع فيبر في دراسته هذه تكوين «الشعور بالواجب المهني - البورجوازي» وحسب، بل عرج في نهايتها إلى التحدث عن الخبير الذي لا روح فيه ولا إحساس عنده. وهذا ما جعل سجن العالم البورجوازي الحديث أمراً مريحاً. وربما كانت هذه الملاحظة هي التي عناها شفاب في تحليله المشار إليه.

(34) ربما كان شفاب قصد ألفريد فيبر في تحليله أكثر من سواه. إذ سبق لألفريد فيبر أن أتى في أعماله مراراً على الأثر الذي تتركه المهنة في قدر حياة بعض الناس. إذ إنه أوضح، في مقالة له أُعدت مباشرة للطلاب، الارتباط مباشرة مع هذه الأطروحة وهي أن «الموظف البيروقراطي الحديث» قد انحدر بالثقافة إلى مجرد وظيفة تحصيل معاش سخيف...» =

لقد أعطت جمعية منطقة بافاريا في عصبة الطلاب الأحرار بحق سلسلة المحاضرات المعلن عنها عنوان «العمل الذهني بوصفه حرفة». وكانت المهن المعنية، بالمقارنة مع الأفكار التي تطرق إليها شفاب، هي مهن العلماء، والفنانيين، والمربين، ثم أضيف إلى هذه اللائحة، أو بالأحرى أُضيف إليها بعد تعديلها، مهنة السياسي. وكان النظر، على الأرجح، منصباً كذلك على محاضرة أخرى تحمل عنوان «الكاهن بوصفه حرفة» (أو الكهنوت بوصفه حرفة) أو «الدين بوصفه حرفة»[35]. وقد طُلب، من أجل ذلك، من شخصيات معروفة تقديم تقارير تتضمن خبراتهم، ولمعرفة ما إذا كان بالإمكان في ظل الشروط السائدة اليوم العيش من المهنة أو العيش لأجلها[36]. وكان

= وأنه بذلك أقفل على نفسه التطلع إلى الارتقاء بتكونه الخاص، انظر: Alfred Weber, «Der Kulturtypus und seine Wandlung,» in: *Heidelberger Akademischer Almanach für das Winter-Semester 1909/1910*, hg. vom Ausschuss der Heidelberger Freien Studentenschaft (Heidelberg: Verlag der Herausgeber, 1909), S. 53 - 61.

(35) انظر ملاحظة بيرنباوم كما وردت في الحديث مع هورست هيللي في 3 آذار/ مارس 1982 (محضر ص 3، أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ): ورسالة بيرنباوم إلى فنكلمان 15 تموز/ يوليو 1970، وكذلك بيرنباوم، السياسية بوصفها حرفة: قبل ستين عاماً ألقى ماكس فير محاضرته الشهيرة، نقلاً عن: *Süddeutsche Zeitung*, Nr. 231 (6./ 7. Okt. 1979),

وكما ينقل بيرنباوم متذكراً، فقد اقترح أن يكون الأب اليسوعي بيتر ليبرت (Peter Lippert)، الذي يحظى على ما يظهر بتقدير خاص في أوساط الطلاب الأحرار، من جملة المحاضرين. وقد كان عليه، كما يستفاد من إشارة قصيرة وردت في: *Münchner Akademischen Rundschau*, Jg. 7, Heft 13 (Mai 1914), S. 230,

أن يحاضر في الفصل الصيفي من عام 1914، ومن خلال سلسلة محاضرات يعدها الطلاب الأحرار في ميونيخ عن «الحرف الأكاديمية» حول «حرفة الكاهن». إلا أننا لا نجد في الوثائق التي وردت أي اثبات يفيد أن ليبرت ألقى في إطار سلسلة المحاضرات «العمل الفكري بوصفه حرفة» محاضرة بهذا الشأن.

(36) انظر الكلمة الملحقة لبيرنباوم حول «العلم بوصفه حرفة»، وهي ملحقة في نهاية هذا التقرير.

من المتوقع، حين بدأ بإلقاء سلسلة المحاضرات هذه في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، أن تتضمن أربع محاضرات. من المحاضرات الثابتة المعلن عنها في ذلك، الوقت، محاضرة «العلم بوصفه حرفة»، و«الفن بوصفه حرفة»، و«التربية بوصفها حرفة»[37]. أما إذا أُعلن عن محاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة»، فإن ذلك لمّا يكن مؤكداً[38].

كان على ماكس فيبر أن يحاضر في «العلم بوصفه حرفة»، ذلك أن شفاب، وبالتوافق مع ألفريد فيبر، كان قد سماه الخبير في التحليل النقدي للعمل العقلي بوصفه حرفة. أما بالنسبة إلى «التربية بوصفها حرفة»، فقد كان النظر يتجه إلى المربي جورج كرشنشتاينر (Georg Kerschensteiner). وقد رحب ماكس فيبر بهذا الاقتراح، ذلك أن اختيار الطلاب الأحرار لم يقع على غوستاف فينكن، الذي كان يرفضه، كما يرفضه آخرون، إذ كان يعتبره «ديماغوجي الشبيبة»[39]. وأما المحاضرة بعنوان «الفن بوصفه حرفة»، فقد وقع الاختيار أن تكون أولاً من نصيب فيلهلم هوزنشتاين (W. Hausenstein) المعروف بتأريخه للفن. وقد ظل الباب مفتوحاً لمن كان عليه أن يتولى إلقاء المحاضرة الرابعة.

تولى إيمانويل بيرنباوم التحضير لسلسلة المحاضرات، وقد قاد بنفسه التفاوض مع المحاضرين. وبعد توقفه للدراسة في فرايبورغ،

(37) انظر تقرير: *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 567 (9 Nov. 1917),

(38) انظر التقرير الوصفي لنشر «السياسة بوصفها حرفة»، لاحقاً ص 209، هامش رقم 7 من هذا الكتاب.

(39) رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

ثم في كونيغسبرغ، قدِم بيرنباوم في الفصل الصيفي عام 1913 إلى ميونيخ حيث أدى دوراً قيادياً في جمعية الطلاب الأحرار في هذه المدينة. إلى جانب ذلك، كان لبيرنباوم، علاوة على علاقته بعصبة الطلاب الأحرار، علاقات سياسية عديدة في ميونيخ، إذ كان محرراً في جريدة *Europäischen Staats - und Wirtschaftzeitung* التي كان يتولى هاينريش فون فروندورفر (Heinrich von Frauendorfer) وإدغار يافي نشرها. وكان كذلك عضواً في أرشيف مدرسة التجارة العليا في ميونيخ، وسكرتير شرف في الجمعية السياسية في ميونيخ، كما كان منتسباً إلى نادي الحوار في أوساط الليبرالية البورجوازية، وناشطاً منذ خريف 1917 في الحزب الاشتراكي الديمقراطي[40].

كان مقرراً أن تبدأ سلسلة المحاضرات، أصلاً، في الفصل الشتائي من العام 1917/ 1918. إلا أنه تبين أن تنظيمها في هذا التاريخ أمرٌ شديد الصعوبة. **أولاً**، أصدر مركز توزيع الفحم في ميونيخ، بسبب النقص الكارثي في مواد التدفئة، منعاً صارماً لتنظيم المحاضرات في شتاء 1917/ 1918، ما جعل بيرنباوم لا يفكر بالمحاضرات قبل صيف العام 1918[41]. ومن **جهة ثانية**، حالت صعوبات قاسية دون الحصول على موافقة المحاضرين الذين وقع الاختيار عليهم. ولدينا حول ذلك وثائق كاملة تتعلق، على الأخص بجورج كرشنشتاينر. إذ سبق أن أعلن بوضوح عن استعداده في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1917 إلقاء محاضرة بعنوان «التربية بوصفها حرفة»، ولكن بشرط أن لا يصل إليه

---

(40) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten*, S. 45 ff.

(41) رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

الدور إلا بعد عام من ذلك الوقت[42]، الأمر الذي قبل به بيرنباوم أيضاً[43]. وحين أعاد بيرنباوم في أيلول/ سبتمبر 1918 تذكيره بهذا الوعد الذي قطعه[44]، كرر كرشنشتاينر موافقته شرط أن «لا يكون موعد ذلك قبل شهر كانون الثاني/ يناير»[45]. وعندما عاود بيرنباوم العرض مجدداً مع نهاية عام 1918، والتمس منه أن يلقي محاضرته عن التربية في الأسبوع الثالث من شهر كانون الثاني/ يناير 1919[46]، جدد كرشنشتاينر، مرة أخرى، طلب تأجيل الموعد حتى آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل من العام 1919، رابطاً ذلك بسبب تراكم الأعمال، «بسبب التسريح من الجيش وما يرتبط بذلك من انقلاب»[47]. وجدد كرشنشتاينر في آذار/ مارس 1919 الرغبة بنقل الموعد إلى «ما بعد عيد الفصح»[48]، ثم أرفق رغبته بمخطوط موسع بعنوان «التربية بوصفها حرفة»[49]. وأما هل ألقى محاضرته فعلياً أمام الطلاب في ميونيخ، فهي مسألة فيها نظر، إذ لا يوجد

---

(42) تصور مختزل لرسالة جوابية من جورج كرشنشتاينر بتاريخ 13 تشرين الأول/ أكتوبر على الوجه الآخر من رسالة بيرنباوم إلى كرشنشتاينر بتاريخ 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1917. مكتبة مدينة ميونيخ ـ قسم المخطوطات، أرشيف كرشنشتاينر.

(43) رسالة بيرنباوم إلى كرشنشتاينر بتاريخ 25 تشرين الأول/ نوفمبر 1917 (المحفوظات المشار إليها).

(44) رسالة بيرنباوم إلى كرشنشتاينر 29 أيلول/ سبتمبر 1918 (المصدر نفسه).

(45) تصور لرد مختزل من كرشنشتاينر إلى بيرنباوم على الوجه الآخر من الرسالة المشار إليها في الهامش السابق.

(46) رسالة من بيرنباوم إلى كرشنشتاينر، دون تاريخ [نهاية 1918].

(47) تصور الرد على الرسالة المشار إليها هامش 46 أعلاه.

(48) تصور رد مختزل على الوجه الآخر من رسالة من بيرنباوم إلى كرشنشتاينر، وضعه هذا الأخير، الرسالة بتاريخ آذار/ مارس 1919.

(49) المخطوط موجود أيضاً في مكتبة ميونيخ، المشار إليها سابقاً.

لدينا مستند عن ذلك[50]. أما المحاضرة بعنوان «الفن بوصفه حرفة»، فلا نعلم إذا ألقيت أم لا. إذ إنه بعد أن دار الحديث، أول الأمر، بين تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 وصيف 1919 حول فيلهلم هوزنشتاين[51]، أعلن بيرنباوم في أيلول/ سبتمبر 1918 أن هاينريش فولفلين الذي يكتب في تاريخ الفن سيتحدث في هذا الموضوع[52]. ولكن في نهاية 1918 طرأ تعديل جديد على هذا المخطط، إذ تم الإعلان أن الشاعر فيلهلم شيفر (Wilhelm Schäfer) سيكون المحاضر في «الفن بوصفه حرفة»، وأن موعد المحاضرة قد حدد مع بداية العام 1919[53]. إلا أن شيفر تمنى على عصبة الطلاب الأحرار في كانون الثاني/ يناير 1919 تأجيل الموعد[54]. وكما هو الحال بالنسبة إلى المحاضرة عن التربية، لا نجد هنا بعد هذا الإعلان أي مستند جديد.

متى توجهت عصبة الطلاب الأحرار لأول مرة إلى ماكس فيبر

---

(50) قام كرشنشتاينر مجدداً في العام 1919 بتوسيع مخطوطه، ونشره لاحقاً تحت العنوان الآتي: «الاستعداد النفسي لمهنة المربي والأستاذ». وقد نشر ذلك في كتيب أول الأمر: «Jahrbuch der Schweizerischen Gesellschaft für Schulgesundheitsfürsorge,» 20. Jg. (1919), S. 161-193,

كما شكلت الأفكار التي وردت في «التربية بوصفها حرفة»، لاحقاً، أساساً لأحد أهم أعمال كرشنشتاينر: Georg Kerschensteiner, *Die Seele des Erziehers und das Problem der Lehrerbildung* (Leipzig: Berlin: B. G. Teubner, 1921),

انظر المقدمة بشكل خاص ص VI وما يليها.

(51) انظر أدناه، المقاطع الآتية من هذا التقرير.

(52) رسالة بيرنباوم إلى جورج كرشنشتاينر 29 أيلول/ سبتمبر 1918 (مكتبة ميونيخ، أرشيف كرشنشتاينر).

(53) رسالة من بيرنباوم إلى كرشنشتاينر غير مؤرخة [نهاية 1918].

(54) هذا ما يستفاد من رسالة بيرنباوم إلى الناشر دنكر وهمبلوت بتاريخ 30 كانون الثاني/ يناير 1919 (أرشيف دار النشر ـ ملكية خاصة).

بالطلب منه ليكون محاضراً في إطار السلسلة المشار إليها، «العمل الذهني بوصفه حرفة»؟ لا يوجد جواب شافٍ حول ذلك، إلا أنه توجد إشارة لشفاب بالتعبير عن الرغبة بكسب ماكس فيبر. وربما صار التواصل قوياً أثناء اللقاء الذي نظمه الناشر إيوجين ديدريش (من مدينة يينا) حول الثقافة، والذي عقد في بورغ لونشتاين القريبة من ثورنغن. عُقد اللقاء تحت عناوين، هي «معنى عصرنا ومهمته» و«مسألة القيادة في الدولة والثقافة». وقد تم هذا اللقاء بين 29 و31 أيار/ مايو، ومن 29 أيلول/ سبتمبر حتى 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1917[55]. وتحدث فيبر في هذا اللقاء في 30 أيار/ مايو حول موضوع «الأرستقراطية الفكرية والحياة البرلمانية». وخلافاً للمتحدث قبله، وهو الكاتب ماكس ماورنبرشر (Max Maurenbrecher) الذي عارض النظام البرلماني ودعا إلى تجاوز «النظام الرأسمالي الآلي من خلال دولة مثالية يقودها «حزب رواد الفكر»، دافع فيبر انطلاقاً من واقع هذا التحويل الآلي عن وجود نظام برلماني محض»[56]. وألقى فيبر في 29 أيلول/ سبتمبر، في اللقاء الثاني الذي يعتبر متابعة موضوعية لما دار في الخطاب الأول[57]، المحاضرة الافتتاحية بعنوان «الشخصية ونظام الحياة»[58]. وكما يستفاد من الملاحظات المتفرقة التي تُنسب إلى

---

(55) انظر التقارير المعدة لنشر المحاضرات أثناء انعقاد اللقاء حول الثقافة في لونشتاين (MWG I/15, S. 701-704)، والدراسة الملحقة (MWS I/15, S. 402 f.).

(56) حول أفكار فيبر انظر محضر ولفغانغ شومان «Darstellung der Haupttendenzen, welche auf der Lauensteiner Tagung der Vaterländischen Gesellschaft zu Tage traten», S. 3 - 4.

أرشيف خاص بالناشر إيوجين ديدريش (MWG I/15, S. 706).

(57) انظر الدعوة لحضور اللقاء الثاني في لونشتاين في: *ZStA Postdam, NI. Friedrich Naumann*, Nr. 10.

(58) حول عنوان هذه المحاضرة، انظر التفاصيل في: (MWS I/15, S. 402).

فرديناند تونيس[59] (Ferdinand Tönnies)، استعاد فيبر تصنيفه لأنماط السيطرة، أول الأمر، ثم تناول اختيار أو انتقاء الشخصيات القيادية في مختلف الأنظمة الاجتماعية، أي إنه تحدث عن كيفية إعداد أنظمة الحياة للشخصيات، والعكس أيضاً. ونقلاً عن إشارة أوردها تونيس في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، كانت المسائل الدينية، ومسألة العلاقة بين الإيمان والعلم موضع نقاش شارك فيه فيبر أيضاً. يستفاد من التقارير الواردة عن هذا اللقاء أن فيبر استطاع سواء من خلال تعليقاته أو بتأثير شخصيته أن يكسب انطباعاً جيداً في أوساط الشبيبة. لقد «تحلّقت الشبيبة حول ماكس فيبر»، هذا ما كتبه إرنست تولر لاحقاً عن هذا اللقاء في بورغ لونشتاين، «فشخصيته واستقامته الفكرية كانتا مجال استقطاب»[60]. وقد شارك فيرنر مارهولتز (Werner Mahrholz)، وهو من مؤرخي الأدب في أحد هذه اللقاءات. ويعتبر مارهولتز أحد الأعضاء القياديين في عصبة الطلاب الأحرار[61]. لقد تطرق فيبر إذاً، أثناء انعقاد اللقاء الثاني في لونشتاين إلى موضوعات تلامس الموضوعات التي كان يزمع أن تكون موضوعات سلسلة المحاضرات المعلنة حول «العمل الفكري بوصفه حرفة». ولا عجب بعد ذلك، أن يقبل فيبر الدعوة كي يكون متحدثاً في إطار هذه السلسلة، إذ أعلن قبوله على الفور، كما أورد بيرنباوم متذكراً في وقت لاحق، التحدث

---

(59) Schleswig - Holsteinische Landesbibliothek Kiel, NL. Ferdinand Tönnies, Cb. 54. 11.: 15 (MWG I/15, S. 707).

(60) Ernst Töller, «Eine Jugend in Deutschland,» in: Ernst Töller, *Gesammelte Werke*, Band 4 (München: Hanser, 1978), S. 78.

(61) يمكن التثبت من حضور مارهولتز على الأقل في القسم الأول من اللقاء الذي عقد في لونشتاين في أيار/ مايو 1917، كما يستفاد من لائحة المشاركين *ZStA Postdam, NL. Friedrich Naumann*, Nr. 10.

بعنوان «العلم بوصفه حرفة»[62]. فقد كان ذلك من الموضوعات «العزيزة على قلبه»[63]. أما بيرنباوم، الذي كان على معرفة شخصية بفيبر الذي التقاه في صالون ليو برنتانو أستاذ الاقتصاد في ميونيخ[64]، فقد تلقى قبول فيبر الدعوة في موعد لم يتجاوز 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1917[65]. وفي الأرجح أن هذا الاتفاق حصل حوالى 20 تشرين الأول/ أكتوبر في ميونيخ، حيث توقف فيبر هناك لوقت قصير وهو في طريقه إلى فيينا[66]. واتخذ فيبر، على الأرجح قراره إلقاء محاضرته «العلم بوصفه حرفة» بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، إذ إن ذلك كان يصادف فترة مشاركته في لقاء جماهيري يضم كل الأحزاب يقوم بتنظيمه ولفغانغ هيني (Wolfgang Heine) الاشتراكي الديمقراطي في ميونيخ في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر[67]. هكذا اتُفق أن يكون يوم الثلاثاء 6

---

(62) رسالة بيرنباوم إلى كرشنشتاينر تاريخ 15 تموز/ يوليو 1970، أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ.

(63) انظر: Immanuel Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber,» in: René König und Johannes Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, 2. Aufl. (Köln/ Opladen: Westdeutscher Verlag, 1985), S. 20.

(64) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten*, S. 60 ff.

(65) هذا ما يستفاد من رسالة من بيرنباوم إلى كرشنشتاينر بتاريخ 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1917 (مكتبة ميونيخ - قسم المخطوطات، أرشيف كرشنشتاينر).

(66) رسالة إلسي يافي إلى ألفريد فيبر بتاريخ 22 تشرين الأول/ نوفمبر (1917)، أرشيف كوبلنز (Koblenz)، تركة ألفريد فيبر (Alfred Weber)، جزء 77.

(67) هناك ألقى فيبر محاضرة بعنوان «ضد الخطر الألماني». وقد أوردت معظم الصحف تقارير حول ذلك، انظر خاصة: *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 562 (6 Nov. 1917), S. 2,

انظر التفاصيل في: (MWG I/15, S. 720-732).

تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 موعداً للمحاضرة[68]. وأما تأجيلها إلى الأربعاء في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر فقد حدث قبل وقت قصير، وأثناء توقف فيبر في ميونيخ في كل الأحوال[69]. ويوضح هذا سبب تأخر خبر إعلان المحاضرة في جريدة *Münchner Neueste Nachrichten* حتى النشرة المسائية بتاريخ السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، حيث جاء فيها ما يأتي:

«يتحدث الأستاذ الجامعي د. ماكس فيبر (هايدلبرغ) هذا المساء عند الساعة الثامنة بدعوة من عصبة الطلاب الأحرار في قاعة شتينكي (Steinicke) حول «العلم بوصفه حرفة». البطاقات موجودة عند شباك التذاكر (المفتوح) مساءً»[70].

ونقلت الصحيفة المشار إليها بعد يومين تلخيصاً مختصراً لمحاضرة ماكس فيبر:

«العمل الفكري بوصفه حرفة». علينا أن نعترف، أن هذه الموضوعة قد أصبحت في عصر يحظى فيه العمل الجسدي بتقدير استثنائي، جديرة باهتمام خاص. إن لجنة منطقة بافاريا من عصبة الطلاب الأحرار تزمع أيضاً وعبر أربع محاضرات أن تعرض الترابط

---

(68) رسالة ماكس فيبر إلى مارتا ريغل (Martha Riegel) بتاريخ 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 (نسخة ماريان فيبر بخط اليد) أرشيف: Merseburg, Rep. 92, NL. Max Weber, Nr. 30/ 8,

وفيها ما يأتي: «سأتحدث الإثنين في قاعة فاغنر (Wagner)، والثلاثاء مساء أمام الطلاب في ميونيخ».

(69) بطاقة بريدية من ماكس فيبر إلى مينا توبلر، دون تاريخ [ختم بريدي: ميونيخ 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917]. وفيها ما يأتي: «لقد أرجأت الشبيبة الاجتماع إلى اليوم مساء».

(70) *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 564 (7 Nov. 1917),

(الإصدار المسائي، ص 2).

الممكن بين العمل الفكري والحياة المهنية. افتتح الأستاذ الجامعي د. ماكس فيبر (هايدلبرغ) سلسلة المحاضرات في قاعة الفنون شتينكي بمعالجته لموضوعة «العلم بوصفه حرفة». وقد كان الأمر، من بدايته حتى نهايته، لقاءً تعليمياً ذا طابع خاص، حياً جداً فكرياً ثرياً. ومن المؤسف جداً أن يفوت المرء حضوره. لقد جرى الحديث بداية عن الكيفية التي تشكل فيها العلم بوصفه حرفة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، ثم كان ذلك مناسبة لتقديم بعض الذكريات الخاصة المتعلقة بعمل الجامعات الأميركية. ثم توسعت دائرة التأمل. إذ انتقل المحاضر للحديث عن العلاقة الداخلية بين المهنة والعلم. هنا كان العطاء أكثر غزارة مما أوحى به الإعلان. فقد كان قطعة من فلسفة الحياة. أشار الباحث في أثناء ذلك إلى أن العمل المجدي اليوم هو العمل المتخصص، وأن الحماس الذي لابدّ منه لخدمة القضية هو الشرط الأول في كل عمل علمي. يتشارك الفنانون والعلماء في أمر واحد هو الومض الفكري والخيال. علماً أن العلم هو لخدمة التقدم، ومن الضروري أن يُتجاوز هذا المعنى. ومن أجل تأسيس هذا التصور تمت العودة إلى مفهوم «العلم الذي لا شرط عليه». إن العمل العلمي في سعي دائم إلى التقدم. والإلمام الفكري به يعني معرفة شروط الحياة، إنه يعني الإيمان بأنه إذا أراد المرء معرفة شيء ما، فهو قادر على ذلك، إنه يعني إزالة السحر عن العالم. ماذا يحقق العلم للحياة؟ إنه يقدم المعارف، وطرق التفكير، والوضوح. وأما أن يصبح العلم في أيامنا مهنة، فقد أصبح ذلك منطقاً تاريخياً لا مفرّ منه. وأما على السؤال: ماذا يجب علينا فعله اليوم؟ لا يقدم العلم أي إجابة عنه.

وقد قدّر المحاضر بشكل خاص كثرة القادمين للاستماع إليه. وفي المساءات القادمة سيتحدث د. هوزنشتاين عن «الفن بوصفه

حرفة»، ثم سيتحدث د. كرشنشتاينر عن «التربية بوصفها حرفة»[71].

أبدى فيبر بعد إلقائه المحاضرة خيبة أمل واضحة بخصوص ما اعتبره العدد القليل من الطلاب الذين شاركوا بحضورهم. وعمد بيرنباوم لاحقاً في رسالة له إلى فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 إلى تصحيح ذلك. إذ أكد بيرنباوم في هذه الرسالة، أن «حلقة المستمعين ضمّت عدداً كبيراً من الطلاب والطالبات»، خلافاً لانطباع فيبر الذي كوّنه من شغل الصفوف الأولى من جانب المستمعين؟ تحدث بيرنباوم عن حضور ما بين 80 إلى 100 طالب. وبذلك تم التعبير عن ردة فعل المستمعين من الطلاب. اتجهت ملاحظات فيبر بشكل أولي إلى فريدريش فيلهلم فورستر الذي كان يتولى تدريس التربية في جامعة ميونيخ[72]، والذي حظي عبر دعوته إلى التحرك السلمي المستندة إلى حافز ديني بنصيب كبير من الاهتمام في دولة ألمانيا[73]، ما جعل ذلك حجر زاوية في احتدام الخلاف: إذ إن المحاضرة أحدثت على العموم تأثيراً استقطابياً. وقد جاء في تلك الرسالة ما يأتي: «حصلت سجالات حامية، كانت نقطة انطلاقها مجدداً، وللأسف، قضية فورستر. وقد سجلت أثناء إلقاء محاضرتكم استناداً إليه أو كردة فعل على الانطباع القومي الذي تركته حتى في الأذهان التي تعتبر معارضة لاتجاهه. وأما الوضع والاتجاه من جانبنا، فلم يكن موحداً ضد هذه الحركة كما هو اليوم». فقد تكوَّن ضد الاتجاه الذي يعتبر نفسه مع ما تقدمتم به، لأول مرة، تحالف من مجموعتين كانتا على خلاف مستمر، وهما بالتحديد من المتحمسين

(71) المصدر نفسه، العدد 567، تاريخ 9 تشرين الثاني / نوفمبر 1917 (الإصدار الصباحي، ص 3).

(72) انظر ص 183 من هذا الكتاب.

(73) بالنسبة إلى التفاصيل، انظر التقرير الإيضاحي لنص «السياسة بوصفها حرفة».

لاستخدام العقل استخداماً علمياً، والذين يرون في الجامعة تحضيراً أولياً لعقلنة الحياة، وبين الذين يعتبرون حركتنا حركة إصلاح سياسي في الجامعات. ومن جهة أخرى، ثمة فئة أخرى تعتبر نفسها من «أصدقاء الثقافة». وتحبذ هذه الفئة أن تكون الجامعة تتويجاً لبرنامج ثقافي عام متعدد الجوانب. وأما من الناحية السياسية فقد صار لهذا التحالف هذه المرة اليد الطولى، وذلك رغم ما جرى في المحاضرة: وإلى هذه المجموعة تقف مجموعة أخرى صغيرة تكوّنت إثر مقالة هوسرل (Husserl) في لوغوس (الفلسفة بوصفها علماً محضاً)[74] و«إثر الجدل المنهجي حول المؤرخ والنقاش حول أحكام القيمة في الاقتصاد»[75].

توقف كارل لفيث بدوره عند التأثير الذي تركته محاضرة فيبر في الأقلية التي أشار إليها بيرنباوم. فقد رأى فيها، وهو الذي تأثر بشدة بأفكار فيبر «إن الخبرة والعلم يكثفان حياةً بأكملها». لقد كانت كلمة فيبر بالنسبة إليه بمثابة «خلاص»[76].

كانت مسألة نشر المحاضرات التي ألقيت ضمن سلسلة «العمل الفكري بوصفه حرفة»، مسألة شغلت عصبة الطلاب الأحرار منذ البداية. فقد سبق لبيرنباوم في رسالته إلى جورج كرشنشتاينر بتاريخ 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1917 أن طلب منه «مختزلاً يوضع بعناية». وقد طالب كرشنشتاينر بعد إجراء التصحيحات من قبل المؤلف، بالتعويض اللازم مقابل السماح بنشر المحاضرة في إطار «السلسلة

---

(74) Edmund Husserl, «Philosophie als strenge Wissenschaft,» in: *Logos*, Band 1 (1911), S. 289 - 341.

(75) رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

(76) Karl Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933. Ein Bericht* (Stuttgart: J. B. Metzler, 1986), S. 16 f.

الكاملة للمحاضرات»[77]. وأما محاضرة فيبر فكانت في الأرجح محاضرة حرة (ارتجالية) قد تم اختزالها «خلف ستارة المسرح»[78]، بمشاركة أكثر من شخص. أما العرض الذي قدمه بيرنباوم لاحقاً، حين يزعم أنه أخفى وجود المختزلين عن فيبر، أول الأمر، ثم فاجأه «بإطلاعه على المحاضرة مكتوبة»[79] فهو بعيد الاحتمال، خاصة إذا ما استرجعنا ما جرى بينه وبين كرشنشتاينر. ومن الممكن أن يكون فيبر قد اطلع على النص معاداً كتابته أثناء توقفه في ميونيخ. وكما يستفاد من بعض تفاصيل بيرنباوم، فإن فيبر قرأ المخطوط بشكل «فظ»، ثم عقّب بقوله: «هل قلتُ هذا بهذا الشكل؟ أجل نعم، ولكني أعتقد كذلك أنه لابدّ من صياغة تكون أكثر دقة»[80]. أرسل بيرنباوم المخطوط بكتابته المختزلة، التي أسهم هو نفسه بإزالة بعض سوء الفهم منها بخط يده إلى ماكس فيبر في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 متمنياً عليه القبول بنشره ضمن سلسلة المحاضرات الكاملة التي أُعطيت عنواناً «العمل الفكري بوصفه حرفة». وأسف أنه لم يكن بمقدوره أن يقدم شروطاً محددة، لكنه أمل، «أن يتقدم بعرض أكثر دقة خلال عدة أسابيع في موعد أقصاه نهاية كانون الأول/ ديسمبر»[81]. واحتفظ بيرنباوم بنسخة من النص المنقول بين

---

(77) رسالة بيرنباوم إلى جورج كرشنشتاينر بتاريخ 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1917. (مكتبة مدينة ميونيخ. أرشيف كرشنشتاينر).

(78) انـــظـــر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten*, S. 79.

(79) Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber», in: König und Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 20,

(80) Birnbaum, Ibid., S. 80.

(81) رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

أوراقه[82]، ذلك أنه، كما قال لاحقاً متذكراً، كان يخشى في ذلك الوقت أن لا يراه مرة ثانية إذا وصل إلى فيبر[83]. وأجرى بيرنباوم خلال الأشهر التي تلت اتصالاً مع دار النشر دنكر وهمبلوت (Duncker & Humblot)، وأبرم معها في الثامن من حزيران/ يونيو 1918 اتفاقاً أولياً. بموجب هذا الاتفاق كان يجب أن يتضمن الجزء المزمع نشره بعنوان «العمل الفكري بوصفه حرفة» أربع محاضرات، وهي بالتحديد: «العلم بوصفه حرفة» (ماكس فيبر)، و«التربية بوصفها حرفة» (جورج كرشنشتاينر)، و«الفن بوصفه حرفة» (فيلهلم هوزنشتاين)، وأخيراً «السياسة بوصفها حرفة» (ماكس فيبر). وقد اتُفق على أن يصدر من الطبعة 2200 نسخة. أما المفاوضات مع المؤلفين، فكان يجب على عصبة الطلاب الأحرار إنجازها. وقد تم التفكير أن يتقاضى كل من ماكس فيبر وجورج كرشنشتاينر مكافأة قدرها 300 مارك عن كل محاضرة، و600 مارك لفيلهلم هوزنشتاين. وقد أعلن الناشر عدم التزامه بهذا الاتفاق حتى «تُسلم المخطوطات جاهزةً للنشر»[84]. ووافقت عصبة الطلاب الأحرار على هذا الاتفاق وأعلمت الناشر بوضوح أن المخطوطات جميعها ستكون عنده «حوالى نهاية الشتاء القادم في أقصى حد»[85].

وبسبب التأخر الحاصل، ولاسيما بالنسبة إلى المحاضرتين،

(82) المصدر نفسه.

(83) انظر: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen: Erinnerungen eines Journalisten*, S. 80.

(84) عقد الاتفاق بين عصبة الطلاب الأحرار ـ شعبة بافاريا ودار النشر دنكر وهمبلوت في 8 حزيران/ يونيو 1918. (انظر أرشيف دار النشر ـ ملكية خاصة).

(85) تأكيد الاتفاق المعقود (هامش رقم 84) من جانب عصبة الطلاب (التاريخ غير مقروء) وتأكيد دار النشر حصل بتاريخ 8 تموز/ يوليو 1918. (المصدر نفسه).

«التربية بوصفها حرفة» و«الفن بوصفه حرفة»، ولأن ماكس فيبر سيقدم محاضرته الثانية بعنوان «السياسة بوصفها حرفة» في 28 كانون الثاني/ يناير 1919، اتصل بيرنباوم مرة أخرى في 30 كانون الثاني/ يناير بدار النشر دنكر وهمبلوت[86]، وأعاد التذكير كذلك بالاتفاق الأولي المعقود صيف العام 1918، واقترح «عدم التأخر كثيراً بنشر محاضرتي فيبر وإصدارهما بشكل مستقل». وقد ترك إلى الناشر حرية نشر المحاضرتين في كتيب واحد، أو نشر كل واحدة منهما في كتيب منفصل. أما بخصوص بدل المكافأة، فقد حاول بيرنباوم إحداث تغيير في العقد، بسبب تغير المحاضر بالنسبة إلى «الفن بوصفه حرفة» مقترحاً خفض المكافأة المخصصة لهذه المحاضرة، وقدرها 600 مارك، وجعل المكافآت متساوية بين الجميع، بحيث يكون المبلغ عن كل محاضرة 350 ماركاً (ألمانياً)[87]. وأعلنت دار النشر دنكر وهمبلوت، التي سبق أن نشرت لفيبر في العام 1918 دراسته بعنوان: «البرلمان والحكومة في نظام ألمانيا الجديد»، والتي لاقت اهتماماً زائداً[88]، موافقتها على الفور بإصدار محاضرتي فيبر في كتاب منفصل. وأعلن الناشر على الفور أنه من المستحسن أن لا يعطي كلا العملين الشكل الخارجي الذي يكون عادة للمحاضرة، أي أن يُشطب التخاطب المباشر أو تغييره، وأن تصدر كل محاضرة في «كتيب مستقل». إلا أن الناشر أراد الاحتفاظ بالاتفاق القديم، أي إصدار 2200 نسخة من «العلم بوصفه حرفة» كما هو الأمر بالنسبة

---

(86) انظر التقرير بخصوص نشر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 237 ـ 239 من هذا الكتاب.

(87) رسالة بيرنباوم إلى دار النشر (دنكر وهمبلوت) بتاريخ 30 كانون الثاني/ يناير 1919 (المصدر نفسه).

(88) Max Weber, *Parlamenrt und Regierung im neugeordneten Deutschland. Zur Politischen Kritik des Beamtentums und Parteiwesens* (München/ Leipzig: Duncker & Humblot, 1918), (MWG I/15, S. 432 - 596).

إلى محاضرات السلسلة والإبقاء على قيمة المكافأة، وقدرها 300 مارك لماكس فيبر[89]. «وفي رسالة من بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 9 شباط/ فبراير 1919 عبّر بيرنباوم عن أمله أن يُترك حق طباعة المحاضرتين إلى عصبة الطلاب الأحرار...» حتى يتسنى لهذه العصبة الآن أن تقوم بنشرها دون تأخير، ثم أعلم فيبر بشروط دار النشر مؤكداً له أنه، بعد احتساب مصاريف الاختزال، سيحصل على 500 مارك مقابل الكتيبين، على الأقل، إلى جانب 25 نسخة من كل كتاب[90].

كما سبق وأشرنا، لم يكن ماكس فيبر راضياً عما تضمنته محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، بالشكل الذي نقلت فيه من طريق الاختزال. وقد أورد بيرنباوم أن فيبر «صحّح هذا الاختزال كلياً»، كما قام، قبل أي شيء آخر، «بحذف تعابير تفصح عن مزاجه»[91]. متى حدث ذلك، وإلى أي مدى تم التعديل، لا نعلم. لكن لنا أن نفترض أن التصحيحات حصلت بعد اتخاذ دار النشر القرار النهائي بطبع محاضرة «العلم بوصفه حرفة» ونشرها، ما يعني أن ذلك حصل في الأسابيع التي تلت 31 كانون الثاني/ يناير 1919. وفي الأرجح أن تكون الإشارة إلى «أصحاب العنف الثوري»[92] هي

---

(89) رسالة دار النشر (دنكر وهمبلوت) إلى بيرنباوم بتاريخ 31 كانون الثاني/ يناير 1919 (أرشيف دار النشر).

(90) رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 9 شباط/ فبراير 1919، وكما يستفاد من رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، سبق لفيبر أن تقاضى تعويضاً قدره 60 ماركاً عن المحاضرة الأولى، و120 ماركاً عن المحاضرة الثانية.

(91) رسالة بيرنباوم إلى فنكلمان بتاريخ 14 كانون الأول/ ديسمبر 1961، وإلى مارتن ريزبروت (Martin Riesebrodt) بتاريخ 17 كانون الثاني/ يناير 1979. (أرشيف ماكس فيبر - ميونيخ).

(92) انظر ص 157 ـ 158 من هذا الكتاب.

الإشارة المباشرة الوحيدة إلى الوضع السياسي الحالي التي أضيفت إلى النص. أضف إلى ذلك، أنه يستفاد من التقرير الذي أوردته جريدة *Münchner Neueste Nachrichten* حول كلمة ماكس فيبر في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917[93]، أن النص صيغ في خطوطه الأساسية، وجزئياً كذلك، بشكل حرفي في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1917[94]. في 21 شباط/ فبراير 1919 قدم بيرنباوم إلى دار النشر المخطوط الذي قبل بنشره لمحاضرته «العلم بوصفه حرفة»[95]، والذي قام فيبر بإعداده استناداً منه إلى النص الذي كان معداً من طريق الاختزال. وأرسل الناشر هذا المخطوط المكوّن من 24 صفحة في اليوم نفسه إلى المطبعة (Piererschen Hofbuchdruckerei) مع الطلب إليها إنجاز تجربة طبع أولي في وقت لا يتجاوز الأول من آذار/ مارس 1919[96]. وأكدت المطبعة في 24 شباط/ فبراير الموافقة على العقد[97]. وأرسلت أولى التجارب الطباعية من «العلم بوصفه حرفة» إلى ماكس فيبر بتاريخ 3 آذار/ مارس 1919[98]، وقام هذا الأخير بإعادتها إلى دار النشر مصحّحة بتاريخ 5 آذار/ مارس 1919[99].

وقد بُتّ الأمر بخصوص الشكل الخارجي للكتيِّبين من خلال حديث بين بيرنباوم ودار النشر دنكر وهمبلوت في الحادي والعشرين

---

(93) انظر أعلاه هامش رقم 70 من هذا الفصل.

(94) يظهر تقرير الصحيفة توافقاً مع فقرات من المحاضرة.

(95) ملاحظة حول محادثة بين بيرنباوم والناشر بتاريخ 21 شباط/ فبراير 1919 (أرشيف دار النشر).

(96) رسالة دار النشر إلى المطبعة بتاريخ 22 شباط/ فبراير 1919 (المصدر نفسه).

(97) رسالة المطبعة إلى دار النشر، بتاريخ 24 شباط/ فبراير 1919 (المصدر نفسه).

(98) رسالة الناشر إلى ماكس فيبر بتاريخ 3 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

(99) رسالة فيبر إلى الناشر 5 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

من شباط/ فبراير 1919. واتفق بموجبه أن يوضع على الغلاف المعلومات الآتية: «العمل الفكري بوصفه حرفة»، أربع محاضرات أمام عصبة الطلاب الأحرار، «المحاضرة الأولى... إلخ»[100]. وعلق بيرنباوم أهمية كبيرة على هذا الاتفاق، بل إنه تمنى لاحقاً على الناشر مرة أخرى أن يتمكن بأي وسيلة من إنزال اسم عصبة الطلاب الأحرار على الغلاف، «وإلا سيكون موقفي صعباً أمام من كلفوني بذلك»[101]. في آذار/ مارس 1919 وضع بيرنباوم «كلمة تعقيبية» على «العلم بوصفه حرفة». وأشار فيها بوضوح إلى أهداف الطلاب الأحرار وإلى سلسلة المحاضرات التي قاموا بتنظيمها «العمل الفكري بوصفه حرفة»: «قبل وقت طويل من تمكن حركة الطلاب الأحرار من إيضاح ما رسمت لنفسها من هدف، كانت قد أرست لدى أعدائها وعياً سلبياً بخصوص معنى ما أرادت فعله، وما فعلته وبخصوص توجهها نفسه: والأعداء ليسوا إلا الطلاب الذي يبحثون عن حرفة».

عليك أن لا تنظر إلى معنى الحياة الطالبية نظرتك إلى مُثُل، تسجل العلاقة بالكتابات الرمزية: إذ إنك بوصفك طالباً فأنت مازلت في الطريق إلى العلم. وإذا كنت قد بلغت الآن هذا الهدف أو قد حصلت في نهاية الأمر حقيقة ما، أو استطعت كذلك أن تحرر جزءاً من الطريق من العوائق الخارجية بحيث يتعلم ذلك من سيجيئون من بعدك، فإن ذلك ليس طريقك فعلاً. وعليك أن تنقطع بغير حق أن تكون طالباً. وإذا كانت هذه هي الجملة **الأولى** من موعظتنا، فإن الجملة **الثانية** هي: يجب أن لا يكون العلم بالنسبة إليك بقرة حلوباً،

(100) انظر أعلاه هامش رقم 95 من هذا الفصل.

(101) رسالة بيرنباوم إلى دار النشر بتاريخ 10 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

إذ إنك حين لا تبحث في الدراسة عن شيء آخر سوى التحضير لمهنتك، أو ما يقربك من ذلك، فإن العلم سيظل غريباً عنك. عليك أن تأخذ في اعتبارك أن العبد ليس عبد العقل، بل هو عبد المال، الآن ودائماً. وحين عُبّر عن هذه العقيدة في حركتنا بشكل صريح ـ وهذا ما كان نادراً ـ كانت هذه العقيدة عقيدةً تبعث على الحيرة بالنسبة إلى الحياة المهنية. إذ أحجمت عنها، ومن ثم أدانتها. قدم شفاب في مقالة رائعة له بعنوان «المهنة والشبيبة» صياغة حادة لهذا الحكم. وقد صدرت أول الأمر في عدد أيار/ مايو 1916[102] من مجلة *Weissen Blätter*.

تعتبر سلسلة محاضرات الطلاب الأحرار التي انبثقت منها هذه السلسلة من الكتابات بالنسبة إلينا جزءاً من سيرورة الدعوة ضد هذا الحكم، إذ إنها تقرير خبير. كان سؤالنا باستمرار هو الآتي: «من يتفرغ كلياً لهذه المهمة الأزلية، فهو القادر على الاستمرار في هذا العالم. فهل يكون الإخلاص لذلك من الداخل، أو هل مازال ذلك ممكناً من الخارج؟ العمل الفكري بوصفه حرفة؟ إن الأجوبة وحدها هي التي تتكلم»[103].

لا نعلم على وجه الدقة التاريخ الذي صدرت فيه المحاضرة كتيباً. مع ذلك ففي الأرجح أن الكتيب صدر نهاية حزيران/ يونيو أو أوائل تموز/ يوليو من العام 1919. وحصل التأخير لأن الناشر أراد أن يُنزل إلى السوق كتاباً واحداً يضم المحاضرتين معاً «العلم بوصفه

---

(102) خطأ في تحديد السنة، انظر أعلاه الهامش رقم 52 من هذا الفصل. لاحقاً أُعيد نشر هذا المقال في المجلة الشهرية: *Freideutsche Jugend*, 4. Jg. Heft 9 (Sept. 1918), S. 305-315.

(103) انظر الكلمة التعقيبية في: «Nachwort,» in: Max Weber, *Wissenschaft als Beruf* (München/ Leipzig: Duncker & Humblot, 1919), S. 38 f.

حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة»[104]، وقد أرجأ طباعة «السياسة بوصفها حرفة» حتى نهاية أيار/ مايو 1919[105]. وأخبر ماكس فيبر زوجته ماريان في الخامس من تموز/ يوليو 1919 أن «السياسة بوصفها حرفة» و«العلم بوصفه حرفة» قد أصبحتا جاهزتين للإرسال، وأنا أرسل كل يوم عدة نسخ منها للتصرف بها (ريكارت، وياسبرز وتوما، وسواهم، وسوف أرسل مباشرة نسخاً إليهم)[106]. وقد صدر بالفعل الإعلان عن المقالتين على صفحة بورصة تجار الكتب الألمانية» في 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، بعنوان «كتب جديدة صدرت في سوق الكتب الألمانية»[107].

2 ـ تواتر انتقال المخطوط والطباعة

مرَّ أكثر من عام ونصف بين إلقاء محاضرة «العلم بوصفه حرفة» وإنجاز طباعتها. وفي أثناء ذلك لابدّ أن تكون المحاضرة خضعت لعدة صيغ. إلا أن الصيغة التي صدرت فيها مطبوعةً هي الصيغة الوحيدة التي تم تناقلها.

يجب أن تكون الصيغة الأولى، هي الصيغة التي كتبها بطريقة مختزلة عدة أشخاص معاً، وذلك في أثناء إلقائها في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. ولم يصل إلى أيدينا، لا النص المختزل المشار إليه، ولا النص المصحح عنه الذي أرسل إلى ماكس فيبر في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917. كذلك لم ينقل إلينا النسخة المنقحة

---

(104) رسالة دار النشر إلى ماكس فيبر في 3 آذار/ مارس 1919 (أرشيف دار النشر).

(105) انظر التقرير المعد لنشر «السياسة بوصفها حرفة»، ص 243 من هذا الكتاب.

(106) رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر بتاريخ السبت 5 تموز/ يوليو 1919.

(107) انظر: *Börsenblatt für den Deutschen Buchhandel*, Nr. 224 (13 Okt. 1919), S. 10009.

التي يقول بيرنباوم إنه احتفظ بها بين أوراقه[108]. وأما بالنسبة إلى مضمون الخطاب، فقد نقلت الصحافة، ولاسيما التقرير القصير الوارد في *Münchener Neueste Nachrichten*[109]، أن النص الجاهز للطباعة، في خطوطه الأساسية، على الأقل، بل حرفياً في أجزاء منه، كان مصاغاً بشكل جاهز في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1917. ونجد في ملحق هذا التقرير مقارنة بين مقاطع مما أوردته الصحافة. ونجد في الجهة المقابلة ما يوازيها من النص المطبوع الذي صدر لاحقاً.

كانت النسخة المنقحة قبل إرسالها إلى الطباعة في بداية العام 1919، بحسب ما روى بيرنباوم عن ماكس فيبر، «قد صححت كلياً وبشكل أساسي»[110]. وفي الأرجح أنه أخذ على عاتقه إجراء بعض التغييرات والإضافات. ولا يمكن التحقق من هذه المعلومات، ما خلا بعض الاستثناءات[111]. ذلك أن هذه الصياغة الثانية لم تنقل إلينا أيضاً. وربما أجرى ماكس فيبر هذه التصحيحات في الوقت الفاصل بين 31 كانون الثاني/ يناير، الوقت الذي اتخذ فيه الناشر قراره بإصدار محاضرة «العلم بوصفه حرفة» و21 شباط/ فبراير 1919، الوقت الذي سلمت فيه المخطوطة إلى الناشر[112].

استلم ماكس فيبر في بداية آذار/ مارس العام 1919 أثناء سير عملية الطباعة التجارب الطباعية الأولى التي أرسلت إليه من دار النشر دنكر وهمبلوت، وحتى هذه التجارب الأولية لتصحيحات فيبر

(108) انظر أعلاه ص 138 ـ 140 من هذا الكتاب.

(109) انظر تقرير الصحيفة المشار إليه سابقاً.

(110) انظر أعلاه ص 140 ـ 141 من هذا الكتاب.

(111) انظر أعلاه ص 141 ـ 143 من هذا الكتاب.

(112) انظر أعلاه ص 141 ـ 143 من هذا الكتاب.

لم تصل إلينا أيضاً. إلا أننا نعلم من الرسائل المتبادلة بينه وبين الناشر، أن تصحيح التجارب الطباعية لم يستغرق وقتاً طويلاً[113]، ما يعني أنه لم يحدث في النص تغييرات كبيرة.

يستعيد النص المنشور في ما يأتي، النص المطبوع كما ورد في الكتيب:

«العمل الفكري بوصفه حرفة»
محاضرات أمام عصبة الطلاب الأحرار
المحاضرة الأولى
الأستاذ ماكس فيبر
ميونيخ

العلم بوصفه حرفة
ميونيخ ولايبزغ
دار النشر دنكر وهمبلوت
1919 (صورة الغلاف المرفقة لاحقاً).

ملحق التقرير الخاص بهذه النشرة

مقابلة بين تقرير الجريدة حول محاضرة «العلم بوصفه حرفة» للعام 1917، والمقاطع المقابلة لها في الصياغة المطبوعة من المحاضرة نفسها كما صدرت العام 1919.

(تقرير *Münchener Neueste Nachrichten*, N. 567 (9 Nov 1917) النشرة الصباحية، ورقة رقم 3)[*].

---

(113) انظر أعلاه ص 141 ـ 143 من هذا الكتاب.

(*) يتضمن هذا الملحق مقتطفات من النص المنشور لاحقاً، مع ما أشير عنه في الجريدة المذكورة. ولم نعمد لترجمة هذه المقتطفات لجزئيتها. وهي مما سيرد تباعاً، وستكون ثمة إشارة إليها.



نص محاضرة العلم بوصفه حرفة

عليَّ أن أحاضر، بناء على رغبتكم، عن «العلم بوصفه حرفة». إنها لحذلقة اشتهرنا بها نحن علماء الاقتصاد، وهذه صفة لا أريد أن أتنازل عنها، وهي تقضي أن ننطلق في معالجة الأمور من الشروط الخارجية، ما يعني في حالتنا هنا من السؤال الآتي: كيف يتمثل العلم بوصفه حرفة بالمعنى المادي للكلمة؟ لكن ذلك يعني عملياً الآن بالمعنى الجوهري: كيف تتمثل حالة طالبٍ أنهى اليوم دراسته وقد اتخذ قراراً أن يجعل من العلم مهنة له في إطار الحياة الأكاديمية؟ وحتى نفهم خصوصية وضعنا الألماني هنا، فمن المناسب أن نعمد إلى المقارنة حتى نوضح كيف تسير الأمور في الخارج، حيث يبدو التناقض من هذه الزاوية أكثر حدة مع الوضع عندنا. إنني أفكر في مثال الولايات المتحدة (الأميركية).

عندنا، وهذا ما يعلمه الجميع، تبدأ مسيرة الشاب الذي يزمع أن يجعل من العلم حرفة له بوظيفة «المدرِّس في الجامعة» (Privatdotzent) (أو أستاذ محاضر). بعد التشاور مع صاحب الاختصاص المعني وأخذ موافقته، يتقدم من امتحان الأهلية من خلال تقديمه لعمل يضعه بعد خضوعه لامتحان، غالباً ما يكون شكلياً، في إحدى كليات الجامعة. ويحق له بعد ذلك إلقاء

محاضرات يتحدد موضوعها في إطار السماح له بالتدريس الجامعي على أن لا يتلقى عليها أي أجر، بل يجازى عليها من خلال ما يحصل من رسوم التسجيل فقط[1]. أما في أميركا، فإن السيرورة المهنية تبدأ بشكل مختلف، وتحديداً من خلال التوظف برتبة «معيد». يشبه الأمر إلى حد ما، ما كان يجري عادة في مؤسسات العلوم الطبيعية الكبرى وفي كليات العلوم الطبية، حيث كان التأهل الشكلي للارتقاء إلى رتبة مدرس في الجامعة لا يُطلب إلا من جزء من المعيدين وفي مرحلة متأخرة أغلب الأحيان. أما نقيض ذلك فيعني عملياً أن مسيرة رجل العلم عندنا قد بنيت على أسس بلوتوقراطية (حكم الأغنياء في الدولة)[2]. إذ من الخطورة بالنسبة إلى عالِم شاب، لا يملك دخلاً كافياً أن يواجه متوجبات المسيرة الأكاديمية. وعليه أن يقيم أوده بنفسه لعدة سنين دون أن يعلم إطلاقاً إذا ما كانت ستسنح له الفرصة بعد ذلك للحصول على وظيفة تؤمن له مرتباً كافياً. أما في الولايات المتحدة فنجد خلافاً لذلك سيطرةً للنظام البيروقراطي. هناك ينال الشاب منذ بداية عمله مرتباً. إنه ليس مرتفعاً بالطبع، فالمرتب لا يكاد يوازي ما يتقاضاه العامل غير

(1) كانت رسوم التسجيل تحصلها الجامعة من كل طالب بحسب ما يستمع إليه من محاضرات ومن ساعات حضور أسبوعية لحلقات دراسية توزع على الأساتذة في مراحل التعليم العالي. وبقدر ما يكون عدد الحضور عند الأستاذ الجامعي بقدر ما تكون رسوم التسجيل مرتفعة. بالنسبة إلى الأساتذة الجامعيين الموظفين كانت رسوم التسجيل جزءاً ثابتاً من دخلهم. وأما المدرسون الجامعيون فلم يكونوا يتقاضون أي مرتب، بل كانوا يتقاسمون ما يحصلون عليه من رسوم تسجيل.

(2) بحسب بحوث قام بها فرانز أولنبرغ (Franz Eulenburg) عام 1908 كان العدد الأكبر من المدرسين الجامعيين في الجامعات الألمانية ممن يتحدرون من أسر ذات مداخيل عالية. انظر: Franz Eulenburg, *Der «akademische Nachwuchs». Eine Untersuchung über die Lage und die Aufgaben der Extraordinarien und Privatdozenten* (Leipzig/Berlin: B. G. Teubner, 1908), S. 17 ff.

المتدرب. مع ذلك، فهو يبدأ من موقع عمل أكيد، إذ يتقاضى مرتباً ثابتاً. والقاعدة الوحيدة التي تسري عليه، وهذا هو واقع الحال بالنسبة إلى المعيدين عندنا، هي أنه يمكن الاستغناء عنه إن لم يكن ما يقوم به منسجماً مع الآمال المتوقعة منه، وهذا ما يمكن له توقعه دون حق المطالبة بأي تعويض. تذهب به هذه التوقعات إذاً إلى حد يجعله «يملأ القاعات». هذا الأمر لا يمكن أن يحصل مع المدرس الجامعي الألماني، إذ إنه إذا ما وُظّف فلا يمكن بعد ذلك الاستغناء عنه. إلا أنه لا يستطيع بالطبع أن يطالب بشيء، وله أن يتصور، وهذا مفهوم، أنه بعد قضائه سنوات طويلة في عمله، فله إلى حد ما الحق أخلاقياً أن يراعى، حتى ـ وهذا ضروري في أغلب الأحيان ـ في مسألة احتمال تقدم أساتذة مدرسين آخرين لامتحان التأهل. والمسألة التي تطرح هنا، هل يجب من حيث المبدأ إعطاء حق التأهل إلى كل أستاذ مدرس شاب أثبت نجاحه وقدراته، أو هل يجب في ذلك مراعاة «حاجات التعليم» وأن يُجعل الأساتذة المدرسين يحتكرون العملية التعليمية؟ هذه معضلة ترتبط بشكل وثيق بالمظهر المزدوج الملازم للحرفة/ الدعوة الأكاديمية التي سنتحدث عنها لاحقاً. وفي أغلب الأحيان يقرر المرء اختيار الحل الثاني[3]. إلا أن ذلك يعني أيضاً زيادة خطر أن يقوم الأستاذ المعني بالاختصاص، مهما كانت استقامته الذاتية كبيرة، بتفضيله اختيار واحد من طلابه الخاصين. شخصياً ـ وإذا كان لي أن أعود في ذلك إلى تجربتي الخاصة، فقد اتبعت المبدأ الآتي: لقد طلبت من طالب تقدم بأطروحته (الدكتوراه) بإشرافي أن يحصّل امتيازه أو تأهله في مكان

(3) في عهد الدولة القيصرية (الإمبراطورية) كان الأمر السائد في الجامعات الألمانية هو حصر عدد المدرسين الجامعيين في اختصاص معين مع مراعاة الحاجة التعليمية بالحد الأدنى.

آخر وعند أستاذ آخر غيري. وكانت النتيجة أن أحد أكثر طلابي استحقاقاً لذلك صرفه زملائي[4]، لأن أحداً منهم لم يصدق أن السبب كامن في ذلك فعلاً.

الفارق الآخر الذي يمكن تلمسه في النظام الأميركي هو الآتي: عندنا (في ألمانيا)، لا يكون للمدرس الجامعي، على العموم، علاقة كبيرة بالمحاضرات بالشكل الذي يتمناه. صحيح أن له الحق بإعطاء محاضرات في اختصاصه. إلا أن ذلك يعتبر سماجة غير مسبوقة تجاه المدرسين الجامعين الموجودين والأقدم منه. وقد جرت العادة أن تكون «المحاضرات الكبرى الأساسية» من نصيب الأستاذ المختص على أن يكتفي المدرس الجامعي بالمحاضرات الثانوية. إن حسنة ذلك: أن يتمكن الطالب الاستفادة في شبابه من وقت الفراغ الذي يمكنه الانصراف لعمل علمي.

---

(4) ربما كان فيبر يفكر هنا بتلميذه روبرت ليفمان (Robert Liefmann) (1874 ـ 1941). درس ليفمان في تسعينيات القرن التاسع عشر في فرايبورغ على يد ماكس فيبر وقدم أطروحته للدكتوراه هناك عام 1897 حول روابط المتعهدين. وكما يستفاد من سلسلة من رسائل متبادلة تعود إلى العام 1900 بين ليفمان وفيبر الذي كان قد انتقل إلى هايدلبرغ، واجه ليفمان مقاومة الأساتذة المختصين في فرايبورغ وبون وغوتنغن في مساعيه للتقدم لامتحان التأهل. وقد أبدى بعض الارتياح إذ أعلن فيبر مؤخراً «إنه كما تبدو له الأمور الآن. لم يعد يُكن كما كان في السابق كثيراً من التردد بأن يتابع تلميذ سابق له دراسته لديه حتى التأهل» (رسالة ليفمان إلى فيبر بتاريخ 24 شباط/ فبراير 1900). وفي الأرجح أن خطة ليفمان للتقدم لامتحان التأهل في هايدلبرغ قد فشلت. انتقل ليفمان بعد ذلك إلى كلية الفلسفة في جامعة غيسن (Gießen)، التي طلبت إثر ذلك صيف 1900 رسالة شهادة من فيبر عن ليفمان. وقد حصلت عليها الجامعة فعلاً (رسالة ماريان فيبر إلى هيلين فيبر بتاريخ 10 تموز/ يوليو 1900). أخيراً تسنى لليفمان أن يتقدم إلى امتحان التأهّل في غيسن على يد الأستاذ ماغنوس بيرمر على عمل تقدم به بعنوان: *«Die Allianzen, Gemeinsame monopolistische Vereinigungen der Unternehmer und Arbeiter in England»* (Jena: Gustav Fischer, 1900).

في أميركا يختلف هذا النظام بشكل مبدئي. إذ إن المدرس الجامعي يكون منذ سني شبابه مأخوذاً بالعلم بشكل مطلق، والسبب أنه يتقاضى عن ذلك مرتباً. نجد في قسم الدراسات الألمانية مثلاً أن الأستاذ المختص لا يعطي محاضرة عن غوته لأكثر من ثلاث ساعات. وهذا كل شيء. في حين أن المعيد الشاب، يعتبر نفسه محظوظاً وسعيداً إذا ما ترك له المجال إبان تدريسه الأسبوعي الذي يمتد لاثنتي عشر ساعة إلى جانب أعماله التطبيقية على اللغة الألمانية أن يقدم شيئاً عن الشعراء، حتى لو كانوا من مصاف أولاند (Uhland). ذلك أن الهيئات الرسمية في الاختصاص هي التي تحدد البرنامج التدريسي، وما على المعيد إلا أن يخضع لذلك كما هو حال المعيد في المعهد عندنا.

بإمكاننا أن نرى الآن بوضوح كيف أن التطور الحديث في نظام الجامعات عندنا وفي مجالات واسعة من العلوم قد سار باتجاه النظام الأميركي. إذ إن المعاهد الطبية ومعاهد العلوم الطبيعية الكبرى صارت منشآت تتبع «رأسمالية الدولة»، فهي لا يمكن أن تدار دون وسائل تشغيلية على درجة كبيرة من الأهمية. وهنا يدخل الاعتبار نفسه الذي يدخل في فصل العمال عن وسائل الإنتاج[5]. إن العامل، أي المعيد في حالتنا، لا تَوجّه له إلا لأداة العمل التي تضعها الدولة في تصرفه.

---

(5) ربما كانت هذه إشارة محتملة إلى تحليل كارل ماركس: «إن السيرورة التي تخلقها العلاقة الرأسمالية، لا يمكن أن تكون غير سيرورة فصل العامل عن الملكية وعن شروط العمل. إنها السيرورة التي تحول وسيلة الحياة ووسيلة الإنتاج إلى رأسمال، أي من جهة أخرى إلى منتجين غير مباشرين للعمل المأجور. وما يعرف بالتراكم الأساسي ليس إذاً شيئاً آخر سوى سيرورة الفصل التاريخي بين المنتج وأداة الإنتاج»، انظر: Karl Marx, *Das Kapital: Kritik der politischen Ökonomie*, Band 1, 5. Aufl., hg. von Friedrich Engels (Hamburg: Otto Meissner, 1903), S. 680.

ونتيجة ذلك فإنه شديد الارتباط إذاً بمدير المؤسسة، تماماً كارتباط المستخدم في مصنع برب عمله، إذ إن مدير المؤسسة يتخيل نفسه بكل حسن نية أن هذا المعهد هو «معهده»، ويديره هكذا على هواه. هكذا غالباً ما يكون وضع المعيد دقيقاً شبيهاً إلى حد بعيد بالوجود «البروليتاري»[6] أو بوضع المعيد في الجامعات الأميركية.

إن حياتنا الجامعية الألمانية آخذة بالتأمرك في عدة نقاط، شأن حياتنا بشكل عام. وهذا التطور، الذي أنا نفسي شاهد عليه، سيمتد باستمرار ليطال الاختصاصات التي، كما هو الحال إلى الآن في اختصاصي إلى حد بعيد، يملك العالم فيه شخصياً أداة العمل (المكتبة بشكل أساسي). تماماً كما كان الحال قديماً مع الحرفي في إطار مصنعه. ويشهد التطور تقدماً بالغاً الآن.

لا يمكن التشكيك بالحسنات التقنية لهذا التطور. ولا يمكن التشكيك كذلك بأي منشأة تتسم بميزة رأسمالية وبيروقراطية في آن واحد. إلا أن «الروح» التي تسود هنا هي روح أخرى تختلف عن الجو التاريخي القديم الذي ساد في الجامعات الألمانية. ثمة هوة كبيرة جداً، إن داخلياً أو خارجياً، بين رئيس منشأة جامعية رأسمالية كبيرة كهذه وأستاذ الكرسي العادي بحسب النظام القديم. وهذا ما ينطبق على السلوك الداخلي أيضاً. إلا أني لا أريد هنا التوسع في ذلك. لقد أصبح **الدستور** الجامعي القديم دستوراً وهمياً إن من حيث

---

(6) ميز سومبارت بين الوجود «البروليتاري» والوجود «شبه البروليتاري» معتبراً المجموعة الأولى من البروليتاريا بالمعنى الكامل للكلمة هي الجماعة المكوّنة من العمال المرتبطين بأجر معين ومن صغار الموظفين. أما المجموعة الثانية التي سمّاها بجماعة لا تملك إلا «نصف دمها» فهي مكوّنة من مستقلين لا يملكون شيئاً. ولا تملك هذه الفئة أي رأس مال مستقل، راجع: Werner Sombart, *Das Proletariat. Bilder und Studien* (Frankfurt a. M. Rütten and Loening, 1966), S. 5 ff.

جوهره أو من حيث مظهره[7]. أما الأمر الذي استمر، بل وتنامى في المسيرة الجامعية فهو الصدفة المحض، فإذا ما كان على المدرس الجامعي أو المعيد أن يصل يوماً ما إلى مركز أستاذ كرسي أو مركز مدير في أي معهد كان، فإن ذلك لا يكون إلا **صدفة** خالصة. وبالطبع: إن الصدفة ليست السائدة وحدها، بل إنها موجودة بنسبة عالية غير اعتيادية. وأنا لا أعرف أي مسيرة مهنية على وجه الأرض تؤدي فيها الصدفة دوراً كهذا. وأسمح لنفسي أن أقول المزيد عن هذا الموضوع، حيث إني مدين في مسيرتي للصدف المطلقة. فقد استُدعيت لشغل منصب أستاذ في الاختصاص وأنا في سن مبكرة[8]،

---

(7) يستند الدستور الجامعي في ألمانيا بدرجة أولى إلى فكرة وحدة العلم، وحدة البحث والتعليم، وكذلك إلى وحدة المتعلم والمعلم. وحدة التنظيم الأصغر هي الكرسي التعليمي، التي يكون عليها أستاذ كرسي باختصاصه، وعليه أن يهتم بتمثيل اختصاصه في البحث وفي التدريس. مع بداية القرن (العشرين) بدأ في بروسيا وبقيادة فريدريش ألتهوف (Friedrich Althoff) التحول النسقي في الجامعات الألمانية إلى منشآت علمية كبيرة. بذلك بدأ مبدأ تمثيل كل فرع اختصاصي عبر أستاذ كرسي متخصص يفقد معناه شيئاً فشيئاً. وهذا التطور ازداد نمواً بفعل تدخل بيروقراطية الدولة باستقلالية الجامعات، ومن خلال المشاركة المالية من قبل متبرعين من قطاع خاص للمشاريع العلمية الكبيرة، ومن خلال تأسيس معاهد علمية وبحثية مستقلة عن الجامعة، ومنها مثلاً معهد القيصر فيلهلم. انظر: Bernhard Brocke, «Hochschul - und Wissenschaftspolitik in Preussen und im Deutschen Kaiserreich 1882 - 1907: das «System Althoff,» in: Peter Baumgart, ed., *Bildungspolitik in Preussen zur Zeit des Kaiserreichs* (Stuttgart: Klett - Cotta, 1980), S. 9 - 118.

(8) كان ماكس فيبر في الثلاثين من عمره حين استدعي في 25 نيسان/ أبريل 1894 ليكون أستاذ كرسي الاقتصاد والعلوم المالية في جامعة فرايبورغ، علماً أنه لم يكن قد تقدم لشهادة التأهل عن هذا الاختصاص، بل عن القانون (قانون الدولة - والقانون الخاص)، والقانون التجاري الروماني. لفت فيبر الانتباه في مجال الاختصاص بالاقتصاد بعد صدور دراسته عام 1892، الكتاب الذي صدر في إطار الدراسات الاستقصائية لجمعية العلوم السياسية والاجتماعية وكان حول وضع العمال الزراعيين في منطقة شرق نهر الألبي، انظر دراسته: *«Die Lage der Landarbeiter im ostelbischen Deutschland» (Schriften des Vereins für Socialpolitik 55)* (Leipzig: Duncker & Humblot, 1892), (MWG I/3).

في حين أن معاصرين أقدم مني كانوا دون أدنى شك قد أنتجوا أكثر بكثير مما أنتجت أنا. وقد استطعت انطلاقاً من هذه التجربة أن أخرج بمزيد من حدة النظر حول هذا القَدَر الذي لا يستحقه الكثير من الزملاء الذين لم يحالفهم الحظ، ومازال ضدهم، والذين رغم كل كفاءاتهم داخل نظام الاختيار لم يصلوا إلى المركز الذي يستحقونه.

إن كون الصدفة لا الكفاءة، دون غيرها، قد أدت دوراً كبيراً كهذا، فالذنب في ذلك لا يقع بشكل خاص، ولا يقع كذلك فقط على الطباع الإنسانية التي تؤدي دورها بالطبع في عملية الاختيار هذه كما في أي عملية أخرى. إذ إنه من الظلم في موقف كهذا أن نحمل أشخاصاً يتمتعون بقيمة شخصية دنيا في الكليات أو في الوزارات مسؤولية أن يقدِّر لأشخاص يتمتعون بمستوى متوسط أداء دور كبير في الجامعات. إن الأمر يتعلق بقوانين تضافر العمل الإنساني، ولاسيما تضافر عمل عدد من الهيئات. وفي حالتنا هذه، تضافر العمل بين كليات تقترح مرشحين ووزارات توافق على تعيينهم. ويمكن أن نجد الأمر الموازي لذلك في تتبع سير عملية انتخاب البابا[9] على مدى قرون عديدة مرّت. إنه المثل الأهم والأكثر قابلية للمراقبة في عملية اختيار الشخص في حالات مماثلة. إذ إنه في حالات نادرة فقط يُنتخب الكاردينال الذي يقال إنه الأكثر «حظوة»، بل جرت العادة أن يُختار المرشح الثاني أو الثالث. ونلاحظ الظاهرة نفسها في انتخاب رئيس الولايات المتحدة، ففي حالات استثنائية فقط يُنتخب المرشح الأول الذي سمّته المؤتمرات الحزبية، بل في أغلب الأحيان يختار المؤتمر المرشح الثاني أو حتى المرشح الثالث.

---

(9) منذ العصور الوسطى المبكرة كان ينتخب البابا في جلسات سرية، في ما يسمى «مجمع انتخاب البابا» من قبل الكرادلة. ويمكن أن يُنتخب بالإجماع (بالمناداة)، إلا أنه غالباً ما كان يحصل بالتصويت السري حيث يفترض أن يحصل الفائز على ثلثي الأصوات.

حتى أن الأميركيين نحتوا لهذه الفئات تعابير سوسيولوجية تقنية[10]. ومن الفائدة التأكيد أن يُتمعن، انطلاقاً من هذه الأمثلة، بقوانين انتخاب تقوم على تكوّن إرادة جماعية. إلا أننا لن نقوم بذلك هنا اليوم. علماً أن هذه القوانين تنطبق على الكليات الجامعية أيضاً. وما يثير العجب حول ذلك هو عدم حصول أخطاء بهذا الخصوص، بل أن يستمر عدد التسميات **الناجحة** إلى هذه المناصب، حتى لو نظرنا إليها نسبياً، بشكل كبير جداً. في بعض البلدان فقط، حيث تستطيع البرلمانات التدخل لتقول كلمتها، أو كما هو الحال عندنا حتى اليوم حيث يقوم العاهل (والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين)، أو حيث يتدخل من بيدهم الآن السلطة الثورية لأسباب **سياسية**[11]، يمكن لنا

---

(10) منذ أواسط القرن التاسع عشر كان يُسمّى مرشح الرئاسة من جانب حزب ما عبر ما يعرف «بالمؤتمرات الحزبية الوطنية» التي تتكون قبل عدة أشهر من موعد الانتخابات الرئاسية، والتي يمثل المبعوثون فيها إرادة أنصار الحزب الذي ينتمون إليه. وبحسب ما يقول، James Bryce, *The American Commonwealth* (London: Macmillan, 1888), vol. 2, S. 551 ff.,

«يتوزع المرشحون إلى المؤتمر على فئات ثلاث: المرجحون (Favourites) والأحصنة ذات اللون الداكن (Dark Horses) (غير المتوقّع فوزهم)، و«الأبناء المرجحون» (Favourite Sons). المرجحون هم السياسيون الشعبيون، الذين يتمتعون بالحظ الأوفر للحصول على أصوات المندوبين، وأما الفئة الثانية Dark Horses فهم الذين يمارسون العمل الحزبي وإليهم يلجأ المؤتمرون في حال لم يحظَ المرجح بالأكثرية. أما أبناء المرجحين فهم يتمتعون كالمرجحين بصفات قيادية، إلا أن درجة معارفهم قليلة. فهم كالفئة الثانية من غير المشهورين.

(11) حول المداخلات المعقودة لوزارة الثقافة البروسية في شغل المناصب التعليمية، انظر: Ernst Rudolf Huber, *Deutsche Verfassungsgeschichte seit 1789*, Band 4, 2. Aufl. (Stuttgart/ Berlin/ Köln/ Mainz: W. Kohlhammer, 1982), S. 949 - 970,

تدخل فيبر نفسه عبر مقالات في الجرائد عام 1908 في الصراع الذي دار حول لودفيغ برنارد أستاذ الاقتصاد البرليني الذي أمنت له وزارة الثقافة البروسية دون استشارة كلية الفلسفة في برلين كرسي دراسات خاص به، انظر جريدة: *Frankfurter Zeitung*, Nr. 168 (18 Juni 1908), =

أن نتأكد أن أصحاب الكفاءات الهزيلة أو الوصوليين هم وحدهم من يحالفهم الحظ ليعينوا.

= (الطبعة الصباحية ص 1)، والعدد 172 بتاريخ 12 حزيران/ يونيو 1908 (الطبعة المسائية، ص 1)، والعدد 174 بتاريخ 24 حزيران/ يونيو 1908 (الطبعة الصباحية الثانية، ص 1)، وكذلك العدد 190 في 10 تموز/ يوليو 1908 (الطبعة الصباحية الرابعة، ص 1). منذ تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 حاولت مختلف المجموعات الألمانية الثورية التأثير في مجريات التعيين في الوظائف الجامعية. هكذا عين مثلاً الصحافيون أصحاب الاتجاه الاشتراكي الديمقراطي هاينريش غونو (Heinrich Cunow) (1892 ـ 1936) وبول لنش (Paul Lensch) (1873 ـ 1926) بناء على رغبة أغلبية أعضاء مجلس المندوبين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي في منصب أستاذ مساعد في تاريخ الاقتصاد والاجتماع في جامعة برلين، انظر حول ذلك: Karl Kautsky in: *Die Volkswirtschaftslehre der Gegenwart in Selbstdarstellungen*, Band 1, hg. von Felix Meiner (Leipzig: Felix Meiner, 1924), S. 146,

حتى أن المحادثات حول خلافة أستاذ الاقتصاد ليو برنتانو في جامعة ميونيخ، التي استُدعي ماكس فيبر ليكون بديلاً له في بداية العام 1919، لم تكن خالية من التأثيرات السياسية. إذ إنه خلافاً للائحة ترشيحات الجامعة التي كان موريتز يوليوس بون في المرتبة الأولى فيها، وكان عالم الاقتصاد غرهارت فون شولز ـ غفرنيتز (Gerhart - von Schulze Gaevernitz) وماكس فيبر في المرتبة الثانية، قرر مجلس وزراء بافاريا، في جلسته المنعقدة في 18 كانون الثاني/ يناير 1919، التعاقد مع ماكس فيبر، انظر: *Die Regierung Eisner, 1918/19: Ministerratsprotokolle und Dokumente*, von Franz J. Bauer (Düsseldorf: Droste, 1987), S. 313,

تعرض تعيين ماكس فيبر في 26 آذار/ مارس 1919 إلى نقد قاسٍ من جانب مجلس عمل العمال والأمن الذي أوصى أن يشغل كرسي أستاذية الاقتصاد شخصية تعمل على بث روح الاشتراكية في أوساط الشباب. «وأما ماكس فيبر فقد أبدى دوماً، مقابل ذلك، أفكاراً ذات توجه بورجوازي رأسمالي (محاضر مجالس العمل اجتماع 26 آذار/ مارس 1919، أرشيف بافاريا مجلس العمال والأمن ورقة 4). وقد جاء في القرار (كما يرد في الأرشيف المشار إليه) الذي اتُخذ بالإجماع، وكان توجهه واضحاً ضد فيبر، أن اللجنة تطالب أن يكون كرسي الأستاذية الشاغر في اختصاص الاقتصاد من نصيب من يتفهم بعمق الفاقة التي يتعرض لها الشعب، وأن لا يكون بالأساس معارضاً للاشتراكية»، انظر: Ulrich Linse, «Hochschulrevolution. Zur Ideologie und Praxis Sozialistischer Studentengruppen während der deutschen Revolutionszeit 1918/19,» in: *Archiv für Sozialgeschichte*, Band 14 (1974), S. 11.

لا يرغب أي أستاذ جامعي بطيبة خاطر أن يفكر بالمحادثات التي سبقت تعيينه في منصبه، إذ نادراً ما تكون هذه المناقشات محمودة. مع ذلك فبإمكاني أن أقول: إن الإرادة الطيبة، التي جعلت الحسم يجري طبقاً لأسباب موضوعية صرف، كانت في معظم الحالات التي أعرفها، موجودة دون أي استثناء.

أَضِف إلى ذلك أنه لابدّ من التوضيح مجدداً: أنْ يكون القرار المتعلق بالأقدار الجامعية قد ترك إلى حد بعيد إلى «الصدفة»، فذلك لا يقع على عاتق قصور الاختيار على تشكل الإرادة الجماعية. إذ إن على كل رجل شاب يشعر أنه قد دُعي ليتولى منصب عالم أن يشعر في قرارة نفسه بوضوح أن للمهمة التي تنتظره وجهاً مزدوجاً، فعليه أن لا يتميز بصفة العالم وحسب، بل عليه أن يتميز أيضاً بصفة الأستاذ. ولا مجال أن تجتمع هاتان الصفتان في صفة واحدة. فمن الممكن أن يكون أحدهم عالماً ممتازاً، وأن يكون في الوقت نفسه أستاذاً سيئاً جداً. أتذكر هنا النشاط التعليمي لرجال أمثال هلمهولتز (Helmholtz) أو رانكه (Ranke)، وهذان ليسا استثناءً نادراً، إذ إن الأوضاع هي الآن على الشكل الآتي. إن الجامعات عندنا، ولاسيما الجامعات الصغيرة تمارس الآن نوعاً من المضاربة المطردة المضحكة، بهدف زيادة عدد طلابها. إن الذين يؤجرون البيوت (Hausagrarier)[12] في

---

(12) لا نعرف على وجه الدقة مصدر هذا المفهوم ودلالته. من جهة أولى، قد يكون المقصود منه ملاّك من صغار الفلاحين، ومن جهة ثانية يشار بهذا التعبير (Hausagrarier) إلى أعضاء جميعات مالكي المنازل والأراضي، والتي أظهرت إبان الحكم القيصري مصلحة سياسية صارمة من أجل الحفاظ على وضع الملكية، انظر: C. Becker, «Hausagrarier,» *Die Nation. Wochenschrift für Politik, Volkswirthschaft und Litteratur*, 18. Jg. Nr. 46 (17 Aug. 1901), S. 725 - 727.

المدن الجامعية يقيمون احتفالات عيد حين يبلغ عدد المستأجرين لديهم ألف طالب، ويفضلون إقامة مسيرة بالمشاعل إذا ما بلغ العدد ألفي طالب[13]. إن عائدات رسوم التسجيل[14]، وعلينا أن نعترف صراحة بذلك، تزداد بقوة جذب الطلاب من جانب أساتذة يشغلون اختصاصات مجاورة. إلا أنه وبغض النظر عن ذلك يُعتبر عدد رواد قاعات المحاضرات رقماً يمكن الركون إليه مَعلماً في عملية التقويم، في حين أن صفة العالم غير قابلة للتقدير، ولذلك (وهذا من الأمور الطبيعية جداً) يظل النقاش مستمراً حول الجدد منهم، والذين يتميزون بالجرأة. ولذلك نجد كل شيء يتجاوز ما توصي به قاعات المحاضرات الكبيرة من نعمة ومن قيمة يصعب قياسهما. لذلك إذا قيل عن أستاذ مدرس إنه أستاذ سيئ، فإن ذلك يعني بالنسبة إليه حكم الموت على مسيرته المهنية، علماً أنه قد يكون من أفضل العلماء في العالم. ولذلك تظل الإجابة عن مسألة اعتبار أحدهم أستاذاً سيئاً أو جيداً متروكة لمواظبة السادة الطلاب على محاضراته تعبيراً عن تكريمهم له. ومن ثم إنه قد نجد واقعة أخرى حين نشهد ازدحاماً للطلاب عند أستاذ ما ولأسباب خارجية صرف: المزاج، بل حتى في تغير نبرات الصوت، لدرجة يصعب تحملها. ولي مثال على ذلك تجربة شخصية غنية إلى حد ما

---

(13) أشارت منشورات هايدلبرغ منذ ستينيات القرن التاسع عشر إلى تطور حركة ريادة الجامعة في بداية تقاريرها الحسابية في كل عام. وقد ظهر إثر ذلك مع نهاية القرن منافسة منتظمة بين جامعتي منطقة بادن، جامعة هايدلبرغ وجامعة فرايبورغ في اجتذاب أعداد الطلاب. وفي هذا السياق تم البدء باحتفالات جامعية حين تجاوز العدد التسعة آلاف طالب، انظر: Reinhard Riese, *Die Hochschule auf dem Wege zum Wissenschaftlichen Grossbetrieb: Die Universität Heidelberg und das badische Hochschulwesen 1860 - 1914* (Stuttgart: Ernst Klett, 1977), S. 58 ff.

(14) انظر أعلاه، هامش رقم 1 من هذا الفصل.

وأفكار موضوعية لا توهم فيها، ما جعلني أسيء الظن بكثرة عدد الطلاب الذين يتابعون محاضرة ما، حتى لو كان من غير الممكن تحاشي هذا الأمر بكل تأكيد[15]. إذ يجب وضع الديمقراطية في المكان الذي يليق بها. إن التربية العلمية، كما يجب علينا القيام بها، تبعاً للتقاليد المتبعة في الجامعات الألمانية، هي شأن يتعلق **بالأرستقراطية الروحية**. وهذا أمر علينا أن لا نقوم بإخفائه. إلا أن الصحيح من جهة أخرى هو: وجوب عرض المسائل العلمية بطريقة تتيح للذهن غير المهيأ لها، بل الموهوب والقادر على استيعابها، أن يفهمها، وأن يتوصل ـ وهذا هو الأمر الحاسم الوحيد بالنسبة إلينا ـ إلى أن يكوّن لنفسه فكراً مستقلاً، فربما كانت هذه من أصعب المهمات التربوية. وبالتأكيد، فليس عدد الحضور في قاعات التدريس من يقرر إذا كانت هذه المسائل قد حُلّت أم لا. ثم إن هذا الفن تحديداً ـ ولنعد مجدداً إلى الموضوع الذي نحن في صدده ـ هو هبة شخصية لا علاقة له من قريب أو بعيد بصفات العالِم العلمية. وخلافاً لما عليه الأمر في فرنسا، فإنه ليس لدينا (في ألمانيا) جمعية «للخالدين» في العلوم[16]، بل إن على الجامعات، وطبقاً للتقاليد السائدة، أن تتحمل الأمرين معاً: البحث والتعليم. أما أن يتمتع شخص واحد بهذه القدرات، فذلك بالتأكيد محض صدفة.

---

(15) هنا ربما كان ماكس فيبر يشير، بين ما يشير إليه، إلى تجربته الخاصة مع جامعة فيينا التي قام بالتدريس فيها في الفصل الصيفي من عام 1918. كانت محاضراته تغص بالطلاب، الأمر الذي أتعبه بشدة، انظر حول ذلك: Theodor Heuss, *Erinnerungen 1905-1933*, 5. Aufl. (Tübingen: Rainer Wunderlich Verlag Hermann Leins, 1964), S. 225,

(16) الإشارة هنا تعود إلى «الأكاديمية الفرنسية» التي تأسست في القرن السابع عشر، والتي كان عليها الحفاظ على صفاء اللغة الفرنسية وتعزيزها. وكان أعضاؤها بالدرجة الأولى من المؤلفين والكتاب الفرنسيين، وقد تم اختيارهم بموجب شعار الأكاديمية: «إلى الأبد» وغالباً ما كانوا يسمون بـ «الأزليين».

إن الحياة الجامعية هي صدفة عمياء إذاً. حتى إنه إذا ما أتى علماء شبان يسألون نصيحة تتعلق بالتأهل، فإنه يصعب علينا تحمل مسؤولية قبولنا. وإذا كان الطالب يهودياً فإن الجواب الطبيعي لطلبه «Lasciate ogni speranza»[17]. وأما بالنسبة إلى الآخرين فلابد من التوجه إلى ضميرهم وسؤالهم: هل تعتقدون أن بإمكانكم التحمل عاماً بعد عام رؤية الرديئين يفضلون عليكم دون شعور بالمرارة أو بالعطب؟ بالتأكيد، فإن الجواب الذي نسمعه كل مرة هو: بالطبع، أنا لا أعيش إلا من أجل «مهنتي ـ دعوتي»؛ ومع ذلك فأنا شخصياً، على الأقل، لم أعرف إلا عدداً قليلاً استطاع أن يتحمل هذا الوضع دون أن يعرّض نفسه لأضرار تصيبه من الداخل.

هذا ما وجدت ضرورة لقوله حول الشروط الخارجية لمهنة العالم.

أعتقد الآن أنكم تنتظرون مني، في الواقع، شيئاً آخر مختلفاً، أي سماع شيء يتعلق بالنزوع الداخلي للعلم. في أيامنا هذه، يعتبر الوضع الداخلي تجاه مشروع العلم بوصفه حرفة مشروطاً بدايةً بكون العلم قد دخل مرحلة التخصص بشكل لم يكن معهوداً في السابق، وسيستمر هذا الأمر إلى مستقبل بعيد أيضاً. إن الأمر يتعلق بالشروط الخارجية. قطعاً لا. فقد بات، الآن، داخلياً على الشكل الآتي: لقد بات الواحد، الآن، على قناعة تامة أنه غير قادر فعلاً أن يحقق شيئاً كاملاً في المجال العلمي إلا في حالة حصوله على تخصص صارم. إن كل الأعمال التي تتجاوز مداها إلى مجالات مجاورة، كما نفعل نحن

(17) التعبير في النص معناه «ودّع أو تخلَّ عن كل أمل». وهو جزء من بيت شعري أورده دانتي في الكوميديا الإلهية، وهو مكتوب على باب جهنم، Inferno III/9. إبان الدولة القيصرية لم يكن يمنع قبول العلماء من أصل يهودي لمتابعة مسيرتهم العلمية. إلا أنهم مع ذلك لم يكن يسمح لهم تقلد مناصب أستاذية إلا بحذر شديد.

ذلك (علماء الاقتصاد)، وكما يجب كذلك على علماء الاجتماع القيام به دوماً، هي أعمال تحمل دمغة هذا الوعي المستكين: إن بإمكاننا في كل الأحوال أن نطرح على الخبير في اختصاصات مجاورة أسئلة نافعة لم يكن له أن يطرحها على نفسه بسهولة في ما لو انطلق من وجهات نظر اختصاصه فقط، وإلا فإن عملنا الخاص سيظل حتماً عملاً غير كامل. ومن خلال التخصص الدؤوب فقط يستطيع العامل في المجال العلمي أن يشعر فعلاً بشعور يقدر له أن يحس به مرة واحدة في حياته، وأن لا يحس به مرة أخرى: هنا استطعت أن أحقق شيئاً ما، شيئاً سيقدّر له أن يدوم. في أيامنا يعتبر العمل النهائي فعلاً والعمل الدائم والمهم، العمل الذي يحمل طابع الإنجاز لمتخصص. وبالتالي، إن من لا يملك القدرة أن يضع، إذا صح القول، غشاوة على عينيه، وأن يمضي في التصور أن قدر حياته يرتبط بذلك: إذا ما كان التخمين في هذا الموقع، وفي هذه المخطوطة صحيحاً فإن هذا يظل بعيداً عن العلم. إن هذا الشخص لن يشعر أبداً في قرارة نفسه بما يمكن أن نسميه «الاختبار» المعاش للعلم. ومن دون هذه النشوة النادرة التي يسخر منها كل من يبقى خارج العلم، من دون هذه المعاناة فإنه لابدّ من انتظار «مرور آلاف السنين قبل أن نرى الحياة، وثمة آلاف سنين أخرى تنتظر بصمت»[18]، حتى تعرف إذا قُدّر لك أن تخمن أنك لا

---

(18) يتعلق الأمر هنا بقول غالباً ما استشهد به ماكس فيبر، والذي ينسبه، لكن في أماكن أخرى إلى المؤلف والمؤرخ البريطاني توماس كارلايل، انظر: Max Weber, «Zur Lage der Bürgerlichen Democratie in Russland,» *Beilage zum 1. Heft des 22. Bandes des AfSS* (1906), S. 349 (MWG I/10, S. 273).

إلا أننا لا نجد النص بهذا الشكل في أعمال كارلايل. قد يكون ذلك من جملة أفكار كارلايل حول دانتي، الذي أشار إليه باعتباره «صوت عشرة قرون من الصمت»، انظر: Thomas Carlyle, *Über Helden, Heldenverehrung und das Heldenthümliche in der* = *Geschichte* (Leipzig: Otto Wigand,1895), S. 98 ff.,

تملك الدعوة لأن تكون عالماً، وأنه من الأجدى لك أن تقوم بعمل آخر. إذ **لا شيء** ذا قيمة بالنسبة إلى الإنسان بوصفه إنساناً، ما لم **يتمكن** من القيام به **بولع شديد.**

إن الشيء الأكيد الآن هو أنه مهما كان هذا الولع شديداً وأصيلاً وعميقاً، فإنه لا يكفي وحده أن يستدرج النتائج. صحيح أنه قد يكون شرطاً مسبقاً «للإلهام» الذي يُعتبر وحده حاسماً. إذ نشهد فعلاً في أيامنا انتشار تصور في أوساط الشبيبة مفاده أن العلم قد تحول إلى عملية حسابية يمكن أن تُحضّر في المختبرات أو في المكاتب الإحصائية وبعقل بارد فقط، لا بموازة «النفس» في كليتها. إن الأمر أشبه ما يكون بالعمل في مصنع. علماً أنه لابدّ لنا أن نلاحظ أولاً: إن من يتحدثون بهذا الشكل ليس لديهم أي فكرة واضحة عما يدور في المصنع أو في المختبر. هنا كما هناك، وحتى يستطيع المرء أن ينجز شيئاً له قيمته لابدّ أن يدور في خلده أمراً، بل أمراً صحيحاً. ومضة الخاطر هذه (أي هذا الإلهام)، لا يمكن للإنسان أن يُكره نفسه على استحضارها. لا علاقة لهذا الإلهام بأي نوع من الحساب البارد. وبالتأكيد: إن هذا الإلهام شرط لابدّ منه. إذ لا يمكن لعالم الاجتماع على سبيل المثال أن يأسف أن يكون قد أجرى في ماضي أيامه، بل وعلى مدى شهور، عشرات الآلاف من العمليات الحسابية

= على الأرجح أن فيبر استقى هذا النص من بول هنزل (Paul Hensel) الفيلسوف الألماني والباحث في أعمال كارلايل، والذي استند إليه في محاضرته عن كارلايل إبان المؤتمر الذي انعقد في سان لويس عام 1904، انظر: Congress of Arts and Science, *Universal Exposition, St. Louis 1904*, hg. von Howard J. Rogers (Boston/ New York: Houghton, Mifflin and Co., 1905), vol. 1, S. 414,

هذا وقد استخدم فيبر هذا الاقتباس هناك لأول مرة في محاضرته، انظر المصدر المذكور، الجزء 7، 1906، ص 746، (MWG I/8).

المبتذلة[19]. ويمكن للمرء ودون خشية عاقبة، أن يحاول إذا ما أراد الحصول على نتائج اللجوء إلى وسائل آلية مساعدة، إلا أن ما سيحصل عليه من نتائج غالباً ما ستكون هزيلة. إلا أنه ما لم «يخطر في باله» شيء محدد يتعلق باتجاه حساباته، أثناء إجرائه لها، وحول مدى النتائج المفردة المحصلة، فإن هذا الشيء الهزيل نفسه لن يتم التوصل إليه. إن الإلهام لا يأتي عادة إلا على خلفية عمل قاسٍ جداً. بالطبع، إن الأمر ليس كذلك دائماً. إذ يمكن أن يكون لإلهام الهاوي، غير المختص، البعد نفسه، أو بعداً أكبر مما لدى الخبير صاحب الاختصاص. إننا ندين بالعديد من أفضل معرفتنا وفرضياتنا للهواة غير المختصين. يتميز الهاوي عن الخبير المختص ـ كما قال هلمهولتز عن روبرت ماير (R. Meyer) ـ بافتقاره فقط للأمان الثابت في منهجية عمله، وهو بالتالي ليس في موضع يتيح له أن يراقب ما لحدسه من بعد، أو أن يحكم عليه أو أن يستثمره[20]. إن الإلهام لا

---

(19) يشير فيبر هنا إلى أمر خبره شخصياً: إذ قام في جملة ما قام به من أجل إعداد بحثه بعنوان: «Zur Psychophysik der industriellen Arbeit,» *AfSS*, Band 27 (1908), S. 730 - 770, Band 28 (1909), S. 219 - 277 und 719 - 761, Band 29 (1909), S. 513 - 542 (MWG I/11),

بإنجاز 50,000 مثل حسابي على مدى ستة أسابيع وبطريقة يدوية، انظر رسالة فيبر إلى بول سيبيك بتاريخ 8 كانون الثاني/ يناير 1909.

(20) لم نتمكن التحقق من هذا الاستشهاد. اكتشف روبرت ماير أثناء عمله طبيباً في باخرة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر قانون حفظ الطاقة. لكن نظراً إلى ضعف قدرة ماير على صياغة اكتشافه فيزيائياً بشكل صحيح، فإن هذا الاكتشاف لم يقدر له أن يعُرف من جانب أوساط أهل الاختصاص. إلا أن هرمان فون هلمهولتز، الذي ظهرت دراسته «حول حفظ القوة» عام 1847 أشاد لاحقاً في ملحق أعقب إعادة نشر هذه الدراسة بالإنجاز الذي قام به ماير وعرّج بشكل أساسي على الاكتشاف العلمي وعلى اختباراته التجريبية. وقد توصل إثر ذلك إلى نتيجة مفادها أن مبتكر فكرة ما ليس ملزماً بالضرورة أن يرفع إلى الآخر (إلى الثاني) الجانب التجريبي من العمل. إلا أن هلمهولتز حذر في الآن نفسه من الاحتفال بماير بوصفه «بطلاً في حقل الأفكار الصرف»، «إذ إن أشباه البراهين المصاغة بشكل ماورائي» من =

يحل مكان العمل. ولا يمكن للعمل بدوره أن يحل مكان الإلهام أو أن يستجلبه بالقوة، على الأقل، كما هو الحال بالنسبة إلى الشغف. إن كلاهما، الشغف والعمل، يستدرجهما الإلهام - وأحياناً كلاهما معاً، يستدرجانه. إلا أن الإلهام يأتي حين يحلو له، لا حين نرغب نحن فيه. والصحيح في الواقع أن أحسن الأشياء التي تخطر في بال أحدهم هي ما قاله أيهرنغ (Ihering): تلك التي يحدس بها المرء وهو مستلقٍ على كنبة يدخن سيجاراً[21]، أو كما تكلم هلمهولتز عن نفسه وبدقة علمية صرف: أثناء القيام بنزهة في طريق تصعد ببطء[22]، أو ما شابه. في كل الأحوال تخطر هذه الأفكار حين لا نكون بانتظارها، وليس أثناء البحث والإمعان في التفكير وراء طاولة البحث العلمي. وفي حقيقة الأمر لن تخطر هذه الأفكار في بال أحدهم ما لم يكن قد أمعن التفكير بها وراء طاولة العمل، وما لم يكن قد عانى من الأسئلة التي حاول البحث عن جواب عنها. لكن مهما كان الأمر: إن على كل عالم أن يتكل على الصدفة التي قد تكون كامنة في خلفية كل عمل علمي: ثم هل يأتي «الإلهام» أو لا يأتي؟ فهذا ما يجب على العامل في مجال العلوم أن يتحمل تبعاته. فقد يكون أحدهم عاملاً مرموقاً دون أن يكون

= جانب ماير، ستبدو بالنسبة إلى كل عالم متمرس بمنهجية البحث في الطبيعيات، بمثابة أكثر مواقع السجال ضعفاً»، انظر: Hermann von Helmholtz, *Über die Erhaltung der Kraft* (Leipzig: Wilhelm Engelmann, 1889), S. 56 ff.,

وبطريقة مشابهة عبر هلمهولتز عن آرائه في ملاحظاته حول «أفضلية ماير»: Hermann von Helmholtz, *Vorträge und Reden*, 5. Aufl. (Braunschweig: Friedrich Vieweg und Sohn, 1903), S. 401 - 414.

(21) Rudolf von Ihering, *Scherz und Ernst in der Jurisprudenz: Eine Weihnachtsgabe für das juristische Publikum*, 10. Aufl. (Leipzig: Breitkopf und Härtel, 1909), S. 125 ff.

(22) «Hermann von Helmholtz in der Tischrede anläβlich seines 70. Geburtstags, abgedruckt,» in: Helmholtz, *Vorträge und Reden*, Band 1, S. 15 f.

قد توفر إطلاقاً على إلهام أصيل. إلا أنه من الخطأ الجسيم أن يعتقد أن هذا الأمر لا يحصل إلا في مجال العلم وأن الحال على سبيل المثال، يختلف خلف مكتب تجاري عنه في المختبر. إذ إن التاجر أو الصناعي الكبير، «دون خيال تجاري» أي دون إلهام، بل دون إلهام عبقري، يظل طيلة حياته رجلاً، وفي أفضل الحالات موظفاً تقنياً أو معاون تاجر: إذ إنه لن يتمكن إطلاقاً من خلق أشكال تنظيم جديدة. إذ إن الإلهام، وخلافاً لما يتوهم العالم المتحذلق، لا يؤدي دوراً أكبر مما يؤديه في مجال السيطرة على مسائل تتعلق بالحياة العملية عند متعهد حديث يسعى إلى حلها، بل إن الإلهام، وهذا ما يُتجاهل في الأغلب، لا يؤدي فيها دوراً أدنى مما يؤديه في مجال الفن. ومن التصورات التافهة أن بإمكان عالم الرياضيات الجالس خلف طاولة عمله التوصل إلى نتيجة علمية نافعة بمجرد حمله مسطرة أو وسائل تقنية أخرى أو آلة حاسبة: إن المخيلة العلمية لأمثال فايرشتراس (Weierstrass) هي بالطبع سواء من حيث المعنى، أو النتيجة، مخيلة ذات توجه آخر مختلف عما نجده عند الفنان الذي تختلف مخيلته أيضاً من حيث الكيفية. إلا أن السيرورة النفسية تظل نفسها في كل الحالات. إن كلاهما «نشوة» (بالمعنى الذي أعطاه أفلاطون لكلمة Mania)[23]، وكلاهما «إلهام».

الآن: إذ كان لأحدهم أن يتوفر على إلهامات علمية، فإن لذلك علاقة بما يخفى علينا من أقدار، ومن «مواهب» أيضاً. ونجد في المدة الأخيرة بحجة هذه الحقيقة التي لا شك فيها تصوراً ساد في أوساط الشبيبة، وقد يكون ذلك مفهوماً، لمن يجعل نفسه في خدمة بعض الأوثان، حيث تنتشر عبادتها في أيامنا في كل زوايا

(23) انظر: Platon, *Phaidros*, 244 a - 245 a.

الشوارع وفي كل الصحف والمطبوعات. والأوثان هذه هي: «الشخصية» و«التجربة المعيشة = الخبرة». ولا مجال لفصل الواحدة منهما عن الأخرى: والتصور السائد يقول إن الثانية تصنع الأولى وإنها تشكل جزءاً من ماهيتها. يعاني المرء بقوة حتى يكتسب «الخبرة» ـ اعتقاداً منه أن ذلك يشكل تدبير حياة جدير بالشخصية ـ وحين لا يقدر له النجاح في ذلك، فعليه أن يتصرف كما لو امتلك هذه الهبة النعمة. كان يُطلق في ما مضى على هذه التجربة المعيشة (Erlebnis) اسم «الاحساس» (Sensation). أما ما هي الشخصية وماذا تعني، فإني أعتقد أنهم كوّنوا عنها تصوراً صحيحاً.

الحضور الكرام! وحده من يمتلك «شخصية» في مجال العلوم هو الذي يجعل نفسه **كلياً في خدمة قضيته**. والأمر ليس كذلك في مجال العلم وحده فقط. إذ إننا لا نعرف فناناً كبيراً قام بشيء آخر سوى أن جعل نفسه في خدمة قضيته، وقضيته وحدها فقط، بل إن شخصية مثل غوته، وبقدر ما جعل من الفن قضيته، فقد بلغ به التشفي حداً استفاد معه من الحرية ليحوّل «حياته» عملاً فنياً[24]. قد يكون ذلك مبعثاً على الشك، ويجب في كل الأحوال أن يكون الإنسان مثل غوته حتى يسمح لنفسه عيش أشياء مشابهة. وسيقر الجميع، على الأقل، أن شخصية مثله لا تظهر إلا مرة واحدة كل ألف سنة. ولا يختلف هذا الأمر عما نجده في الشأن السياسي، إلا أننا لن نتطرق إلى ذلك اليوم[25]. أما في مجال العلم فلا يعتبر «شخصية»

---

(24) يعود هذا التقدير على الأرجح إلى ملاحظة قدمها فيلهلم ديلتاي، الذي اعتبر توجه غوته «توجها شعرياً أساسياً»، «يجعل الحياة الخاصة والشخصية الخاصة عملاً فنياً»، انظر: Wilhelm Dilthey, *Das Erlebnis und die Dichtung: Lessing, Goethe, Novalis, Hölderlin*, 3., erw. Aufl. (Leipzig: B. G. Teubner, 1910), S. 216 f.

(25) الأرجح أنه يشير إلى محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» التي ألقاها في 28 كانون الثاني/ يناير 1919.

بالتأكيد الشخص الذي ليس أكثر من وكيل على أمر يكرس نفسه له، والذي يبرز على الملأ ساعياً لتبرير نفسه من خلال التجارب المعاشة ومتسائلاً: كيف بإمكاني أن أبرهن أني شيء آخر غير مجرد «خبير متَّخصص»؟ ماذا علي أن أفعل، حين أقول شيئاً لا يكون بالشكل، ولا بالعمق، شيئاً قاله شخص آخر كما أقوله أنا؟ يتعلق الأمر هنا بظاهرة أصبحت تتكرر في أيامنا بنسب متواترة، دون أن يرشح عنها إلا نتائج صغيرة، بل إنها تقلل من قيمة من يطرح أسئلة كهذه. خلاف ذلك، إن من يهب نفسه كلية لمهمته، ومن لا يقوم بشيء سوى ذلك هو من يرتفع إلى مستوى علو وسمو القضية التي آل على نفسه خدمتها. والأمر نفسه لا يختلف هنا عما هو لدى الفنان.

إلا أن هذه الشروط المسبقة التي يتشارك فيها العلم مع الفن تجعلنا إزاء قدر هو أن عملنا يختلف بعمق عن العمل الفني. إذ إن العمل العلمي عمل لا ينفصل عن **مسيرة التقدم**. وخلاف ذلك، لا وجود للتقدم في مجال الفن، على الأقل، بهذا المعنى. وليس صحيحاً أن العمل الفني في عصر ما، والذي استخدم تقنيات جديدة أو قوانين جديدة مثل قوانين المنظور مثلاً، سيكون لهذه الأسباب أرفع فنياً من عمل فني آخر لا يعرف هذه التقنيات، ولا هذه القوانين ـ هذا شريطة أن يكون قد تكوَّن باحترامه لقوانين الفن مادة وشكلاً، أي بعبارة أخرى: شرط أن يكون قد تم اختيار موضوعه وتشكيله طبقاً لجوهر الفن دون العودة إلى الشروط والوسائل الفنية المشار إليها. إن العمل الفني الذي حقق فعلاً «كماله» لا يمكن أن يُتجاوز، ولا يمكن له أن يشيخ. بإمكان كل مشاهد أن يقدر قيمته بشكل شخصي يختلف بين إنسان وآخر، إلا أن أحداً لا يستطيع القول عن عمل فني إنه «اكتمل» من الناحية الفنية، أو إنه قد تم «تجاوزه» من قبل عمل فني آخر «مكتمل» بدوره. أما في مجال العلم فكلنا يعرف أن ما يقوم به سيصبح قديماً في حدود عشر سنين أو عشرين سنة أو

خمسين سنة قادمة. هذا هو القدر، أجل: هذا هو معنى العمل العلمي، أو دلالته الخاصة الذي تخضع له أو تسلم له كل عناصر الحضارة التي تخضع للقوانين نفسها: إذ إن كل عمل علمي «مكتمل» لا معنى له إلا إذا استولد أسئلة جديدة، وتوخى أن يتجاوز أو أن يصبح قديماً. وعلى كل من يريد التعامل مع العلم أن يرضى بذلك. بالتأكيد يمكن للأعمال العلمية أن تحتفظ بقيمة دائمة، بوصفها أداة لذة: وذلك لما تتمتع به من صفة جمالية، أو بوصفها أداة تدريب أو تعليم للعمل. أما في العلم، وأكرر هنا، فإن التجاوز ليس قدرنا، بل هو غايتنا جميعاً. لا يمكننا أن نعمل ما لم نتأمل مجيء آخرين سيصلون إلى أبعد مما وصلنا نحن إليه. ومن حيث المبدأ يمتد هذا التقدم إلى ما لا نهاية له. وبذلك نعود مجدداً إلى مسألة دلالة العلم. فمن غير الواضح بذاته أن ظاهرة تخضع لقانون كهذا هي ظاهرة تتضمن في آن واحد دلالة وعقلاً. ولماذا نهتم بعمل لا نهاية له في الواقع، ولا يمكن أن يكون له نهاية أيضاً؟ لنقل أولاً، إننا نقوم به لأسباب عملية، أو بالمعنى الأوسع للكلمة لغايات تقنية: أو حتى نستطيع توجيه سلوكنا العملي لانتظار ما يمكن أن تضعه التجربة العلمية بين أيدينا، حسناً! إلا أن هذا لا دلالة له إلا بالنسبة إلى الإنسان العملي. لكن السؤال الذي لابدّ من الإجابة عنه هنا حول العلاقة الداخلية بين رجل العلم نفسه مع حرفته أو دعوته؟ - هذا إذا كان يسعى بالتحديد إلى دعوة كهذه. قد يزعم: إنه يهتم بالعلم من «أجل العلم فقط»، وهو لا يقوم به بهدف أن يستفيد آخرون من نجاحاته تجارياً أو تقنياً، أو أن يتغذوا، أو يلبسوا، أو يستنيروا، أو يديروا شأنهم بشكل أفضل. ماذا يأمل أن يحقق فعلاً بهذه الابتكارات المحكوم عليها بالتقادم بأن يربط نفسه بهذا العمل المقسم إلى اختصاصات وأن يذهب فيه إلى ما لا نهاية؟ تفرض علينا الإجابة عن هذا السؤال التعرض أولاً لبعض الاعتبارات العامة.

إن التقدم العلمي ليس إلا جزءاً، بل إنه الجزء الأساسي من سيرورة التحصيل الفكري التي تخضع لها منذ آلاف السنين، والتي جرت العادة أن يتخذ بعض الأشخاص في أيامنا منها موقفاً سلبياً شديد الغرابة.

لنحاول أن نوضح بداية ماذا تعني عملياً هذه العقلنة الفكرية التي يدين بها الجميع للعلم وللتقنية ذات التوجه العلمي. هل هي شيء من قبيل أن جميع من هم الآن في هذه القاعة على سبيل المثال، يتوفرون في ما خص شروط حياتهم، على معرفة تفوق ما يعرفه هندي أو أحد أفراد الهوتنتوت عن هذه الشروط؟ من الصعب أن نجيب بالإيجاب. إن من يسافر منا في القطار، فإنه ما لم يكن فيزيائياً متخصصاً، فلا مجال له أن يعرف كيف يمكن لهذا القطار أن يتحرك أو يسير. كما إنه لا حاجة له أن يعرف ذلك. إذ يكفيه أن «يتكل» على عربة القطار، وأن يوجه سلوكه في هذا الاتجاه، أما كيف تصنع آلة كهذه وجعلها تتحرك، فذلك ما لا يعرف عنه شيئاً. أما البدائي، وبالمقارنة، فهو يعرف أدواته بشكل لا يضاهيه فيه سواه. وحين نقوم الآن بإنفاق كمية من المال، فإني أراهن، أن كل واحد منا ـ وحتى لو كان بين الحضور زملاء لي من علماء الاقتصاد ـ سيقدم تقريباً جواباً يختلف من فرد لآخر عن سؤال: ما الذي يجعلنا نشتري بالكمية نفسها من المال أحياناً أشياء كثيرة، وأحياناً أخرى أشياء قليلة جداً؟ أما البدائي فيعرف جيداً كيف عليه أن يتصرف ليحصل على غذائه اليومي، وهو يعرف المؤسسات التي تساعده في ذلك أيضاً. لذلك فإن التحصيل المتنامي والعقلنة لا يعنيان أبداً معرفة عامة متنامية لشروط الحياة التي نحيا في كنفها، بل يعني ذلك شيئاً آخر مختلفاً: هو أن نعرف وأن نعتقد، أننا نستطيع في كل لحظة، شرط أن يكون لنا الإرادة، أن نبرهن لذاتنا عدم وجود أي قوة سرية أو غير مرئية قادرة من حيث المبدأ على التدخل في سير الحياة، بل

إنه بالإمكان ـ ومن حيث المبدأ أيضاً ـ **السيطرة** على كل الأشياء من خلال **التكهن** بها. يعني ذلك إذاً: إزالة السحر عن العالم. لا يعني ذلك بالنسبة إلينا، ما يصفه بالنسبة إلى البدائي الذي يؤمن بقوى كهذه، أي اللجوء إلى وسائل سحرية نستطيع بواسطتها السيطرة على الأرواح أو التوسل إليها. بل إن ذلك لا يتحقق إلا بالتكهن وبالوسائل التقنية. وهذا هو تحديداً المعنى الأساسي للعقلنة بوصفها كذلك.

هل لسيرورة إزالة السحر هذه التي تتحقق عبر آلاف السنين في الحضارة الغربية، بل هل لهذا «التقدم» عامة، وفيه يسهم العلم بوصفه عنصراً وبوصفه دافعاً أيضاً، هل لهما دلالة تتجاوز هذه الممارسة المحض أو هذه التقنية المحض؟ نجد أفضل طرح لهذه المسألة في أعمال ليو تولستوي الذي توصل إلى طرحه على طريقته الخاصة. فقد تركزت مجمل تأملاته أكثر وأكثر حول المسألة الآتية: هل يعتبر الموت حدثاً له معنى أم لا؟ والجواب عنده كان: أما بالنسبة إلى الإنسان المتحضر، فإن الموت لا يشكل حدثاً[26]. وهو ليس حدثاً للسبب الآتي: إن حياة الإنسان المتحضر حياة تجد امتدادها في «التقدم» في اللانهائي، وتبعاً لمعناها هذا المحايث

---

(26) أشار تولستوي في أعماله مراراً إلى إشكالية الموت معتبراً أن الإنسان الأكثر تحصيلاً ثقافياً هو الأكثر قلقاً إزاء الموت. وفي رسالة له إلى الكونتيسة ألكسندرا أندرفنا تولستويا يوضح تولستوي تقديره مشيراً إلى وفاة أحد النبلاء وأحد الناس العاديين في روايته **الأموات الثلاثة**. (فبارينا تبدي الأسف وتمقته. والمسيحية كما تفهمها لا تحل مسألة الموت والحياة. لماذا الموت، إذا كان المرء يريد الحياة؟... يموت موشنيك بهدوء. فالطبيعة هي ديانته، وقد عاش معها، أسقط أشجاراً، وشبع من الحنطة، وذبح خرافاً ولدت عنده، كما إنجب أطفالاً، مات عجوزاً وقد عرف القانون الذي لم يحد عنه «لقد نظر دائماً إلى الأمام»)، انظر: Leo N. Tolstoi: *Sämtliche Werke*, hg. von Raphael Löwenfeld (Leipzig: Eugen Diederichs, 1901), S. 304 - 328, and *Leo Tolstoi's Briefwechsel mit der Gräfin A. A. Tolstoi 1857 - 1903* (München: Georg Müller, 1913), S. 115.

للتقدم واللانهائي فهي حياة لا يمكن أن تجد نهاية لها. إذ إن من يحيا في التقدم سيعتقد باستمرار في إمكانية أن يجد تقدماً آخر بانتظاره؛ فلا يموت أحد إلا سيجد نفسه وقد بلغ قمة التقدم، إذ إن موقعه هو في اللانهاية. إن إبراهيم [الخليل] شأنه شأن أي فلاح آخر من العصور القديمة قد مات «شيخاً مشبعاً بالأيام»[27]، إذ إنه أدرج داخل دورة الحياة العضوية. ولأن حياته قد أعطته وهو في آخر أيامه كل المعنى الذي كان بمقدورها أن تهبه إياه، ولأنه لم يبقَ له من لغز يجب عليه أن يجد حلاً له، فلذلك كان بإمكانه أن يقول لنفسه «كفى» من الحياة. أما الإنسان المتحضر، خلاف ذلك، والذي يجد نفسه وسط حركة حضارة تغتني باستمرار بالأفكار والعلوم وبالمشاكل، فإنه قد يصبح «تعباً من الحياة»، لكنه لم يشبع منها. إذ إنه لن يستطيع أن يدرك إلا الجزء اليسير من الجديد الذي تنتجه حياة العقل باستمرار، ولا يدرك ذلك إلا ما هو عابر ومؤقت، لا النهائي، ولذلك يعتبر الموت بالنسبة إليه حادثاً عرضياً لا معنى له. ولأنه لا معنى للموت، فإن حياة المتحضر، بوصفها كذلك، حياة لا معنى لها أيضاً. إذ إنه نظراً إلى ما «تشهده من تقدم» لا دلالة له، فإنها تجعل من الموت حدثاً لا معنى له. ونجد عند تولستوي هذه الفكرة التي تشكل إيقاعاً يتميز بها فنه في كل أثر من آثاره المتأخرة.

ما هو الموقف الذي علينا اتخاذه هنا؟ هل يتمتع «التقدم» بوصفه تقدماً، بمعنى يمكن التعرف إليه ويكون قادراً على تجاوز التقنية، بحيث إن من يجعل نفسه في خدمته يكون قد استجاب لدعوة لها معناها؟ إنها مسألة يجب أن تطرح. إذ إن الموضوع المثار هنا ليس مسألة تتعلق بالدعوة إلى العلم وحسب، بل هي: ما هي دلالة العلم بوصفه حرفة = دعوة لمن يكرس نفسه للعلم، لكن

(27) **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الإصحاح 25، الآية 8.

السؤال الآخر: ما هي **حرفة = دعوة العلم** وسط مجمل حياة الإنسانية؟ وما هي قيمة هذه الحرفة = الدعوة؟

نجد حول هذه النقطة الآن تناقضاً كبيراً بين الماضي والحاضر. يكفي أن تعيدوا إلى الذاكرة الصورة المدهشة التي أشار إليها أفلاطون في بداية كتابه السابع من **الجمهورية**[28]: تلك التي تصور أهل الكهف المكبلين الذين يديرون وجوههم إلى الحائط الصخري الموجود أمامهم، من خلفهم نجد مصدر الضوء الذي ليس بإمكانهم رؤيته، ولذلك فهم مجبرون على التعامل فقط مع صور الظلال التي يعكسها مصدر الضوء على الجدار، محاولين سبر العلاقات التي تربط ما بينها، إلى أن يتمكن أحدهم من فك قيوده، وأن يستدير ويرى الشمس، ويتلمس طريقه مشدوهاً ويدور في كل الجهات ويتلعثم مما رآه لتوه. فيقول الآخرون عنه إنه أصيب بالجنون. إلا أنه سيتعوّد شيئاً فشيئاً النظر إلى النور، ومن ثم سيكون عليه أن يعود إلى أهل الكهف ليقودهم إلى النور. إنه الفيلسوف. والشمس هي التي تمثل حقيقة العلم الذي لا يجب عليه أن ينظر إلى المظاهر والظلال وحسب، بل أن يعرف الكينونة الحق أيضاً.

أجل، لكن من يتبنى في أيامنا موقفاً كهذا تجاه العلم؟ تحس الشبيبة بشكل خاص، في أيامنا، بشعور معاكس. إذ يشكل صرح العلم الفكري بنظرها مملكة لاواقعية تتكون من تجريدات مصطنعة تحاول أن تلمس بأيديها المتيبسة دم الحياة الحق وعصارتها، لكن دون أن يكتب لها النجاح في ذلك أبداً. أما هنا، فإننا نعتقد في الحياة التي نحياها أن ما كان بنظر أفلاطون مجرد لعب ظلال على جدار الكهف ليس إلا نبض الواقع الحق: وكل ما عدا ذلك،

---

(28) انظر: Platon, *Politeia*, 514a-517a.

بتقديرنا، ليس إلا أشباحاً لا حياة فيها بعيدة عن الواقع، ولا شيء آخر سوى ذلك. كيف حدث هذا التحوّل؟ يمكن إيضاح حماسة أفلاطون المحمومة في كتاب **الجمهورية** في نهاية التحليل بأنه قد تم في ذلك الوقت بوعي التوصل إلى معنى أحد أكبر أدوات كل معرفة علمية: **المفهوم**. ويعود الفضل في ذلك إلى سقراط الذي اكتشفه بما له من أبعاد. إلا أنه لم يكن الوحيد من فهمه في هذا العالم. إذ يمكنكم أن تجدوا في الهند عناصر منطق مشابه لما نجده عند أرسطو[29]. لكن لا نجد في أي مكان من العالم وعياً يشابه الوعي بدلالته كما هنا. هنا أمكن لأول مرة استخدامه أداةً يمكن بواسطتها حشر أحدهم في ملزمة المنطق بحيث لا يمكنه بعدها الخروج منها إلا معترفاً أنه لا يعرف شيئاً: أو أن ما يذهب إليه، ولا شيء آخر عداه هو الحقيقة، الحقيقة **الأزلية** التي لا تعرف فساداً، شأن عمل وتحرك الناس العميان. لقد كان ذلك التجربة الغريبة التي كان طلاب سقراط عرضة لها. وقد ساد الاعتقاد أنه يمكن الاستنتاج، أنه يكفي أن يكتشف المرء المفهوم الحق للجمال، والخير، أو للشجاعة أو النفس مثلاً ـ و/ أو لأي موضوع آخر ـ حتى يكون قد تمكن من إدراك وجوده الحق أيضاً، وقد بدا مجدداً كذلك أن هذا سيكون الطريق في العلم والتعليم: أي الطريق التي تجعل المواطن يعرف كيف عليه أن يتصرف بالطريقة الصحيحة في الحياة. إذ إن الإغريق الذين لا يعرفون التفكير إلا من خلال السياسة جعلوا كل شيء متعلقاً بهذه المسألة. ولهذا السبب أولوا العلم عنايتهم.

---

(29) ربما كان يقصد بذلك الإشارة إلى النظام الفلسفي نيايا ـ فيشاسكا، حيث نظام العلم مكوّن بشكل موضوعي ـ واقعي، دون العودة إلى مبدأ متعالٍ. إن قوام هذا النظام سلسلة من مذهب مقولاتي، ومن أحكام قياسية منطقية تستند إلى نظرية في المعرفة. وقد تأثرت الفلسفة الهندية برمتها بذلك.

إلى جانب اكتشاف الروح الهلليني هذا، يضاف كذلك الأداة الثانية الكبرى، أداة العمل العلمي، بنت عصر النهضة: إنه التجريب العقلاني، الذي أصبح أداة يمكن الاعتماد عليها في كل تجربة خاضعة للمراقبة، ومن دونه ما كان للعلم التجريبي الحديث أن يرى الوجود. مورس التجريب بالطبع منذ وقت مبكر: التجارب الفيزيولوجية، على سبيل المثال، في الهند خدمة لتقنية ممارسي اليوغا الزهدية[30]، وفي اليونان القديمة، حيث كان التجريب الرياضي في خدمة غايات عسكرية. وفي العصر الوسيط بهدف استثمار المناجم. إلا أن التجريب كمبدأ من مبادئ البحث بوصفه بحثاً فلم يرقَ إلى هذه المكانة إلا في عصر النهضة. أما المجددون الكبار في مجال الفن فقد كانوا بالفعل رواد التجريب: ليوناردو [دا فنشي] وأمثاله، وكذلك يتميز التجريبيون في الموسيقى في القرن السادس عشر وفي العزف على البيانو القديم[31]. ومنه انتقل التجريب إلى العلم عبر غاليليه أول الأمر، وإلى النظرية مع بايكون، وقد تبنت العلوم البحتة على اختلافها التجريب في ما بعد في شتى جامعات القارة، أولاً، وبخاصة في إيطاليا، ثم في هولندا لاحقاً.

ولكن ماذا يعني العلم بالنسبة إلى هؤلاء البشر عند عتبة العصر الحديث؟ يعني العلم بالنسبة إلى التجريبيين في مجال الفن، أمثال ليوناردو أو المجددين في الموسيقى، الطريق الذي يوصل إلى الفن

---

(30) الذين يمارسون اليوغا، وهي نظام فلسفي هندي، ينطلقون من إمكانية الوصول إلى إمكانية الخلاص الذاتي عبر التأمل والتقشف. ومن أجل ذلك طور هذا النظام مذهباً معقداً يتعلق بالوسائل الخارجية المساعدة على تركيز القوى العقلانية.

(31) بالنسبة إلى المجربين في الموسيقى في القرن السادس عشر، يتعلق الأمر بالدرجة الأولى «بصنع أدوات صوتية لتأليفات عديدة الأصوات»، انظر عمل فيبر: *Die rationalen und soziologischen Grundlagen der Musik* (München: Drei Masken Verlag, 1921), S. 91 (MWG. I/14).

الحق، ويعني بالنسبة إليهم الطريق الموصل إلى **الطبيعة** الحق أيضاً. ويجب أن يرقى الفن إلى مستوى العلم، وذلك يعني أولاً، وبخاصة أن على الفنان أن يرقى إلى مستوى دكتور [باحث]، سواء اجتماعياً أو على صعيد المعنى الذي يعطى لحياته. هذا هو الطموح الذي نجده في أساس كتاب فن الرسم[32] الذي وضعه ليوناردو [دا فنشي] على سبيل المثال. ولكن ماذا عن الآن؟ إن عبارة «العلم بوصفه الطريق إلى الطبيعة» عبارة قد ترنّ في آذان الشبيبة كما لو كانت مسبة. لا، إن العكس هو ما يبدو الأصح في أيامنا: إذ إنه بالخلاص من تعقلية العلم ما يتيح لنا العودة إلى طبيعتنا الخاصة، وبالتالي، العودة إلى الطبيعة بشكل عام. إن القول إن العلم هو الطريق الموصل إلى الفن، قول لا يحتاج إلى أي نقد - إلا أننا ننتظر ما هو أكثر من ذلك من العلم في العصر الذي تتكون فيه العلوم الطبيعية الحق. وإذا كنتم تذكرون الصورة المجازية التي تنسب إلى سفامردام (Swammerdam): «إني أنقل إليكم هنا من خلال تشريح القملة البرهان على العناية الإلهية»[33]، فسترون ماذا كانت في ذلك الوقت المهمة التي اتخذها العلم بتأثير (غير مباشر) من البروتستانتية والحركة الطهرية: اكتشاف الطريق الذي يوصل إلى الله. إن هذا الطريق لم

---

(32) المقصود بذلك الكتاب الذي وضعه فرانسيسكو ملزي (Francesco Melzi) حوالى العام 1530 استناداً منه إلى مخطوطات تركها ليوناردو دا فنشي (Lionardo da Vinci) بعنوان «Trattato della Pittura»، وفيه طرح ليوناردو بشكل مفصل السؤال عن المدى الذي يمكن فيه اعتبار الرسم علماً، انظر: Heinrich Ludwig, ed., *Lionardo da Vinci, Das Buch von der Malerei, Deutsche Ausgabe, Nach dem Kodex Vaticanus 1270*, 2 Bände (Wien: Wilhelm Braumüller, 1882).

(33) أياً كانت الطريقة التي يكتب بها الاسم Swammerdam أو Swammerdamm والنص مأخوذ من: Johann Swammerdamm, *Bibel der Natur* (Leipzig: Johann Friedrich Gleditschens Buchhandlung, 1752),

وفيه يصنف الحشرات إلى فئات وصفها بعناية، وعرضها بصور واضحة محفورة على =

يجده المرء عند الفلاسفة أو من خلال مفاهيمهم واستنتاجاتهم: ـ إذ لا يمكن إيجاد الله بهذا السبيل الذي بحث فيه مفكرو القرون الوسطى. ذلك ما يعرفه كل اللاهوت الطهري في ذلك الوقت، وبشكل خاص شبنر[34] (Spener). إن الله خفي، وطرقه ليست طرقنا، وأفكاره ليست أفكارنا[35]. إلا أن الأمل انعقد على معرفة مقاصد الله في العالم من خلال العلوم الطبيعية الصرف التي تساعد على فهم أعماله بشكل طبيعي. أما الآن؟ فمن ذا الذي مازال يعتقد ـ عدا بعض الصبية الكبار والذين مازلنا نصادفهم بين المتخصصين في العلوم الطبيعية ـ أن معرفة علم الفلك أو علم الفيزياء أو الكيمياء يمكن أن تفيدنا علماً بشيء حول معنى العالم، أو بإمكانها أن تعلم شيئاً يتعلق بذلك، أو تتبع آثاره: هذا إذا كان للمعنى من وجود؟ وإذا كان ثمة معارف موجودة قادرة على استئصال الاعتقاد بوجود أي شيء كان من قبيل ما يشبه وجود «معنى» للعالم، فهي هذه العلوم

= النحاس مع ملاحظات عديدة وتتناول النوادر في الطبيعة، جاعلاً من ذلك كله برهاناً على حكمة الخالق وقدرته الكلية، وفي المصدر المذكور، ص 30 نجد فيه: «رسالة من الإنسان القملة إلى السيد تفنوت (Thevenot) (رحالة فرنسي 1633 ـ 1767) زار بلدان آسيا والهند وأدخل القهوة إلى فرنسا. مبعوث ملك فرنسا إلى دولة جنوى الحرة، السيد الموقر، إني ألفت سموكم هنا من خلال تحليل قملة إلى قوة عظمة ظفر الرب الكلي القدرة».

(34) انظر: Philipp Jacob Spener, *Theologische Bedencken Und andere Brieffliche Antworten auf geistliche/ sonderlich zur erbauung gerichtete materien/ zu unterschiedenen zeiten auf gesetzet/ endlich auf langwieriges Anhalten Christlicher Freunde in einige Ordnung gebracht/ und nun zum dritten mal heraus gegeben. Erster Theil* (Halle: In Verlegung des Waysen - Hauses, 1712),

وقد جاء في القسم رقم XLVI ص 232 ما يؤكد هذه الفكرة. ثم إن النسخ التي استند إليها ماكس فيبر والمحفوظة في مكتبة هايدلبرغ مازالت تحفل بإشارات وتعليقات على هوامشها وضعها ماكس فيبر بخط يده، وفيها تأكيد على عظمة الخالق.

(35) **الكتاب المقدس**، «سفر أشعيا،» الإصحاح 55، الآية 8: «فإن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي، يقول الرب».

بالتحديد. وفي نهاية الأمر كيف يمكن لعلم أن «يوصلنا إلى الله»؟ أليس العلم، القوة الخاصة التي تبعد عن الله؟ فهذه صفة، سواء أقر المرء أم لم يقر بها - فهي مما لا يشك فيها أحدٌ في أيامنا، إذا ما عاد إلى قرارة نفسه. إن القول بأن الخلاص من العقلانية ومن تعقلية العلم هو الشرط الضروري المسبق للحياة مع الله حياة جماعة، هذا القول أو ما يشبهه قد صار الآن من الشعارات الكبرى الأساسية التي تكررها الشبيبة الألمانية، يحملها الشعور الديني أو بحثاً عن تجربة دينية. وبالتالي، فإن هذه الشبيبة لا تسعى إلى التجربة الدينية، بل إلى التجربة المعيشة بشكل عام. إلا أن الطريق الذي يتم اختياره هو طريق يوصل إلى الغرابة: إذ إن الشيء الوحيد الذي لم تمسه العقلانية حتى الآن، وأعني به مجال اللامعقول، قد صار الآن موضوع فحص، وقد بات خاضعاً لتدقيقه. إن الرومانسية الفكرية الحديثة للامعقول قد قادت عملياً إلى هذا التوجه، إلا أن هذا الطريق الذي يفترض به تحريرنا من النزعة الفكرية سوف يوصل إلى عكس ما كان يعتقد منتهجوه أنه سبيل يوصل إلى الغاية التي وضعوها. أخيراً، رغم احتفاء التفاؤل الساذج بتمجيد العلم، أي بالتقنية التي يقوم عليها العلم في التغلب على الحياة باعتبار ذلك الطريق الموصل إلى **السعادة**، فإني أعتقد أن بإمكان ترك هذا النقاش جانباً بشكل كلي، وحجتي في ذلك، النقد العدمي الذي أطلقه نيتشه إلى «آخر البشر» ممن اعتقدوا أنهم «اكتشفوا السعادة»[36]. من مازال يؤمن بذلك - باستثناء بعض الأولاد الكبار في كراسي الجامعات أو في قاعات التحرير؟

---

(36) انظر تمهيد زرادشت في «هكذا تكلم زرادشت»، في: *Nietzsche's Werke*, I. Abt., Band 6 (Leipzig: C. G. Naumann, 1896), S. 18 - 21.

لنعد إلى الوراء. نرى في ظل هذه الشروط الذاتية ما هو معنى العلم بوصفه حرفة حيث إن كل هذه الأوهام القديمة ومنها: «الطريق إلى الوجود الحق»، «الطريق إلى الفن الحق»، «الطريق إلى الطبيعة الحق»، و«الطريق إلى الإله الحق» قد تهافتت كلها. إن الجواب البسيط عن هذا السؤال نجده عند تولستوي وقد عبر عنه بقوله: إنه سؤال لا معنى له، لأنه لا يقدم أي إجابة عن السؤال الأهم بالنسبة إلينا: «ما الذي يجب علينا فعله؟ كيف يجب علينا أن نحيا؟»[37]. وطالما أنه لا يقدم أي إجابة، فهو سؤال محق بكل بساطة. ويظل السؤال المطروح الآن، بأي معنى لا يقدم «أي» جواب، وما إذا كان بإمكانه أن يقدم رغم ذلك خدمة ما إلى من يطرح سؤالاً بشكل صحيح. لقد اعتدنا جداً في أيامنا التحدث عن علم لا ارتباط له «بفرضيات مسبقة»[38]. علم كهذا هل هو موجود؟ كل شيء يرتبط بما نعنيه بهذا التعبير. إن

---

(37) في القسم الأول من كتاباته الاجتماعية «Was sollen wir denn thun?» يعيب تولستوي العلم، ولاسيما الاقتصاد السياسي «لتحاشيه وبكل عناية الإجابة عن أكثر الأسئلة بساطة وأهمية»، انظر: *Sämtliche Werke* (Leipzig: Eugen Diederichs, 1902), I. Serie, Band 3, S. 235 f.

(38) تعيدنا الصياغة إلى الرسالة الاحتجاجية الشهيرة التي وجهها تيودور مومسن عام 1901 بمناسبة فرض المؤرخ مارتن شبان (Spahn) على كرسي أستاذية مخصصة حصراً للكاثوليك في جامعة ستراسبورغ. في هذه الرسالة أشار إلى انعدام الفرضيات المسبقة في كل بحث علمي باعتبار ذلك غاية مثالية واعتبر الطائفية «العدو القاتل لماهية الجامعة»، انظر: Theodor Mommsen, «Universitätsunterricht und Konfession,» in: *ders., Reden und Aufsätze*, 2. Aufl. (Berlin: Weidmannsche Buchhandlung, 1905), S. 432 - 436,

استند هاينريش ريكارت إلى هذه الصياغة بشأن معالجته المسألة المنهجية. بأي معنى تقود قيم الثقافة عملية تكون المفاهيم التاريخية، انظر: Heinrich Rickert, *Die Grenzen der naturwissenschaftlichen Begriffsbildung. Eine Logische Einleitung in die historischen Wissenschaften* (Tübingen/ Leipzig: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1902), S. VII f. und 633 f., Anm. 1,

إن العلم الذي لا فرضية مسبقة له أصبح مفهوماً قائماً في النقاش القيمي الذي قام آنذاك.

كل عمل علمي يفترض مسبقاً صحة قواعد المنطق والمنهجية المتبعة: إنها الأسس العامة لتوجهنا في العالم. وتعتبر هذه الفرضيات المسبقة، على الأقل، بالنسبة إلى سؤالنا الخاص من أقل الأمور إشكالية. ونحن نفترض بالتالي: إن ما نتوصل إليه من خلال العمل العلمي هو **مهم** بمعنى «أن له قيمة علمية». وهنا تكمن بشكل واضح كل مسائلنا. إذ إن هذا الافتراض المسبق لا يمكن البرهنة عليه مجدداً بواسطة الوسائل العلمية. إذ لا يمكن **تفسير** المعنى النهائي لهذا الافتراض المسبق، بل يمكننا إما رفضه وإما قبوله. وذلك بحسب المواقف الشخصية النهائية التي نتخذها من الحياة.

ومن ثم فإن طبيعة العلاقة بين العمل العلمي بفرضياتها المسبقة هي بالتالي طبيعة تختلف باختلاف بنية العلوم نفسها. إذ إن العلوم الطبيعية، كالفيزياء والكيمياء وعلم الفلك، تفترض بالتأكيد مسبقاً أن معرفة القوانين النهائية بشأن الصيرورة الكونية معرفة تستحق العناء ـ وذلك بالقدر الذي يكون فيه العالم قادراً على إيجادها، لا لأن المرء يهدف باستخدامه هذه المعارف تحقيق بعض النتائج التقنية، بل لأن لها قيمة بحد ذاتها، هذا إذا ما كان عليها أن تكون «دعوة». ومع ذلك فإنه لا يمكن إيجاد برهان على هذا الافتراض المسبق. ولا يمكن كذلك البرهان أن العالم الذي تصفه هذه الافتراضات يستحق الوجود، أو إن كان له معنى، أو إن كان من معنى للوجود فيه. إنها لا تطرح على نفسها أسئلة كهذه. لنأخذ الآن مثلاً آخر، مثلاً نستعيده من تقنية عملية شديدة التطور كما هو الحال في الطب الحديث. وإذا ما عبرنا بشكل مبتذل عن «الافتراض المسبق» العام في المؤسسة الطبية نقول: إن من واجبها الحفاظ ببساطة على الحياة كما هي والتخفيف من الألم قدر الإمكان. ويقود هذا مجدداً إلى إشكالية أخرى. إذ إن الطبيب يستطيع بوسائله إبقاء المريض الذي يُحتضر

حياً، حتى لو كان هذا المريض يستعطفه للخلاص من الحياة، حتى وإن كان ذووه الذين صارت هذه الحياة دون قيمة بالنسبة إليهم والذين سيسعدون لتخلصه من آلامه، ولأن التكاليف اللازمة لإبقائه على قيد حياة لا معنى لها أو لم تعد تحتمل، فكيف إذا تعلق الأمر بمجنون فقير ـ حتى لو تمنَّى هؤلاء موته أو وجب عليهم تمنَّى ذلك، سواء كان بوعي منهم أو دون وعي أيضاً. وحدها الافتراضات المسبقة في الطب، ووحده القانون الجزائي، هما من يحولا بين الطبيب وتحقيق هذه الرغبة. إذ إن الطب لا يطرح على نفسه سؤال إذا ما كانت الحياة تستحق أن تعاش ومتى؟ إن كل العلوم الطبيعية تعطينا جواباً عن السؤال الآتي: ماذا يجب علينا أن نفعل **إذا** كنا نريد أن نسيطر **تقنياً** على الحياة؟ أم هل يجب علينا، أو نريد فعلاً السيطرة **تقنياً** على الحياة، وهل لذلك في نهاية الأمر معنى. إنها أسئلة تترك معلقة، أو تفترض بشكل مسبق خدمة لغاياتها. لنأخذ مثلاً اختصاصاً آخر مثل علم الفن. إن الجمالية (علم الجمال) يفترض مسبقاً وجود العمل الفني، ثم يحاول البحث عن الشروط التي تكمن في أساس العمل الفني. إلا أن الجمالية لا تطرح على نفسها سؤال ما إذا كانت مملكة الفن، ربما مملكة الروعة الشيطانية، هي مملكة من هذا العالم، ولذلك فهي مملكة تتوجه ضد الله، وتتوجه أيضاً ضد الأخوة الإنسانية، بفعل تجذرها العميق في الروح الأرستقراطية. لا يطرح علم الجمال على نفسه سؤال: هل **يجب** وجود أعمال فنية؟ أو لنأخذ مثال علم الحقوق الذي يقر ما هو المناسب تبعاً للقواعد المحددة عبر الفكر الحقوقي، والقائمة حكماً في جزء منها بموجب الضرورة المنطقية، وفي جزء آخر بموجب الرسيمات المعطاة اصطلاحياً: إنه علم يقرر بالنتيجة متى تكون قواعد حقوقية معينة ومناهج معينة ملزمة بموجب تأويلها ومتى يجب الاعتراف بها. ولا يجيب هذا العلم عن السؤال المتعلق بوجوب وجود الحقوق،

وإذا ما كان من اللازم تحديداً وضع هذه القواعد؟ إن جلَّ ما يستطيع هذا العلم إعلانه هو أننا إذا كنا نريد الوصول إلى نتيجة معينة، فإن القاعدة الحقوقية هذه وبموجب معايير فكرنا الحقوقي هي الطريق الأنسب لبلوغ هذه النتيجة. أو لنأخذ الآن مثال العلوم التاريخية. إنها تعلمنا فهم ظواهر الحاضرة السياسية والفنية والأدبية والاجتماعية في ظل شروط تكونها. لكنها لا تقدم بنفسها جواباً عن السؤال: هل كانت ظواهر الحضارة هذه تستحق الوجود، أو هل تستحقها؟ كما إنها لا تقدم جواباً عن السؤال الآخر: هل تستحق الجهد الذي يُبذل من أجل معرفتها؟ إنها تفترض مسبقاً أن ثمة مصلحة من خلال تحصيل هذه المعارف بالمشاركة مع جماعة «الناس المتمدنين». أما أن يكون الوضع بهذا الشكل، فهذا ما لا تستطيع العلوم أن تبرهنه «علمياً». وأما أن تفترض ذلك بشكل مسبق فلا يعني إطلاقاً البرهان بأنه فعلاً كذلك. وبالفعل، إن الواقع ليس بهذا الشكل أبداً.

لنتوقف الآن، وإن لمرة واحدة، عند فروع العلم الأكثر ألفة بالنسبة إلي، أي علم الاجتماع، والتاريخ، وعلم الاقتصاد، والعلوم السياسية، وكل أنواع فلسفة الحضارة، التي تتخذ من تأويل شتى أنواع المعارف السابقة موضوعاً لها. يقال، وأنا أذهب إلى هذا الرأي، لا يوجد مكان للسياسة في قاعات محاضرات الجامعة. إن هذا ليس مكانها حتى بالنسبة إلى الطلاب. فأنا، مثلاً، أتأسف فعلاً لحادث تعرض زميلي القديم ديتريش شيفر[39] (D. Schäfer) في

(39) كان ديتريش شيفر أثناء الحرب العالمية الأولى أحد المؤسسين القياديين للدعاية الألمانية الشاملة، ومن القائلين بأهداف عسكرية كافية، ومن المؤيدين لحرب الغواصات بشكل غير محدود. فلم يتردد في توظيف سمعته العلمية كأستاذ للتاريخ في جامعة برلين للمطالبة بتحقيق أهدافه السياسية. بين 1896 ـ 1903 كان شيفر أستاذاً في هايدلبرغ، حيث تولى فيبر عام 1897 كرسي الدراسات الاقتصادية والمالية في الجامعة نفسها.

برلين، من جانب الطلاب المسالمين الذين تحلقوا حول منصته محدثين جلبة، كما أتأسف في الوقت نفسه لاحتجاج طلاب غير مسالمين على الأستاذ فورستر (Foerster) الذي أنأى بنفسي عنه في آرائي وأفكاري في عدة نقاط[40]. علماً أن السياسة ليست عملاً يقوم به المدرسون، وتحديداً حين يتطرقون إلى السياسة من الناحية العلمية، وإن صح ذلك فهو من أقل الأشياء بالطبع. ذلك أن اتخاذ موقف سياسي ـ عملي، والتحليل السياسي العلمي للبنى ولمواقف الأحزاب أمران مختلفان كلياً. إذ إنه حين يُتحدث عن الديمقراطية في اجتماع شعبي عام، فإنه لا يمكن إخفاء الموقع الشخصي الذي يُتخذ، بل إن ضرورة اتخاذ موقف بطريقة واضحة من الأمور اللازمة التي تفرض نفسها كالقدر الملعون. والكلمات التي تستخدم ليست عند ذلك وسائل تحليل علمي، بل هي نداء سياسي من أجل اتخاذ موقف من مواقف الآخرين. إنها ليست سكة محراث تستخدم في التخفيف من حقل الفكر التأملي الواسع، بل هي سيوف تسلُّ على الخصوم[41]: باختصار

---

(40) مثل الفيلسوف وأستاذ التربية فريدريش فيلهلم فورستر وبشكل جذري الآراء المسالمة المستندة إلى حوافز مسيحية، وكان إبان الحرب العالمية الأولى من الخصوم البارزين لسياسة توسيع الحرب. وفي صيف 1917 استقبله قيصر النمسا، الأمر الذي عزز إمكانية القول بقرب إعلان صلح منفرد بين النمسا ـ المجر وألمانيا. واستقبلت الخطوات المتخذة في فيينا بحذر شديد في ألمانيا، ولاسيّما في منطقة بافاريا. وقد أدت كذلك للقيام بأعمال احتجاجية في أوساط الحركة الطالبية. وقد أورد فورستر أنه وبمناسبة معاودة محاضراته في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1917 في مبنى جامعة ميونيخ، تجمع قرابة 500 طالب «استقبلوني بضجيج يصم الآذان مستخدمين شتى الآلات الموسيقية»، انظر: Friedrich Wilhelm Foerster, *Erlebte Weltgeschichte 1869 - 1953: Memoiren* (Nürnberg: Glock und Lutz, 1953), S. 209 f.,

وبالتفصيل عن قضية فورستر يراجع التقرير المرفق بنشر «السياسة بوصفها حرفة» لاحقاً.

(41) جاء في **الكتاب المقدس**، «سفر أشعيا،» الإصحاح 2، الآية 4: «ويحكم بين الأمم ويقضي بين الشعوب الكثيرة، فيضربون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل».

إنها أدوات قتال. أما في المحاضرات وفي قاعات التدريس فإن استخدام الكلمات على هذا النحو يعتبر عيباً. ففي هذه القاعات وحين يُتحدث عن «الديمقراطية»، مثلاً، فإنها تبحث من كافة أشكالها، وتُحلّل من حيث وظيفتها، ويُفحص تأثير النتائج المترتبة عن هذا الشكل أو ذاك في علاقاته بالحياة، ثم تقارن هذه الأشكال بالأشكال الأخرى غير الديمقراطية في النظام السياسي، وكذلك يُدفع التحليل ما أمكن إلى اللحظة التي يصبح معها السامع قادراً بنفسه على إيجاد النقطة التي يستطيع انطلاقاً منها، وبموجب قناعاته ومثله الشخصية، اتخاذ الموقف المناسب. أما الأستاذ الحق فهو الذي يمتنع فعلاً عن اتخاذ موقف يُملى على مستمعيه وهو على كرسي محاضراته، سواء كان ذلك بشكل صريح أو كان إيحاء، ذلك أن الطريقة الأكثر بعداً عن المشروعية هي تلك التي تلزم «بترك الوقائع تتكلم».

لماذا يجب علينا فعلاً ألا نقوم بذلك؟ إني أتوقع أن يكون عدد من زملائي الذين أجلُّ من هذا الرأي الذي يقول بصعوبة المضي في إقرار هذا التحفظ الشخصي، وحتى لو أمكن ذلك فرضاً، فإنه من السخرية أن يُتحاشى[42]. ثم إنه لا يمكن لأحد البرهان علمياً ما يجب أن يكون عليه واجبه بوصفه أستاذاً أكاديمياً.

---

(42) ربما كانت هذه الآراء جزءاً من النقاش حول الأحكام القيمية بالشكل الذي وصل إليه النقاش عام 1905 حول السياسة الاشتراكية. إذ اصطدمت مطالب فيبر بوجوب الفصل بين التحليل العلمي والمواقف السياسية الاشتراكية بنقد شديد، وإن جزئياً، انظر: Dieter Lindenlaub, *Richtungskämpfe im Verein für Sozialpolitik. Wissenschaft und Sozialpolitik im Kaiserreich vornehmlich vom Beginn des «Neuen Kurses» bis zum Ausbruch des Ersten Weltkrieges (1890 - 1914)* (Wiesbaden: Franz Steiner, 1967), S. 433 - 443,

بلغ هذا النقاش الذروة في أثناء المؤتمر الذي عقدته جمعية الاجتماع السياسي في كانون الثاني/ يناير 1914.

فنحن لا نستطيع أن نطالبه إلا بالاستقامة الفكرية: أي أن ينظر في تحديد الوقائع، وتحديد الموضوعات الرياضية أو المنطقية، أو تحديد البنى الداخلية في القيم الثقافية والإجابة من الناحية الأخرى عن الأسئلة المتعلقة **بقيمة** الثقافة ومضامينها الداخلية، ومن ثم تحديد كيفية **السلوك** داخل الجماعة الثقافية وداخل التجمعات السياسية إذ يطرح هذا الأمر مشاكل غير متجانسة على الإطلاق. وإذا ما طُرح السؤال مجدداً، لماذا لا تُعالج هاتان السلسلتان من الأسئلة داخل قاعات التدريس، فإن جوابي عنها هو الآتي: إن موقع كل من النبي والديماغوجي ليس منابر الأستاذية في قاعات التدريس. لابدّ أن يقال للنبي، وكذلك للديماغوجي: «اذهب إلى الخارج إلى الشوارع، وتحدث إلى الناس علناً»[43]. وهذا يعني: اذهب حيث يكون النقد متاحاً. ففي قاعات التدريس، حيث يكون المحاضر جالساً قبالة سامعيه، فإن على هؤلاء الصمت، وعلى الأستاذ أن يتكلم. وأنا أعتبر هذا الموقف موقفاً لا يوحي بالمسؤولية، إذ يجب على الطلاب، من أجل تأمين مستقبلهم، متابعة دروس أستاذ ما، وأن لا يوجه الواحد منهم النقد له. كذلك فإنه ليس من حق أي أستاذ استغلال الظرف وصبغ الطلاب بمفاهيمه السياسية الشخصية بدلاً من القيام بالواجب الملقى عليه، وهو الإفادة من معارفه ومن خبراته العلمية. من الممكن بكل تأكيد أن يقوم بعض الأساتذة بعدم إخفاء ميولهم الشخصية بما فيه الكفاية. في هذه الحالة يعرّض الأستاذ نفسه للنقد القاسي الذي يشعر به في قرارة ضميره. إلا أن هذا الخطأ لا يبرهن شيئاً على الإطلاق، إذ إن أخطاء أخرى، تظل ممكنة، ومنها الأخطاء الفعلية

(43) انظر **الكتاب المقدس**، «سفر إرميا،» الإصحاح 2، الآية 2: «اذهب واصرخ عل مسامع أورشليم».

التي لا تقدم برهاناً ضد واجب البحث عن الحقيقة. وتحديداً من منطلق المصلحة العلمية الصرف، فأنا أرفض هذه الطريقة في التصرف. وأنا على استعداد كامل لأقدم البرهان استناداً مني إلى أعمال مؤرخينا، كما يأتي: في كل مرة يقوم بها رجل العلم بإقحام حكمه القيمي الشخصي، فإن كل فهم كامل للوقائع يصبح في حكم **المنتهي**. إلا أن ما أتقدم به يتجاوز الموضوع الذي نعالج في هذا المساء، ويتطلب منا مناقشات طويلة.

أريد فقط طرح السؤال الآتي: كيف يمكن أن نوصل مؤمناً كاثوليكياً من جهة أولى وأحد أتباع الماسونية من جهة أخرى، وفي درس من على منبر جامعي لتقديم تقويم موحد يتناول أشكال الدولة أو الكنائس أو أي شكل موحد بخصوص هذه الأمور! إنه أمر مستبعد كلياً. ومع ذلك، لابدّ للأستاذ الأكاديمي أن تكون لديه الرغبة، وأن يأخذ على عاتقه مشقة أن يكون مفيداً من خلال معارفه ومناهجه، بالنسبة إلى الفريق الأول وإلى الفريق الثاني كذلك. يمكنكم الاعتراض، ولكم الحق في ذلك والقول: إن الكاثوليكي المؤمن لن يقبل إطلاقاً الوقائع التي تتناول تاريخ أصول المسيحية بالشكل الذي يعرضها فيه أستاذ تحرر من فرضياتهم العقيدية المسبقة. هذا أكيد بالطبع! إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في ما يأتي: إن العلم دون ارتباط بفرضيات مسبقة، من حيث رفضه الخضوع لسلطة دينية، فهو لا يعرف واقعاً لا «عجائب» فيه ولا «وحي»، إذ إن الأخذ بذلك يعني خيانة «فرضياته المسبقة» والتنصل منها. أما المؤمن فهو يقول بالموقفين. وكل علم دون فرضيات مسبقة يفرض من جانبه **ليس أقل، وليس أكثر** أيضاً، من الاعتراف ببساطة بأنه إذا كان سير الأمور يجب أن يفسر دون تدخل أي من هذه العناصر فوق الطبيعية، التي يرفض التفسير التجريبي إسباغ أي طابع سببي عليها، فهي أمور لا

يمكن تفسيرها بشكل مغاير للمنهج الذي يحاول العلم جاهداً توضيحه. والمؤمن يستطيع القبول بذلك دون أن يكون مخلاً بإيمانه.

ولكن السؤال الذي يتجدد طرحه يتعلق بالإنجاز العلمي، أليس لهذا الإنجاز أي معنى بنظر من يقف موقفاً لامبالياً من هذه الوقائع، والذي لا يعلق أهمية إلا على اتخاذ المواقف العملية؟ مع ذلك، فأنا أعتقد أن العلم حتى في هذه الحالة ليس دون دلالة. وإليكم واحدة من هذه الدلالات. إذا كان الأستاذ قادراً على مساعدة طلابه، فإن من أولى مهامه تعليمهم الإقرار بوجود وقائع غير مريحة. وأعني بذلك الوقائع التي لا تتماشى والرأي الشخصي عند أحدهم: إن وقائع فائقة الإزعاج كهذه موجودة في كل رأي شخصي، فهي موجودة مثلاً حتى بالنسبة إلي شخصياً أيضاً. وأعتقد أن الأستاذ الأكاديمي الذي يلزم مستمعيه الاعتياد على أمور كهذه، فإنه يقوم بإنجاز عمل يتجاوز ما يعتبر عملاً فكرياً خالصاً. ولن أتردد في استعمال تعبير «العمل الأخلاقي» حتى لو بدا تعبير كهذا تعبيراً ودوداً في الإشارة إلى بديهة بابتذال كهذا.

لم أتحدث حتى الآن سوى عن الأسباب العملية التي تبرر رفض فرض القناعات الشخصية. لكن ثمة ما هو أبعد من ذلك. إن استحالة أن يجعل المرء نفسه مدافعاً عن قناعات عملية «بحجة تمثيله للعلم» هي استحالة ناتجة عن أسباب أكثر عمقاً مما أشرنا إليه ـ ناهيك بالحالة التي يتطرق فيها إلى نقاش الوسائل اللازمة للوصول إلى هدف محدد بشكل مسبق. لا معنى لهذا الموقف من حيث المبدأ. ذلك أن مختلف الأنظمة القيمية في العالم تتواجد في ما بينها في حالة صراع لا نهاية لها. فقد سبق للعجوز مِل (Mill) الذي لا تحتاج فلسفته هنا إلى مزيد من الإطراء من جانبنا، مع الاعتراف له بالحق في هذه النقطة، أن قال: إذا انطلق المرء من التجربة الخالصة فلابدّ له أن يقع في الشرك

والقول بتعدد الآلهة[44]. قد تبدو الصيغة متسرعة وقد توحي بمعنى مناقض. إلا أنها تنطوي على حقيقة بالغة. إذا كان ثمة شيء مما لا نعرفه اليوم وكان مقدساً، لا لأنه جميل وحسب، بل لأنه جميل بمقدار ما هو غير جميل أيضاً ـ ففي سفر أشعيا[45]، وفي الفصل الواحد والعشرين من المزامير[46]، تجدون شواهد على ما أقول ـ إن الشيء يمكن أن يكون جميلاً ليس رغم عدم كونه خيراً وحسب، بل لأنه غير خيِّر بالضبط، وهذا ما نعلمه مجدداً منذ أن ردده نيتشه[47]، وما نجده كذلك قبل ذلك في كتاب بودلير الشعري **أزهار الشر**[48].

---

(44) كما يستفاد من مقالة فيبر بعنوان: «Zwischen zwei Gesetzen,» in: *Die Frau,* 23 Jg., Heft 5 (1916), S. 277 - 279 (MWG I/15, S. 95 - 98),

وفي إشارة على هامش مخطوطه «السياسة بوصفها حرفة» يستند فيبر إلى جون ستيوارت مِل الذي كتب في مقالته بعنوان «Theismus» «إن الإيمان بالآلهة أقرب جداً إلى العقول الإنسانية من الإيمان بفاعل واحد ومدبر للطبيعة». إن تعدد ظواهر الطبيعة تقود إلى اعتبارها بمثابة نتيجة قوى غير متجانسة، بحيث تكون الواحدة مستقلة عن الأخرى. «وبما أنه ليس للشرك وتعدد الآلهة بحد ذاته أي منحى للتحول من نفسه طوعاً إلى التوحيد» فإن تحولاً كهذا بحاجة إلى عناية طويلة يتولاها الفكر العملي، انظر: John Stuart Mill, *Über Religion, Natur, Die Nützlichkeit der Religion, Theismus. Drei nachgelassene Essays.* (Berlin: Franz Duncker, 1875), S.111 f.

(45) انظر **الكتاب المقدس**، «سفر أشعيا،» الإصحاح 53، حيث يتحدث النبي أشعيا هنا أن المخلص بين البشر بوصفه «مزدرعاً ومتروكاً من الناس، رجلُ أوجاع عارفٌ بالألم».

(46) الأرجح أن الإشارة هي إلى المزمور 22 الذي رأى فيه أصحاب الأناجيل وصفاً سابقاً لأحداث الآلام. وفيه يشتكي المخلص من «سخرية الناس وقلة احترام الشعب».

(47) الإشارة هنا تتناول كل أعمال نيتشه الذي اعتبر المماهاة بين الحق والخير والجمال مغالطة ورياء، انظر: Nietzsche, *Werke,* II. Abt., Band 14, 1904, Nr. 244, S. 115.

(48) انظر: Charles Baudelaire, *Les fleurs du mal* (Paris: Poulet - Malassis, 1857),

«إن الإثارة التي تطلقها هذه الأشعار تستند، كما يقول بودلير نفسه، إلى أن الوعي الشاعري الذي كان بالنسبة إلى القارئ منبعاً لا ينضب من الغبطة... قد تحول الآن إلى ترسانة من أدوات التعذيب»، انظر: Hugo Friedrich, *Die Struktur der modernen Lyrik,* 5. Aufl. (Hamburg: Rowohlt, 1973), S. 45.

وأخيراً نعلم من الحكمة اليومية أن الشيء يمكن أن يكون حقيقياً، مع كونه، بل ولعدم كونه غير جميل وغير مقدس وغير خيِّر أيضاً. إلا أن هذه ليست إلا الحالات الأكثر أولية في هذا الصراع الذي تخوضه آلية مختلف الأنظمة والقيم في ما بينها. ولا أدري كيف على المرء أن يتصرف ليقرر «بشكل علمي» في مسألة **القيمة** في الثقافة الفرنسية أو الثقافة الألمانية. إننا نشهد هنا صراعاً بين الآلهة المتنوعة، بل صراعاً يمتد إلى الأبد أيضاً. لا يختلف الأمر عما كان يجري في العصور القديمة، في العالم الذي لم يكن قد تخلص من سحر الآلهة والشياطين، وإن بمعنى آخر مختلف. إذ إنه كما كان الإغريق يقدمون القرابين أول الأمر إلى أفروديت، ومن ثم إلى أبولو، وبعدها إلى كل إله من آلهة المدينة، فهكذا نفعل نحن اليوم رغم أن سلوكنا قد تخلص من السحر وتعرى من الأسطورة مع أنها مازالت تعيش في دواخلنا. والقدر هو الذي يسيطر على هذه الآلهة ويدير معركتها، وليس «العلم» بكل تأكيد. وكل ما يقدَّر لنا أن نفهمه هو ما يعنيه «الإلهي» لمجتمع معين، أو ما يعتبره هذا أو ذاك المجتمع إلهياً. تلك هي بالذات حدود النقاش التي تتاح لأستاذ في قاعة تدريس أن يعالج فيها الأمور، ما لا يعني بالطبع أنه وجد في ذلك حلاً **لمسألة** الحياة الضخمة التي تنطوي عليها هذه الأسئلة. لكن ثمة قوى أخرى، غير تلك المرتبطة بالمنابر الجامعية لها كلمتها في هذا الشأن. من هو الرجل الذي يجد نفسه قادراً على دحض أخلاقية الموعظة على الجبل، وما جاء فيها من قول كهذا «لا تقاوموا الشر»[49] أو المثال الذي نعرفه عن لطم الخدين[50]، بشكل عملي؟ ومع ذلك، فمن الواضح بكل جلاء من وجهة نظر

(49) انظر **الكتاب المقدس**، «إنجيل متى،» الإصحاح 5، الآية 39، «أما أنا فأقول لكم، لا تقاوموا الشرير».

(50) المصدر نفسه، «... بل من لطمك على خدك الأيمن فاعرِض له الآخر».

إنسانية صرف أن الأخلاقية التي يبشر بها هنا أخلاقية مناقضة للكرامة. إن على المرء أن يختار بين الكرامة الدينية التي تتمثل في هذه الأخلاق وكرامة رجل يبشر بشيء آخر مختلفٍ كلياً: «قاوم الشر ـ وإلا ستكون أنت المسؤول عن انتصاره». أياً كانت القناعة العميقة لكل فرد، فإن إحدى هاتين الأخلاقيتين هي أخلاقية الشيطان والأخرى أخلاقية الله، وعلى الفرد أن يختار أيهما تمثل الله بالنسبة إليه وأيهما تمثل الشيطان. وهذا ما يسري أيضاً على كل أنظمة الحياة. إذ إن العقلانية الجليلة الماثلة في السلوك الحياتي الأخلاقي ـ المنهجي، والتي تجلت في كل نبوءة دينية قد أسقطت القول بتعدد الآلهة لصالح «الواحد»، الذي نحتاج إليه[51]. إلا أن هذه العقلانية سرعان ما وجدت نفسها، وإزاء حقائق الحياة الداخلية والخارجية، مضطرة إلى الأخذ بمواقف توفيقية ونسبية، وهذا ما نعرفه جميعاً بالعودة إلى تاريخ المسيحية. إلا أن الدين قد صار الآن «روتيناً» يومياً، والآلهة القدامى الكثر خرجت من قبورها بعد أن فُكّ السحر عنها، وبعد أن اتخذت شكل قوى غير مشخصنة، جاهدة لاستعادة السلطة على حياتنا، ومستأنفة صراعها الأبدي في ما بينها من جديد. إلا أن أشد ما يؤلم الإنسان الحديث، ولاسيما ما يعاني منه الإنسان الحديث بشكل خاص هو كيف له أن يكون على مستوى ما يعاني من «روتين» الحياة اليومية، فكل بحث عن «خبرة» يجد مصدره في هذا الضعف. الضعف هو تحديداً عدم التمكن من التصدي وجهاً لوجه لقدر الزمن المحتوم.

هذا هو قدر حضارتنا. لابدّ أن نعي مجدداً وبوضوح كل ما أشرنا إليه، بعد أن نجح التوجه الحصري المزعوم باعتبار حياتنا تابعة لانفعال الأخلاقية المسيحية العظيم في استبعادها على مر ألف سنة.

(51) انظر **الكتاب المقدس**، «إنجيل لوقا،» الإصحاح 10، الآية 42، «مع أن الحاجة إلى أمر واحد».

لكن كفانا الحديث عن هذا الموضوع الذي قد يجرنا إلى مسائل أبعد من ذلك. ذلك أن الخطأ الذي يقترفه قسم من شبابنا إذ يجيب عن ما طرحناه من أسئلة بالقول: «أجل، وليكن، لكننا إذا كنا نواظب على حضور الدروس فلكي نختبر شيئاً آخر غير التحليلات وتعينات الوقائع». إن الخطأ الذي يرتكب هنا هو أنكم تفتشون عند الأستاذ عن شيء آخر غير المعلِّم الماثل أمامكم. إنكم تفتشون عن **قائد** وليس عن **معلِّم**. والحال أننا لا نشغل كرسي دراسات إلا لأننا **أساتذة**. إنهما أمران مختلفان. ومن السهولة الاقتناع بضرورة هذا التمييز. اسمحوا لي أن أقودكم مرة أخرى إلى أميركا حيث نستطيع هناك الوقوف على عدد من الأمور بشكلها الأصلي الكثيف. إذ إن الأميركي الشاب يتعلم أشياء أقل بكثير مما يتعلمه الشاب الألماني، فهو رغم الامتحانات التي لا تصدق، والتي يجريها، لم يتحول إلى مجرد إنسان امتحانات كما هو الحال عند الطالب الألماني بالفعل. إن البيروقراطية التي تجعل من امتحان الدبلوم شرطاً مسبقاً، أو بطاقة دخول إلى مملكة الوظائف المأجورة، مازالت في بداياتها هناك، فالشاب الأميركي ليس عليه أن يحترم شيئاً ولا أحداً ولا تقليداً ولا وظيفة معينة، غير أن عليه أن ينحني أمام إنجاز شخص ما. وهذا ما يطلق عليه الأميركيون اسم «الديمقراطية». ومهما بدت حقيقة مضمون هذا المعنى عرضة للتشويه حين يقارن بالمعنى الصحيح لكلمة ديمقراطية، فإن هذا هو المعنى الذي يعطي لها، وهذا ما يهمنا هنا الآن. إن الأستاذ الذي يقف أمامه، والذي يكون صورة بسيطة عنه، هو من يبيعني معارفه ومناهجه بالمال الذي يعطيني إياه والدي، تماماً كما تبيع بائعة الخضار والدتي الملفوف. ولا شيء آخر غير ذلك. أما إذا كان الأستاذ بطلاً في كرة القدم، مثلاً، فلن يتردد باعتباره قائداً له في هذا المجال. أما إذا لم يكن بطلاً (أو لم يكن شيئاً مشابهاً في رياضة أخرى) فهو لن يكون إلا أستاذاً، ولا شيء

أكثر من ذلك، ولن يخطر أبداً في بال أي أميركي شاب أن أستاذه يستطيع كذلك بيعه «تصورات عن العالم»، أو قواعد يستخدمها في سلوكه في الحياة. وبالطبع فنحن نرفض دون شك مفهوماً صيغ بهذه الطريقة. ومع ذلك، فلنا أن نتساءل في ما إذا كانت هذه النظرة التي قمت عمداً بتضخيمها إلى الحد الأقصى، لا تنطوي على ذرة من الحقيقة.

الطلبة والطالبات الأعزاء! أنتم تأتون إلى محاضرتنا، وتتطلعون أن نكون أصحاب صفات قيادية، ولا تسألون أنفسكم مسبقاً أن كل تسعة وتسعين أستاذاً من أصل مئة أستاذ لا يدعون صفة بطل كرة قدم في الحياة، ولا صفة «زعيم» إطلاقاً في ما له علاقة بشؤون تسيير الأمور الحياتية، ويجب أن لا يكون لهم ذلك في كل الأحوال. واعلموا كذلك أن قيمة الإنسان لا ترتبط بتوفره على صفات قيادية. وفي كل الأحوال، فإن الصفات التي تجعل من أحدهم عالماً ممتازاً أو أستاذاً أكاديمياً، هي التي تجعل منه قائداً في مجال تنظيم الحياة العملية أو في مجال السياسي. وقد يعود للصدفة وحدها، أن نجد أحدهم بهذه الصفات. وأشك في أن نجد أحداً يشغل منصباً جامعياً لا يشعر بإغراء التحول إلى السياسة، بل والأكثر إثارة للشك كذلك أن يُترك لكل أستاذ أكاديمي أداء هذا الدور على مدرجات قاعات التدريس. إن الذين يعتبرون، بإرادتهم، أنفسهم قادة هم في أغلب الأحيان الأقل تأهلاً لهذه الوظيفة. في كل الأحوال لا تعتبر كرسي الأستاذية مكاناً يوفر إمكانية التأهل لأهلية كهذه. والأستاذ الذي يشعر أنه مدعو لإسداء النصيحة للشبيبة، والذي يتمتع بثقتها، عليه أن يقوم بهذا الدور من خلال علاقة شخصية مباشرة بين إنسان وإنسان آخر. وإذا ما شعر أيضاً أن عليه المشاركة في صراعات المفاهيم المرتبطة بالعالم أو بآراء الأحزاب، فإن الأجدر به القيام بذلك خارج قاعات المحاضرات، وفي ساحات الحياة، وفي

الصحافة، وفي الاجتماعات العامة، وفي الجمعيات، أو حيث يشاء ويرغب. وبالفعل فليس من اللائق جداً أن يظهر شجاعة المعترف بانتمائه في مكان يجد فيه الحضور، بل وربما المعارضون أنفسهم أيضاً محكومون بالتزام الصمت.

وأخيراً ستبادرون إلى القول: إذا كان الأمر هكذا فعلاً، فبماذا يسهم العلم إيجاباً في «الحياة» العملية والشخصية؟ وبذلك نعود مجدداً إلى مسألة «الحرفة/ الدعوة» الخاصة بالعلم. وبالطبع يقدم لنا أولاً معارف حول التقنية التي نسيطر بها على الحياة من خلال التكهن المسبق، إن في ما يتعلق بالأشياء الخارجية أو بالسلوك البشري. قد تقولون الآن إن ذلك ليس شيئاً آخر سوى بائعة خضار الشاب الأميركي. وأنا أوافقكم الرأي. أما من الناحية الثانية، فإن ذلك يقدم شيئاً لا تستطيع بائعة الخضار أن تقدمه إلينا بالتأكيد، أي أدوات فكر، أدوات وطرق انضباط. قد تبادرون إلى القول مجدداً حسناً، هذا ليس خضاراً، بل إنه ليس أكثر من وسيلة للحصول على الخضار. حسناً، وبالانتظار لنقبل بما توصلنا إليه. إلا أن إنجاز العلم لم يبلغ لحسن الحظ نهايته، بل إننا مازلنا في وضع نستطيع معه مساعدتكم للوصول إلى أمر ثالث، أي إلى الوضوح، شرط أن يكون لدينا هذا الوضوح بالطبع. وإذا سارت الأمور على هذا المنوال فبإمكاني أن أشير إليكم بوضوح أنه في حالة التصدي لمسألة القيمة التي تكون مجال نقاش، فبالإمكان عملياً اتخاذ هذا الموقف أو ذاك. وأتمنى عليكم من أجل التبسيط أخذ أمثلة من المواقف الاجتماعية التي علينا مواجهتها. علينا حين نتبنى هذا الموقف أو غيره، وتبعاً للخبرات العلمية، أن نطبق هذه الوسيلة أو تلك حتى نصل بالمشروع إلى غاية حسنة. قد يحصل الآن أن تكون هذه الوسائل بحد ذاتها وسائل نعتقد أن من الواجب علينا رفضها. إذ لابدّ للمرء أن يختار بين الغاية والوسائل اللازمة لتحقيقها. هل «تبرر» الغاية الوسيلة أم لا؟

بإمكان الأستاذ فقط أن يعرض أمامكم ضرورة هذا الاختيار، ولا يسعه القيام بأكثر من ذلك، هذا طالما أراد أن يظل أستاذاً، لا أن يتحول إلى ديماغوجي. بإمكانه بعد ذلك أن يقول لكم بالطبع: إذا أردتم تحقيق هذه الغاية أو تلك، فعليكم كذلك تحمل النتائج الجانبية التي تنجم عنها، وهذا ما نعلمه من خلال الخبرة. ومجدداً نجد أنفسنا في الوضع نفسه. في هذه الأثناء تبرز كذلك المسائل نفسها التي يمكن أن تعترض أي تقني عليه في عدة حالات أن يقرر في نهاية الأمر بموجب مبدأ تحقيق أقل ضرر ممكن، أو بموجب المبدأ الأفضل نسبياً. هذا هو الأمر الأول بالنسبة إليه، إذ إن الأهم عنده هو الهدف. أما إذا تعلق الأمر بمسائل أساسية، فإن الهدف لا يكون أساسياً بالنسبة إلينا. وبذلك نصل إلى الإسهام الأخير، إسهام العمل الأقصى في خدمة الوضوح، إلى حدود هذا الإنجاز الأقصى. بإمكاننا، بل علينا أن نقول لكم بعد ذلك: إن اتخاذ هذا الموقف العملي أو ذاك يمكن أن يكون إذا ما اتُخذ كنتيجة داخلية لمعناه من هذه النظرة أو تلك إلى العالم. يمكن أن تكون وجهة النظر إلى العالم واحدة كما يمكن تكوين عدة وجهات نظر عنه، لكن لا يمكن أن تكون هذه وتلك. إنكم تخدمون، إذا ما استخدمنا لغة مجازية، هذه الإله وتهينون كل إله آخر إذا ما قررتم اتخاذ هذا الموقف. إذ ستصلون في نهاية الأمر، بالضرورة، إلى تبني هذه النتيجة الداخلية ذات المغزى أو تلك. هذا إذا بقيتم منسجمين مع أنفسكم. وهذا أمر يمكن تحقيقه من حيث المبدأ. إذ إن الفلسفة والاختصاصات الأخرى التي تحاول إيضاح الجوهر بموجب مبادىء أخرى تسعى إلى تحقيق ذلك أيضاً. بإمكاننا، إذا ما تسنى لنا فهم موضوعنا (وهذا ما يفترض تحققه في هذا المقام) أن نلزم الفرد، أو أن نعمد إلى مساعدته على الأقل، على فهم المعنى النهائي لسلوكه أو لفعله الخاص. وهذا، كما يبدو لي، ليس بالأمر الهين، حتى بالنسبة إلى الحياة الشخصية

الخالصة. وأنا أذهب إلى حد القول إنه إذا تسنى لأستاذ ما تحقيق ذلك، فهو سيكون في خدمة «قوى أخلاقية»، أي إنه يخلق في الآخرين الإحساس بالواجب والوضوح وروح المسؤولية. وأعتقد كذلك أنه سيكون من السهل عليه إنجاز هذه المهمة إذا ما تفادى إملاء مواقف على مستمعيه أو الإيحاء لهم بها.

تستند الفرضية التي أقوم لتوي بعرضها أمامكم إلى الشرط الأساسي الآتي: إن الحياة بمقدار ما تجد معناها في نفسها، بمقدار ما تفهم انطلاقاً من ذاتها، فهي لا تعرف سوى الصراع الأبدي الذي يدور بين الآلهة. ولتفادي اللغة المجازية أقول إنها لا تعرف سوى التناقض المطلق بين وجهات النظر الممكنة، واستحالة تنظيم الخلافات بينها، ما يوجب ضرورة الاختيار بين وجهة النظر هذه أو تلك. أما إذا كان على المرء أن يعرف إذا ما كان عليه، في ظل هذه الشروط، أن يتخذ من العلم «حرفة»، أو إذا كان العلم في حد ذاته «دعوة» ذات قيمة موضوعية، فذلك مما يدخل في مجال الحكم القيمي، الأمر الذي يسمح لنا بالكلام عنه في قاعة جامعية. إذ إن الجواب بالإيجاب عن ذلك يعتبر في الواقع شرطاً لممارسة التعليم. أما أنا شخصياً، فإن ردي الإيجابي على هذا السؤال يكون من خلال ما أقوم به من عمل خاص. ينطبق ذلك أيضاً، بل وبشكل خاص، على وجهة النظر المعادية للنزعة التعقلية التي ترى، على طريقة الشبيبة الحديثة أو تتخيل في أغلب الأحيان أنها ترى، الشيطان الأكثر سوءاً متمثلاً فيها. لقد بات علينا الآن أن نذكر الشبيبة بالحكمة الآتية: «لا تنسوا بأن الشيطان قد أصبح عجوزاً، وعلى الواحد منكم أيضاً أن يصبح عجوزاً حتى يستطيع فهمه»[52]. لا يعني ذلك أن على

(52) Goethe, *Faust*, Teil 2, Vers 6817/18.

المرء أن يبرز وثيقة ميلاده لإثبات ذلك، بل بالمعنى الآتي: إذا أردت أن تتغلب على هذا الشيطان، فيجب عليك أن لا تتعمد الهرب منه، كما يحدث غالباً في أيامنا هذه، بل يجب عليك أن تنظر بعمق في طرقه لتعرف مدى قوته ومدى حدود هذه القوة.

لقد بات العلم في أيامنا هذه «حرفة» تقوم على **الاختصاص**، وهي دعوة تخدم قيام وعي ذاتي ومعرفة بالعلاقات الموضوعية، وليست نعمة أو وحياً تلقاها راءٍ أو نبي بهدف تحقيق الخلاص، ولا هي جزء مكون لتفكير الحكماء، أو الفلاسفة عن معنى العالم، ما يشكل بالطبع معطيات لا مجال لفصلها عن وضعنا التاريخي الذي لا مجال لنا للخروج عنه إذا ما أردنا أن نظل أوفياء لأنفسنا، والآن إذا ما بُعث تولستوي فيكم مجدداً وسأل: «من يجيب عن أسئلة لا يجيب عنها العلم مثل: ماذا يجب علينا أن نفعل؟ وكيف علينا أن نعمد إلى تنظيم حياتنا؟»[53]، أو إذا أردنا التعبير باللغة التي استخدمناها هذا المساء: «علينا خدمة من مِن هؤلاء الآلهة المتخاصمين؟ قد يجب علينا خدمة آلهة أُخر غيرهم، ومن سيكون هذا الإله؟» - سأقول لكم آنذاك: وحده نبي أو مخلص يمكنه إعطاء جواب عن هذا السؤال. وإذا لم يكن هذا المخلص موجوداً، أو إذا لم يعد الإيمان برسالته موجوداً، فكونوا على يقين أنكم لن تنجحوا في جعله يهبط إلى الأرض، فذلك أنه وبكل بساطة ثمة آلاف من الأساتذة قد تحولوا إلى أنبياء صغار متميزين ومأجورين من قبل الدولة، وهم يحاولون أداء دوره في قاعات محاضراتهم. لن تنجحوا بهذه الطريقة سوى في أمر واحد، هو حرمان الجيل الجديد من إدراك هذا الأمر الحاسم، أي إن النبي الذي يشتاق إليه الكثيرون من

(53) انظر أعلاه الهامش رقم 37 من هذا الفصل.

أبناء الجيل الشاب، غير موجود، بل إنكم تمنعونهم من إدراك معنى هذا الغياب. وأنا على يقين كلي، أننا لا نقدم خدمة لفرد «يطرب»[54] للدين حين تخفى عنه، أو عن آخرين كذلك هذه الواقعة الأساسية، وهي أن قدره أن يعيش في زمن لا إله فيه ولا أنبياء. ولا تعويض عن ذلك إلا ما تقدمه بعض النبوءات الصادرة عن المنابر الجامعية. يخيل إلي أن على المؤمن في صفاء عقيدته الدينية أن يتمرد على خديعة كهذه. والآن، قد يخطر في بالكم طرح سؤال كالآتي: ما هو الموقف الذي يجب على المرء اتخاذه من واقعة وجود «لاهوت» يزعم أنه تحول إلى علم؟ لن نعمد إلى الالتفاف حول الجواب. صحيح أن «اللاهوت» و«العقائد» غير موجودة في كل مكان، ولكن من المؤكد أننا نجدها في مكان آخر غير الديانة المسيحية. وهكذا (إذا عدنا بالتاريخ إلى الوراء) سنجد أن اللاهوت تطور بشكل كبير أيضاً في الإسلام، والمانوية، والغنوصية، والأورفية، والمجوسية، والبوذية، ولدى الطوائف الهندوسية والطاوية، والأوبانيشاد، وبالطبع في اليهودية كذلك. مما لا شك فيه أن اللاهوت تطور داخل هذه الأديان نسقياً بأقدار مختلفة. وليس من باب الصدفة مثلاً أن تكون المسيحية الغربية قد استطاعت، خلافاً لما نجده في اليهودية من لاهوت، أو حاولت على الأقل أن تبني علم لاهوت أكثر نسقية، بل هي التي منحت هذا التطور معنى تاريخياً يعتبر الأكثر أهمية. يعود الفضل في ذلك إلى أثر الروح الهيلليني، إذ ينطلق كل لاهوت الغرب من هذه الروحية، كما إن كل لاهوت الشرق (على ما يبدو) ينبع من الفكر الهندي. إن كل لاهوت هو عقلنة فكرية للوحي الديني. سبق وقلنا إنه لا وجود لعلم

(54) يستخدم فيبر مفهوم: «ديني ـ موسيقي» بمعنى القدرة على الإيمان الديني. وهذا ما يتضح في رسالته إلى فرديناند تونيس في 19 شباط/ فبراير 1909 ـ وفيها يشير بنفسه إلى التدين بوصفه من الناحية الدينية المطلقة أمراً لاموسيقياً.

يتجرد تماماً من فرضيات مسبقة، كما إنه ليس باستطاعة أي علم يرفض فرضيات مسبقة كهذه أن يؤسس لقيمته الخاصة. وإن ما لا شك فيه أن كل لاهوت يضيف من أجل حسن سير عمله، وبالتالي لتبرير وجوده الخاص، بعض الفرضيات المسبقة النوعية، وبالطبع بمعنى وبمدى مختلفين. وكل لاهوت، بما في ذلك اللاهوت الهندوسي، يتقبل مثلاً الفرضية المسبقة القائلة بوجوب وجود معنى للعالم، لكن السؤال الذي يطرح يتعلق بكيفية تأويل هذا المعنى حتى يصبح التفكير به ممكناً؟ يشبه الأمر ما قام به كَنْت في نظرية المعرفة إذ انطلق من الفرضية المسبقة الآتية: إن الحقيقة العلمية موجودة وصحيحة، ومن ثم سأل كَنْت: ما هي شروط التفكير التي تجعلها ممكنة[55]؟ أو كما هو الحال مع علماء الجمال الحديثين (وبشكل مباشر أمثال جورج لوكاش) الذين ينطلقون من مسلمة مسبقة هي الآتية: «العمل الفني موجود». ثم يطرحون السؤال الآتي: كيف يمكن ذلك؟[56]. وإن ما لا شك فيه أن

---

(55) انظر تمهيد كَنْت للطبعة الثانية من **نقد العقل المحض** طبعة العام 1787،
Immanuel Kant, *Kritik der reinen Vernunft,* hg. von Karl Vorländer (Halle/ S.: Otto Hendel, [1899]), S. 15 - 39.

(56) قدم لوكاش عام 1912 إلى هايدلبرغ وسرعان ما تواصل مع ماكس فيبر. وقد فكر لوكاش في تقديم شهادة التأهّل في هايدلبرغ. وشرع في العمل على علم الجمال النسقي، وقد رافقه فيبر، حسب ما روى، في عمله باهتمام نقدي. انطلق لوكاش في مقدمته حول علم الجمال من السؤال الآتي: «ثمة أعمال فنية موجودة، ما الذي يجعلها ممكنة». رحب فيبر بهذه الواقعة وكتب إلى لوكاش معتبراً أنه «العمل جديد» أن يعالج المرء علم الجمال من وجهة نظر الخالق له، بعد أن تمت معالجته من جانب المتلقي. وقد ذكرنا لوكاش أنه، إلى جانب الرسائل المتبادلة، ناقش هذه المسألة شفهياً مع فيبر. وقد قال إن كَنْت يعتبر الحكم الجمالي جوهر الجماليات. أما برأيه (رأي لوكاش) فإن الحكم الجمالي لا أولية له، بل إن الأولية هي للوجود. ثمة أعمال فنية موجودة كيف يكون ذلك ممكناً؟ طرحت هذا السؤال على فيبر. وقد ترك سؤالي انطباعاً قوياً لديه، انظر: المخطوطات التي أودعها لوكاش لدى ماكس فيبر، والتي شكلت كتابه لاحقاً: «Heidelberger Philosophie der Kunst (1912 -1914)», =

علوم اللاهوت (ولاسيما ذات التوجه الديني الفلسفي) لا تكتفي كقاعدة عامة بهذه الفرضية المسبقة، بل تنطلق من شروط مسبقة أخرى إضافية، وتحديداً من وجوب الانطلاق من الإيمان ببعض «التجليات» كوقائع لابدّ منها لخلاص النفس - إنها الوقائع التي تجعل السلوك في الحياة سلوكاً ممكناً وذا معنى - إضافة إلى الاعتقاد ببعض السلوكات والحالات التي تتسم بصفة القداسة: أي التي تشكل سلوكاً يمكن أن يفهم من الناحية الدينية أو من بعض عناصره الأساسية. إلا أن اللاهوت سيجد نفسه مجدداً أمام السؤال الآتي: كيف يمكن لنا في علاقتنا مع التصور الشامل للعالم فهم هذه الافتراضات المسبقة التي لا يسع المرء إلا الأخذ بها. إنها تجيبنا أنها لا تشكل «معرفة» بالمعنى العادي للكلمة «بل امتلاكاً»، بمعنى أنه لا يمكن لأي لاهوت أن يحل مكان الإيمان أو مكان أي عنصر آخر من عناصر القداسة عند من لا «يمتلكها» أصلاً. بمعنى آخر لا وجود لعلم يستطيع القيام بذلك، بل على العكس، يتوصل المؤمن بالضرورة في كل «علم لاهوت إيجابي»[57]، في لحظة معينة إلى نقطة لا يستطيع فيها سوى تطبيق الحكمة التي قال بها القديس أوغسطين: «إنني لا أؤمن أنه عبثي، بل أؤمن لأنه عبثي» (Credo non

---

= وقد نشرت هذه لاحقاً تحت العنوان الآتي: *Heidelberger Ästhetik (1916 - 1918)*, Hg. von György Márkus und Frank Benseler,

انظر أيضاً: Georg Lukács, *Gelebtes Denken. Eine Autobiographie im Dialog* (Frankfurt a. M.: Suhrkamp, 1981), S. 58 f.

(57) المقصود بذلك اللاهوت الذي يستند إلى وحي تاريخي، انظر مقالة: «Theologie,» in: *Die Religion in Geschichte und Gegenwart*, hg. von Friedrich Michael Schiele und Leopold Zscharnack (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1913), Band 5, S. 1197 ff.,

انظر: «Modern - Positiv,» in: *Die Religion in Geschichte und Gegenwart*, Band 4, S. 418 ff.

quod, sed quia absurdum est)[58] والقدرة على تحقيق هذا الإنجاز الفائق الذي يتمثل «بالتضحية بالعقل»[59]، هو العلم الحاسم عند كل مؤمن يمارس إيمانه. وإذا كان الأمر هكذا، فإننا نقول إنه رغم وجود اللاهوت (بل وربما بسببه) فإن ثمة توتر يصعب التغلب عليه بين المجال القيمي الخاص بالعلم والخلاص الديني.

وحده المريد هو من يقوم «بالتضحية بعقله» بشكل مقبول لمصلحة النبي، تماماً كما يقوم بذلك المؤمن لمصلحة الكنيسة. إلا أنه لم يُر إلى الآن ولادة نبوءة جديدة (أكرر هنا وبشكل متعمد استخدام الصورة التي قد تصدم بعضكم)، حيث إن بعض المثقفين الجدد يعانون من الحاجة إلى إعادة تزيين أنفسهم بأشياء قديمة أصيلة

---

(58) الصيغة التي تتناقلها الأدبيات المعاصرة «إني لا أؤمن أنه عبثي» والتي تنسب إلى القديس أوغسطين، ربما كانت على الأرجح من وضع ترتوليان. «De Carne Christi» حيث ورد ما يأتي: «Et mortuus est Dei Filius; prorsus credibile, quia ineptum est»,

لتفسير هذا المقطع قابل مع: Wilhelm Windelband, *Lehrbuch der Geschichte der Philosophie*, 4. Aufl. (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1907), S. 187,

«الإنجيل ليس غير مفهوم وحسب، بل في تناقض ضروري مع وجهة النظر الدنيوية» «credibile est, quia ineptum est, certum est, quia impossibile est - credo quia absurdum»,

الجملة الأخيرة من هذا المقطع اللاتيني هي ما استشهد به فيبر. وقد وضع فيبر بخط اليد خطاً أسود تحت هذه الجملة في الكتاب الذي كان يملكه، والموجود إلى الآن في أرشيف فيبر في ميونيخ.

(59) غالباً ما يُستخدم مفهوم «التضحية بالعقل» للتعبير عن التنازل عن قناعة خاصة نتيجة ما لرأي آخر من قوة. وقد أعلن ذلك في المجمع الفاتيكاني عام 1869/ 1870 انطلاقاً من «عقيدة العصمة البابوية»، وربما تعود هذه الآراء إلى الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس حيث ورد ما يأتي: «ونهدم الاستدلالات، وكل كبرياء تحول دون معرفة الله، ونأسر كل ذهن لنهديه إلى طاعة المسيح»، انظر **الكتاب المقدس**، «الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس،» الإصحاح 10، الآية 5.

ومضمونة إذا جاز القول[60]، وحيث يتذكرون أن عليهم إضافة الدين الذي لم يمارسوه لأنه يشكل جزءاً من هذا الركام. بذلك يجعلون مكان الدين مادة بديلة يزينون بها أنفسهم كما تزين بذلك كنيسة صغيرة بكل مستلزمات العبادة المجموعة من كل أطراف العالم. أو إنهم يخلقون لأنفسهم بديلاً من كل أنواع التجربة المعاشة التي يسبغون عليها كرامة القداسة الصوفية والترويج لها بعد ذلك في سوق الكتب[61]. إن الأمر غاية في السهولة، فكله دجل وخداع نفس. إلا أن ثمة ظاهرة أخرى لا دجل فيها، بل تقوم خلافاً لذلك على أمور جدية وصادقة، مع أننا نقوم أحياناً بتفسير دلالتها بشكل خاطئ. ألمح

---

(60) سبق لفيبر أن كتب في مقدمته «الأخلاق الاقتصادية للديانات العالمية»، انظر: (*AfSS*, Band 41, S. 14),

«أن المثقفين الجدد يشعرون بالحاجة، إلى جانب كل المشاعر الأخرى، إلى عيش اختبار الحالة الدينية. وذلك لوجوب إعادة تزيين أنفسهم بأشياء قديمة أصيلة ومضمونة».

(61) إشارة إلى دار النشر الذي نشر نصوصاً من التصوف المحدث إيوجين ديدريش الذي استخدم نقد العقلانية الجديدة حجة. حول ذلك انظر: Gangolf Hübinger, «Kulturkritik und Kulturpolitik des Eugen - Diederichs - Verlags im Wilhelminismus. Auswege aus der Krise der Moderne?,» in: *Troeltsch - Studien*, Band 4: *Umstrittene Moderne. Die Zukunft der Neuzeit im Urteil der Epoche Ernst Troeltschs*, hg. von Horst Renz und Friedrich Wilhelm Graf. (Gütersloh: Gerd Mohn, 1987), S. 92 - 114.

إن كلمة فيبر بشأن «الكنيسة الصغرى ـ الكنيسة البيت حرفياً»، ربما كانت إشارة إلى ما قام به ديدريش في معرض الكتاب العالمي في لايبزغ عام 1914، حيث أقام في المكان الذي يعرض فيه ما يشبه كنيسة بيت صغيرة في جناحه. هذا وقد وجه فيبر نقداً عنيفاً لتوجهات ديدريش. ولم يتورع عن ذلك حتى في المؤتمر الثقافي الذي عقد في لونشتاين بدعوة من ديدريش، الذي شارك فيه فيبر عام 1917 (انظر التقرير الخاص بهذه النشرة أعلاه)، حيث وصف ذلك باعتباره «معرضاً لمحبي الفرجة». حول النقد الموجه لديدريش، انظر أيضاً: Erich Viehöfer, *Der Verleger als Organisator. Eugen Diederichs und die bürgerlichen Reformbewegungen der Jahrhundertwende* (Frankfurt a. M.: Buchhändler - Vereinigung, 1988), S. 17 ff., und Heuss, *Erinnerungen 1905 - 1933*, S. 214.

هنا إلى قيام بعض حركات الشبيبة التي نمت بهدوء في السنوات الأخيرة، بإعطاء العلاقات الجماعية الإنسانية التي تطورت داخل جماعة معينة صفة العلاقة الدينية، الكونية أو الصوفية[62]. وإذا صح أن كل فعل أخوي حق يتماشى، بالضرورة، مع الوعي بوجوب إضافة شيء خالد إلى عالم العلاقات فوق الشخصية، فإنه يبدو لي بالمقابل أنه بالإمكان الشك في إمكانية السمو بكرامة العلاقات ضمن مجموعة بشرية انطلاقاً من هذه التفسيرات الدينية. إلا أن الفوضى في هذه الأمور تبعدنا الآن عن موضوعنا.

إن مصير عصرنا الذي يتميز بالعقلنة والتعقل، والمتميز خاصة بنزع السحر عن العالم، قد أدى إلى هدم القيم العليا السامية وسحبها من الحياة العامة لتجد لها مكاناً في مملكة الحياة الصوفية المفارقة أو في أخوية العلاقات المباشرة المتبادلة بين أشخاص معزولين. وليس صدفة على الإطلاق أن الفن الأكثر شهرة في أيامنا هو فن حميم، وليس فناً معمارياً كبيراً. وكذلك ليس صدفة أن لا نصادف ذلك في أيامنا إلا في الحلقات الاجتماعية الصغيرة جداً، وفي علاقة إنسان بآخر وبغاية الرقة، بالشكل الذي يتوافق مع الروح[63] النبوية التي أوقدت في ما مضى الجماعات الكبرى وصهرتها معاً. وحين نحاول أن «نبتكر» أو أن «نخلق» أسلوباً جديداً في الفن المعماري العظيم، فإننا لن نصل إلا إلى هذه المنشآت التي تثير الشفقة كما هو الحال

---

(62) يشير فيبر هنا إلى مثل الحركة الطالبية التي التفت حول غوستاف فينكن، والتي لم تنظر إلى الروابط الدنيوية في جماعتها، بل اعتبرت ذلك حركة سرية مقدسة، انظر: Heinrich Kupffer, *Gustav Wyneken* (Stuttgart: Ernst Klett, 1970), Kap. 8: «Der Religiosstifter», S. 168-182.

(63) المعني بذلك شعور الانتماء في المسيحية الأولى، حتى من دون وجود جماعة منظمة كنسياً، بل بموجب ما أعطي لهم من روح إلهية، انظر بشكل خاص، **الكتاب المقدس**، «الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس،» الإصحاح 14.

في النصب التذكارية التي بنيت في العشرين سنة الأخيرة[64]. وحين نحاول تأسيس ديانات جديدة دون نبوءات جديدة، أصيلة، فإننا لا نصل، بمعنى دقيق، إلا إلى ما يماثل أن يكون وقعه أكثر سوءاً على أنفسنا. إن النبوءات التي ترتبط بالكراسي الجامعية لن تخلق في نهاية الأمر إلا طوائف متعصبة، فهي لا تخلق إطلاقاً جماعات أصيلة. ومن لا يستطيع احتمال قدر عصرنا هذا برجولة، فما علينا سوى أن نقول له إن عليه أن يعود، بصمت، ودون الشعور بما يعلنه الجاحدون عادة وعلناً، بل ببساطة ودون تكلف، إلى أحضان الكنائس القديمة الواسعة المليئة بالرحمة. ولن تجعل هذه الكنائس عودته صعبة. ومهما يكن من أمر، فعليه - وهذا أمر لا يمكن تجنبه - أن يقوم بعملية «التضحية بالعقل» بهذه الطريقة أو تلك. ولن نلومه على ذلك في ما لو استطاع فعلاً القيام به إذ إن تضحيةً بالعقل كهذه لصالح تقديم الذات دون شروط للدين، تظل من الناحية الأخلاقية أفضل من التحايل على واجب النزاهة العقلية المجردة التي تحصل حين لا يكون المرء نفسه على وعي بالشجاعة في اتخاذ الموقف من الخيارات الأخيرة، بل يسهل على نفسه الأمر باتخاذ مواقف نسبية عارضة. وبنظري، يعتبر بذل النفس هذا أكثر سمواً من كل نبوءات أصحاب الكراسي الجامعية الذين لا يرون بوضوح أنه ليس لفضيلة أخرى أن تتعالى، داخل قاعات التدريس الجامعية، على الاستقامة

---

(64) يذكر فيبر مثالاً على ذلك في مكان آخر التمثال الذي صممه رينهولد بيغاس (Reinhold Begas) لبسمارك. والذي عرض عام 1901 في برلين، والذي سماه فيبر «فزاعة»، انظر: Max Weber, *Wahlrecht und Demokratie in Deutschland* (Berlin - Schöneberg: Fortschritt (Buchverlag der «Hilfe»), 1917), S. 27. (MWG I/15, S. 357).

العقلية والفكرية. تأمرنا هذه الاستقامة أن نلاحظ ونحكم بدقة أن كل هؤلاء، وهم كثر، والذين يعيشون في أيامنا بانتظار أنبياء ومخلّصين جدد يجدون أنفسهم في الوضع نفسه الذي جاء في سفر أشعيا وفيه وصف أيدومي جميل لنشيد أطلقه حارس من السبي، «قول على دومة»: يصرخ إلي من سعير: «يا حارس، ما الوقت من الليل»؟

قال الحارس: «الصباح آتٍ، والليل أيضاً. إن سألتم فاسألوا. ارجعوا تعالوا»[65].

سأل الشعب الذي قيل فيه هذا الكلام، ولم يكف عن طرح السؤال والعيش في انتظار منذ أكثر من ألفي عام، ونحن نعرف مصيره المحزن. من ذلك نريد أن نستخلص عبرة أن الحنين والإصرار وحدهما لا يصنعان شيئاً، فلابدّ من فعل شيء آخر. لابدّ من الانصراف إلى العمل والاستجابة «لمتطلبات الحياة اليومية»[66]، إنسانياً ومهنياً أيضاً. وسيكون الأمر بسيطاً وسهلاً، في ما لو وجد كل فرد الشيطان الذي يمسك بخيوط حياته ويطيعه.

---

(65) انظر **الكتاب المقدس**، «سفر أشعيا،» الإصحاح 21، الآيتان 11/ 12.

«[. . .] قول على دومة: يصرخ إلي من سعير: «يا حارس ما الوقت من الليل؟

يا حارس، ما الوقت من الليل؟»

قال الحارس:

الصباح آت والليل أيضاً،

إن سألتم فاسألوا، ارجعوا، تعالوا».

(66) جاء في غوته: «Betrachtungen im Sinne der Wanderer» aus «Wilhelm Meisters Wanderjahren»،

«ما هو واجبك؟ متطلبات الواجب اليومي»، انظر: *Goethes Werke*, hg. im Auftrage der Grossherzogin Sophie von Sachsen (Weimar: Hermann Böhlaus Nachfolger, 1907), S. 167.

Geistige Arbeit als Beruf

Vorträge vor dem
Freistudentischen Bund

Erster Vortrag

Prof. Max Weber

(München)

Wissenschaft als Beruf



München und Leipzig
Verlag von Duncker & Humblot
1919

السياسة بوصفها حرفة

1 ـ تقرير خاص بهذه الطبعة: مسيرة تكوُّن المحاضرة

كما كان شأن محاضرة «العلم بوصفه حرفة»، كذلك كانت «السياسة بوصفها حرفة» محاضرة في الأصل ألقاها ماكس فيبر في إطار سلسلة المحاضرات التي نظمتها عصبة الطلاب الأحرار في مدينة ميونيخ، بمنطقة بافاريا وكانت السلسلة بعنوان «العمل الفكري بوصفه حرفة»[1]. ألقيت المحاضرة في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير عام 1919.

أدت موضوعة «السياسة بوصفها حرفة» دوراً مهماً في النقاشات النقدية الثقافية في الدولة القيصرية حتى في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. زعم فيرنر سومبارت (Werner Sombart) في إحدى مقالاته في مجلة *Morgen*، وهي إحدى المجلات الأسبوعية التي تعنى بالشأن الثقافي، وكان يشرف هو على إصدارها في العام 1907، أن المثقفين، في ظل الظروف السياسية السائدة، قد فقدوا كل اهتمام بالسياسة. وتحدث سومبارت في مقالته

(1) حول تاريخ الحركة الطالبية، وحول سلسلة محاضرات «العمل الفكري بوصفه حرفة»، انظر التقرير الخاص بنشر «العلم بوصفه حرفة»، ص 117 وما يليها من هذا الكتاب.

عن ذلك «النوع من السياسيين المحترفين المشؤومين» الذي يتعاطون السياسة اليومية، والذين تحولوا إلى «نوعٍ من الصناعة المخزية»[2]. ووصف في مقالة ثانية له حملت عنوانَ «السياسة بوصفها حرفة» التعاطي السياسي الذي يتماشى، دون مواربة، مع تبسيط كل المسائل ومع جعل كل العمليات العقلية عمليات آلية بأنه «خواء عقلي، وكذبٌ أخلاقيٌ، وفراغٌ فنيٌ». فقد صارت مهمة الاحتراف السياسي «فناً مخيفاً مزيفاً» يبعد من يقوم بها «عن منهل الحياة» ليأسره «في مفهوم عالم مزيف مشوه معوّق قوامه الشعار السياسي»[3]. عارض فريدريش نومان (F. Naumann) أفكار سومبارت هذه ودافع عن السياسي المحترف: «... إن ما يجعل برأينا السياسي المحترف يقوم بعمل شاق... وبعمل مليء بالتضحية مع ما يعتريه من خيبات أمل، ليس إلا الإيمان بأن الاشتغال في الدولة هو مصلحة عامة بالدرجة الأولى»[4]. وقد شكل ذلك مناسبة لسومبارت بالطبع للتعرض بشكل أكثر حدة كذلك «للقصور العقلي، وللعوز الجمالي ولعدم استقامة من يمتهن العمل السياسي. وبالنتيجة يجدر بالعلماء اليوم في ألمانيا القيام بعمل أفضل، بدلاً من استهلاك أنفسهم في خدمة العمل السياسي اليومي»[5]. هذا التقويم السلبي للسياسة بشكل عام، ولكل

(2) انظر: Werner Sombart, «Unser Interesse an der Politik,» in: *Morgen. Wochenschrift für deutsche Kultur*, 1. Jg., Nr. 2 (21. Juni 1907), S. 40-44.

(3) Werner Sombart, «Die Politik als Beruf,» *Morgen. Wochenschrift für deutsche Kultur*, Nr. 7 (26. Juli 1907), S. 195-199.

(4) Friedrich Naumann, «An Herrn Professor W. Sombart,» *Morgen. Wochenschrift für deutsche Kultur*, Nr. 13 (6 Sept. 1907), S. 383-387,

يمكن القول بكل تأكيد أن ماكس فيبر قد اطلع على هذا السجال، إذ كان على علاقة وثيقة بكل من نومان وسومبارت.

(5) Werner Sombart, «An Friedrich Naumann,» *Morgen. Wochenschrift für deutsche Kultur*, Nr. 14 (13. Sept. 1907), S. 415-421.

امتهان للعمل السياسي بشكل خاص، كان منتشراً جداً في أوساط الطبقة المتعلمة. وقد ظل قائماً ومستمراً دون تغير يذكر أثناء الحرب أيضاً. تحدث توماس مان بدوره عام 1918 على سبيل المثال عن «السياسيين بالمعنى العملي الدارج لهذه الكلمة، أي إنه تحدث عن السياسي المتخصص أو صاحب المهنة السياسية بطريقة شديدة السلبية». وهذا السياسي برأيه هو «كائن فاسد وضيع، ولم يُخلق ليؤدي دوراً في الوسط الذهني أو العقلي»[6]. حتى النقاشات العلنية التي اشتعلت عند نهاية الحرب مجدداً، والتي دارت حول ضرورة جعل دستور الدولة دستوراً برلمانياً، لم تنل من هذا الحكم السائد، وهو أن السياسة وتحديداً سياسة الأحزاب كانت تجارة وسخة. مقابل ذلك، ساد التذمر أوساط الجيل الشاب الذي ازداد تسيساً بسبب الوضع المتردي الذي خلفته الحرب. وانطلاقاً من هذه الخلفية لا يعتبر الأمر مفاجئاً، بل إنه أمر بالغ الدلالة، أن تطرح عصبة الطلاب الأحرار موضوعة «السياسة بوصفها حرفة» لتكون حلقة من سلسلة محاضرات دعت إليها بعنوان «العمل الفكري بوصفه حرفة»[7]. كان

---

(6) Thomas Mann, *Betrachtungen eines Unpolitischen* (Berlin: S. Fischer, 1918), S. 213.

(7) على حد علمنا، كانت موضوعة «السياسة بوصفها حرفة» في البرنامج الأولي الذي قدمته سلسلة المحاضرات هذه، (انظر: رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى جورج كرشنشتاينر بتاريخ 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1917 ـ مكتبة مدينة ميونيخ ـ قسم المخطوطات أرشيف كرشنشتاينر)، إلا أن الشك ظل قائماً حول الشخص الذي سيعالج هذا الموضوع (رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924. انطلاقاً من التقرير الصحافي حول محاضرة ماكس فيبر «العلم بوصفه حرفة» في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، يستنتج ما يأتي: إن السلسلة المشار إليها تتكون من أربع محاضرات، علماً أنه لم يُتحدث حتى حينه علناً سوى عن محاضرتين وعن المحاضر فيهما. هكذا ورد في العدد 567 بتاريخ 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 من النشرة الصباحية لجريدة *Münchner Neuesten Nachrichten* ما يأتي: في الأمسيات القادمة سيحاضر الدكتور هوزنشتاين (Hausenstein) حول «الفن بوصفه حرفة»، والدكتور كرشنشتاينر حول «التربية بوصفها حرفة». وقد يكون لذلك علاقة =

يقدر لهذا الطرح، تبعاً لمنطق الأمور، أن يجدد النقاش بين سومبارت ونومان. إلا أن النقاش كان قد اجتاز ببساطة مرحلة الجدل، وقُبلت السياسة بوصفها عملاً عقلياً.

أضف إلى ذلك، أنَّ الجهود الكبرى التي بُذلت في أثناء الحرب من جانب القوى التي قادتها، إلى جانب العدد المتزايد في ضحايا الحرب، قد أضافا على المشهد مظهراً آخر. نعني بذلك تحديداً السؤال عن المبرر الأخلاقي للحرب. أو بمعنى أوسع عن العلاقة بين الأخلاق والسياسة. فقد كانت هذه النقاط موضع سجال حي وحاد في أوساط الحركة الطالبية أيضاً. وإن لم تمتنع الأغلبية الكبرى من الطلاب عن مواصلة حماستها العامة تجاه الحرب، إلا أن الاتجاه الذي ساد أوساط العائدين إلى الوطن، والذي اكتسب أرضية واسعة، هو الاتجاه الذي أبدى قناعة بعبثية الحرب ولامعناها ـ إنه الاتجاه الذي تعاطف مع المُثل التي تقول بالمسالمة وبطرح أفكار ذات أبعاد اشتراكية[8]. كان الفيلسوف والمربي في جامعة ميونيخ، فردريش فيلهلم فورستر، الذي تناول سياسة الحرب في الدولة الألمانية بنقد حاد، أحد الرموز المساندة للاتجاه المسالم بين الطلاب، مستنداً في رؤيته إلى العالم

= بما فكرت به عصبه الطلاب الأحرار، إذ ارتأت أيضاً تقديم محاضرة بعنوان: «الكاهن (تالياً الكهنوت) بوصفه حرفة»، أو «الدين بوصفه حرفة» (انظر حول ذلك، ملاحظة بيرنباوم في حديثه مع هورست هيللي (Horst J. Helle) بتاريخ 3 آذار/ مارس 1982، محضر ص 3، أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ، ورسالة بيرنباوم إلى يوهانس فنكلمان بتاريخ 15 تموز/ يوليو 1970، المصدر نفسه، كذلك مقالة بيرنباوم بعنوان قبل ستين سنة ألقى فيبر محاضرته الشهيرة «السياسة بوصفها حرفة» في: *Süddeutsche Zeitung*, Nr. 231 (6/ 7 Okt. 1979),

ويستفاد من ذكريات بيرنباوم أن الخطيب المرتقب لذلك كان اليسوعي بيتر ليبرت (Peter Lippert).

(8) انظر حول ذلك: Ulrich Linse, «Hochschulrevolution. Zur Ideologie und Praxis sozialistischer Studentengruppen während der deutschen Revolutionszeit 1918/19,» *Archiv für Sozialgeschichte,* Band 14 (1974), S. 1 - 114.

إلى خلفية دينية [9]. أدت مرافعة فورستر الداعية إلى تفاهم سلمي، والتي جعلت له أنصاراً في صيف 1917 في إمبراطورية النمسا - المجر، إلى انقسام الحركة الطالبية. وفي خريف 1917 حصلت سجالات صاخبة في جامعة ميونيخ، بشكل خاص، بين غالبية من الطلاب أصحاب التوجه القومي والمجموعات ذات النظرة المسالمة. إذ إنه في الوقت الذي اعترض فيه الطلاب أصحاب التوجه اليميني ضد موقف فورستر، وبدأوا ينظمون حركات تعطيل لمحاضراته، تشكلت في المقابل لجنة مناهضة أخذت على عاتقها حماية فورستر[10]. أثارت «قضية فورستر» اهتماماً واسعاً حتى في جامعات أخرى. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وبمبادرة من إرنست تولر وقَّع عدد كبير من الطلاب في جامعة هايدلبرغ نداء يدين بشدة «مشاهد الصخب» التي يقيمها الطلاب أصحاب التوجه اليميني في ميونيخ ضد فورستر «صاحب الشخصية التي تستوجب الاحترام»[11]. وكان ماكس

---

(9) انظر: Friedrich Wilhelm Foerster, *Erlebte Weltgeschichte 1869 - 1953. Memoiren* (Nürnberg: Glock & Lutz, 1953), S. 187,
كذلك نجد جمعاً لكتابات فورستر المتفرقة منذ زمن الحرب الأولى في: Bruno Hipler, (Hg.), *Friedrich Wilhelm Foerster: Manifest für den Frieden. Eine Auswahl aus seinen Schriften (1893 - 1933)* (Paderborn: Ferdinand Schöningh, 1988),
في محاضرته «السياسية بوصفها حرفة» أشار فيبر إلى فورستر وأقام سجالاً معه. (انظر نص المحاضرة لاحقاً).

(10) كان بيرمان قد بلغ الثمانين من عمره، انظر: Immanuel Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen. Erinnerungen eines Journalisten* (München: Süddeutscher Verlag, 1974), S. 59.

(11) *Die Tat. Monatsschrift für die Zukunft deutscher Kultur*, 9. Jg., Heft 9 (Dez. 1917), S. 820,
وكما يستفاد من نص محاضرة فيبر «العلم بوصفه حرفة» نجد أنه شارك في هذا النقد. (انظر نص المحاضرة).

فيبر يتفق بشدة مع تصورات الحركة الطالبية المسالمة ـ الاشتراكية[12]. فقد سبق له، بشكل خاص، أن التقى أثناء المؤتمر الثقافي الذي أقيم في بداية العام 1917، وفي خريفه[13] بمبادرة من الناشر إيوجين ديتريش في بورغ لونشتاين مع عدة طلاب من اتجاهات مختلفة، بمن فيهم الطلاب أصحاب الأفكار المسالمة، أو أصحاب الأفكار الاشتراكية الثورية. فقد كان لاستعداده الاستئناس بتصوراتهم، وإقامة حوار معهم كان يمتد لساعات[14]، أَثَرَهُ الأخاذ على الكثير من المشاركين: «لقد تحلقت الشبيبة حول ماكس فيبر»، هذا ما كتبه إرنست تولر، «لقد جذبتهم شخصيته واستقامته الفكرية»[15]. ولم ينقطع التواصل مع الطلاب أصحاب التوجهات السلمية، أو حتى أصحاب التوجهات الاشتراكية، حتى في وقت لاحق. فقد شارك

---

(12) Marianne Weber, *Max Weber. Ein Lebensbild* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1926), S. 608 ff.,

(الطبعة الثالثة 1984)، انظر أيضاً حول علاقة ماكس فيبر بالفوضوية والفوضويين، إرنست تولر مثالاً: Dittmar Dahlmann, «Max Webers Verhältnis zum Anarchismus und den Anarchisten am Beispiel Ernst Tollers,» in: *Max Weber und seine Zeitgenossen*, hg. von Wolfgang J. Mommsen und Wolfgang Schwentker (Göttingen/ Zürich: Vandenhoeck und Ruprecht, 1988), S. 506 - 523.

(13) انظر: Weber, *Max Weber. Ein Lebensbild*, S. 608 ff.,

(الإشارة إلى الطبعة الأولى)، اللقاء الربيعي الذي عقد تحت عنوان «معنى عصرنا ومهمته»، عقد بتاريخ 29 حتى 31 أيار/ مايو 1917. واللقاء الخريفي عقد من 29 أيلول/ سبتمبر إلى 3 تشرين الأول/ نوفمبر 1917. وقد عالج موضوع «مسألة القيادة في الدولة والثقافة»، انظر التقارير التي وضعت في صدد نشر محاضرات ماكس فيبر في مؤتمر لونشتاين في: (MWG I/15, S. 701).

(14) انظر: Weber, *Max Weber. Ein Lebensbild*, S. 611.

(15) Ernst Toller, «Eine Jugend in Deutschland,» in: Ernst Toller, *Gesammelte Werke* (München: Hanser, 1978), Band 4, S. 78.

إرنست تولر الذي كان طالباً إبان الفصل الدراسي الشتائي عام 1917/1918 في هايدلبرغ، مع طلاب آخرين من أصحاب الاتجاهات المسالمة والاشتراكية في الاجتماعات التي كان يعقدها فيبر أيام الآحاد[16]. إلا أن فيبر رفض عرض تولر تولي منصب قيادي في «عصبة الشبيبة الثقافية السياسية في ألمانيا» التي أسسها الأخير في ذلك الوقت[17]، والتي قامت على مزيج من أفكار تجمع بين حرارة الإيمان الديني، والأفكار السلمية الجذرية والمطالب الاشتراكية[18]. وتبعاً لما روته ماريان فيبر، أبدى ماكس فيبر انزعاجه من «الاضطراب والبلبلة» اللذين رافقا إعلان برنامج الحركة، وما جاء فيه من تعبير عن «نقص في معنى الحقائق»[19]. إلا أنه كان مستعداً على الدوام متابعة السجال مع هذا الجيل الذي أذهلته تجربة الحرب وجعلته يرتمي في أوساط المعسكر اليساري. فقد أعرب إلى الكاتب أريش ترملر (Erich Trummler) في كانون الثاني/ يناير من العام 1918 عن استعداده «دون قيد أو شرط» الخوض في نقاش حول موضوعة «المسالمة»، إذ بدا لفيبر أن مناقشة الموضوعات السياسية في هذا الإطار مهم فعلاً، فقد كان

---

(16) انظر: Weber, *Max Weber. Ein Lebensbild*, S. 613.

(17) نشر ضمن مؤلفات: Toller, *Gesammelte Werke*, Band 1, S. 31-34,

انظر أيضاً دالمان (Dahlmann)، في المقالة المشار إليها حول علاقة فيبر بالفوضوية في الهامش رقم 12 أعلاه: Dahlmann, «Max Webers Verhältnis zum Anarchismus und den Anarchisten am Beispiel Ernst Tollers,», S. 512.

(18) انظر: Weber, *Max Weber. Ein Lebensbild*, S. 613,

نجد كذلك توضيحاً لموقفه في رسالة أرسلها فيبر إلى يوليوس غولدشتاين بتاريخ 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. أرشيف الدولة المركزي Merseburg، ورد في كتاب ماريان فيبر، في المصدر المذكور، ص 614.

(19) المصدر نفسه، ص 613.

«الأمر يتعلق هنا بالتحضير الفعلي لإمكانية الحياة الخارجية وللتأثيرات الممكنة في العائدين مستقبلاً إلى الوطن»[20].

لا عجب بعد ذلك أن يتم اختيار فيبر نظراً إلى التزامه بهذه المسائل من قبل عصبة الطلاب الأحرار ليكون المتحدث الأنسب في المحاضرة التي أُعطيت عنوان «السياسة بوصفها حرفة». أضف إلى ذلك أنه قد يكون للدور الذي أداه ماكس فيبر أثناء انعقاد الاجتماع الثاني في لقاء لونشتاين الثقافي أثراً في ذلك. ففي هذا المؤتمر طُرح الموضوع المتعلق بمسألة القيادة في الدولة والثقافة. وقد تطرق فيبر في مداخلته الافتتاحية بعنوان «الشخصية وأنظمة الحياة»[21] إلى الزعامة السياسية في ظل شروط العصر الحديث. وتطرق، كما هو واضح في ذلك، إلى نمط السياسي المحترف، وإلى الدوافع الداخلية التي يسترشد بها في عمله[22].

لا نعرف على وجه الدقة الزمن، ولا في ظل أي ظرف، توجهت عصبة الطلاب الأحرار بالطلب إلى ماكس فيبر أن يتولى إلقاء محاضرة «السياسة بوصفها حرفة». كما إنه ليس من المؤكد بشكل خاص أن ذلك قد تم بالترابط مع محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، ذلك أن المراسلات التي أعقبت هذه المحاضرة بين إيمانويل بيرنباوم الذي نظم سلسلة محاضرات «العمل الفكري بوصفه حرفة»

---

(20) رسالة ماكس فيبر إلى أريش ترملر في 17 كانون الثاني/ يناير 1918. (أرشيف فيبر مكتبة ميونيخ).

(21) حول عنوان هذه المحاضرة، انظر التفاصيل في الدراسة الملحقة (MWG I/15, S. 402).

(22) لقد قام فيبر بذلك دون شك في إطار تحليلاته النسقية السوسيولوجية للنظام السياسي، والذي عالجه ضمن ما عالج أيضاً في إطار تحليله لأنماط السيطرة الشرعية الثلاثة. يستفاد من الإشارات المختصرة التي نقلت عن فرديناند تونيس، أن فيبر قد تناول آنذاك المواضيع التالية: الحكم (القيادة)، 1، عقلاني 2، تقليدي 3، كاريزما. مسألة القيادة، الاختيار الاجتماعي **1** ـ المادة، **2** ـ الطرق **3** ـ المختارين، انظر: Schleswig - Holsteinische Landesbibliothek Kiel, NL. Ferdinand Tönnies, Cb 54, 11: 15, (MWG I/15, S. 707).

وماكس فيبر لم تورد أي كلمة حول هذا الموضوع[23]. وعلى العموم، فإن الرواية حول هذه النقطة لا تخلو من ثغرات ومن تناقضات. في **ذكريات عن ماكس فيبر** يذكر إيمانويل بيرنباوم أنه حثّ فيبر على إلقاء هاتين المحاضرتين. وفي حين قبل فيبر على الفور التحدث عن «العلم بوصفه حرفة»، إذ كان ذلك من الموضوعات العزيزة على قلبه، لم يرد أن يبادر ويبدي استعداده لإلقاء محاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة». إن الدعوة إلى إلقاء محاضرة بهذا العنوان ضمن سلسلة المحاضرات لم تصله إلا بعد ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر 1918[24]. إلا أن ذلك ليس صحيحاً بشكل كلي، فقد تم الحديث عن احتمال تولي إلقاء هذه المحاضرة في وقت سابق، وربما كان ذلك بالتحديد في بداية شهر نيسان/ أبريل 1918 حين توقف ماكس فيبر في ميونيخ السبت والأحد في السادس والسابع من نيسان/ أبريل وهو في طريقه إلى فيينا لتولي منصب الأستاذية في الفصل الشتائي في جامعة فيينا. وقد التقى في هذه المناسبة بإيمانويل بيرنباوم. يخبرنا فيبر في رسالة له إلى ماريان فيبر بتاريخ 9 نيسان/ أبريل عن مجريات لقاءات الأحد: الساعة التاسعة، السيد تولر (وكل شيء على ما يرام الآن)، الساعة التاسعة والنصف، السيد بيرنباوم (طلاب، محاضرات وما إلى ذلك)[25]. ربما كان ذلك إشارة إلى المحاضرتين: «العلم بوصفه

(23) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

(24) Immanuel Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber,» in: René König und Johannes Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, 2. Aufl. (Köln/ Opladen: Westdeutscher Verlag, 1985), S. 20.

(25) رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر بتاريخ الثلاثاء [9 نيسان/ أبريل 1918]. يظهر من الكلمات المختصرة الواردة في هذا الخبر أن ماريان فيبر كانت على علم مسبق بحيثيات الموضوع، ما يعني أنه من الجائز جداً أن يكون الحديث قد تناول احتمال القبول بالمحاضرة الثانية أيضاً.

حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة». في كل الأحوال استطاع بيرنباوم بعد عدة أسابيع، في حزيران/ يونيو 1918، في أثناء المباحثات مع دار النشر دنكر وهمبلوت حول نشر سلسلة محاضرات «العمل الفكري بوصفه حرفة»، أن يسمي ماكس فيبر مؤلفاً للمحاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة»[26]. جرت المحادثة بين بيرنباوم ومدير دار النشر ووكيلها القانوني لودفيغ فويشتفانغر (L. Feuchtwanger) في الثامن من حزيران/ يونيو 1918 وتم التوصل إلى الاتفاق الآتي: «تقدم عصبة الطلاب الأحرار، فرع منطقة بافاريا الممثَّلة بالسيدين فيرنر مارهولتز (W. Mahrholz)، والسيد إيمانويل بيرنباوم إلى دار النشر من خلال السيد بيرنباوم: «العمل الفكري بوصفه حرفة»، أربع محاضرات». المضمون: **1** ـ ماكس فيبر، «العلم بوصفه حرفة»، **2** ـ كرشنشتاينر «التربية بوصفها حرفة»، **3** ـ هوزنشتاين، «الفن بوصفه حرفة»، **4** ـ ماكس فيبر، «السياسة بوصفها حرفة». مدة كل محاضرة ساعة وربع. ونجد حول الأمور التنظيمية، والمكافأة، وعدد النسخ المطبوعة، والمصاريف حول تأمين المادة المختزلة ما يأتي: «المؤمن منها حتى الآن فقط المحاضرة الأولى، وأما الثانية والرابعة فستؤمن خلال العام 1918»[27].

أجرت عصبة الطلاب الأحرار منذ ذلك الوقت حسابها بأن ماكس فيبر هو الذي سيتولى كذلك تقديم محاضرة «السياسة بوصفها حرفة». وفي رسالة له إلى المربي جورج كرشنشتاينر لم يدع بيرنباوم مجالاً للشك بأن ماكس فيبر هو من سيتحدث حول «السياسة بوصفها

(26) الاتفاق بين عصبة الطلاب الأحرار، شعبة منطقة بافاريا مع دار النشر دنكر وهمبلوت، بتاريخ 8 حزيران/ يونيو 1918، أرشيف دار النشر. ملكية خاصة.

(27) المصدر نفسه، لاحقاً أكدت عصبة الطلاب الأحرار (التاريخ غير مقروء) ودار النشر هذه الاتفاقية في 8 تموز/ يوليو 1981.

حرفة»[28]. وفي الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 وبمناسبة إلقاء فيبر محاضرة حول «النظام الجديد لألمانيا»[29]، عاد بيرنباوم والتقى مجدداً مع ماكس فيبر في ميونيخ[30]. ومن الممكن أن يكون هذا اللقاء مناسبة لتحديد موعدٍ لمحاضرة فيبر «السياسة بوصفها حرفة» في كانون الثاني/ يناير 1919. ذلك أن بيرنباوم أبلغ كرشنشتاينر في كانون الأول/ ديسمبر 1918 أن سلسلة المحاضرات [...] في كانون الثاني/ يناير ستقود ماكس فيبر [...] إلينا[31].

إذا استعرضنا العرض الذي قدمه بيرنباوم، أمكننا أن نستنتج أن ماكس فيبر يكون قد سحب موافقته في نهاية كانون الأول/ ديسمبر أو بداية كانون الثاني/ يناير 1919، إذ كان شديد التأثر بما توصلت إليه الظروف السياسية، وأنه نظراً إلى سرعة سير التطور السياسي الراهن لم يجد نفسه مستعداً للتحدث بشكل أساسي عن المهنة التي توصل إلى السياسة[32]. قد يكون السبب كذلك عائداً إلى رفض

(28) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى جورج كرشنشتاينر بتاريخ 29 أيلول/ سبتمبر 1918، مكتبة مدينة ميونيخ، قسم المخطوطات، أرشيف كرشنشتاينر.

(29) نجد تقارير مختلفة حول هذه المحاضرة في جرائد يومية مختلفة تصدر في ميونيخ، *Münchner Neueste Nachrichten*، العدد 559 تاريخ 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 (MWG I/16, S. 359-369). أثناء ذلك اصطدم تحذير فيبر من سياسة تقوم على أخلاق اعتقادية بالنقد من جانب أقلية من الحضور تحركها أفكار ثورية ـ هذا ما يستقى من رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924.

(30) انظر الملاحظات التي تم الاستناد إليها في رسالة نواك المشار إليها آنفاً إلى ماريان فيبر. ورسالته أيضاً في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924.

(31) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى جورج كرشنشتاينر، دون تاريخ (كانون الأول/ ديسمبر 1918) (مكتبة ميونيخ، قسم المخطوطات، أرشيف كرشنشتاينر)، يمكن استنتاج التاريخ من إشارة بيرنباوم في هذه الرسالة إلى تعيين كرشنشتاينر أول كانون الأول/ ديسمبر 1918 أستاذاً في جامعة ميونيخ.

(32) انظر أيضاً: Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber,» in: König und Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 20 f.

الأفكار المسالمة، كما تمثل ذلك بشكل خاص من خلال موقف الحكومة البافارية في الفترة التي تزعمها كورت أيسنر ممثلاً لليسار الاشتراكي. ومن المعروف أن فيبر قد شكا نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، مبدياً الكثير من الأسى تجاه «الشكل الاستعراضي المقيت لكسيري القلوب»، وتجاه «التوجه المازوشي السياسي - الاجتماعي عند أصحاب الاتجاه المسالم الذين لا كرامة لهم، والذين يتمرغون الآن وسط الشعور بالذنب»[33]. لابدّ أن نضيف إلى ذلك ما أحس به من خيبات أمل شخصية. إذ إنه مع التزامه الكبير في الحملة الانتخابية التي خاضها الحزب الديمقراطي[34]، فإن ترشيحه لانتخابات المجلس الوطني في نهاية كانون الأول/ ديسمبر قد انتهى بالرفض[35]. هكذا روى بيرنباوم، أن ماكس فيبر علل رفضه بالعبارات الآتية: «أنا لست سياسياً، أنا أحد المرفوضين من الحزب الديمقراطي»[36]. أضف إلى ذلك أنه كان على ماكس فيبر في إطار الحملة الانتخابية لانتخابات المجلس الوطني أن يقدم بين الثاني

---

(33) رسالة إلى فريدريش (والمقصود هو أوتو (Otto)) كرسيوس (Crusius)، بتاريخ 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. وقد نشرت في مجموعة كتابات فيبر السياسية، انظر: Max Weber, *Gesammelte Politische Schriften* (München: Drei Masken Verlag, 1921), S. 482 ff.

(34) انظر حول ذلك: Wolfgang J. Mommsen, *Max Weber und die deutsche Politik 1890 - 1920*, 2. Aufl. (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1974), S. 328 ff.

(35) المصدر نفسه، انظر أيضاً توضيح فيبر حول عدم قبول ترشيحه لانتخابات المجلس الوطني في الدائرة الانتخابية رقم (19) (منطقة هيسن ـ ناسو (Hessen - Nassau))، انظر: *Frankfurter Zeitung*, Nr. 12 (5 Jan. 1919), الإصدار الصباحي ص 1، انظر كذلك: (MWG I/16, S. 152-156).

(36) انظر حديث بيرنباوم مع هورست هيللي (Horst J. Helle) في 3 آذار/ مارس 1982، محضر ص 3، أرشيف ماكس فيبر، انظر لاحقاً: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen. Erinnerungen eines Journalisten*, S. 80.

والسابع عشر من كانون الثاني/ يناير 1919 عدة خطابات انتخابية، الأمر الذي كان لابدّ من أخذه باعتبار شديد[37]. والمرجح أن ماكس فيبر اقترح في ذلك الوقت فريدريش نومان ليكون المحاضر في «السياسة بوصفها حرفة»، وبالمقابل كان بيرنباوم يصف نومان «بأنه يمثل السياسي الألماني في عصره بشكل مطلق»[38]. ومع ذلك، وبعد أن رفض نومان ذلك بسبب المرض، فإن فيبر وجد نفسه ملزماً قبول أن يقدم هذه المحاضرة بنفسه. وربما كانت إشارة بيرنباوم قد أسهمت في ذلك، ومفادها أن بعض الزملاء الراديكاليين اقترحوا أن يكون رئيس وزراء بافاريا كورت أيسنر محاضراً في هذا الموضوع. وكان أيسنر في نظر فيبر أحد الساسة الذين لا يملكون أي بعد نظر بخصوص تصرفاتهم»، ولم يكن يرغب، على ما يبدو، في أن يترك له الميدان لإلقاء المحاضرة[39]. وفي أقصى حد، ربما كان فيبر قد

---

(37) التقارير حول هذه الخطابات نجدها في: (MWG I/16, S. 410-474).

(38) تتعلق هذه الملاحظة بذكريات بيرنباوم المستندة إلى ملاحظات وردت في رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924.

(39) انظر: Birnbaum, «Erinnerungen an Max Weber,» in: König und Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 21,

«لقد كتب إلي، لا أحد يقل شهرة عنه ليتحدث عن مهنة السياسي، وبدلاً منه اقترح اسم فريدريش نومان الذي يرى فيه منذ وقت طويل القائد الذي يمكنه أن يقود ألمانيا إلى طريق الديمقراطية. إلا أن نومان كان مريضاً في ذلك الوقت وقد رفض هذه المهمة. لكن حين لم يكن بود فيبر رغم ذلك أن يشارك في هذه المحاضرة كتبت إليه، أن بعض الزملاء الراديكاليين يميلون الآن إلى دعوة كورت أيسنر ليحاضر بدلاً منه. وكان فيبر يرى في أيسنر نموذج السياسي الاعتقادي الذي لا يقدر أبعاد نتائج تصرفاته. كان هذا التهديد مساعداً لنا أدى إلى قبول ماكس فيبر الذي أتى وقدم محاضرة يعتبر نصها بمثابة تحفة صغيرة في التنظير السياسي ووثيقة عن الحالة التي بلغها الفكر العقائدي في تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ الألماني». أشار بيرنباوم إلى عرض سير الأمور في مكان آخر أيضاً في معرض الإشارة إلى فريتيوف نواك الذي كلفته ماريان فيبر القيام ببحوث عن بعض محاضرات ماكس فيبر: انظر رسالة نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924. لاحقاً عرض بيرنباوم إلى =

أعطى موافقة نهائية على إلقاء المحاضرة في 12 كانون الثاني/ يناير 1919، فهذا ما أوردته إلسي يافي في رسالة لا تحمل تاريخاً في كل الأحوال، تورد فيها تفصيلاً لمخطط عملها بين الثالث عشر والسابع عشر من كانون الثاني/ يناير 1919 مرفقة ذلك بالملاحظة الختامية الآتية: «سأكون في المحاضرة في ميونيخ عملاً بالتوجيه»[40].

جرت مباحثات في الأسبوع الثالث من شهر كانون الثاني/ يناير حول تفاصيل وكيفية سير المحاضرة وموعد إلقائها النهائي. هذا ما يستقى من عدة رسائل إلى إلسي يافي بين 19 و22 كانون الثاني/ يناير 1919، وفيها يتم الحديث عن تبادل برقيات تلغرافية مع «الطلاب» بهدف تحديد موعد نهائي للمحاضرة[41]. في كل الأحوال

= الذكرى نفسها في مذكراته: Birnbaum, *Achtzig Jahre dabei gewesen. Erinnerungen eines Journalisten*, S. 80,

وبالمعنى نفسه عبّر في رسائله إلى يوهانس فنكلمان بتاريخ 14 كانون الأول/ ديسمبر 1961 و15 تموز/ يوليو 1970، وكذلك في حديثه مع هورست هيللي في 3 آذار/ مارس 1982. محضر ص 3 (مصدر مذكور). إن التهديد بإحلال أيسنر ليحاضر بدلاً منه، ليس تهديداً موضوعاً في وقت متأخر بالتأكيد، بل ربما يكون قد ترافق مع بعض المغالاة حين تمت العودة إليه من خلال التذكر. ذلك أن أيسنر كان منذ فترة التحضير للإضراب الجماهيري وتحقيقه في أول شباط/ فبراير 1918 في ميونيخ في الحبس الاحتياطي ولم يفرج عنه إلا في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، أي قبل ثلاثة أسابيع من ثورة بافاريا في 7/ 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 والتي صار من خلالها رئيس وزراء دولة بافاريا الحرة ووزير خارجيتها. عدا ذلك كان لقرار أيسنر في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 ودون التوافق مع لجنة مفوضة شعبياً، نشر وثائق تتعلق بمسألة ديون الحرب، مناسبة جعلت فيبر يستثير غضباً منه، إذ رأى في ذلك نوعاً من «الابتزاز».

(40) رسالة ماكس فيبر إلى إلسي يافي (دون تاريخ) [قبل 13 كانون الثاني/ يناير 1919]. ملكية خاصة.

(41) رسائل ماكس فيبر إلى إلسي يافي بتاريخ الأحد (19 كانون الثاني/ يناير 1919) والإثنين (20 كانون الثاني/ يناير 1919) والأربعاء صباحاً (22 كانون الثاني/ يناير 1919). ملكية خاصة.

لم يكن ماكس فيبر متأكداً، وحتى الثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير، إذا ما كانت هذه المحاضرة ستحصل فعلاً[42]. فقط في اليوم التالي أي في الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير تم تحديد الموعد النهائي لإلقاء المحاضرة في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1919[43]. وفي هذا اليوم نفسه كتب فيبر إلى إلسي يافي ما يأتي: «ستكون المحاضرة في 28 كانون الثاني/ يناير إذ سيكون في رأسي أمور أخرى كثيرة غير «حرفة سياسي»»[44]. أما التمني الذي أبداه الطلاب إتباعَ المحاضرة في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير بنقاش في دائرة صغيرة، فتمنٍ رفضه فيبر أول الأمر لأسباب شخصية[45]، ومع ذلك فإن هذا اللقاء حصل فعلاً في هذا التاريخ[46].

نجد أول إعلان رسمي عن المحاضرة في النشرة الصباحية من جريدة *Münchner Neueste Nachrichten* في عددها الصادر في 25 كانون الثاني/ يناير 1919، وفيه ما يأتي:

«سيتحدث الأستاذ د. ماكس فيبر (هايدلبرغ) الثلاثاء 28 كانون الثاني/ يناير، في قاعة شتينكي للفنون مساءً، الساعة السابعة

---

(42) رسالة فيبر إلى إلسي يافي الأربعاء صباحاً (22 كانون الثاني/ يناير 1919). ملكية خاصة.

(43) رسالة فيبر إلى إلسي يافي الخميس صباحاً (23 كانون الثاني/ يناير 1919). ملكية خاصة.

(44) رسالة ماكس فيبر إلى إلسي يافي الخميس ظهراً (19 كانون الثاني/ يناير 1919). وبكلمات تحمل الدلالة نفسها. كتب أيضاً في رسالة أخرى إلى إلسي يافي الخميس صباحاً (23 كانون الثاني/ يناير 1919). ملكية خاصة.

(45) رسالة فيبر إلى إلسي يافي، الخميس صباحاً (23 كانون الثاني/ يناير 1919) المصدر نفسه.

(46) انظر لاحقاً الصفحات التالية مباشرة.

والنصف حول «السياسة بوصفها حرفة». البطاقات في قاعة المحاضرات ـ شباك التذاكر مساء، وعلى العنوان الآتي (Adalbertstr 15, Jaffé, Brienerstr. 53)[47]. علاوة على ذلك تم الإعلان كذلك عن المحاضرة في جامعة ميونيخ. يتذكر القانوني وعالم الاقتصاد ماكس ريم (Max Rehm) أنه قد رأى هناك إعلاناً على اللوح الأسود: الأستاذ ماكس فيبر من جامعة فيينا سيلقي محاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة»، الأمر الذي يشكل مناسبة لزيارة هذا الحفل[48].

وبحسب ما يتذكر بيرنباوم فإن ماكس فيبر توجه إلى هنا أيضاً، كما في محاضرته السابقة «العلم بوصفه حرفة»، بشكل أساسي إلى مجموعة من الطلاب ذات التوجه الثوري الشاعري». وفي محاضرته هذه توجه بشكل خاص في أقواله إلى إرنست تولر[49]. لم تصلنا أخبار كثيرة عن المشاركين في الندوة، إلا أنها من حيث التنظيم ترأسها مؤرخ الآداب فيرنر مارهولتز الذي ألقى الكلمة الافتتاحية[50]. هذا ما كتبه فريتيوف نواك، الذي كان حوالى العام 1920 من أعضاء الطلاب الأحرار، إلى ماريان فيبر: «لقد كنت بين الحضور. وإني أتذكر بشكل حاد ذلك التعالي السامي الذي تحدث فيه ماكس فيبر

---

(47) *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 41 (25 Jan. 1919), الطبعة الصباحية، ص 2.

(48) Max Rehm, «Erinnerungen an Max Weber,» in: König und Winckelmann, (Hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 24-28.

(49) رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924 في شهادته في قضية تولر في تموز/ يوليو 1919، أوضح فيبر أن تولر كان في كانون الثاني/ يناير من العام 1919 أحد محاوريه في إحدى الاجتماعات العامة، انظر النشرة المسائية من جريدة: *Münchner Neueste Nachrichten*, Nr. 277 (16. Juli 1919), S. 2, (MWG I/16, S. 489).

(50) رسالة بيرنباوم إلى يوهانس فنكلمان بتاريخ 15 تموز/ يوليو 1970. أرشيف ماكس فيبر، ميونيخ.

في هذا الموقع أو ذلك حين تناول في حديثه المجالس الاقتصادية العسكرية والعمالية». وفي أماكن أخرى أشار كذلك، وإن عرضاً، إلى التهديد عبر مجالس كهذه باستخدام الأسلحة الرشاشة أثناء النقاشات في المجلس المحلي في منطقة بافاريا»[51].

وفي مذكراته كتب ماكس ريم أيضاً:

«لقد كان ذلك مساء يوم شتائي، وفي قاعة ضيقة مظلمة، بالكاد حوت حوالى مئة شخص. تقدمت سيدة مسنة ذات مظهر يغلب عليه انحناء بسيط على عصا أمام الصف الأول من الجلوس وأخذت مكاناً لها في المقدمة. إنها ريكاردا هوخ (Ricarda Huch). ويدخل ماكس فيبر بقامة تبدو عليها المهابة، رغم نحافتها. وسرعان ما توجه الرئيس القوي إلى المستمعين، وتكلم بحرية معتمداً فقط إلى ورقة بيده، بصوت رنان جامح، وبحركات قوية من رأسه تمتد من شعره إلى لحيته. لقد أسر مستمعيه بتسلسل أفكاره، وبالأمثلة المناسبة وبالمعارف المستندة إلى أساس تاريخي. وفي ما يتعلق بما يجب على السياسي - من تفانٍ، وشعور بالمسؤولية، وبعد نظر، وأخلاق اعتقادية، وأخلاق مسؤولية، قدم، وهذا ما يمكن أن نشعر به، نوعاً من الشهادة. و(السيدة) ريكاردا هوخ المعروفة بحسها التاريخي وبالعلوم النفسية ربما تكون قد تقبلت سمعة هذه الساعة التاريخية التي كانت بالنسبة إلينا نحن الشهود الآخرين أقرب إلى المعايشة»[52].

أما الشاعرة ريكاردا هوخ فقد تذكرت ذلك بدورها، ولكن بعد عدة سنوات، مع إبداء بعض عدم الارتياح من هذه المحاضرة

---

(51) رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924.

(52) انظر: Rehm, «Erinnerungen an Max Weber,» in: König und Winckelmann, ed., *Max Weber zum Gedächtnis*, S. 25.

الوحيدة التي تسنى لها أن تسمعها لماكس فيبر، والتي إذا صحت معلومة ماكس ريم، فهي دون شك المحاضرة التي عالجت موضوع «السياسة بوصفها حرفة». إذ إنها حين قراءتها لكتاب ماريان فيبر عن ماكس فيبر Lebensbild، كتبت في العام 1928 إلى ماري باوم (M. Baum) ما يأتي:

«إن الشعور الذي انتابني فجأة إزاء ماكس فيبر هو الشعور بكونه ممثلاً، وقد كان هذا الشعور عفوياً عندي - إذ كنت أحضر نفسي لأمر آخر مختلف كلياً - حين استمعت إليه لمرة وحيدة في إحدى محاضراته. أعتقد أن السبب يعود في ذلك إلى عدم تدفق سيل الغريزة من داخله، وأنه كان يستبدل هذا الدفق الغريزي بوعيه، وهذا أمر كان بالمقابل بالنسبة إلي من الأمور التي تثير حساسية شديدة»[53].

أثارت هذه المحاضرة انطباعاً مشابهاً عند كارل لفيث الذي كان يدرس الفلسفة، والذي كان حاضراً أيضاً. وقد تناول لفيث هذه المحاضرة بالنقد. إذ روى لاحقاً أن محاضرة فيبر عن «السياسة بوصفها حرفة» لم تثر فيه نفس الاندفاع الذي أثارته محاضرته الأولى، «العلم بوصفه حرفة»[54].

تبعاً للذكريات التي روتها جولي ماير - فرانك التي كانت تدرس في ميونيخ في ذلك الوقت، فإنه بعد انتهاء محاضرة فيبر ظهر ذلك الخصام الكبير والحزين مع السياسي العقلاني للثورة، صاحب الصالة

---

(53) رسالة ريكاردا هوخ إلى ماري باوم بتاريخ 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1928، في:
Ricarda Huch. Briefe an die Freunde, hg. von Marie Baum, neubearb. von Jens Jessen (Zürich: Manesse, 1986), S. 172 f.

(54) Karl Löwith, *Mein Leben in Deutschland vor und nach 1933. Ein Bericht* (Stuttgart: J. B. Metzler, 1986), S. 16 f.

وتاجر الكتب شتينكي. وأبلغ الحضور أن «أنصار أيسنر» سيقومون بتخريب التجمع[55]. توجه المشاركون إثر ذلك إلى منزلها، وأقام ماكس فيبر مع هؤلاء حواراً امتد حتى ساعات الصباح. لا ينسى أحد هذه الساعات، حسب ما قالت جولي ماير ـ فرانك، «التي عالج فيها الأستاذ بحياد علمي وبحرارة موضوعه، وحين قام بتقديره لقيمته تقديم واقعة بعد أخرى»[56].

حتى ماكس فيبر نفسه كتب في رسالة له بتاريخ 29 كانون الثاني/ يناير إلى مينا توبلر معبراً عن فرحة «أن يكون قد انتهى من هذا الإرهاق الكبير (إنه لتوتر داخلي يحيط باستمرار بكل من يتصدى لمعالجة موضوع ذي طابع سياسي)». وحول المحاضرة يضيف فيبر قوله: كان الحضور معتدلاً، وفي كل الأحوال لم يكن قليلاً. إن «النجاح» مرض جداً. «وبعد المحاضرة حصل لقاء في دارة (استوديو) جميلة جداً لإحدى طالبات الآداب وسط المدينة القديمة. وامتد النقاش ليلاً حتى الساعة الثانية (صباحاً)»[57]. الإشارة الواردة هنا يمكن أن تكون بالتأكيد إشارة إلى بيت جولي ماير ـ فرانك.

ألقى ماكس فيبر محاضرته، كما نُقل عن ماكس ريم، وكما جرت عليه عادته في إلقاء المحاضرات، بشكل ارتجالي حر، مستنداً إلى ورقة بيده في شكل مخطوطات حملت رؤوس أقلام، إلا أنها لم تصلنا، وللأسف، بشكلها الأصلي، بل حصلنا عام 1958 على نسخة

(55) Julie Meyer -Frank, «Erinnerungen an meine Studienzeit,» in: *Vergangene Tage. Jüdische Kultur in München*, hg. von Hans Lamm (München/ Wien: Albert Langen - Georg Müller, 1982), S. 212-216.

(56) المصدر نفسه.

(57) رسالة ماكس فيبر إلى مينا توبلر، دون تاريخ [29 كانون الثاني/ يناير 1919] ملكية خاصة.

مصورة عن صور أقدم مكوّنة من ثلاث وريقات فقط[58]. تتكون هذه المخطوطة من ثماني وريقات كل واحدة منها مقسمة إلى قسمين يشار إليها هنا بـ (A1 وA11). وهذه الأوراق صفحاتها مرقمة وهي تتميز من حيث معالمها الخارجية، ومن حيث مضمونها الداخلي، عن بعضها بعضاً. الأوراق الثلاث الأولى من هذه الأقسام المجزأة من A1 مكتوبة بخط اليد، ومرقمة من 1 إلى 3. في حين أن الورقة الرابعة غير مرقمة. يمكننا التوصل، من حيث التوافق بين نوع الورق وشكله، ومن حيث إن هذه الأوراق قد تم قطع كل واحدة منها إلى نصفين، إلى نتيجة مفادها أنه حتى الورقة الرابعة غير المرقمة هي فعلاً جزء من هذا المجموع. والقسم A11 بدوره مرقم كذلك، وتحديداً بالأرقام 2 ـ 4. أما الورقة الأولى فغير مرقمة. وكذلك فإن الورقة الأخيرة أُشير إلى ما هو في ظهرها، ففي الصفحة 4، ومن تحت، نجد الملاحظة الآتية «verte»، وهذه إشارة إلى متابعة النص على ظهر الورقة المشار إليها[59]. هذه الأوراق الأربعة من A11، هي أجزاء مكوّنة من ورقة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، وهي تتشابه مع تقسيمات الورقة A1. وبذلك فإن هذه الأوراق تشكل في ما بينها كلاً واحداً[60].

هكذا لا تختلف الورقتان A11، A1 في ما بينهما إلا من حيث المظهر الخارجي، أي من حيث شكل أو حجم الورقة، ومن حيث ترقيمها أيضاً. يضاف إلى ذلك اختلافهما كذلك من حيث الخط الذي كُتبت فيه، ومن حيث ترتيب المادة المكتوبة. إذ إنه في حين نجد في الورقة A1 نواة النص، إذ إن فيبر رتبه على الجزء الأيمن

(58) انظر لاحقاً ص 243 من هذا الكتاب.

(59) انظر لاحقاً ص 258 من هذا الكتاب.

(60) انظر بالتحديد الاثباتات التوصيفية في الجزء التالي من هذا التقرير.

من الورقة، وأدخل إليه عدة استكمالات نجدها أيضاً على الجزء الأيسر من الورقة، نرى أن الورقة A11 حفلت برؤوس أقلام جُعلت في شكل قوالب دون حركات وصل أساسية ودون أي تغييرات أخرى[61].

في الورقة A1 نجد معالجة لأشكال السيطرة السياسية انطلاقاً من خلفية تاريخية واسعة إلى جانب تاريخ تطور الأحزاب وما يرتبط به من أنماط ممارسة السلطة السياسية ومن سياسيين؛ بالإمكان القول أيضاً إن الشروط والفرضيات التي تتعلق من الخارج بـ «الوظيفة السياسية». أما الورقة A11، فنجد عليها إشارات إلى العلاقة بين الأخلاق والسياسة. وهي موضوعة نجدها في رأس الورقة كنوع من عنوان مع أنه لم يُشدد على ذلك (بخط أكبر) إلا في السطر الثالث[62]. تشكل الأسس الأخلاقية موضوع هذه التفصيلات. هذا إلى جانب علاقات السلطة بالسلوك السياسي. تتوجه هذه التفصيلات بدرجة أولى ضد السياسة الاعتقادية المسالمة والثورية، إذ إن هذه الأفكار كانت شديدة الانتشار في ذلك الوقت في أجزاء من الرأي العام الألماني، وفي الأوساط الطالبية بشكل خاص، كما تتوجه بدرجة ثانية ضد مختلف تنويعات أصحاب السياسة الواقعية غير العقلانية. وتهدف هذه الملاحظات إلى تبرير وشرعنة السياسة الاحترافية بوصفها سلوكاً أخلاقياً مسؤولاً.

يحملنا هذا الكشف الكلي والمضموني إلى الاعتقاد أن الورقة A1 والورقة A11 انبثقتا من دوافع مختلفة. وسيقود البحث في الأمر من الناحية الوضعية إلى مزيد من التعقيد، إذ إن رؤوس الأقلام

---

(61) انظر لاحقاً [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].

(62) انظر ص 253 من هذا الكتاب.

المثبتة في الورقة A1 كتبت من طبقتين أو عدة طبقات أحياناً، وهي طبقات تختلف من حيث مضمونها كما تختلف من حيث الشكل وإن جزئياً.

من المحتمل جداً أن تكون الورقة A1 قد كتبت في دورات عمل متعددة. إذ إن الإضافات العديدة التي نجدها على الجانب الأيسر من الورقة تمثل المقابل لما نجده على الجانب الأيمن منها [4] ـ 1، بحيث تمثل قسماً من نص يختلف عن النص الأساسي. وهذا ما يمكن استخلاصه بشكل خاص من الإشارة على هامش الصفحة 3، حيث يرد: انظر «ص 1، الأسفل»[63]، وقد تكون هذه في الأرجح إشارة إلى إدراج المقطع حول السياسي المحترف الحديث فوق السطر الأفقي الذي نجده في الصفحة (3) وفي المقطع الذي حمل عنواناً هو: سياسيُّ المناسبات... أي نمط[64]؟ في الصفحة الأولى، في الوسط إلى جهة اليسار؛ إذ إن ترتيباً كهذا نجده مجدداً في النص المطبوع، حيث نجد تعديلاً يتناول السياسي الحديث المحترف بحيث يتطابق ذلك كله مع السياق في جملته[65]. إن الأمور التي تم إقحامها تتناول كلها تقريباً الشخصيات السياسية السائدة، أو أنماط السياسيين على اختلافهم، أو بعبارات أخرى إنها تعديلات تتناول «السياسة بوصفها حرفة» بالمعنى الدقيق للكلمة. أما الإضافات المفردة، ولاسيما إضافة أسماء مثل تروتسكي (Trotzkij) ومجالس العمال والجنود على الجانب الأيسر من الورقة (1)[66]، فهي إضافات يرجى منها أن تكون توسيعاً يؤكد ما جاء في أساس

(63) انظر الصورة المثبتة لاحقاً، [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].
(64) انظر الصورة المثبتة لاحقاً، [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].
(65) انظر الصورة المثبتة لاحقاً، [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].
(66) انظر الصورة المثبتة لاحقاً، [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].

النص. هذا كله يؤكد، أن النص الأساس في الورقة A1 استُكمل أو عُدّل ليُستخدم في إطار محاضرته بعنوان «السياسة بوصفها حرفة».

إلى جانب ذلك يظهر النص الأساسي في الصفحة A1 في أجزاء ثلاثة، وهي أجزاء تختلف في ما بينها إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر مضمونية. إذ إن التفاصيل من صفحة 1 إلى صفحة 3 تعالج أشكال السيطرة وأنماط السياسة من منظور تاريخي عالمي. بعد الخط الأفقي الذي يلي فسحة تفصل عن النص الأساسي تتبع تفاصيل مختلف أنماط الأحزاب في بريطانيا العظمى وفي ألمانيا منذ أواسط القرن التاسع عشر. في الوقت الذي تم الوصول فيه في إنجلترا، وفي إطار النظام البرلماني لتكوين سلطة انتخابية، اختارت ألمانيا «زعيماً» بطريقة تبعث على الخوف. يلي ذلك بعد ترك مساحة فارغة، مقطعاً ثالثاً يبدأ بالكلمة الآتية: «الآن كل شيء عرضة للتحول»[67]. يعالج هذا المقطع الأوضاع بعد اندلاع ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. وبعد ذلك نجد أن الإشارة إلى البنية البيروقراطية في الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا، كما وردت في الصفحة (4) وُضعت في الأرجح في وقت لاحق. وقد أضيفت بشكل يشدد على الخط بعبارة: «قبل الثورة»، وفي الأرجح أن ذلك كان استكمالاً للمقطع الذي بدأ بعبارة «الآن، كل شيء عرضة للتحول»[68]. قد يعني ذلك أن النص الأساسي في الورقة A1 حتى هذا المقطع كُتب قبل ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر، في حين أن الملاحظات التي أضيفت لاحقاً كانت نتيجة «التعديل»، نظراً إلى ما استجد في حينه من مداخلات عديدة أشرنا إليها.

---

(67) في الأرجح أن الأصح استبدال عبارة قابل للتحول بعبارة عدم النظام (بدل Umordung يستخدم عبارة Unordnung).

(68) انظر الصورة المثبتة لاحقاً، [النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة].

يقترب النص الأساسي في الورقة A1 حتى الصفحة (4) بالفعل، من حيث المضمون، من صلب الأحداث في «البرلمان وفي حكومة ألمانيا بموجب النظام الجديد» كما كانا عليه في صيف العام 1917[69]. وبالمقابل تؤشر المقاربات حول المسائل المتعلقة بالدستور، والتي تبدأ بالعبارة «الآن كل شيء عرضة للتحول في أسفل الصفحة (4)، إلى ما يوازي ما تطرق إليه ماكس فيبر في مقالته «شكل الدولة المستقبلي في ألمانيا» التي ظهرت في نهاية أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر - أوائل كانون الأول/ ديسمبر 1918»[70]. هنا يجب الانطلاق من وجوب الإبقاء على المجلس الاتحادي بشكله القديم، ولذلك يجب استبعاد قيام نظام برلماني تابع للرايخ (للدولة الألمانية)[71]، وهي المسألة التي تطرق إليها ماكس فيبر في مقالته حول «شكل الدولة المستقبلي في ألمانيا»[72]. أضف إلى ذلك أنه بالإمكان الاستفادة من استعماله عبارة «الشهيد ليبكنخت (Liebknecht)» أن النص الأساسي في الورقة A1 وُضع قبل الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير 1919، إذ إن الإشارة إلى الدور الاستشهادي لليبكنخت لا تتعلق بمقتله، بل إلى عقوبة السجن التي أمضاها أثناء الحرب[73]. بعد مقتل ليبكنخت لم تعد

(69) Max Weber, *Parlament und Regierung im neugeordneten Deutschland, zur politischen Kritik des Beamtentums und Parteiwesens* (München/ Leipzig: Duncker & Humblot, 1918), S. 23 f., S. 102 f., S. 107, S. 112 f. (MWG I/15, S. 432- 596).

(70) Max Weber, *Deutschlands künftige Staatsform* (Frankfurt a. M: Verlag der Frankfurter Societäts - Druckerei, 1919) (MWG I/16, S. 91- 146).

(71) انظر الصور النموذج. كذلك يتضمن النص الألماني المطبوع إشارة إلى هذا الأمر، وإن بشكل مختصر.

(72) Weber, Ibid., S. 19 ff. (MWG I/16, S. 120 ff.).

(73) انظر الصور النموذج. أن يكون فيبر لم يشر إلى مقتل ليبكنخت في 15 كانون الثاني/ يناير 1919، بل إلى الحكم عليه بالسجن في العام 1916 فذلك ما يستدل عليه من =

الإشارة بهذا الشكل بالنسبة إلى ماكس فيبر إشارة تكتسب معنى كاملاً. فقد عمد أيضاً، وفي الأرجح أثناء تحضيره النص أو كتابته، إلى حذف التعبير بشكله هذا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن ماكس فيبر انشغل كلياً بين الثاني والسابع عشر من كانون الثاني/ يناير بإلقاء خطب انتخابية لصالح الحزب الديمقراطي الألماني، وبالتالي لم يكن لديه الوقت للقيام بعمل آخر، لوصلنا إلى الاستنتاج بأن موعد تحضير النص الأساسي في الورقة A1 لم يكن يتعدى الأول من كانون الثاني/ يناير 1919. ثمة معايير مضمونية توحي بذلك قبل أي شيء آخر، إذ إنه وباستثناء القسم الأخير بعد عبارة: «الآن كل شيء عرضة للتحول» فإن الأمر يتعلق بنص أصلي أولي أكثر قدماً، وقد يكون وُضع في تاريخ لا يتجاوز أول تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1918. وبما أن الأصل الذي أُخذت عنه هذه الصور ليس بين أيدينا، فلا يمكننا الجزم بالتأكيد إذا ما كانت هذه المقاطع النصية بالفعل قد وُضعت بشكل متعاقب زمنياً.

أما العبارة المستخدمة في الصفحة A11، وهي عبارة «الجمهورية الحرة»[74] فهي من حيث التشابه الشكلي تتوافق مع المخطط المكون من رؤوس أقلام أعدها فيبر في كانون الثاني/ يناير من العام 1919. ويتعزز ذلك لأن فيبر استخدم ورقاً بالحجم نفسه، وأن نوع أو طريقة كتابة الخط متشابهة في كلتا الحالتين. كما إن

= إشارات أخرى إلى «الشهيد» ليبكنخت. انظر أوراقه التي تضمنت رؤوس أقلام محاضرته بعنوان (Der freie Volksstaat) وقد أعيد نشرها في الأعمال الكاملة (MWG I/16, S. 163). انظر أيضاً المنشور الذي وزعه الحزب الديمقراطي الألماني قسم هايدلبرغ حول خطاب ماكس فيبر (عن الجمهورية الحرة) في 17 كانون الثاني/ يناير 1919، الأرشيف الاتحادي، كوبلنز (MWG I/16, S. 461).

(74) انظر مخطوط ماكس فيبر، رؤوس أقلام محاضرته (Der freie Volksstaat) (MWG I/16, S. 160-173). انظر أيضاً الفقرة اللاحقة من هذا التقديم.

إشارته الواردة في السطر الأول من المخطوط «من يمتهن السياسة (أيسنر)»[75] قد تكون على علاقة برغبة الطلاب الأحرار في حال عزوف فيبر عن إلقاء المحاضرة، بالتوجه إلى أيسنر ليكون المتحدث في موضوع «السياسة بوصفها حرفة». وهذا ما يجعلنا نقدر أن تاريخ وضع المخطوط الذي يحمل رؤوس الأقلام في الورقة A11 قد يكون أقرب إلى كانون الثاني/ يناير 1919. وفي كل الأحوال قد يكون التعبير الذي أُقحم في السطرين الأولين من مخطوط رؤوس الأقلام في الورقة A11 فوق الكلمتين «أخلاق ـ السياسة» التي يبدو الخط فيها أكثر دقة[76]، شهادة على أن هذين السطرين أضيفا في وقت لاحق.

انطلاقاً من التفاصيل التي أوردناها حول هذه الورقة المكتشفة يمكن القول أن القسم الأقدم من الورقة A1، قد يكون مخططاً لمحاضرة أخرى، أو لمحاضرات أخرى، وقد استخدمه لاحقاً ليكون تمهيداً أو أساساً لمحاضرته بعنوان «السياسة بوصفها حرفة». وفي كل الأحوال، لا يمكننا إعادة ترتيب هذا الجزء من المخطوط A1 وفقاً للمحاضرات التي نعرفها من محاضرات ماكس فيبر التي قدمها بين 1917 و1919. ولا مجال لإعادة تصنيفها وربطها بالمحاضرات التي قدمها في بورغ لونشتاين أو أمام جميعة العلوم الاجتماعية في فيينا في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، إذ إن هذه المحاضرات عالجت موضوعات أخرى مختلفة[77]، ولا أيضاً مع محاضرته في هابنهايم

---

(75) انظر النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة.

(76) انظر النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة.

(77) حول المحاضرات في اللقاء الثقافي في لونشتاين انظر، التقرير السابق حول «العلم بوصفه حرفة». وحول محاضرته في فيينا بعنوان (Probleme der Staatssoziologie)، انظر التقرير الصحافي في: *Neuen Freien Presse*, Nr. 19102 (26 Okt. 1917), S. 10.

حول «الدولة والدستور» التي كان يخطط لإجرائها في 18 أيلول/ سبتمبر من العام 1917[78]. في كل الأحوال يمكن أن تكون رؤس أقلام المخطوط A1 قد أُعدت لتكون أساس محاضرة كان يخطط لإعطائها في مدرسة أودنغالد (Odenwaldschule) في أواخر صيف العام 1918، باعتبار ذلك عملاً حراً. وكان يفكر آنذاك بدروس تمتد لأربعة عشر يوماً، وهي ذات طبيعة ثقافية وتاريخية وسياسية. وكان همه قبل أي شيء آخر «أن يعرف إذا ما كان بالإمكان من الناحية التربوية معالجة أمور تاريخية كهذه أمام صفوف بعمر الشباب»[79].

وفي المقابل، فإن الأقل احتمالاً هو أن تكون رؤوس الأقلام في الورقة A11 قد أعدت لاستخدامها في محاضرة أخرى. وفي كل الأحوال تأتي الإشارة إلى المقطع «أخلاق ـ سياسة» في الترويسة، والتي قد تكون إشارة إلى العنوان الرئيس أول الأمر، لتشير إلى احتمال أن تكون الورقة A11 قد أعدت أساساً لمحاضرة حول العلاقة بين الأخلاق والسياسة، علماً أننا قد أشرنا إلى كتابة هاتين الكلمتين بحرف كبير ـ أو قد يكون ذلك إضافة إلى المقطع السابق أو الترويسة السابقة وهي كما يأتي: Wer hat Beruf zur Politik (Eisner) Innere Sachverhalte: Spannungen g(e) g(en) Leben:[80] [معناها من اتخذ السياسة مهنة [أيسنر] أحوال حميمية: توترات ضد الحياة].

---

(78) حول محاضرته في هابنهايم (Heppenheim)، انظر المقدمة الخاصة بالجزء 15 من المؤلفات الكاملة (MWG I/15, S. 19, Anm. 26). ثمة مخطط مضموني لهذه المحاضرة نجده في رسالة ماكس فيبر إلى مارتن شبان (Martin Spahn) بتاريخ 15 أيلول/ سبتمبر [1917]. ملكية خاصة.

(79) انظر رسالة فيبر إلى ليلي شيفر (Lili Schäfer) بتاريخ 7 كانون الأول/ ديسمبر [1917]، و25 نيسان/ أبريل [1918] الأرشيف المركزي، مرسبورغ.

(80) انظر النماذج التي أرفقناها بهذه الترجمة.

مع ذلك لا علم لنا بمحاضرة كان يعتزم إلقاءها بهذا العنوان. وفي الأرجح أن تكون الورقة A11، تبعاً لما تقدم، قد وضعت مباشرة تحضيراً لمحاضرته حول «السياسة بوصفها حرفة». ويشهد على ذلك أن رؤوس الأقلام المشار إليها في هذه الورقة استعيدت في معظمها في ثنايا النص الذي أُعدَّ للنشر(81).

على العموم فإن الظروف التي أحاطت بكل الفرضيات المتعلقة بمخطوط رؤوس الأقلام تظل غير مرضية. وإذا ما استرجعنا ما لدينا من معطيات ومعلومات حول ظروف حياة ماكس فيبر بين خريف 1918 وكانون الثاني/ يناير 1919 لوصلنا إلى المجريات الحياتية الأكثر معقولية:

بعد أن بدا مع مطلع شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 أن فيبر سيشارك بالتأكيد في المحاضرة بعنوان «السياسة بوصفها حرفة» ربما يكون قد عكف في النصف الثاني من شهر كانون الأول/ ديسمبر بعد عودته من برلين حيث شارك في العمل الاستشاري المتعلق بتحضير الدستور، على التحضير لهذا الجزء الأكثر قدماً من مخطوط رؤوس الأقلام وعلى تعديلاته. ويشهد على ذلك التقارب المضموني في الإشارات إلى العلاقات في ألمانيا منذ ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر، وفي معالجته لموضوع شكل الدولة المستقبلي لألمانيا، والتي لا برهان على وجود لها بهذا الشكل في خطاباته الانتخابية. في هذا الإطار يمكن أن تكون الاستطرادات العديدة التي تتعلق بمسألة السياسة بوصفها حرفة من الخارج قد ظهرت في ظل ظروف الحداثة، ما يشكل جوهر النص في الورقة A1 التي تشكل من الناحية التاريخية المعلومات التي تُعتبر أساس محاضرته.

(81) انظر الفقرات التالية في هذا الفصل.

في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1918، انسحب فيبر مستاءً ومتألماً من خسارته الترشيح لانتخابات المجلس الوطني تاركاً كل التزاماته السابقة، ولم يكن يعرف إلا بصعوبة ما إذا كان سيلقي فعلاً المحاضرة حول «السياسة بوصفها حرفة». إلا أنه كان شديد الانشغال في النصف الأول من كانون الثاني/ يناير لحساب الحزب الديمقراطي الألماني بحيث يصعب عليه الانهمام بمحاضرته عن السياسة بوصفها حرفة. فقط وفي إطار المباحثات حول تعيين الموعد النهائي لمحاضرته في الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1919 كان عليه، في الأرجح، أن ينصرف إلى التحضير لمحاضرته. ويؤكد إسراره لإلسي يافي في التاسع عشر، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير أن محاضرته ستكون سيئة[82]، مع أن ذلك يعود أساساً إلى دوافع شخصية، أن الإنجاز النهائي لعمله كان مازال في تلك الفترة في طور التحضير.

في الأرجح أن ماكس فيبر أبدى في الأيام التي تلت تحفزاً جديداً وراح يكتب الخطوط الأولية للموضوعة التي كانت تشغل باله بقوة، ولاسيما العلاقات المتناقضة بين سياسة السلطة المسؤولة والسياسة التي تقوم على العقلانية، كما نجد ذلك في الورقة A11. وقد كتب ذلك دفعة واحدة دون تعديلات كبيرة أو إضافات. وقد تم ذلك فعلاً بين الثالث والعشرين والثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير. ودليلنا على ذلك ما نجده من إضافة مختصرة تجلت بعبارة «الجمهورية الحرة» التي تتشابه وإن ظاهرياً مع رؤوس أقلام مخطوطه لمحاضرة بهذا العنوان، أضف إلى ذلك الإشارة إلى كورت أيسنر التي وردت في بداية المخطوط مباشرة.

---

(82) انظر ص 222 من هذا الفصل.

يمكن لوصف الأمور بهذا الشكل أن يُبرز الاختلافات الكبيرة صورياً ومضمونياً بين الورقة A1 والورقة A11، وأن يوضح عدم وجود ترقيم متسلسل لكل الصفحات. ومن المحتمل جداً كذلك أن لا يكون ماكس فيبر قد تطرق في عمله في الورقة A11 إلا بشكل بسيط إلى تعديل في نواة النص التأسيسي الوارد في الورقة A1 الذي كان جاهزاً في كانون الأول/ ديسمبر من العام 1918. تجد هذه الفرضية تأييداً لها إذ إن فيبر عاود شطب الإشارة إلى ليبكنخت بوصفه شهيداً. مع ذلك، وبسبب المظاهر المختلفة على أجزاء المخطوطتين (الورقتين)، تبدو هذه الفرضية الأقل احتمالاً.

بالنسبة إلى المحاضرة بشكلها الشفهي، فمن الممكن أن يكون فيبر قد عمد إلى دمج هذين المعطيين بحيث شكّلا معاً أساس تحقيقاته. وفي كل الأحوال لا نملك إلا تفصيلات قليلة جداً أوردها بعض المشاركين عن محاضرته في 28 كانون الثاني/ يناير 1919. ولذلك فنحن لا نعرف إذا ما كان ماكس فيبر قد ركز على مضمون الورقة A1 أو مضمون الورقة A11. ولكن استناداً إلى ما تميزت به هذه السلسلة من المحاضرات يمكننا الافتراض أن الأفكار تركزت على الجانب الداخلي من الاحتراف السياسي، وهذا ما نجده في الورقة A11 بشكل أساسي بالنسبة إلى الصيغة المطبوعة إذ تمت مراعاة رؤوس الأقلام ككل، فإلى حد ما نجد فيها تقريباً كل رؤوس الأقلام، حتى لو حدث ذلك بشكل شديد الاختلاف من حيث الترتيب أو التعاقب. ثمة كلمات قليلة وردت في هذه المخطوطات المبتسرة لا مقابل لها في النص المطبوع. ينطبق ذلك إلى حد ما على الإشارة إلى نزعة تسود بعض الدول من حيث جعل الحياة البرلمانية حياة كلية الحضور[83]، والإشارة إلى جون ستيوارت

(83) انظر نماذج مرفقة بهذه الترجمة.

مِل[84]، المشار إليها في «العلم بوصفه حرفة»[85] إلا أنها لم ترد في النص الذي أُعد للطباعة في «السياسة بوصفها حرفة»، وكذلك الإشارة إلى «النضوج» الكلمة المرفقة بجملته حول اختلاف الحب عند الرجال الناضجين عنه عند الشباب الواردة في الصفحة (4) إلى اليمين[86]، وكذلك الإشارة إلى «سيغموند» في «Richard Wagners Walkure»[87]. أخيراً، نجد بعض مقولات فيبر حول علم اجتماع الدين[88]. كذلك المقاطع التي تتناول في الورقة A1 بشكل رؤوس أقلام، وفيها أن الارستقراطية تعيش من أجل السياسة، وأن العملية الديمقراطية نتيجة ضرورية: والعيش من السياسة[89]، عبارات نجدها مجدداً في النص المطبوع، ولكن بشكل مختلف كلياً[90].

بعد أن تمت المحاضرة، «السياسة بوصفها حرفة» في 28 كانون الثاني/ يناير 1919 انصرف إيمانويل بيرنباوم دون تردد من أجل العمل على إعدادها للنشر. وبما أنه لم يكن قد عرف بعد موعد إلقاء المحاضرتين الأخريين اللتين كانتا بعنوان «التربية بوصفها حرفة» و«الفن بوصفه حرفة»[91]، اتخذ بيرنباوم مسافة من المخطط

---

(84) انظر نماذج مرفقة من الكتاب.
(85) انظر سابقاً ص 189 من هذا الكتاب.
(86) انظر نماذج مرفقة من الكتاب.
(87) انظر نماذج مرفقة من الكتاب.
(88) انظر مقالة فيبر: Max Weber: «Zwischenbetrachtung,» in: *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1920), Band 1, S. 561 (MWG I/19, S. 507), and «Die Protestantische Ethik und der Geist des Kapitalismus,» in: *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*, S. 98 (MWG I/18).
(89) انظر نماذج مرفقة بهذه الترجمة.
(90) انظر لاحقاً ص 278 من هذا الكتاب.
(91) انظر التقرير المرفق بالنص حول محاضرته «العلم بوصفه حرفة»، القسم الأول من هذا الكتاب.

الموضوع القاضي بجعل المحاضرات الأربع في جزء واحد كما هو معلن سابقاً بحيث تندرج ضمن عنوان «العمل الفكري بوصفه حرفة». وبموجب الاتفاق المعقود في الثامن من حزيران/ يونيو 1918[92] اقترح بيرنباوم على الناشر دنكر وهمبلوت في الثلاثين من كانون الثاني/ يناير 1919 إصدار المحاضرتين «العلم بوصفه حرفة» و«السياسة بوصفها حرفة» بشكل مستقل بحيث لا يتأخر نشرهما طويلاً[93]. وافق الناشر فوراً على هذا العرض. أما إشارة بيرنباوم إلى تحسين الشروط المتفق عليها سابقاً بخصوص عدد النسخ المطبوعة أو المكافآت المقدرة لفيبر على ذلك، فلم تلقَ في كل الأحوال إلا موافقة جزئية. وفي حين أصر الناشر على رأيه بطبع 2200 نسخة من «العلم بوصفه حرفة» كما تم الاتفاق سابقاً وبدفع مكافأة قيمتها 300 مارك، أبدى استعداده زيادة عدد نسخ المحاضرة الثانية «السياسة بوصفها حرفة» إلى 3000 نسخة وبزيادة قيمة المكافأة إلى 450 ماركاً[94].

سُحب نص محاضرة فيبر الأولى كما الثانية عن نص قام بوضعه أحد المختزلين الفوريين. هذا وقد كان من المقدر أن يحصل فيبر على نسخة مختزلة نظيفة مع بدل قدره 120 ماركاً في الأول من شباط/ فبراير 1919، وقد أرفق ذلك برغبة أن يلقي فيبر نظرة على النص وأن يقوم بتصحيحه بعد إعادة كتابته، علماً أن النص هذا قد صار متوفراً عنده الآن[95]. في 21 شباط/ فبراير 1919 أودع بيرنباوم

---

(92) انظر أعلاه ص 215 ـ 216 من هذا الكتاب، وكذلك التقرير المرفق بالنص.

(93) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى الناشر دنكر وهمبلوت في 30 كانون الثاني/ يناير 1919 (أرشيف دار النشر، ملكية خاصة).

(94) رسالة الناشر إلى إيمانويل بيرنباوم بتاريخ 31 كانون الثاني/ يناير (المصدر نفسه).

(95) انظر رسالة بيرنباوم إلى ماكس فيبر بتاريخ 9 شباط/ فبراير 1919.

لدى الناشر دنكر وهمبلوت مخطوط المحاضرة الأولى «العلم بوصفه حرفة»، وأعلمه في الوقت نفسه أن المحاضرة الثانية «السياسة بوصفها حرفة» ستلي ذلك وستصله بعد عدة أيام[96]. إلا أن ثمة تأخيراً حصل في الأرجح. وبمناسبة إرسال التجارب الطباعية الأولى من «العلم بوصفه حرفة» تمنى الناشر وبإلحاح شديد الحصول على مخطوط «السياسة بوصفها حرفة» ذلك أنه يزمع دفع المخطوطين معاً إلى المكتبات[97]. وأجاب ماكس فيبر في الخامس من آذار/ مارس، معلناً أن المخطوط موجود منذ أيام لدى بيرنباوم[98]. وبسؤاله عن هذا الموضوع بالذات أجاب بيرنباوم في رسالة إلى الناشر أنه لم يتلقَ هذا المخطوط حتى الآن[99]. وقد استغرق الأمر أكثر من أسبوع حتى وصل المخطوط أخيراً إلى الناشر بحيث لم يتمكن هذا الأخير من إيداع نص المخطوط المطبعة إلا في التاسع عشر من شهر آذار/ مارس[100].

كما يستفاد من أقوال ماكس فيبر ومن الأشخاص الذين شاركوا في عملية الإعداد للطبع، فإن المؤلف عمد إلى إحداث تغييرات كثيرة على الشكل المختزل المقدم إليه من محاضرته «السياسة بوصفها حرفة». وعلى ما يبدو، فإن ماكس فيبر تأكد بعد قراءته للنص المختزل من الشكوك التي سبق له أن أعرب عنها سلفاً من أن

---

(96) ملاحظة حول محادثة بين بيرنباوم والناشر في 21 شباط/ فبراير 1919 (المصدر نفسه).

(97) رسالة من الناشر إلى ماكس فيبر بتاريخ 3 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

(98) رسالة ماكس فيبر إلى الناشر بتاريخ 5 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

(99) رسالة إيمانويل بيرنباوم إلى الناشر بتاريخ 10 آذار/ مارس 1919 (المصدر نفسه).

(100) رسالة من الناشر إلى المطبعة (Pierersche Hofbuchdruckerei)، بتاريخ 19 آذار/ مارس 1919.

محاضرته في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير قد تكون سيئة[101]، وهكذا عاود الكتابة إلى إلسي يافي أنه شعر أن محاضرته بشكلها المختزل «ضعفية جداً بالفعل»[102]. ولذلك عمد إلى تعديلها وهو يعدها للطبع، وقد صارت الآن مقبولة[103]. وعلى ما يبدو فإن التعديل المشار إليه هنا كان بمثابة توسيع للنص. هذا ما يمكن استخلاصه من الرسالة المرفقة بالنص التي أرسلها الناشر إلى المطبعة بمناسبة تحويله نص المخطوط في التاسع عشر من آذار/ مارس 1919، حيث جاء فيها أن المخطوط يتكون مع «الاستطرادات» من 32 ورقة (مقابل 24 ورقة بالنسبة إلى مخطوط «العلم بوصفه حرفة»)[104]. بدوره عاد إيمانويل بيرنباوم وذكرنا بعد سنوات أن ماكس فيبر وسع «بشكل كبير» في المخطوط المختزل المقدم إليه، وأن الاستطرادات العديدة كلفت المطبعة جهوداً كبيرة من أجل فك رموزها إذ كانت قراءتها صعبة جداً، ما جعل عملية الطبع محفوفة بالمشاكل: بالإمكان أن نكون سعداء أخيراً إذا حالفنا الحظ أن نجد من يصف الحروف ويكون متخصصاً بمعرفة خط فيبر، وحتى يُقرأ بعد ذلك المخطوط بحيث يكون خالياً من كل الشوائب[105].

---

(101) انظر أعلاه ص 220 ـ 222 من هذا الكتاب.

(102) رسالة ماكس فيبر إلى إلسي يافي تاريخ الثلاثاء [4 آذار/ مارس 1919]، ملكية خاصة.

(103) المصدر نفسه.

(104) رسالة من الناشر إلى المطبعة بتاريخ 19 آذار/ مارس 1919 (أرشيف دار النشر، ملكية خاصة).

(105) هذا ما يستفاد من رسالة فريتيوف نواك إلى ماريان فيبر بتاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1924. في ملاحظتها الأولية على الطبعة الثانية من «السياسة بوصفها حرفة» التي أصدرتها دار النشر عام 1926، تؤكد ماريان فيبر حرفياً، أن ماكس فيبر عدل ملاحظاته لاحقاً على الطباعة.

ولكن للأسف، لا نملك معلومات وافية عن مدى اتساع مدى هذا العمل الذي ترافق مع الانشغال في المخطوطات. وبالنظر إلى وجوب معالجة العمل الطباعي لسلسلة من الأمور والأحوال العينية التي لا تتفق مع ما يوجد في رؤوس الأقلام المرفقة بالمخطوط أو تتفق معها، ولكن بشكل عابر، فإن بمقدورنا أن نفترض أنها لم تكن موجودة في نص محاضرة الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1919 وأنها أضيفت في وقت لاحق. ينطبق ذلك بشكل خاص على التفاصيل التي أوردها فيبر المتعلقة بمقولته حول «أنماط السيطرة الثلاثة»[(106)]، وحول دور الصحافة، وحول إمكانية ارتقاء الصحافيين إلى القيادة السياسية[(107)]، أو تلك التي تعالج الأنظمة الحزبية في الولايات المتحدة[(108)]، وإلى تلك الصياغات الذائعة الشهرة التي عالجت موضوع علاقة القيادة الديمقراطية «بالماكينة»[(109)]. وبما أننا نعمد في ما يأتي إلى إرفاق رؤوس الأقلام الموجودة في المخطوط في هامش النص المطبوع بحيث يتضح وجه الشبه بين توسيع النص المطبوع مقابل الانشغال في المحاضرة، فإننا لا نجد فائدة كبرى من متابعة عرض هذه النقاط هنا[(*)].

أجرى ماكس فيبر وفي تعديلاته للنص الذي ألقاه كما سبقت الإشارة عدة تغييرات لحقت بالحجج التي بنى عليها. هكذا نجد في النص المعد للطباعة تمييزاً بين «سياسيي المناسبات، والسياسيين

(106) انظر ص 264 من هذا الكتاب.

(107) انظر ص 302 ـ 308 من هذا الكتاب.

(108) انظر ص 324 ـ 330 من هذا الكتاب.

(109) انظر ص 337 من هذا الكتاب.

(*) لم نقم بذلك في الترجمة العربية لأسباب تقنية، ولأن هذا التقديم يغني عن التفاصيل اللاحقة. وقد اكتفينا بتقديم أكثر من صورة عن ذلك.

المعتادين»، وهذا ما نجده في الصفحة الأولى من الورقة A1 من رؤوس الأقلام جعل بعد التأملات حول «مسعى الأمير بعد زوال جماعات المكانة أو النقابات»، في حين أن إشارة رؤوس الأقلام إلى ذلك تمت في الصحفة 2 من الورقة A1[110]. كذلك نجد مقابل رؤوس الأقلام في الورقة A11 عدة تعديلات لحقت بالنص المطبوع من «السياسة بوصفها حرفة»[111]. وبالإمكان أخذ فكرة واسعة حول ذلك من مقارنة مخطوط رؤوس الأقلام المطبوعة على هامش النص المطبوع هنا. في كل الأحوال من الصعوبة أن يكون الترتيب متوازياً بين النص المعد للطباعة ورؤوس الأقلام واضحاً جداً، إذ ليس من النادر أن نجد تغيرات تطال تدرج البرهان، إذ إنه قد تدرج في سياقات أخرى مختلفة.

نعلم من الرسائل المتبادلة بين الناشر والمطبعة أن عملية الصف الطباعي، وما رافقها من إجراءات التصحيح على «السياسة

(110) انظر النماذج المصورة المرفقة.

(111) تكفي الإشارة هنا إلى بعض الأمثلة. في حين أن مفاهيم مثل «المعاناة» و«بعد النظر» وهي رؤوس أقلام من الورقة A11 لا نجدها إلا في الصفحة (4). إن مطالب فيبر المعروفة للسياسيين بوجوب العمل بمعاناة وحماس ـ والشعور بالمسؤولية ـ وبعد النظر تشكل في النص المطبوع همزة الوصل إلى معالجته الموسعة حول الأخلاق والسياسة. أما المقاطع على الصفحة 2 وسط مخطوط الورقة A11 من رؤوس الأقلام «نوعان من الأخلاق» وأن العالم هو «عالم أحمق» فهي مقاطع حشرت قبل المقاطع التي نجدها في الصفحة 2 من الورقة A11، أي قبل «أخلاق متنوعة» [هذا ما يستنتج من مقارنة رؤوس الأقلام مع النص 2 (م)].

واللافت على ما يبدو أن ماكس فيبر اختار في طباعة النص نهاية تختلف عما جاء في نهاية الخطاب بتاريخ 28 كانون الثاني/ يناير 1919. وكما يستفاد من رؤوس أقلام المخطوط يمكن أن يكون فيبر قد آثر إنهاء خطابه باقتباس من لوثر يبدأ كما يأتي «لا أستطيع القيام بأمر آخر...». إلا أن موضع هذا النص في النسخة المطبوعة نجده في مكان آخر، وليس في نهاية النص مباشرة.

بوصفها حرفة»، امتدت إلى آخر أيار/ مايو من العام 1919[112].
ولم يُنتهى من الكتيبين إلا في نهاية حزيران/ يونيو وبداية تموز/ يوليو 1919، ففي رسالة مؤرخة في 5 تموز/ يوليو 1919 يُعلم ماكس فيبر، (زوجته) ماريان فيبر: أنه تلقى نماذج نهائية من «السياسة بوصفها حرفة» و«العلم بوصفه حرفة»، وأنه يعتزم إرسال بعض النسخ المجانية إلى عدد من الزملاء[113]. ولا نعلم بالتحديد الزمن الدقيق لإيصال هذه الكتب إلى المكتبات، ففي صحيفة البورصة عن تجارة الكتب الألمانية نجد أن الإعلان عن هذين العملين لم يُعلن بين الإصدارات الجديدة إلا في الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر 1919 في زاوية الإعلان عن «إصدارات جديدة في تجارة الكتب الألمانية»[114].

2 ـ تواتر انتقال المخطوط والطباعة

يُعتبر المخطوط الذي تضمن رؤوس الأقلام المكتوبة بخط اليد أقدم صياغة أولية وصلتنا عن النص الذي بين أيدينا. وعلى أساس هذه الأوراق المخطوطة ألقى ماكس فيبر في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1919 محاضرته «السياسة بوصفها حرفة». وقد أودع إدوارد بومغارتن هذا المخطوط في أواسط خمسينيات القرن الماضي أرشيف ماكس فيبر في ميونيخ، وكان قد حصل عليها مما تركته ماريان فيبر. ونجد ثمة صوراً عن هذا المخطوط في كتاب

(112) انظر رسالة المطبعة إلى الناشر بتاريخ 25 أيار/ مايو 1919 (أرشيف دار النشر، ملكية خاصة).

(113) رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر السبت [الخامس من تموز/ يوليو 1919].

(114) انظر: *Börsenblatt für den Deutschen Buchhandel*, Nr. 24 (13 Okt. 1919), S. 10009.

إدوارد بومغارتن[115]. وفي تعقيبه على اللوحات يعتبر بومغارتن هذه الأوراق أصل المخطوط الذي ألقيت المحاضرة بناء عليه (مخطوط المحاضرة). قد يكون رأيه هذا مستنداً إلى حديث شفهي مع ماريان فيبر، الأمر الذي جعله يعتقد جازماً أن هذه الأوراق كانت أساس المحاضرة التي ألقاها فيبر عن «السياسة بوصفها حرفة». ويعتبر الآن الأصل الذي نسخت عنه هذه الصور مفقوداً منذ سبعينيات القرن الماضي. وكان قد حصل ولفغانغ ي. مومسن (Wolfgang J. Mommsen) على صورة من المخطوط في العام 1995، وهي الآن مودعة في مركز العمل على أعمال ماكس فيبر الكاملة في المعهد التاريخي لجامعة ديسولدورف. وكانت في حينه محفوظة في مركز العمل على أعمال ماكس فيبر الكاملة في ميونيخ أيضاً. هنالك نجد أيضاً نسخاً من الصور التي استخدمها بومغارتن في إنجازه لكتابه عن ماكس فيبر، المشار إليه آنفاً.

وتتكون مخطوطة رؤوس الأقلام من جزءين[116] مستقلين مرقمين (A1, A11)، وهما جزءان يتميزان بمعالم شكلية ومضمونية[117]. يتكون الجزء A1 من أربعة أوراق بقياس 14,2 × 22,2 سم. وقد استخدمت في ذلك ملازم ورق قصت بشكل خفيف عمودياً، وكانت أساساً بقياس 28,5 × 22,2 سم قطعت طولياً من الوسط إلى قسمين. ويتكون المخطوط الثاني A11 من أربعة أوراق أيضاً، إلا أنها بقياس 9,5 × 22,2 سم، وقد استخدم في ذلك أوراقاً

---

(115) Eduard Baumgarten, *Max Weber. Werk und Person* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1964),

اللوحات 12، 14 و16.

(116) صحيح أننا ننطلق من أن النص الذي وصلنا هو نص كامل، فإننا لا نستبعد أن يكون ثمة أجزاء أخرى منه غير موجودة.

(117) بما يمكن أن يستخلص من نتائج، انظر ما ورد سابقاً.

لها الشكل نفسه أيضاً، والقياس نفسه كما في أوراق A11، إلا أن هذا القسم A1، قسمت الورقة فيه إلى ثلاثة أقسام. وهذا ما نستطيع استنتاجه من مقارنة A11 مع المخطوط الذي وصلنا المتعلق برؤس أقلام محاضرته بعنوان [«Der Freie Volksstaat»] - «الجمهورية الحرة» التي ألقاها في أوائل كانون الثاني/ يناير 1919 التي تتشابه مع A11 إن من حيث شكل النص ونوع الخط أيضاً[118]. هنا يمكننا كذلك أن نعتبر الأوراق وهي بقياس 9,5 × 22,2 سم أقساماً من أوراق أكبر كانت بقياس 28,5 × 22,2 سم وقد قطعت الواحدة منها إلى ثلاثة. والظاهر في كل الحالات الثلاث أن فيبر استخدم النوع نفسه من ملازم الورق، إلا أنه في حالة A1 قطع الورقة إلى نصفين، وفي الحالتين الأخريين A11، ومخطوط الجمهورية الحرة، قسم الورقة إلى ثلاثة أجزاء.

الصفحات الثلاث الأولى من A1 مرقمة بخط يد ماكس فيبر، في حين أن الصفحة 4 غير مرقمة. أما A11 فهي مرقمة من الصفحة 2 إلى 4، أما الورقة الأولى فهي غير مرقمة. ونجد في الصفحة 4 ملاحظة بكلمة «Verte» وهي إشارة إلى متابعة النص على ظهر الصفحة.

نجد على A1 رؤوس أقلام «النص الأساسي»، وقد جُعل ذلك إلى الجانب الأيمن من الورقة. وفي هذا النص نجد عدة مقاطع جُعلت إلى الجانب الأيسر من الصفحة أُشير إليها أو جرى تقطيعها بخطوط موازية. وقد تمت المحافظة على ترتيب المقاطع في النص الأساسي بشكل جوهري حتى في سياق النص المطبوع الذي وصل

(118) مخطوط رؤوس أقلام المحاضرة بعنوان «الجمهورية الحرة» مازال موجوداً في مكتبه إقليم بافاريا (BSB. Ana 446, OM9). وقد تم تحقيقه ونشره ضمن الأعمال الكاملة .(MWG I/16, S. 160-173)

إلينا[119]، في حين لا نجد الاستطرادات أو الإقحامات هنا كلها في المكان نفسه، بل هي موجودة في أماكن متفرقة من النص. إذ نجد في الصفحة 3 من مخطوط رؤوس الأقلام مقطعاً بعنوان «السياسي الحديث المحترف» (حرفة مادية فكرية = Beruf ideell materiell)، وقد جعله ماكس فيبر بخط يده في الصفحة 1 في الأسفل[120]. إلا أننا نجد، انطلاقاً من النص المطبوع ومقارنة بالمخطوط، أن هذا المقطع استُبدل بمقطع آخر أُشير إليه بتعبير: سياسي المناسبات (...) أي نمطٍ[121]؟. ونجد الإقحامات التي يتميز خطها إلى حد ما عن «النص الأساسي» كما سبقت الإشارة في النص المطبوع جزئياً في أماكن أخرى، تختلف عن المواقع التي يعتقد أنها رُصدت لها في مخطوط رؤوس الاقلام[122].

خلافاً لما هو الحال في A1، نادراً ما نجد على A11 استطرادات أو إقحامات جديدة. وفي الأرجح أن الأساس وضع بكامله

(119) من حيث الترتيب تتوارد مثلاً مقاطع «الغاية... الهدف المادي» وهذا «عمل سياسي» (...) وهذا ما يتطابق مع توزيع السلطة على الصفحة الأولى من مخطوط رؤوس الأقلام A1 (انظر بداية النص اللاحق). وما نجده تحت عنوان السياسي المحترف والتدرج الموجود على الصفحة 2 من الورقة A1 قد خضع لبعض التغيرات بحيث لا نجد الترتيب نفسه كما في رؤوس الأقلام. وقد حدث ذلك تاريخياً، ربما لأن ماكس فيبر في إنجازه طباعة المحاضرة قد أفرد مقطعاً واسعاً في هذا المكان لدلالة القضاة في تطور الدولة الغربية.

(120) انظر نماذج مرفقة من الكتاب.

(121) انظر ص 274 من هذا الكتاب.

(122) ينطبق ذلك على مقطع «سياسيو ـ المناسبات (...) أي نوع؟» على الصفحة 1 من الورقة A1. والتي انتقل توسيعه إلى بعد رؤوس الأقلام على الصفحة 2 من رؤوس أقلام الورقة A1. ما بعد المقطع حول جهود الأمير (...) سيرورة قيام الدولة الحديثة. كذلك حصل تعديل آخر تناول تعديل موقع بعض المقاطع (انظر صور النماذج المرفقة). كذلك تغير موقع الاستطراد الذي أشير إليه على الصفحة 3 من الورقة A1 (انظر صور النماذج المرفقة). ونجد في النص المطبوع مباشرة بعد رؤوس الأقلام على الورقة A1 مقاطع من الصفحة نفسها (انظر نماذج مرفقة من الكتاب).

دفعة واحدة. لكن اللافت بالطبع هو الشكل الذي نجده في السطر الثالث بعنوان لافت[123] (مع التشديد على الخط) وهو «أخلاق ـ سياسة» والذي قد يكون عنواناً، أو عنواناً فرعياً على الأقل.

الصيغة الثانية من محاضرته «السياسة بوصفها حرفة» يجب أن تكون الصيغة التي وُضعت بطريقة الاختزال أثناء إلقاء فيبر محاضرته في 28 كانون الثاني/ يناير 1919. مع ذلك فإننا لا نملك لا الصيغة هذه بشكلها المختزل ولا التبييض الذي وُضع لها انطلاقاً من النص المختزل الذي تلقاه فيبر في أول شباط/ فبراير من العام 1919[124].

أجرى ماكس فيبر على النسخة المبيضة وقبل دفعها إلى الطباعة في آذار/ مارس 1919 تعديلات واسعة. وقد صار النص نتيجة هذا التعديل، كما يروي بيرنباوم، موسعاً جداً بما أدخل إليه من استطرادات وإقحامات كثيرة[125]. حتى هذه الصيغة الثالثة لم يصل إلينا أي مخطوط عنها. إلا أنه بإمكاننا أن نعيد بناء هذا النص إلى حد بعيد استناداً إلى مدى اتساع الاستطرادات ومقارنتها بمخطوط رؤوس الأقلام بالنص المطبوع، ولذلك فقد عمدنا إلى وضع مخطوط رؤوس الأقلام على هامش النص المطبوع في هذه الطبعة التي تلي هذا التقديم[*].

يجب أن تكون الملازم التي أعدت في الطبع وما عليها من تصحيحات الصيغة الرابعة التي يمكن اعتمادها أساساً للنص. إلا أن هذه لم تصل إلينا أيضاً، ولا نعلم عنها شيئاً، ولا نعلم في أي وقت حصل ذلك.

---

(123) انظر الصورة (1) في نماذج الصور المرفقة في هذا الكتاب.

(124) انظر نهاية المقطع السابق.

(125) انظر نهاية المقطع السابق.

(*) لم نقم بإنزال ذلك في هذه الترجمة حتى يكون النص منسجماً مع نص المحاضرة السابقة «العلم بوصفه حرفة».

عمدنا في ما يأتي إلى إثبات نص مخطوط رؤوس الأقلام A بصورته الأساسية، وبإزائه وضعنا الكتابات الموازية للصورة المخطوطة بما فيها من استطرادات ومن خطوط مقسمة للنص بشكل دقيق[126]. أما علامات الناشر فقد جُعلت بين أقواس، والكلمات غير المقروءة أُشير إليها بعلامات استفهام كما يأتي [؟؟]. أما الكلمات التي تعمّد ماكس فيبر شطبها فقد وُضعت ضمن أقواس معقوفة < > وأضيفت علامة الاستفهام ضمنها في حال كان الشطب غير واضح. أما التغييرات التي أرادها فيبر ووضعها بخط يده فقد تمت الإشارة إليها هنا بالعلامة الآتية. تم أخذ نسخة عن الصورة التي أخذت عن الأصل الضائع، علماً أن هذه الصورة هي ملك مومسن، في مركز العمل على أعمال ماكس فيبر الكاملة في ديسلدورف.

لم يؤخذ هنا بتفسيرات مومسن باستثناء واحدة منها لم نجد لها مقابلاً في النص المطبوع[*].

في الختام يصل النص بصيغته هذه إلى الطباعة، بحيث يخرج كتيباً مستقلاً ضمن سلسلة بالعنوان الآتي: «العمل الفكري بوصفه حرفة»، أربع محاضرات من قبل عصبة الطلاب الأحرار. المحاضرة الثانية، ماكس فيبر. السياسة بوصفها حرفة ـ ميونيخ ولايبزغ: دنكر وهمبلوت. ويمكن اعتبار الكلمات المفتاحية الموازية لرؤوس الأقلام دون أخذ الطريقة النقدية للنص بمثابة هوامش بحيث تسهل على القارئ عملية المقارنة بين النصين. وتعتمد هذه الطبعة تغييراً واحداً في النص الذي اعتمدته ماريان فيبر في طباعتها لـ «السياسة بوصفها حرفة» في أعمال فيبر السياسية الطبعة الأولى: *München: Drei Masken Verlag*، 1921، ص 396 ـ 450، ذلك أن هذه الفقرة تبدو

---

(126) إن النصوص التي أرفقت بالصور أعيد إنتاجها مع مراعاة أفضل ما يمكن.

(*) وهذا ما نلاحظه من الصور المرفقة.

من حيث الموضوع مقبولة في مكانها، ولذلك ما يمكن الاستناد إليه من حيث تعاقب الكلمات المفتاحية مع ما يوازيها من رؤوس أقلام في الأوراق التي وصلت إلينا من المخطوط. ويتعلق الأمر بالمقاطع التي تبدأ بعبارة كل «مزاولة للسلطة» (. . .) وينتهي بعبارة «الوسائل العينية في الإدارة»[127]. كان هذا المقطع في النص المطبوع القديم بين المقطع الذي ينتهي بعبارة «المجموعات البشرية التي يتضمنها» الذي يبدأ بعبارة «يتوافق ذلك بشكل أساسي. . .»[128]. ومن الممكن أن تكون ماريان فيبر قد استندت في هذا التعديل إلى نوع من التعليمات التي يمكن نسبتها إلى ماكس فيبر. وإلا فإن هذا التعبير أُهمل في مجموعة أعماله السياسية.

نجد ثمة موجزاً قصيراً عن «السياسة بوصفها حرفة» في جريدة *Deutsche Allgemeine Zeitung* العدد 610 بتاريخ 11 كانون الأول/ ديسمبر 1919 ص 2، بعنوان «الصحافي». يتعلق الأمر هنا بالمقاطع الواردة من بداية نص يتعلق بالصحافي الحديث. . . إلى نهايته[129].

وبما أن هذا الجزء المطبوع من النص، مع ما فيه من ثناء ومن بعض الإسقاطات التي قامت بها إدارة تحرير الجريدة لا تتضمن أي تغيير مقابل النص المطبوع، فإننا بدورنا قد قمنا بإسقاطه وعدم العودة إليه.

(127) انظر ص 267 من هذا الكتاب.

(128) انظر ص 263 من هذا الكتاب.

(129) انظر ص 302 ـ 308 من هذا الكتاب.



هذه الصور هي تظهير للأوراق المشار إليها مراراً في التعليقات السابقة.
والتي وجدت بخط فيبر، ويفترض أنه استعان بها لإلقاء محاضرته.

1
Dividenden- u[nd]
Abschreibungs-Politik

„Politik" (Diskontpolitik u.s.w.)
Leitung oder Beeinflussung der Leitung e[ines]
polit[ischen] *Verbandes (Staates)*

Charakteristisch f[ür] *Staat* nicht *Ziel*,
sondern *Mittel*
Gewaltsamkeit *(physische!)*
(*nicht einziges*, aber: *spezifisches*[ )]
Monopol legitimer Gewaltsamkeit.
(dies *fehlte* ihm früher)

cf. Trotzkij
A[rbeiter]- u[nd] S[oldaten-]Räte

„Politik treiben"
Anteil *haben* oder *erstreben* an spezifischen
Machtmitteln
Verwendung
Beeinflussung ihrer Verwendung.

Gelegenheits-Pol[itiker] (Abstimmung[b]
gelegentl[iche] Dienste[c])
Gewohnheits-Pol[itiker]

<Dauer->Gewohnheits- u[nd] Dauer-

2 Arten von „Politikern".
a) *für* die Pol[itik] leben
b) *von* der Pol[itik] leben
im *Neben*beruf: *Honoratioren*
Abkömmlichkeit Erfordernis
Grundherr [d]– Rentner[d]
nicht: Unternehmer – Arbeiter

Redakteur – (Gewerkschaft)
Beamter – *Advokat*[e] – nicht: Arzt.
Welcher Typus?

Zweck kann sein: ideales Ziel
Macht als solche
materielles Ziel

Das ist „politisch" an einer Frage,
einem Betrieb, einem Gesetz, e[iner] Leitung,
einer Bestrebung[a], einem Beamten
was die Art der *Macht*-
verteilung betrifft.

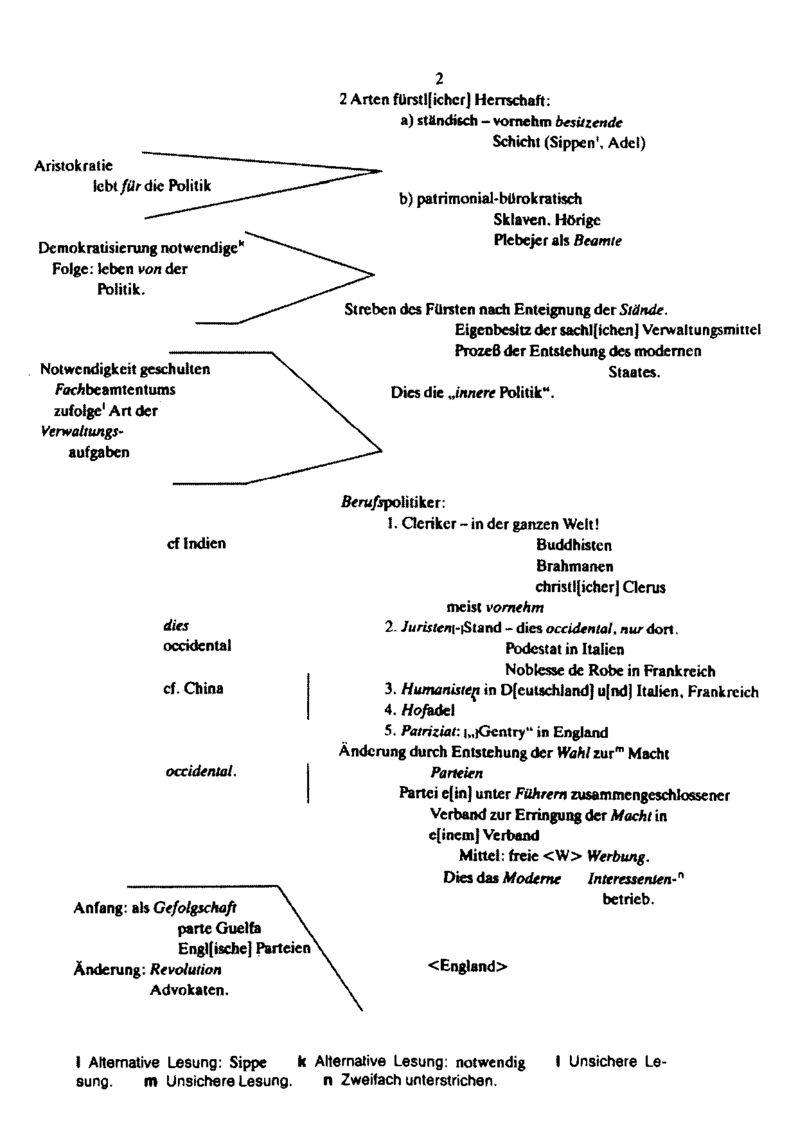
Art der Machtmittel:
1) Einstellung von Menschen zum
Gehorsam *(Apparat)*

Der Apparat durch *Interessen*
u[nd] *Ehre* am[f] Gehorsam
interessiert:
a) Lehen – Pfründen –
Ämter
b) <Amt> Standesehre

2) Sachliche Verwaltungsmittel
u[nd] Kriegsmittel
2 Systeme: a) Selbstequipierung
der Verwalter[g] *besitzt* die Pr[oduktions-]M[ittel][h]
b) *Trennung* v[on] Prod[uktions-]Mitteln

Vasallen pp.
α) Diener – *β) Beamte*

a Unsichere Lesung. b Unsichere Lesung. c Unsichere Lesung. d Unsichere Lesung. e Zweifach unterstrichen. f <??>> am g Arbeiter> Verwalter h Unsichere Lesung.



2

2 Arten fürstl[icher] Herrschaft:

a) ständisch – vornehm *besitzende* Schicht (Sippen[i], Adel)

b) patrimonial-bürokratisch
Sklaven, Hörige
Plebejer als *Beamte*

Aristokratie lebt *für* die Politik

Demokratisierung notwendige[k] Folge: leben *von* der Politik.

Streben des Fürsten nach Enteignung der *Stände*.
Eigenbesitz der sachl[ichen] Verwaltungsmittel
Prozeß der Entstehung des modernen Staates.

Dies die „*innere* Politik".

Notwendigkeit geschulten *Fach*beamtentums zufolge[l] Art der *Verwaltungs*-aufgaben

*Berufs*politiker:

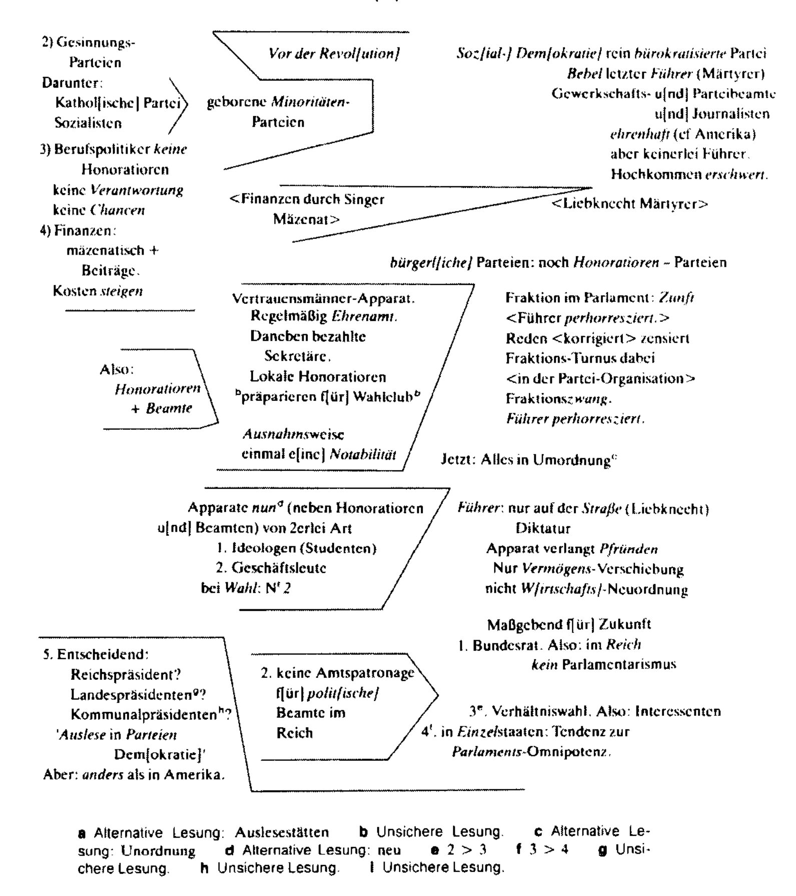
1. Cleriker – in der ganzen Welt!
Buddhisten
Brahmanen
christl[icher] Clerus
meist *vornehm* — cf Indien
2. *Juristen*[-]Stand – dies *occidental*, *nur* dort. — *dies* occidental
Podestat in Italien
Noblesse de Robe in Frankreich
3. *Humanisten* in D[eutschland] u[nd] Italien, Frankreich — cf. China
4. *Hof*adel
5. *Patriziat*: [„]Gentry" in England

Änderung durch Entstehung der *Wahl* zur[m] Macht
Parteien — *occidental*.
Partei e[in] unter *Führern* zusammengeschlossener Verband zur Erringung der *Macht* in e[inem] Verband
Mittel: freie <W> *Werbung*.
Dies das *Moderne* *Interessenten*-[n] betrieb.

Anfang: als *Gefolgschaft*
parte Guelfa
Engl[ische] Parteien
Änderung: *Revolution*
Advokaten.

<England>

i Alternative Lesung: Sippe **k** Alternative Lesung: notwendig **l** Unsichere Lesung. **m** Unsichere Lesung. **n** Zweifach unterstrichen.



a Alternative Lesung: Auslesestätten **b** Unsichere Lesung. **c** Alternative Lesung: Unordnung **d** Alternative Lesung: neu **e** 2 > 3 **f** 3 > 4 **g** Unsichere Lesung. **h** Unsichere Lesung. **i** Unsichere Lesung.

[1]

Wer hat *Beruf* zur Politik (Eisner)
Innere Sachverhalte: Spannungen g[e]g[en] *Leben*
Ethik – Politik.
1. Ethik funktioniert:
als *Legitimierung*
Beispiel: Ehemann
(Schicksal)
Kriegsmüdigkeit. (*Recht*)
Schuldgefühl
Nur *starke* gelten!
pseudo-ethisch

Christl[iche] Ethik *radikal*

2. *Bergpredigt* – <*radikal*>

a) Andere Backe.
ich: würdelos (*Heiliger*)
b) Reicher Jüngling – *unbedingt*
ich: <Politik> Expropriation <aller>
geordnet.
c) Kriegsschuld: – *unbedingt*
(„responsibility[k] is separate")
ich: auf Gegenseitigkeit
Würde!: nicht auf den *Straßenecken*
schweigen können würdig.
Werkheiligkeit!
d) Widerstehe nicht dem Übel mit Gewalt
(absoluter Pazifismus)
Streiks (Gelbe)
Revolution
Krieg?
Status quo
dann: *sinnlos*!
Widerstehe dem Übel mit Gewalt
sonst: *verantwortlich* f[ür]
Folgen.

k A: „responsability"

Also: Verschiedene[l] Ethik?
Ja – aber ganz *generell*
1. *Mittel* zum Zweck
2. *Neben*erfolge
Für Politik:
Mittel die *Gewaltsamkeit*
v[on] Menschen g[e]g[en] Menschen
Max Adler (3 Jahre Krieg)
Zweck heiligt die Mittel
Spartakus (nur
Vermögensverschiebung)

2 Arten von Ethik:
[„]*Christ thut Recht*" 1) Gesinnung
2) Verantwortung
f[ür] *Folgen*.
ad 1: Verantwortung f[ür] *Folgen abgelehnt*
Syndikalist.
Verantwortung für *Gesinnung* des Protestes
Nur die *Welt*[m] ist *dumm*, wenn
Folgen *schlecht*.
ad 2: *rechnet* damit, daß die
Welt dumm ist
(Dostojewski's Großinquisitor)
Absolut *abzulehnen* nur:
Förster: „aus Gutem kann
nur Gutes kommen."
aus Bösem Böses
Grades Gegenteil richtig

l 2erlei > Verschiedene m Zweifach unterstrichen.

Weltgeschichte dag[e]g[en]
Erfahrung des Alltags
Entwicklung *aller* Religionen!
Denken der Jahrtausende:
Theodizee
Indien
Persien
Calvin – Deuterojesaja
altes Christentum:
Dämonen
J[ohn] St[uart] Mill
Wer das *nicht* sieht, sieht
*Lebens*problem[n] *nicht*.
ist Leben nicht gewachsen
ist politisch nicht *reif*,
sondern Kind
Verfolgen durch Typen:
Hellene Polytheist.
Indien: Bhagavadgita
Krieger in Indras Walhall
Macchiavellismus.

Kathol[ische] Kirche:
Evangel[ische] Ratschläge.
Ethik der *Bergpredigt*:
heiliger Franz.
Ist kein *Fiaker*!
Macchiavelli: Liebe zum
Vaterland
Wagner: Siegmund[1]
bei Marck: statt Vaterland:
Sozialismus – Pazifismus.

n Alternative Lesung: Lebensprobleme

1 Wie aus Bemerkungen Max Webers an anderer Stelle über „Siegmund" hervorgeht, bezieht sich dieses Stichwort auf die Szene kurz vor dem Tode Siegmunds in Richard Wagners Oper „Die Walküre". Für Max Weber sind die Worte Siegmunds zur Walküre: „Grüße mir Wotan, grüße mir Walhall [...] Doch von Walhall's spröden Wonnen sprich du wahrlich mir nicht", ein Ausdruck für das Freisein von „qualvoller Angst vor dem Tode und dem Nachher". Weber, Max, Die Protestantische Ethik und der Geist des Kapitalismus, in: Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie, Band 1. – Tübingen: J.C.B. Mohr (Paul Siebeck) 1920, S. 98 (MWG I/18).

Nach 10 Jahren
Ich wollte gern:
„Damals war Lenz…“
Aber: *Polarnacht*!
Was geblieben?
Was aus Ihnen geworden?
Verbitterung – Banausen
– Indifferenz
Weltflucht.
weil der Welt nicht *gewachsen*.

Prakt[ische] Bedeutung?
*Macht*politik?
Selbstzweck *Macht*?
Nein.
Aber: wer Pol[itik] treibt, verbündet
s[ich] mit diabolischen Mächten
„Der Teufel der ist alt…“
Verantwortung.
Gesinnungs – <Macht> Verantwortungs-
politik *nicht*
entscheidbar.
Politik bedarf:
<echte> Augenmaß = Distanz zu
den Dingen
Gewachsenheit den Realitäten
(nicht aus der Bahn!)
Echte *Leidenschaft* – nicht
sterile Aufgeregtheit.

verte!

[4R]

Reife

Liebe des *reifen* Mannes anders
als die der Jugend
(gesättigt mit *Wissen*)
<Erschü> „Gesinnungspolitiker“ in 9 von
10 Fällen *Windbeutel*
Nur bei *voller* Übersicht über
Verantwortung
an *irgend* einem Punkt:
„ich *kann* nicht anders“
– *das* erschütternd – u[nd]
menschlich echt.



نص محاضرة السياسة بوصفها حرفة

إن المحاضرة التي أتقدم بها اليوم بناء على طلبكم، ستخذلكم حتماً. ولذلك أسباب كثيرة. إذ إنه في حديث يتناول السياسة بوصفها حرفة تنتظرون مني وبشكل طبيعي أن أتخذ موقفاً من المسائل اليومية الحالية. وهذا ما لن أتطرق إليه إلا عند الانتهاء من العرض الذي أقدمه، وبطريقة شكلية حيث ستثار أسئلة تتعلق بدلالة العمل السياسي داخل السلوك الإنساني بمجمله. لابدّ أن نستبعد كلياً في محاضرتنا هذه الأسئلة التي تتعلق بما يأتي: **ما هي** السياسة التي تُمارَس؟ ما هي **المضامين** التي **يجب** أن تعطى للعمل السياسي الذي نمارسه؟ إذ لا علاقة لهذه الأسئلة بالسؤال العام: ما هي السياسة بوصفها حرفة؟ وماذا يمكن أن تعني؟ والآن، لندخل في صلب الموضوع!

السياسة، ماذا نفهم من ذلك؟ المفهوم واسع جداً، وتندرج تحته كل أصناف المهام التوجيهية المستقلة. نتحدث عن سياسة المصرف المالية، وعن سياسة القَطْع في البنك المركزي، وعن سياسة نقابة ما أثناء الإضراب. بالإمكان التحدث أيضاً عن السياسة المدرسية عند جماعة قروية أو مدينية، وعن سياسة لجنة ما أثناء توليها إدارة مجلس معين. وأخيراً بإمكاننا أن نتحدث كذلك عن

سياسة امرأة ذكية تتوق للتحكم بزوجها. وبالطبع لن يكون أي من مفاهيم كهذه موضوع تأملاتنا في هذه الأمسية. إن ما نريد أن نفهمه اليوم من مفهوم السياسة هو: إدارة، أو التأثير الذي يمارس في إدارة **رابطة سياسية**، والرابطة التي نقصدها اليوم **هي الدولة**.

انطلاقاً من وجهة نظر سوسيولوجية، ماذا نعني الآن بالتجمع السياسي؟ ماذا نعني بالدولة؟ إن الدولة لا تسمح لنا أن نحددها سوسيولوجياً من مضمون ما تفعله. إذ نجد بالكاد مهمة لم تكن هنا أو هناك الشغل الشاغل لتجمع سياسي. ومن جهة أخرى لا نجد كذلك أي مهمة يمكن القول عنها إنها كانت باستمرار، أو إنها كانت **حصرياً بيد** التجمعات التي يمكن القول عنها أنها كانت سياسية، أي إنها ما نسميه اليوم بالدول التي كانت تاريخياً أسلاف الدولة الحديثة. بإمكاننا في نهاية الأمر تعريف الدولة الحديثة سوسيولوجياً انطلاقاً من **وسيلة** نوعية خاصة بها، كما هي خاصة بأي تجمع سياسي: الوسيلة هذه هي العنف الطبيعي (الفيزيائي). «إن كل دولة تقوم على العنف»، هذا ما قاله تروتسكي ذات يوم في «برست ـ ليتوفسك»[1]. وهذا صحيح بالفعل. فإذا لم نكن نشهد إلا قيام بناءات اجتماعية لم تكن تعرف العنف وسيلة فيها، فإن مفهوم «الدولة» سيسقط عنها **إذاً**،

---

(1) ربما كانت هذه إشارة في أغلب الظن إلى ما نقلته **جريدة فرانكفورت** عن تروتسكي بوصفه رئيس البعثة الروسية إلى مباحثات صلح «برست ـ ليتوفسك»: إذا كان الجنرال هوفمان قد ألمح إلى أن الحكومة الروسية تستند إلى موقعها في السلطة وإنها تتصرف بعنف ضد الذين يفكرون بشكل مختلف، والذين تعتبرهم الحكومة من أنصار الثورة المضادة ومن البورجوازية، فإنه لابدّ في كل الأحوال من الإشارة إلى أن الحكم الروسي يستند إلى العنف أيضاً. إذ إنه على مدى التاريخ لا يعرف المرء حكماً آخر. وطالما أن المجتمع يقوم على طبقات متصارعة، فإن سلطة الحكم ستظل قائمة على القوة، وستحافظ على سيطرتها من خلال العنف، انظر النشرة الصباحية الثانية، في: *Frankfurter Zeitung*, Nr. 17 (17. Jan. 1918), S. 1.

ليحل محله ما يمكن أن نعتبره «فوضى» بالمعنى الخاص لهذه الكلمة. والعنف بالطبع ليس الوسيلة الطبيعية أو الوحيدة للدولة ـ ولا مجال للنقاش في ذلك ـ بل هو وسيلتها النوعية. أما الآن تحديداً، فإن العلاقة بين الدولة والعنف علاقة حميمة بشكل خاص. فقد عرفت التجمعات المختلفة ـ بدءاً من العشيرة ـ العنف الطبيعي، في الماضي، بوصفه وسيلة مألوفة جداً. أما اليوم فيجب علينا القول: إن الدولة هي الجماعة الإنسانية التي تدّعي داخل أرض محددة (وبنجاح) حقها باحتكار العنف الطبيعي المشروع، علماً أن مفهوم الأرض هو معلم من معالم الدولة. إذ إن ما صار مزية يتميز بها عصرنا الحاضر هو أن لا تُمنح التجمعات الأخرى أو الأشخاص الأفراد الحق باستخدام العنف الطبيعي إلا بقدر ما تسمح لهم **الدولة** بذلك، إذ إن الدولة وحدها مصدر «الحق» باستعمال العنف. والسياسة بالنسبة إلينا تعني السعي من أجل المشاركة بالسلطة، أو من أجل التأثير في توزيع السلطة، سواء كان ذلك بين الدول أو كان بين مجموعات مختلفة داخل الدولة التي تضمهم[a].

يتطابق ذلك بشكل أساسي حتى مع الاستخدام اللغوي. حين نقول عن سؤالٍ ما إنه سؤال «سياسي»، وعن وزير أو موظف إنه موظف «سياسي»، وعن قرار إنه قرار مشروط «سياسياً»، فإن ما نعنيه بذلك باستمرار هو أن مصالح توزيع السلطة، ومصالح الإبقاء عليها

(a) النص الذي يلي الورقة B في هذا الموقع هو في غير مكانه: إن مشروع السيطرة، أي سيطرة، يسعى إلى إرساء إدارة مستمرة يحتاج من جهة أولى إلى توجيه السلوك الإنساني نحو طاعة أي سيد يزعم أنه صاحب القوة الشرعية. واستناداً إلى هذه الطاعة من جهة أخرى، يستطيع هذا المشروع الاستحواذ على الخيرات المادية اللازمة في كل الأحوال لممارسة العنف الطبيعي: ما يعني أن هذا المشروع بحاجة كذلك إلى هيئة إدارية عليا. وقد تم نقل هذه الفقرة إلى ما بعد. علماً أن الإشارة أعلاه في التقرير قد ألمحت إلى صوابية مكان هذه الفقرة.

أو إزاحتها هي مصالح تؤدي الدور الحاسم في الإجابة عن السؤال أو في وضع الشروط على القرار أو في تحديد دائرة مهام الموظف المعني. إن من يمارس السياسة يسعى إلى السلطة ـ السلطة بوصفها وسيلة لخدمة أهداف أخرى ـ مثالية أو أنانية ـ أو «السلطة من أجل السلطة» من أجل **الاستمتاع بشعور** الامتياز الذي تمنحه.

ترتكز الدولة كذلك، شأن كل التجمعات السياسية التي سبقتها تاريخياً، على علاقة سيطرة الإنسان على الإنسان القائمة على العنف الشرعي (نعني بذلك: العنف الذي يُعتبر شرعياً). وحتى تقوم الدولة، يجب أن يرضى الناس الخاضعين للسيطرة بالسلطة التي يدعيها المسيطرون كل مرة. متى يقومون بذلك ولماذا؟ ما هي الأسباب التبريرية الداخلية، وما هي الوسائل الخارجية التي تستند إليها هذه السيطرة؟

من حيث المبدأ، هناك ثلاثة أسباب داخلية تبرر السيطرة. ونبدأ الكلام بها، وبالتالي فهي تشكل أسس **المشروعية**. **أولاً**، سلطة «الأمس الأزلي» المتمثلة **بالأعراف** التي قدستها صلاحيتها الضاربة في القدم والعادة المتأصلة في الإنسان التي تحمله على التمسك بها. هذه هي حال السيطرة «التقليدية» التي مارسها البطريرك، والأمير سيد الأرض، في النظام القديم. **ثانياً**، هناك السيطرة التي تقوم على ما يتمتّع به الفرد من نعمة شخصية وغير عادية (كاريزما)، ما يؤمن الولاء الشخصي والثقة الشخصية بفرد ما، إما بسبب ما أوتي من وحي أو لما يتمتع به من بطولة أو من صفات قيادية أخرى، وهذه هي السيطرة «الكاريزماتية» كما يمارسها النبي أو يمارسها ـ في المجال السياسي ـ القائد الذي يتوج أميراً في الحرب، أو العاهل المنتخب، أو كبير الساسة، أو زعيم الحزب السياسي. **وأخيراً**: السيطرة التي تفرض بقوة

«الشرعية»، أي بقوة الإيمان بصلاحية **دستور** شرعي، أو بكفاءة وضعية تقوم على قواعد توضع على أساس عقلاني. بعبارة أخرى، إنها السلطة التي تقوم على الطاعة في أداء الواجبات تبعاً لما يفرضه الدستور المعمول به. إنها السلطة كما تمارس من جانب كل «من هو في خدمة الدولة» الحديثة، ومن جانب كل من يمارس السلطة ومن جانب الذين يتشابهون معه من هذه الزاوية. ومن باب تحصيل الحاصل، إن الانقياد مشروط بما يفرضه الواقع من حوافز على درجة عالية من القوة، وهي حوافز الخوف والأمل، ـ الخوف من انتقام قوى سحرية أو من انتقام مَنْ بيدهم السلطة، أو الأمل بثواب في الآخرة أو في هذه الدنيا ـ أو قد يكون الانقياد، إلى جانب ذلك، مشروطاً بمصالح مختلفة الأنواع. ولنا عَودٌ إلى ذلك. لكن في كل مرة نتساءل فيها عن أسباب «مشروعية» هذا الانقياد، فإننا سنقع دون شك على هذه الأنماط الثلاثة «الخالصة» المشار إليها. ثم إن لتصورات المشروعية هذه، إلى جانب ما تتأسس عليه من الداخل، أهمية كبرى بالنسبة إلى بنية السيطرة. صحيح أننا نادراً ما نقع على هذه الأنماط الخالصة في الواقع. إلا أننا لن نتطرق اليوم بالتفصيل إلى تحولات هذه الأنماط الشديدة التشابك ولا إلى مزالقها ولا إلى تداعياتها، إذ إن موضوع دراسة كهذه يدخل في إطار البحث في «نظرية الدولة العامة»[2]. ما يهمنا هنا، قبل أي شيء آخر، هو النمط الثاني من

(2) يعتبر جورج يالينك (Georg Jellinek) أن نظرية الدولة العامة تنضوي إلى إطار نظرية دولة الحق العامة، ما يصب في خدمة «معرفة الطبيعة الحقوقية للدولة والمفاهيم الأساسية المتعلقة بقانون الدولة»، كما تنضوي إلى نظرية اجتماعية عامة خاصة بالدولة، تكون مهمتها النظر «إلى الدولة بوصفها بناء اجتماعياً في كلية جوهرها»، انظر: Georg Jellinek, *Allgemeine Staatslehre*, 3. durchges. und erg. Aufl., hg. von Walter Jellinek (Berlin: O. Häring, 1914), S. 9 ff.,

في حديث استذكاري يتناول ماكس فيبر يالينك بالقول إن ما أسبغه هذا الأخير =

الأنماط المشار إليها: نعني بذلك السيطرة اللازمة لانقياد الذين يخضعون لـ «كاريزما» الـ «قائد» الشخصية الخالصة. نجد هنا أصل فكرة **«الحرفة / الدعوة»**، بما تتميز به من سمات واضحة جداً. إن الانقياد لكاريزما النبي، أو لقائد إبان المعركة أو إلى كبير الساسة أثناء اجتماع عام[3]، أو في البرلمان، يعني بالطبع أن هذا الشخص يعتبر بشكل شخصي «مدعواً» من الداخل ليكون زعيماً أو قائداً للبشر، وأن هؤلاء لا يقومون بطاعته امتثالاً لعادة أو لقانون، بل لأنهم يؤمنون به. أما هو، فصحيح أنه يعيش من أجل قضيته «أو يتوق لإنجاز عمله»[4]، هذا إن لم يكن وصولياً ضيق الأفق مزهواً بنفسه، فالانقياد يكون لشخصه ولما يتمتع به من صفات شخصية من جانب مؤيديه، سواء كانوا من مريديه أو أتباعه أو من المحازبين له شخصياً. كنا نقع في الماضي على صورتين أساسيتين من الزعامة، صورة الساحر والنبي من جهة، وصورة القائد العسكري، وقائد المرتزقة من جهة أخرى، إذ إن الزعامة كانت معروفة في كل المناطق وعلى مرِّ الحقبات التاريخية. أما في ما يتعلق بالغرب، وهذا ما يعنينا عن قرب، فإن ما نجده هو نمط

= على مفهوم نظرية الدولة الاجتماعية أوحى له بالكثير من الإيضاحات حول وظيفة علم الاجتماع. الإشارة هذه نقلاً عن: René König und Johannes Winckelmann, (hg.), *Max Weber zum Gedächtnis*, 2. Aufl. (Köln/ Opladen: Westdeutscher Verlag, 1985), S. 15,

(3) في الدولة المدينة الإغريقية كانت الـ Ekklesia كناية عن تجمع كل المواطنين الأحرار، وفي هذا التجمع تؤخذ القرارات الهامة التي تتعلق بالمدينة.

(4) العبارات الأخيرة إشارة إلى مقطع أورده نيتشه في كتابه **هكذا تكلم زرادشت** والمقطع بنصه: «... عندها انصرفت حيواناته ودارت حوله مفكرة ثم وضعت نفسها في نهاية الأمر أمامه، قائلة، آه يازرادشت، انظر فعلاً إلى الخارج بحثاً عن سعادتك؟ ـ ما شأن السعادة! أجاب، منذ مدة طويلة لا أتوق إلى السعادة، إني أتوق لإنجاز عملي». انظر: *Neitzsche's Werke* (Leipzig: C. G. Naumann, 1896), I. Abt., Band 6, S. 343.
والنص نجده بصياغة مشابهة أيضاً ص 476.

الزعامة السياسية المتمثلة قبل أي شيء آخر بصورة «السياسي الديماغوجي» الحر الذي لم يبرز إلا على أرض الغرب وسط «الدول المدن» المستقلة في البلدان التي عرفت الحضارة المتوسطية. ثم إننا نجد بعد ذلك النمط المتمثل «بزعيم الحزب» البرلماني الذي لا نصادفه كذلك إلا في الغرب الذي شهد ولادة الدول الدستورية.

لا يشكل هؤلاء الساسة الذين يعتبرون السياسة «دعوة»، بالمعنى الخاص لهذه الكلمة، بأي حال الصورة الوحيدة الفاعلة في ميكانيكية الصراع على السلطة السياسية. أما العامل الأشد حسماً فهو نوع الأداة المساعدة التي توضع في خدمتهم. كيف يتمسك المسيطرون سياسياً بالعنف وسيلة من أجل تعزيز سلطتهم؟ ينطبق هذا السؤال على كل أشكال السيطرة، وكذلك على السيطرة السياسية في كل أشكالها، سواء كانت السيطرة التقليدية أو الشرعية أو الكاريزماتية.

[(b)]إن مشروع السيطرة، أي سيطرة، الذي يسعى إلى إرساء إدارة مستمرة يحتاج من جهة أولى إلى توجيه السلوك الإنساني نحو طاعة أي سيد يزعم أنه صاحب القوة الشرعية. واستناداً إلى هذه الطاعة من جهة أخرى، يستطيع هذا المشروع الاستحواذ على الخيرات المادية اللازمة في كل الأحوال لممارسة العنف الطبيعي، ما يعني أن هذا المشروع بحاجة أيضاً إلى هيئة إدارية عليا، وإلى الوسائل المادية اللازمة لها[(b)].

إن الهيئة الإدارية العليا، التي تمثل مشروع السيطرة السياسية

(b) هذا النص بين b -b ناقص في B في هذا الموضع. انظر الهامش رقم a سابقاً. وتفسيرات ذلك في التقرير المعد لهذه الطبعة، وفي نهاية الفقرة حول تواتر رواية النص.

في مظهره الخارجي كأي مشروع آخر، ليست ملزمة بالطبع من خلال ما أشرنا إليه من تصورات المشروعية، التي تحدثنا عنها أعلاه، بإطاعة من بيده السلطة، بل إن هذه الطاعة تقوم على وسيلتين اثنتين تذكران بالمصلحة الشخصية الخاصة: المكافأة المادية والشرف الاجتماعي. إن إقطاعيات الإقطاعي، وتعويضات الموظفين الإداريين، ومرتبات من يخدمون في الدولة الحديثة من جانب، وشرف الفرسان، وامتيازات أصحاب المراتب والحرف، وكرامة الموظفين من جهة أخرى، تشكل المكافأة، والخوف من خسارة كل هذه الأمور هو السبب الرئيس الحاسم للتعاضد الذي يربط الهيئة الإدارية العليا بمن بيده السلطة. ينطبق هذا كذلك على حالة السيطرة الكاريزماتية، فهي تمنح المحاربين الشرف العسكري والأسلاب، وتمنح أتباع السياسيين **الديماغوجيين** «الغنائم»[5]: باستغلال من يخضعون للسيطرة عبر احتكار الوظائف، والفوائد المشروطة سياسياً ومكافأة الأعمال الدنيئة.

تحتاج كل سيطرة تعتمد العنف من أجل تأمين استتبابها، شأن أي منشأة اقتصادية، إلى بعض الخيرات أو الأمور المادية. وبالإمكان الآن تصنيف كل أنظمة الدولة نظراً إلى مبدأ استنادها إلى جماعة من الناس كما يأتي: الهيئة الإدارية العليا، أي الموظفون، أو أياً كانوا، الذين يدينون في طاعتهم لصاحب السلطان بامتلاكهم **بأنفسهم** وسائل الإدارة، سواء كانت هذه الوسائل متمثلة بالمال، أو بالأبنية، أو بالأعتدة الحربية، أو بمستودعات العربات، أو بالخيول أو بما شابه،

(5) في التقاليد الدستورية الأميركية عند بداية القرن التاسع عشر، كانت الغنائم (spoils) تأخذ قبل أي شيء آخر شكل الوظائف في الدولة، التي كانت بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية تنزع من أصحابها الذين خسر حزبهم في الانتخابات ليحل مكانهم المرشحون من الحزب الذي فاز بالانتخاب، انظر لاحقاً الهامش رقم 91، ص 325 من هذا الكتاب.

أو إذا كانت الهيئة الإدارية العليا مفصولة عن وسائل الإدارة، بالمعنى نفسه الذي نجده في أيامنا، حيث الموظف والبروليتاري مفصولان عن وسائل الإنتاج المادي داخل المصنع الرأسمالي(6). ما تجدر معرفته باستمرار هو إذا ما كان صاحب السلطة يدير الإدارة **بإدارة خاصة** به، أو إذا كان يقوم بتنظيمها بنفسه، أو يوكل الإدارة إلى خدم قام بتشغيلهم ويرتبطون بشخصه، أو إذا ما كان أوكل ذلك إلى موظفين أو إلى أتباع من المقربين أو أصحاب الحظوة، لكنهم ليسوا من المالكين، أي إنهم ليسوا من يملك، بالمعنى القانوني، وسائل الإدارة المادية، بل إن هذه الإدارة، على العكس من ذلك، بيد السادة المستقلين سياسياً عن السلطة. إننا نجد هذا التباين في كل التنظيمات الإدارية التي عرفناها في الماضي.

سنعطي التجمع السياسي، الذي تكون فيه وسائل الإدارة المادية كلياً أو جزئياً ملكاً خاصاً للهيئة الإدارية العليا، اسم التجمع المنظم تبعاً لمبدأ «تراتبي». في المجتمع الإقطاعي، مثلاً، كان الإقطاعي يقوم بدفع مصاريف الإدارة ومصاريف القضاء في المنطقة المقتطعة له من جيبه الخاص. وكان يُعد بنفسه للحرب مقدماً ما يلزم لذلك من مؤنٍ. وكان الموالي الآخرون الذين يتبعون له في الإمرة، يفعلون الشيء نفسه. كان لذلك نتائجه بالطبع بالنسبة إلى ممارسة السيد صاحب السلطان سلطته، إذ إن سلطته لا تقوم إلا على عقد الولاء

---

(6) الإشارة تعود في الأرجح إلى تحليل كارل ماركس: «إن السيرورة التي تسهم في خلق علاقة رأسمالية لا يمكن أن تكون إلا سيرورة انفصام العامل عن ملكية شروط عمله. إنها السيرورة التي تحول وسائل الحياة الاجتماعية ووسائل الإنتاج إلى رأسمال، أو بشكل آخر تحول المنتجين المباشرين إلى عمال مأجورين»، انظر: Karl Marx, *Das Kapital: Kritik der politischen Ökonomie*, 5. Aufl., hg. von Friedrich Engels (Hamburg: Otto Meissner, 1903), Band 1, S. 680.

الشخصي واستناداً إلى أن الملكية الإقطاعية والشرف الاجتماعي عند الموالي يستمدان «مشروعيتهما» من السيد الحاكم نفسه.

كما إننا نجد في كل مكان، بما في ذلك في التشكيلات السياسية الأكثر قدماً، سلطة تقوم على إدارة الحاكم: وهو يسعى لتأمينها عبر تابعين يرتبطون به شخصياً، من عبيد وموظفين مقربين وخدم و«أتباع» شخصيين، يصرف عليهم من مخزونه عبر عطاءات طبيعية أو عبر عطاء مالي، ويقوم بتغطية المصاريف الإدارية من خلال اقتطاعاته من ثروته الشخصية، أو من توزيع عائدات أراضيه حيث يخلق جيشاً يرتبط بسلطته فقط، طالما أنه يقوم بتجهيزه وتموينه من إهراءاته ومخازنه ومستودعات أسلحته. أما في الحالة الأولى، التي أشرنا إليها، حالة التجمع المبني على أساس «المراتب»، فإن الحاكم لم يكن يحكم إلا بمساعدة أرستقراطية مستقلة يتقاسم وإياها السيطرة. أما في الحالة الثانية حيث يستند إلى أهل بيته، أو إلى العامة من الناس، أي إلى شرائح اجتماعية لا تملك شيئاً، ولا تتمتع بأي شرف (محتد) اجتماعي خاص بها، فإن هذه الشرائح بالتالي ستكون تابعة كلياً له من الناحية المادية، ولن تجد في حوزتها أي نوع من السلطة تقدر معها على مواجهة سلطة الحاكم. إذ إن كل أشكال السيطرة البطريركية والسيطرة المتوارثة، بما في ذلك الاستبداد السلطاني والدولة ذات النظام البيروقراطي هي أشكال تنتمي إلى هذا النمط. أشير بشكل خاص إلى الدولة ذات النظام البيروقراطي، أي إلى الدولة التي من خلال تكوّنها العقلاني هي الأكثر تعبيراً عما تتميز به الدولة الحديثة.

نرى في كل مكان أن تطور الدولة الحديثة قد ابتدأ مع الأمير الذي اتخذ إجراءً بنزع ملكية القوى «الخاصة» المستقلة التي تمارس إلى جانبه سلطة إدارية، أي نزع الملكية من كل من يملك وسائل

إدارية أو وسائل عسكرية أو وسائل مالية، أو كل أنواع الثروات القابلة أن تكون موضع استخدام سياسي. تكتمل هذه السيرورة بموازاة كاملة مع تطور المؤسسة الرأسمالية التي قامت بالتدرج بنزع ملكية المنتجين المستقلين. وأخيراً نصل إلى وضع نرى فيه أن السلطة في الدولة الحديثة التي تتوفر على كل وسائل الإدارة السياسية، تسعى من أجل أن يكون كل شيء في يد هيئة عليا وحيدة تسيطر على كافة وسائل العمل السياسية، فلا يبقى أي موظف أبداً مالكاً للمال الذي يصرفه، أو للمباني والمؤن والأدوات والآلات الحربية التي بتصرفه. أما ما تم كلياً في «الدولة» في أيامنا، ولذلك أهميته على الصعيد المفهومي، فهو «الفصل» مع الهيئة الإدارية العليا، أي فصل موظفي الإدارة وعمال الإدارة عن وسائل التشغيل العينية. إننا نعاين هنا ظهور التطور الأكثر حداثة، وهو الذي يحاول أمام أعيننا إنجاز تجريد ملكية الوسائل السياسية عن هذا المستملك القديم[7]، وتالياً نزع السلطة السياسية منه. هذا ما بدا أن الثورة قد حققته، على الأقل، بالقدر الذي حل فيه قادة جدد مكان السلطات القائمة حيث تمكنوا، إن بالاغتصاب، أو من طريق الانتخاب الوصول إلى السلطة التي تمارس رقابتها على الإدارة ككل، وعلى إدارة الموارد المادية، حيث عمدوا ـ ولا يهم القول بأي حق ـ إلى استمداد شرعيتهم من إرادة من سيطروا عليهم. السؤال الآخر الذي يطرح هنا، هو إذا ما كان بمقدور الثورة، وبسبب النجاح ـ الظاهر على الأقل ـ أن تعلق بحق الأمل على تحقيق نزع الملكية داخل الجهاز الاقتصادي الرأسمالي الذي تعمل على قيادته بموجب أنظمة

(7) يجري ماكس فيبر هنا تحولاً عن كارل ماركس. فقد سبق لماركس أن تكهن بأن «ساعة الملكية الخاصة الرأسمالية سوف تدق»: «أصحاب الأملاك القدامى ستنزع عنهم ملكيتهم»، المصدر نفسه، ص 728.

أخرى تختلف عن أنظمة الإدارة السياسية، هذا رغم ما بينهما من تشابه داخلي كبير. إلا أننا لن نتخذ اليوم موقفاً من هذا التباين. إن جل ما أراه لازماً لتأملاتنا هنا هو الإصرار على الحفاظ على التصور **المفهومي** المحض بأن الدولة الحديثة هي تجمع سطوة له طابعه المؤسساتي، يحاول بنجاح ضمن حدود أرض معينة احتكار العنف الطبيعي المشروع باعتباره أداة سيطرة، وقد استطاع من أجل بلوغ هذا الهدف أن يجعل وسائل الإدارة المادية بيد قادة هذا التجمع، أي أن هذا التجمع قد استطاع كذلك نزع ملكية ما كان الموظفون يملكونه بموجب نظام الحرف والمراتب الذي كان يُعتبر سابقاً حقاً من حقوقهم، ما جعل هذا التجمع يحل محلهم، بل وعلى رأس التراتبية.

إننا نعاين، من خلال سيرورة نزع الملكية السياسية هذه التي تحققت في كل بلدان الأرض بنجاح يتفاوت بين بلد وآخر، ولادة نوع جديد من «رجال السياسة المحترفين»، وإن بالمعنى **الثاني** لهذا التعبير. إننا نعاين أناساً لا يريدون هم أنفسهم أن يكونوا أسياداً، شأن القائد الكاريزماتي، بل نراهم **أولاً** يجعلون أنفسهم في **خدمة** السادة السياسيين، فيدخلون الصراع السياسي حتى يكونوا في **خدمة الأمير** الذي تؤمن إدارة مصالحه السياسية لهم كسب القوت من جهة، ومضموناً مثالياً لحياتهم من جهة ثانية. مجدداً نقول، في الغرب **فقط** نجد **هذا** النوع من السياسيين أصحاب الدعوة، حتى لو كنا نجدهم كذلك في خدمة قوى أخرى غير سلطة الأمراء. لقد شكّل هؤلاء في الماضي بالنسبة إلى الأمراء أداة السلطة السياسية الأشد أهمية، ووسيلة نزع الملكية التي تمت لصالحهم.

لنحاول قبل الدخول في التفاصيل أن نفهم دون لبس، ومن كل

الجوانب، معنى وجود هذا النوع من «السياسيين المحترفين». يمكن للمرء أن يمارس «السياسة» بطرق عديدة: أي حين يسعى إلى التأثير في توزيع السلطة بطرق عديدة داخل التشكلات السياسية وفي ما بينها، سواء مورست السياسة في «المناسبات» أو أن تمارس بشكل ثانوي أو أن تكون عملاً أساسياً، تماماً كما هو الحال في مزاولة النشاط الاقتصادي. ونحن جميعاً نمارس السياسة في المناسبات، كأن نلقي بورقة التصويت في صندوق الاقتراع، أو حين يتاح لنا التعبير عن إرادتنا بما يشبه ذلك، كأن نعرب عن موافقتنا أو عن معارضتنا في اجتماع له طابع «سياسي»، أو حين نقوم بإلقاء خطاب «سياسي» أو ما شابه. ومن الطبيعي أن تقتصر علاقة الكثير من الناس بالسياسة على هذا النوع من الممارسة. أما أهل السياسة الذين يجعلون من السياسة «مهنة إضافية» لهم، فهم اليوم مثلاً أهل الثقة[8]، أو أعضاء مجالس إدارة التجمعات الحزبية السياسية الذين يمارسون هذه المهمة ـ وكما جرت العادة عامة ـ في حالة الضرورة فقط، ولا يجعلون حياتهم تقتصر على ذلك بالدرجة الأولى، سواء مادياً أو معنوياً. وينطبق الأمر نفسه كذلك على أعضاء مجالس الدولة، أو على ما شابه من مجالس استشارية، ممن لا يمارسون وظيفتهم إلا حين يطلب منهم ذلك. وينطبق الوضع هذا كذلك على شريحة واسعة من رجال البرلمان عندنا الذين لا يمارسون السياسة إلا أثناء انعقاد الجلسات. كنا نصادف في الماضي شرائح كهذه من الناس عند أهل «المراتب والأصناف» بشكل خاص. ونعني بهم الذين يملكون من

(8) شكّل أهل الثقة، أو «رجال الثقة» بشكل خاص في الأرياف أو في المناطق، حيث تتكون الدائرة الانتخابية من عدد كبير من الجماعات، العنصر الذي يربط بين الحزب ومنتخبيه. وتقوم مهمة رجال الثقة بشكل أساسي على الدعاية من أجل الحزب وعلى التحضيرات التنظيمية لعمليات الانتخاب، مثل توزيع الأوراق الانتخابية.

خلال حق شخصي وسائل التشغيل المادية والعسكرية اللازمة للعمل الإداري، أو أصحاب الامتيازات الشخصية. ثمة جزء كبير من هؤلاء لا يكرسون كامل حياتهم لخدمة السياسة، فكانوا يفضلون أن يكون ذلك عملاً في المناسبات. لقد آثروا استخدام امتيازاتهم في سبيل الحصول على مداخيل أو من أجل تحقيق المكاسب، ولم يمارسوا نشاطاً سياسياً خدمة لتكتلهم السياسي إلا إذا كان ذلك بأمرٍ خاصٍ من العاهل أو ممن هم في حاشيته. وينطبق الأمر نفسه كذلك على قسم كبير من القوى المساعدة له، مثل تلك التي كان الأمير يقودها في صراعه من أجل خلق تنظيم سياسي يكون في خدمته فقط. وينتمي إلى هذه الفئة أيضاً «المستشارون الشخصيون الذين يمارسون عملهم من منازلهم»[9]، وإليها ينتمي أيضاً، إذا ما عدنا إلى الماضي البعيد، جزء كبير من المستشارين في مجلس[10] (Curia Regis) الأمير، أو غيرها من الهيئات الاستشارية الأخرى العاملة لديه. إلا أنه لم يكن بوسع الأمير بالطبع أن يكتفي بهؤلاء المساعدين الذين يزاولون السياسة في المناسبات، أو الذين يجعلون منها نشاطاً ثانوياً. لذلك لم يتبقَ له إلا البحث عن مساعدين محترفين بشكل كامل، يكونون كلياً وحصرياً مكرسين لخدمته. أما من أين استطاع تأمين

(9) إشارة إلى ما ساد في نهايات القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر، في بعض المقاطعات الألمانية، حيث مارس أعضاء الهيئة الاستشارية عند الأمير عملهم لا من بلاطه، بل كانوا يؤدون وظيفتهم من منازلهم ويقدمون مشورتهم إلى الأمير حين يكون هذا في زيارة الإقليم الذي يقيمون فيه.

(10) Curia Regis (المجلس) هو المكان الذي يقيمه الملك لعقد الاجتماعات حيث يشارك في الاجتماع كبار رجال المملكة والمستشارون الشخصيون للملك وكبار موظفيه، ففي فرنسا وإنجلترا، في القرون الوسطى بشكل خاص، حاول الملوك كبح تأثير الإقطاعيين الطامحين إلى التاج، وقد تجاهلوا شيئاً فشيئاً مناقشة مسائل محددة في «المجلس»، الأمر الذي كان يعتبر خاصاً بحلقة ضيقة من الموظفين ومن أهل الثقة بشكل خاص. وهذا ما مهد الطريق أمام تخصيص المهام ومعالجتها مع الخبراء.

هؤلاء؟ إن الأمر يتعلق في جزء أساسي بهيكلية البناء السياسي القبلي القائم، ليس به وحسب، بل بالطابع الكلي للحضارة التي يعيش الأمير في وسطها. ينطبق الأمر نفسه، وبالضرورة عينها، على التجمعات السياسية التي تكوّنت بعد إزاحة السلطة الأميرية، أو الحد منها بشكل ملحوظ، (في ما يعرف) بالجماعات «الحرة» التي تكونت سياسياً، ولا نعني بـ «الحرة» التحرر من السيطرة بواسطة العنف، بل بمعنى غياب السلطة الأميرية القائمة بقوة التقليد المكرس (دينياً في أكثر الأحيان) باعتباره المصدر الوحيد لكل سلطة. هذا وقد وُجدت هذه التجمعات المحلية تاريخياً في الغرب الذي كان مهدها، إذ كانت المدينة باعتبارها تجمعاً سياسياً الشكل الذي ظهرت من خلاله للمرة الأولى في أجواء حضارة بلدان البحر المتوسط. لنرَ كيف بدأ السياسيون الذين يجعلون من السياسة **حرفة أساسية** لهم في كل هذه الحالات.

هناك طريقتان يمكن بهما جعل السياسة حرفة. إما أن يعيش المرء «لأجل» السياسة، أو أن يعيش «من» السياسة. والتعارض هذا لا يعني إقصاءً بحال من الأحوال. ففي العادة غالباً ما يُفعل الأمرانِ معاً، فكرياً على الأقل، ولكن في أغلب الأحيان مادياً أيضاً. ومن يحيا من «أجل» السياسة فهو يجعل منها، بالمعنى الأعمق للكلمة، «هدف حياته»، فهو إما يلتذ بالسلطة التي يمارسها بمجرد امتلاكه لها، أو لأنها تؤمن له توازنه الداخلي أو تعبر عن قيمة شخصية حيث يعي أنه قد جعل نفسه في خدمة قضية تعطي حياته معنى. وبهذا المعنى العميق، فإن كل إنسان جدي يعيش من أجل قضية، فهو يعيش منها أيضاً. والفرق يتعلق بجانب أكثر دقة بحيثية الموضوع الذي نعالج، أي إنه يتعلق بالجانب الاقتصادي. إن من يعتبر السياسة وظيفة يعتاش منها هو الذي يسعى إلى أن يجعل منها مصدر دخل دائم له. أما من يحيا من «أجل» السياسة فهو من لا تنطبق عليه هذه

الحالة. وحتى يمكن لأحدهم بهذا المعنى الاقتصادي أن يعيش من «أجل» السياسة لابدّ أن تتوفر له في ظل سلطة النظام المؤسس على الملكية الخاصة بعض الشروط، الشديدة الرداءة إذا أردتم. إن على السياسي، في ظل الشروط الطبيعية أو السوية ـ أن يكون مستقلاً اقتصادياً عن الموارد التي بإمكان السياسة أن توفرها له. هذا يعني ببساطة أن عليه أن يكون صاحب ثروة طائلة، أو أن يكون في وضع معيشي خاص كفيل أن يدر عليه ما يكفي من مرتبات وإيرادات. هذا ما يحصل في الظروف الطبيعية على الأقل. ذلك أن أتباع ومناصري القائد العسكري لا يسألون عن شروط الاقتصاد الطبيعي، كما لا يسأل عن ذلك أيضاً أتباع البطل الثوري ومناصريه في الشارع. في هاتين الحالتين يعتاش كلاهما من الغزو والنهب والمصادرات وفرض الغرامات العسكرية وترويج مدفوعات لا قيمة لها بالإكراه ـ فمن حيث الجوهر، فإن هذه الأمور جميعها واحدة. إلا أنها وبالضرورة ظواهر تحصل كل يوم، ففي الحياة الاقتصادية اليومية وحدها الثروة الشخصية هي التي تؤمن هذه المهمة. لكن هذا وحده لا يكفي، فعلى السياسي أن يكون فوق ذلك كله «متفرغاً/ حراً» من الناحية الاقتصادية، أي بمعنى أن لا يكون تحصيل موارده ملزماً له، لينصرف شخصياً بشكل دائم ليضع قوة عمله وفكره بشكل كلي أو جزئي في خدمة تحصيل هذه الموارد. وبهذا المعنى يعتبر متفرغاً وحراً أكثر من أي فرد آخر، أي صاحب الدخل، أي إنه ذلك الشخص الذي يحصل على دخل كامل دون بذل أي عمل، إن على غرار الأسياد الإقطاعيين في الماضي، أو كبار الملاكين العقاريين وأصحاب الوجاهة في العصر الحاضر، أو الذي يحصل ثروته من إيرادات عقارية ـ ففي العصور القديمة وفي القرون الوسطى كانت الموارد تحصل أيضاً من مداخيل العبيد والرقيق ـ أو كانت تحصل من السندات، أو ما شابه من مصادر. فلا العامل **ولا** المقاول

الحديث ـ وهذا ما يجب التنبه إليه بقوة هنا ـ **ولا** المقاول الكبير الحديث بشكل خاص جاهزون بهذا المعنى، أي متفرغون أحرار. ذلك أن المقاول **بالذات** مرتبط بمنشأته فهو ليس حراً متفرغاً، ولا المقاول الصناعي أو الزراعي كذلك، مع الأخذ بالاعتبار الطابع الموسمي في الزراعة. كما يصعب على السياسي في أغلب الأحيان أن يجعل أحداً يحل مكانه، وإن بشكل مؤقت. حتى الطبيب كذلك لا يُعتبر من هذه الزاوية حراً متفرغاً، ويزداد ذلك بقدر ما يكون الطبيب بارعاً ودائم الانشغال. يصبح الأمر أكثر سهولة، ولأسباب تقنية مهنية محض في حالة المحامي الذي يؤدي لهذا السبب بوصفه السياسي المحترف، الدور الكبير الذي لا يضاهى، بل غالباً ما كان هذا الدور طاغياً ومسيطراً. لا نريد المتابعة في هذا الحكم انطلاقاً من هذه القضايا الفردية، بل سنعمد إلى استخلاص نتائج واضحة مما قدمنا.

أن تكون قيادة دولةٍ ما أو حزبٍ ما بيد أناس يعيشون (بالمعنى الاقتصادي للكلمة) كلياً من **أجل** السياسة، وليس **من** السياسة، فذلك يعني بالضرورة أن الطبقات السياسية المسيطرة هي تجنيد له طابعه البلوتوقراطي(*). ولا نعني بذلك الإشارة إلى العكس. إذ لا نزعم أن القيادة البلوتوقراطية لا تستفيد من وضعها المهمين ومن استغلال سيطرتها السياسية أيضاً من أجل مصالحها الاقتصادية الخاصة. لن نتحدث عن ذلك، فهو تحصيل حاصل، إذ لا وجود لشريحة لم تقم بهذا العمل بشكل من الأشكال. إن ذلك يعني فقط أن الذين يحترفون السياسة ليسوا مجبرين مباشرة على البحث عن مكافأة لقاء أدائهم الإنجاز السياسي، في حين أن من لا وسيلة عنده ملزم بأخذ هذا الجانب بعين الاعتبار. ومن جهة ثانية لا يعني ذلك

(*) بلوتوقراطية: من بلوتوس = ثروة، قراطوس = سلطة حكم: سلطة الثروة، نظام سياسي تمسك فيه السلطة طبقة الأغنياء أصحاب الثروات، حكم المال.

أننا نريد الإيحاء بأنه لا هم للساسة الذين لا ثروة لهم أثناء ممارستهم النشاط السياسي إلا جعل الاهتمام الاقتصادي الخاص وحده، أو جله، نصب أعينهم، أو أنهم لا يفكرون، أو لا يفكرون أولاً، «بالقضية» التي هي قضيتهم. لا خطأ يفوق هذا الخطأ. ونحن نعلم بالتجربة أن الرجل الميسور يعيش قلق «تأمين» وجوده الاقتصادي ـ سواء كان واعياً لذلك أم لم يكن ـ ، ما يجعل ذلك نقطة مفصلية في توجيه حياته. نجد المثالية السياسية التي لا تعرف أي اعتبار ولا أي مبدأ، إن لم يكن حصرياً فمبدئياً، عند الأشخاص الذين يظلون بسبب عوزهم على هامش الشرائح الاجتماعية صاحبة المصلحة في الحفاظ على النظام الاقتصادي في مجتمع معين، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في المراحل الاستثنائية، أي في المراحل الثورية. كل ما نريد قوله هو الآتي: إن التجنيد **غير** البلوتوقراطي للطاقم السياسي، سواء تعلق الأمر بالقادة أو بالمناصرين لهم، هو تجنيد يرتبط بالشرط البديهي، وهو أن على المؤسسة السياسية أن تؤمن لهم موارد منتظمة ومضمونة. يمكن أن تدار السياسة «شرفياً»، أي إذا صح القول من جانب «مستقلين»، أي من جانب أناس ميسورين من أصحاب دخل لا يعملون. أو أن القيادة السياسية ستكون مفتوحة أمام من لا ثروة عندهم، أو أن على القيادة السياسية أن تؤمن لهم المكافآت. إن محترف السياسة الذي يعيش من السياسة يمكن أن يكون مجرد «منتفع» (صاحب وظيفة تدر له الربح)، أو مجرد موظفٍ مأجور، فهو، بعبارات أخرى، يحصل مداخيله إما بشكل إكراميات أو بدل أتعاب[11] لقاء تأدية خدمات معينة ـ فالبرطيل والرشوة ليسا إلا فرعاً

---

(11) بدل أتعاب، تعني منذ القرون الوسطى المدفوعات التي يجب أن تسدد جراء تأمين المناصب الوظيفية.

شكلياً لا شرعياً ولا قاعدة تنظمه ضمن هذه الفئة من الدخل ـ أو قد يتمثل ذلك بأجر محدد يدفع عينياً أو بمرتب مالي، أو الاثنين معاً. يمكن لرجل السياسة أن يتسم بصفة «المقاول» على طريقة ـ زعيم المرتزقة أو ضامن الوظائف أو البائع لها في الماضي[12]، أو على طريقة «الرئيس» (Boss) الأميركي[13]، الذي يعتبر نفقاته بمثابة توظيف لرساميل يحولها إلى مصدر دخل له من خلال استغلاله تأثيره السياسي. أو قد يحصل ببساطة على أجرٍ ثابت شأن المحرر أو سكرتير الحزب أو الوزير أو الموظف السياسي الحديث. في الماضي شكل الإقطاع ومنح الأراضي والمناصب المدِرَّة على اختلافها التعويضات النموذجية التي كان الأمراء أو الغزاة المنتصرون أو قادة الأحزاب المنتصرون يمنحونها إلى أنصارهم، والتي أخذت مع تطور شكل الاقتصاد المالي شكل المنح والإكراميات؛ أما في أيامنا فقد صارت المناصب من كل نوع، في الأحزاب والصحف والاتحادات وفي صناديق الضمان الاجتماعي والبلديات أو في إدارة الدولة هي ما يغدقه زعماء الأحزاب على مناصريهم جراء التزامهم بالأمانة والولاء في الخدمة. إن **كل** الصراعات بين الأحزاب ليست صراعات من أجل تحقيق غايات موضوعية، بل هي أيضاً وغالباً، صراعات لإحكام الرقابة على توزيع المناصب. إن كل المعارك بين أصحاب النزعات المركزية والإقليمية في ألمانيا تدور، بشكل خاص أيضاً، حول أي من القوى يجب أن تُحكم الرقابة على توزيع الوظائف،

---

(12) في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان نظام «تجارة الوظيفة»، مثل بيع الوظائف بين الأشخاص أو شراء الوظائف أمراً ممأسساً تنظمه الدولة للاتجار بالوظائف، وكان منتشراً في أرجاء واسعة من أوروبا.

(13) حول صورة رب العمل (Boss) أو الرئيس ووظيفته، انظر التفاصيل التي يقدمها فيبر حول هذا الموضوع لاحقاً في هذا الكتاب.

أهي القوى الموجودة في برلين، أو ميونيخ، أو كارلسروهي أو درسدن؟ إن الأحزاب تتأثر أكثر بالمس بحقها في المناصب أكثر من تأثرها بمعارضة أهدافها العينية. في فرنسا كانت حركة الانتخابات البلدية[14]، التي تستند أساساً إلى تبادل القوى الحزبية السياسية تعتبر بمثابة انقلاب يثير ضجة تفوق ما يثيره التعديل في البرنامج الحكومي، الذي لم يكن يكتسب إلا دلالة لفظية خالصة. أما بعض الأحزاب، ولاسيما في أميركا، فقد أصبحت منذ اختفاء التناقضات القديمة حول تعديل الدستور مجرد أحزاب لا همَّ لها إلا اصطياد الوظائف، وهي أحزاب تعمد إلى تغيير برامجها تبعاً لما تريد اكتسابه من أصوات. وفي إسبانيا، على الأقل، حتى السنوات الأخيرة، ظل الحزبان الكبيران يتعاقبان على السلطة بموجب اتفاق مسبق على التناوب تحت غطاء «انتخابات» معدة سلفاً في الدوائر العليا[15]، ما

(14) إبان عملية الإصلاح الإداري التي تولتها الثورة الفرنسية قسّمت فرنسا إلى عدد كبير من الأقسام. وكانت الحكومة المركزية تعين على رأس كل قسم مقدماً يُختار حسب ولائه السياسي. وعلى هؤلاء المقدمين العمل لا على حفظ القوانين وحسب، بل عليهم أيضاً مراقبة العلاقات المحلية ومطابقتها مع سياسة الحكم الرسمية والعمل بذلك. ولذلك كان المقدمون يخضعون لتقلبات السلطة المركزية بشكل واسع جداً. هكذا تم مثلاً في أيلول/ سبتمبر 1870 التخلص من كل المقدمين الذين عينوا في عهد نابليون الثالث. ربما كانت إشارة فيبر هنا تستهدف حركة «تغيير المقدمين» في الجمهورية الثالثة. إذ إنه بعد انتخابات العام 1898 استُبدل أكثر من ثلث المقدمين. وقد كانت الصحافة الإقليمية تعلق مطولاً على إمكانية تغيير المقدمين وما يستتبع ذلك من نتائج على الأقسام.

(15) الإشارة التي يوردها فيبر هنا تشير إلى ما جرى بإعادة السلطة إلى آل بوربون في إسبانيا بين زعيم المحافظين الليبراليين أنطونيو كانوفاس دي كاستيلو (Antonio Cánovas de Castillo) (1828 ـ 1897) وبين الليبرالي دون بركسيدس ماتيو ساغاستا (Práxedes Mateo Sagasta) (1827 ـ 1903) من اتفاق على نظام «التحول السلمي» حيث يتم التداول دورياً بين حكومة من المحافظين وحكومة من الليبراليين. وقد كان هذا النظام ممكناً، حيث إن التاج كان يسمي باستمرار حكومة أقليات تسعى عبر انتخابات جديدة إلى خلق أكثرية برلمانية. وهذا ما كان يُتوصل إليه من خلال تزوير أصوات المنتخبين أو أيضاً من خلال توجيه السلوك الانتخابي بواسطة زعماء الأحزاب المحليين الذين يتولون بأنفسهم رعاية العمل الوظيفي على صعيد محلي.

كان يسمح لأنصار هذين التنظيمين الاستفادة، كلٌ بدوره، من المناصب المتاحة. أما في المناطق المستعمرة إسبانياً، فإن الأمر يتعلق سواء بما يسمى بالانتخابات، أو ما يسمى «بالثورات» حصراً بمعلف الدولة التي يأمل المنتصرون أن يجدوا فيه زاداً لهم[16]. وتوزع الأحزاب في سويسرا سلمياً المناصب في ما بينها تبعاً لمبدأ التوزيع النسبي[17]. وفي ألمانيا تقترح كذلك بعض مشاريع الدساتير التي تعتبر «ثورية» ومنها، مثلاً، أول مشروع دستور وُضِع في منطقة «بادن»، تعميم النظام السويسري في توزيع الحقائب الوزارية[18]، معتبرة الدولة ومناصبها الإدارية مجرد مؤسسات تهدف إلى تأمين المداخيل، بل إن حزب الوسط بلغ به الحماس حداً جعله يقترح في نقاط برنامجه في بادن توزيع الوظائف نسبياً على الطوائف، حتى دون أخذ الكفاءة أو الإنجاز بعين الاعتبار[19]. ثم إن هذه النزعة

---

(16) لا يقصد بذلك على الأرجح الممالك التي كانت بعد العام 1919 لاتزال تحت سلطة الدولة الإسبانية المستعمرة، بل الدول في وسط وفي جنوب أميركا، وفي الكاريبي، خاصة كولومبيا، وفنزويلا، وكوبا. هنا حدثت في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عدة ثورات، والتي إن لم تثمر في استعادة العلاقات الديمقراطية، فهي قد نجحت بالفعل بتغيير الزمر القيادية التي اعتبرت جميعها الدولة بالدرجة الأولى أداة لتحصيل ثروات شخصية.

(17) حول نهاية القرن التاسع عشر تحول حزب الأكثرية في أحد كانتونات سويسرا إلى اعتماد مبدأ «النسبية غير الإلزامية» إذ أتاحت هذه الأكثرية للمعارضة الحصول على مناصب داخل السلطة التنفيذية، وبذلك شاركت هذه المعارضة في الحكومة.

(18) المقصود بهذه الإشارة عضو مجلس بلدية كارلس روهى (Karlsruhe) الاشتراكي الديمقراطي إدوارد ديتز (Eduard Dietz) (1866 ـ 1940) الذي تقدم نهاية العام 1918 بمشروع دستور يكون فيه تقسيم وزارات الدولة بالشكل الآتي: «كل الأحزاب أو مجموعات النواب التي تضم وحدها أو مجتمعة 7/ 1 من مقاعد النواب، تسمي وزيراً لكل 7/ 1 من الأعضاء». مشروع دستور جديد لمنطقة بادن. من عضو مجلس البلدية الدكتور ديتز، انظر: *Entwurf einer neuen badischen Verfassung. Von Stadtrat Dr. Dietz in Karlsruhe. Sonderabdruck aus dem Karlsruher «Volksfreund»* (Karlsruhe: Geck, 1919), § 60, S. 78.

(19) لا نعلم إذا ما كان حزب الوسط في منطقة بادن وكردة فعل على مشروع دستور =

ازدادت في كل الأحزاب، وذلك بعد زيادة عدد الوظائف نتيجة النزعة البيروقراطية العامة وازدياد الرغبة فيها باعتبارها شكلاً مميزاً من أجل إيجاد مورد آمن، الأمر الذي يجعل الأحزاب تبدو بنظر مؤيديها وسيلةً تكونُ الغايةُ منها تأمين نفسها أيضاً.

نشهد اليوم مقابل هذا الاتجاه تطور الوظيفة العامة الحديثة التي تفرض وجود أصناف من العمال المتخصصين من أصحاب الخبرة العالية الذين يتأهلون لذلك بعد سنوات طويلة من التخصص، ويحملهم على الاندماج **شرف وجاهةٍ** شديد السمو، فبغياب هذا الشعور عند الموظفين فإننا سنكون فريسة فساد مخيف وسيكون قدرنا الوقوع تحت سيطرة الحمقى السفلة، إلى جانب ذلك سيكون الأداء التقني في جهاز الدولة مهدداً، ولاسيما وأن الأهمية الاقتصادية لهذا الجهاز قد ازدادت وهي تزداد باستمرار بالترافق مع عملية التنشئة الاجتماعية. حتى في الولايات المتحدة التي لم تكن تعرف نظام الوظيفة الدائمة، وحيث كانت ممارسة الإدارة غير المختصة عبر سياسيين محتالين تتيح استبدال آلاف العمال، بمن فيهم سعاة البريد أيضاً، وذلك بحسب ما تقتضيه نتائج الانتخابات الرئاسية. إن هذا النظام في تجنيد الموظفين قد اختُرق منذ وقت طويل من خلال «إصلاح الخدمة المدنية»[20]. وقد شكّلت الضرورات الإدارية التقنية

= إدوارد ديتز (الحاشية السابقة) قد اقترح توزيع وظائف الدولة بشكل نسبي طائفي. في كل الأحوال، تضمنت الخطوط الأساسية لسياسة حزب الوسط الجديد المطالبة بمراعاة المساواة بين مختلف المنتمين إلى عقائد مختلفة وفي كل مجالات الحياة العامة. انظر: Rudolf Morsey, *Die deutsche Zentrumspartei 1917 - 1923* (Düsseldorf: Droste, 1966), S. 128 ff.

(20) مع إصلاح «نظام الخدمة المدنية» (أو مرسوم بندلتون (Pendleton Act)) لعام 1833 بدأ التحول من نظام الغنيمة المعمول به (انظر أعلاه هامش رقم 5، من هذا الفصل). إلى نظام الاستحقاق (merit system)، حيث وضعت أسس قيام نظام وظيفي في الولايات المتحدة، حيث تم شغل عدة مراكز في الوظيفة العامة بموجب امتحان المؤهلات، =

الصرف التي لا مجال للاستغناء عنها سبباً لهذا التطور. في أوروبا نشهد تطوراً مطرداً في مجال الوظيفة العامة المنظمة على أساس تقسيم العمل، وهو تطور يرقى إلى ما قبل خمسمئة سنة. بدأ ذلك في المدن وفي المقاطعات الإيطالية، وفي الملكيات التي شكّلت الدول النورماندية الغازية. واتخذ الأمراء خطوات حاسمة في مجال **الإدارة المالية**. وفي ما يخص سياسة الإصلاح الإداري التي اعتمدها القيصر ماكس (Max) نرى مدى الصعوبات التي اعترضت الموظفين في ظل ضغوطات العوز الشديد والسيطرة التركية في هذا المجال[21]، ما يصعب إقصاء حاكم عن الإدارة المالية، علماً أن هذا المجال هو الأقل توافقاً مع نزعة الأمير غير المؤهل الذي لم يكن في ذلك الوقت إلا فارساً[22]. إلا أن تطور التقنيات الحربية استوجب وجود الضابط المختص، كما إن تهذيب الإجراءات القانونية استوجب بدوره وجود قضاة متمرسين. في هذه المجالات الثلاثة سطع نجم الموظفين المهنيين بشكل نهائي في الدول المتطورة إبان القرن السادس عشر. في هذه الأثناء، وبموازاة تصاعد سلطة الأمير المطلقة إزاء طبقات الحرفيين وأصحاب المكانة، أبدى الأمير تنازلاً مطرداً لصالح الموظفين الذين أسهموا بالتأكيد في انتصاره في معركته على أصحاب الحرف والمراتب. وفي الوقت الذي شهدنا فيه صعود

= وبعد ذلك يتولى المرشحون الناجحون وضعية الموظف المدني. في البداية اقتصر نظام الاستحقاق على ما نسبته واحد من عشرة من الموظفين في الوظائف الاتحادية.

(21) الإشارة إلى التوسع العسكري الذي حققته الدولة العثمانية التي تجاوزت قرابة نهاية القرن الخامس عشر البلقان إلى أجزاء من هنغاريا وإلى أجزاء من النمسا وإن بشكل مؤقت. كان ينظر إلى هذا التوسع باعتباره خطراً يطال أوروبا بأكلمها.

(22) يشير ماكس فيبر هنا إلى القيصر ماكسيميليان، وما أوجد في ما ورث من أسرة هابسبورغ من بلاد من سلطة مالية جماعية، إلا أن فعالية هذه السلطة كان تضعف باستمرار من خلال تدخلات القيصر بالذات.

طبقة الموظفين المختصين، كنا نشهد أيضاً ـ وإن بدرجة أدنى من الإدراك ـ تطور فئة «**القادة السياسيين**». كان للأمراء، منذ قديم الزمان وفي كل مكان من العالم، مستشاروهم الذين يتمتعون عندهم فعلاً بحظوة كبيرة. في الشرق أوصلت ضرورة إعفاء السلطان، قدر الإمكان، من مسؤوليته الشخصية من أجل إنجاح حكمه إلى خلق صورة «الصدر الأعظم» النمطية[23]. وفي الغرب أصبحت الدبلوماسية، وقبل أي شيء آخر، بسبب التأثير الذي تركه هَوَسُ قراءة تقارير سفراء دولة البندقية في الأوساط الدبلوماسية المختصة[24] زمن **كارل الخامس** (Karl V) ـ وهو عصر مكيافيلي (Macchiavelli) أيضاً ـ **فناً** قائماً بذاته. هذا وقد اعتبر مريدو هذا الفن، وجلّهم من معتنقي المذهب الإنساني، أنفسهم بمثابة شريحة من المتمرسين المتخصصين، تماماً كما هو شأن رجال الدولة الصينيين أصحاب المذهب الإنساني في مرحلة انقسام الصين إلى دويلات عديدة[25].

---

(23) أُدخلت وظيفة الوزير في البلدان الإسلامية من قبل الخلفاء أواسط القرن الثامن. كان الوزراء على رأس الإدارة، وكان عليهم المثول أمام الرأي العام بوصفهم ممثلي الخليفة. في الدولة العثمانية ظهر ومنذ القرن الرابع عشر منصب الصدر الأعظم الذي يختار الوزراء الآخرين من بين موظفي البلاط. وحده الصدر الأعظم كان يُسمح له باستخدام خاتم السلطان، وكان الصدر الأعظم هذا يمثل السلطان في كافة فروع الإدارة بوصفه السلطة الوحيدة بين فترة وأخرى.

(24) الإشارة هنا هي إلى عدة أخبار وتقارير كان يحملها دبلوماسيو البندقية حين عودتهم إلى الوطن. وكانت مجمل هذه التقارير تؤرشَف أول الأمر، ثم تُنشر لاحقاً بوصفها مجموعات مصادر عامة. كان الهدف منها عامة، تثقيف الطبقة السياسية العليا في البندقية، انـظـر: Willy Andreas, *Staatskunst und Diplomatie der Venezianer im Spiegel ihrer Gesandtenberichte* (Leipzig: Köhler & Amelang, 1943).

(25) الإشارة هنا من فيبر إلى الفترة الممتدة بين 770 و221 قبل الميلاد، خاصة إلى الفترة التي شهدت صراع الدول بين 475 و221 قبل الميلاد. من الأمثلة الجيدة على دلالة الثقافة الأدبية في كفاءة الموظف يشار إلى تشانغ يانغ (390 ـ 338 ق.م.) الذي كان وزيراً ومستشاراً للأمير هسياو فون شين الذي قام بإصلاح الإدارة.

أما الحاجة إلى إدارة شكلية موحدة تتولى السياسة كلياً، بما في ذلك السياسة الداخلية، من خلال رجل دولة قائد، فهي حاجة تولدت نهائياً بشكل ملزم من خلال التطور الدستوري. لم نُعدم بالطبع، وباستمرار، وجود شخصيات شغلت منصب مستشار ـ أو بشكل أصح ـ منصب المرشد للأمراء. علماً أن تنظيم السلطات قد سلك أول الأمر، حتى في الدول الأكثر تطوراً، طرقاً أخرى عدا التي أشرنا إليها. فقد شهدنا بالفعل أول الأمر تشكل سلطات إدارية عليا ذات صفة **مجلسية**. هذا من الناحية النظرية، أما عملياً فكان ذلك نادراً ما يحصل، فالوقائع تشير إلى أن هذه الهيئات كانت تنعقد برئاسة الأمير شخصياً وهو الذي كان يحسم في القرارات. بواسطة هذا النظام الجماعي المجلسي الذي أدى إلى اعتماد عرض الآراء والآراء المضادة، والتصويت المعلل إن من جانب الأكثرية أو الأقلية، ناهيك بقيام العاهل، إلى جانب الهيئات العيا الرسمية، باستدعاء من يثق بهم شخصياً ـ أعضاء الحكومة ـ وبواسطتهم يتخذ قراراته استجابة منه لقرارات مجلس الدولة أو الهيئات الأخرى المشابهة ـ لا أهمية هنا للتسمية التي تعطى لسلطات الدولة ـ إن ذلك كله قد قاد الأمير الذي كان ينزلق أكثر فأكثر إلى وضعية الخبير غير المختص، إلى الاعتقاد بإمكانية التخلص من الأهمية المتنامية التي اكتسبها الموظفون من أهل الاختصاص، وهو بذلك قد أمن لنفسه إبقاء الإدارة العليا في يده، إذ إن الصراع الخفي القائم بين فئة الموظفين وسلطة الأمير الشخصية، صراعٌ نجده في كل مكان. لم تتغير الأمور إلا مع ظهور البرلمانات والطموحات السياسية التي أبداها قادة الأحزاب البرلمانية. صحيح أن شروط هذا التطور الجديد اختلفت من بلدٍ إلى آخر، إلا أنها أدت مع ذلك إلى النتيجة نفسها ظاهرياً، مع فروقات أكيدة بالطبع، فحيث نجحت الأسر الحاكمة في الاحتفاظ بالسلطة الفعلية ـ كما هو الحال في ألمانيا تحديداً ـ كانت

مصالح الأمير متوافقة مع مصالح الموظفين **وضد** البرلمان وطموحاته بالوصول إلى السلطة. وبالفعل فقد وجد الموظفون مصلحة في الإمكانية التي توفرت لبعضهم بتولي مناصب قيادية، مثل المناصب الوزارية، الأمر الذي يعتبر في الوقت نفسه ارتقاء في الوظيفة. أما العاهل، فكان يرى بدوره مصلحة في تسمية الوزراء على هواه، ومن صفوف الموظفين المنقادين له أيضاً. هكذا وجدت كل من الجهتين مصلحة مشتركة لها في وحدة الإدارة السياسية ما يمكن من مواجهة البرلمان دون انقسام داخلي. لقد وجدنا إذاً مصلحة في استبدال النظام الجماعي المجلسي برئيس حكومة يعبر عن وحدة آراء الوزراء. أضف إلى ذلك حاجة العاهل، وحتى يبقى شكلياً بمنأى عن صراع الأحزاب وعن انتقاداتها، إلى شخصية تكون مسؤولة وقادرة على تأمين التغطية له، ما يعني إيجاد شخص يخاطب البرلمان ويقف بوجه مشاريعه ويقوم بالتفاوض مع الأحزاب. إن جميع هذه المصالح كان لها هنا تأثير مشتركٌ، وقد ذهبت في اتجاه وحيد هو إيصال قيادة موحدة برئاسة وزير ـ موظف، بل إن تطور سلطة البرلمان قد أدى دوراً أقوى في اتجاه التوحيد، حيث كان لهذه السلطة ـ كما في إنجلترا ـ الغلبة على العاهل. إننا نعاين في هذه الحالة تطور نظام «الحكومة» مع وجود قائد برلماني وحيد على رأسها، «إنه الزعيم» على رأس السلطة[26]، وهو اللجنة التي تمارس بالفعل وحدها السلطة السياسية المقررة مع تجاهل القوانين. نعني بالسلطة، **سلطة الحزب** الذي يتمتع كل مرة بأغلبية المجلس البرلماني الموجود. لم

---

(26) أثناء التطبيق التدريجي للنظام البرلماني برز في القرن التاسع عشر منصب «زعيم مجلس العموم» (Leader of the House of Commons) وكان هذا المنصب عادة من نصيب الوزير الأول ـ طالما أنه عضو في مجلس العموم ـ تولى زعيم مجلس العموم تنسيق البرنامج التشريعي، وبهذه الصفة مارس تأثيراً واسعاً في سير الاستشارات البرلمانية.

يعد بإمكان هذه الهيئات الجماعية المجلسية الرسمية، بوصفها كذلك أداة السلطة الفعلية المسيطرة إذ انتقلت هذه السلطة إلى الأحزاب، أن تكون ممثلة فعلياً للحكومة. إذ إن الحزب الحاكم حتى يكون قادراً على بسط سلطته في الداخل وحتى يكون بوسعه أداء دور سياسي كبير في الخارج، يحتاج قبل أي شيء آخر إلى أداة موثوقة قادرة مكوّنة حصراً من قادة الحزب الفعليين. والأداة هذه هي «الحكومة». ولكن إزاء الرأي العام، وقبل ذلك أيضاً إزاء الرأي العام البرلماني، لا نجد إلا رئيساً واحداً مسؤولاً عن كل القرارات، إنه رئيس الحكومة. هذا النظام الإنجليزي الذي اتخذ شكل الوزارة البرلمانية قد أُخذ به في أنحاء أخرى من القارة. أما في أميركا، والديمقراطيات التي تأثرت بها بعد ذلك، فإنها قد تبنت نظاماً مختلفاً بشكل كلي، وهو نظام يقوم على جعل رئيس الحزب الذي يفوز بانتخابٍ يشارك فيه الشعب مباشرة[27]، على رأس جهاز الموظفين الذين يقوم هو بتسميتهم ولا يطلب موافقة البرلمان إلا في ما يخص الموازنة والتشريع.

إن التحول الذي جعل من السياسة «مشروعاً»، والذي فرض تأهلاً خاصاً عند من يتصارعون من أجل الوصول إلى السلطة، ومن يطبقون مناهجها بحسب ما هو معمول به في مبدأ الحزب الحديث، قد أوصل إلى قسمة الموظفين الرسميين إلى قسمين، إلا أنها ليست قسمة حادة في كل الأحوال مع أنها تُظهر بوضوح فئتين منفصلتين: الموظفون المختصون من جانب، والموظفون السياسيون من جانب آخر. إن الموظفين السياسيين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة هم من يعرفون من

---

(27) صحيح أن رئيس الولايات المتحدة كان منتخباً من هيئة انتخابية (Electoral College)، إلا أن المندوبين عادة يظلون في تصويتهم على ارتباط بإرادة الناخبين كما تتجلى في الانتخابات العامة التي تجرى قبل ذلك.

الخارج عادة لأنهم عرضة للانتقال من وظيفة إلى أخرى، أو بالإمكان، على الأقل، وضعهم بالتصرف» تبعاً لإرادة رئيسهم شأن «المقدمين»[28]، في فرنسا أو من يماثلهم من موظفين في بلدان أخرى. يُعتبر هذا وضعاً يناقض كلياً «استقلالية» الموظفين الذين يمارسون مهام قضائية. إذ يُعتبر في إنجلترا موظفاً سياسياً كل الذين، بموجب اتفاقية مبرمة، يتركون وظيفتهم مع تغير الأغلبية البرلمانية، وحكماً مع تغير الوزارة. يسري ذلك عادة، وبشكل خاص، على الموظفين الذين تقع عليهم مهمة تأمين «الإدارة الداخلية» العامة. وتعتبر هذه وظيفة «سياسية» إذ تسهر على حفظ النظام في البلاد، ما يعني الحفاظ على العلاقة القائمة بين مختلف القوى. وفي بروسيا أُلزِمَ الموظفون بموجب مرسوم بوتكامر[29] (Puttkamer)، تحت طائلة التهديد بمخالفة النظام، «التزام الدفاع عن سياسة الحكومة»، وقد تمت الاستعانة بهم كما هو الحال مع المقدمين في فرنسا بوصفهم جهازاً وظيفياً من أجل التأثير في الانتخابات. إلا أنه وفي النظام الألماني - وخلافاً لما هو الوضع في بلدان أخرى - فإن أغلبية

---

(28) انظر أعلاه الهامش رقم 14، ص 280 من هذا الفصل.

(29) بذل وزير الداخلية البروسي روبرت فون بوتكامر منذ العام 1879 جهده لإقصاء العناصر الليبرالية عن الجسم الوظيفي وجعل هذا الجسم يؤدي قسم الولاء للحكومة. وقد بلغ هذا التطور ذروته بالقرار الذي يحمل علامات بسمارك إلا أنه يربط باسم بوتكامر وقد صدر عن فيلهلم الأول في الرابع من كانون الثاني/ يناير 1882 وقد توجه إلى الجسم الوظيفي البروسي، حيث جاء في مقاطعه ما يأتي: «من واجبات وزرائي، وبموجب قوانيني الدستورية التدخل ضد الاحتجاجات وحالات التشكيك: الأمر نفسه أتوقعه من كل الموظفين الذين اقسموا تجاهي قسم الوظيفة. بالنسبة إلي، أنا بعيد كل البعد عن إلحاق الضرر بحرية الانتخاب، أما بالنسبة إلى الموظفين الذي ينفذون أحكام ما تقوم به حكومتي فإنهم بسبب وظيفتهم يخضعون لقانون الانضباط الذي أقسموا على واجب الولاء له وعلى تمثيل سياسة حكومتي حتى أثناء الانتخابات»، انظر: Ernst Rudolf Huber (Hg.), *Dokumente zur Deutschen Verfassungsgeschichte* (Stuttgart: W. Kohlhammer, 1964), Nr. 220, Band 2, S. 307.

الموظفين «السياسيين» يتميزون نوعياً عن الموظفين في بلدان أخرى، بخضوعهم للحصول على هذه الوظيفة لدراسة أكاديمية، والخضوع لامتحانات مهنية ولبعض الدورات التدريبية التحضيرية. إلا أن هذا المَعْلَم الخاص المتعلق بالجسم الوظيفي الحديث لا ينطبق عندنا على رؤساء الجهاز السياسي، أي على الوزراء. في ظل النظام القديم كان بوسع المرء أن يصبح في بروسيا وزيراً للتربية والتعليم دون أن يكون شخصياً قد دخل أي معهد للتعليم العالي، في حين أنه ومن حيث المبدأ، لا يمكن للمرء أن يصبح مستشاراً محاضراً إلا بعد الخضوع بنجاح للامتحانات المقررة. حتى رئيس القلم والمستشار المحاضر كانا بالطبع ـ في الوقت الذي تولى فيه فريدريش ألتهوف[30] وزارة التربية في بروسيا ـ أكثر إحاطة جداً بالمسائل التقنية الفعلية في أقسامهم من رئيسهم. ولم يكن الوضع مختلفاً في إنجلترا. ونتيجة ذلك أصبح الموظف المختص الشخص الأقوى في ما له علاقة بالمتطلبات اليومية. وهذا ليس من قبيل العبث في كل الأحوال. إذ إن الوزير كان قبل أي شيء آخر ممثلاً للمجموعة **السياسية** التي تتولى السلطة، وعليه أن يمثل المعايير السياسية هذه، وأن يعود إلى اقتراحات مرؤوسيه من موظفين مختصين وأن ينقل إليهم التوجهات السياسية التي تتناسب مع خط مجموعته السياسية.

---

(30) كان فريدريش ألتهوف أول الأمر مستشاراً محاضراً، ولاحقاً مديراً في وزارة الثقافة البروسية. وقد طبع مديرية التعليم العالي بطابعه إذ كان مديراً لها في ظل خمسة وزراء، ما ساعد على فرض جوهر التعليم العالي في بروسيا وفي ألمانيا، بما في ذلك كيفية اختيار الأساتذة، بحيث إنه كان يُتحدث عن «نظام ألتهوف» طيلة فترة توليه الإدارة بين 1882 و1907، انظر: Bernhard vom Brocke, «Hochschul- und Wissenschaftspolitik in Preußen und im Deutschen Kaiserreich 1882-1907: das System Althoff,» in: *Bildungspolitik in Preußen zur Zeit des Kaiserreichs*, hg. von Peter Baumgart (Stuttgart: Klett - Cotta, 1980), S. 9 -118.

لا يختلف الوضع في مؤسسة اقتصادية خاصة، «فالحاكم» الفعلي، أي جمعية المساهمين، لا تأثير له في إدارة العمل أكثر من «حشد» من الموظفين المختصين، ومن شخصيات تقرر سياسة المؤسسة، ونعني بهم أعضاء مجلس الإدارة الذي تسيطر عليه المصارف، والذين لا يقومون بشيء سوى إعطاء التوجيهات الاقتصادية، وتعيين الأشخاص الجديرين بإدارة المؤسسة، دون أن يكونوا هم بالذات قادرين تقنياً على إدراتها. يتضح من وجهة النظر هذه أن بنية الدولة الثورية الحالية التي تتخلى عن توجيه الإدارة إلى خبراء غير مختصين فعلياً بمجرد امتلاكهم لأسلحة رشاشة، فيمسكون السلطة على الإدارة بأيديهم، ولا يعتبرون الموظفين المختصين أكثر من أداة تنفيذية[31]. إن هذه البنية لا تشكل من حيث المبدأ أمراً جديداً. نجد صعوبات هذا النظام الموجود آنياً في مكان آخر غير ما أسلفنا الإشارة إليه، وهذا ما لن نتطرق إليه الآن.

يجدر بنا الآن أن نولي عنايتنا السمات النموذجية التي يتمتع بها رجال السياسة المحترفون، سواء كانوا في مركز القيادة أو كانوا من التابعين لهم. فقد تغير هؤلاء مع الوقت وبات الأمر الآن مختلفاً جداً.

لقد ظهر «رجال السياسة المحترفون» في الماضي، وكما سبق ورأينا، عبر الصراع بين الأمراء وأهل الحرف والمراتب الذين كانوا أول الأمر في خدمة الأمراء. لننظر باختصار في أهم نماذجهم.

اعتمد الأمير في صراعه مع أهل الحرف والمراتب على فئات

---

(31) الإشارة هنا هي إلى واقعة إبقاء مجالس العمال والجنود في ثورة 1918/ 1919 على السلطات الإدارية القائمة ومحاولتهم استخدامهم في فرض أهدافهم. وفي العادة كانت مجالس العمال والجنود ترسل من تثق بهم إلى مراكز السلطة، وكان على هؤلاء مراقبة الأعمال الجارية دون أن تتدخل مباشرة في سير الأعمال.

اجتماعية يمكن استغلالها سياسياً، ولم تكن لها ميزات ومكانة تلك الفئة. كان الكهنة أهل هذه الفئة بالدرجة الأولى سواء في بلاد الهند الشرقية أو الغربية أو في الصين واليابان، وفي منغوليا التي تأخذ بمذهب اللاما، أو في المناطق التي اعتنقت المسيحية في القرون الوسطى. ولذلك سبب تقني، فقد كان هؤلاء يجيدون الكتابة. وقد كان يُستقدم البراهمة[32] والكهنة من البوذيين، اللاما[33]، في كل مكان، ويُستخدم الأساقفة والكهنة مستشارين سياسيين. وقد تم ذلك بحجة إتقانهم الكتابة وإمكانية الاستفادة منهم لتعزيز الإدارة ومساعدة القيصر أو الأمراء أو الخانات في صراعهم ضد الأرستقراطية. فقد كان رجل الدين، ولاسيما رجل الدين العازب، خارج التحرك الذي تفرضه المصالح الاقتصادية والسياسية العادية، ولم يكن يواجه الإغراء ليسعى إلى خدمة سلطة أسلافه تجاه سلطة سيده، كما كان يفعل المُقْطَع، من أجل تأمين مزيد من السيطرة السياسية الخاصة به التي قد تكون من مصلحة من سيخلفه أيضاً. وقد كان بحكم انتمائه الاجتماعي إلى صنف معين «مفصولاً» عن أساليب التحكم بالإدارة الأميرية.

شكّل أهل الأدب الذين تلقوا تأهيلاً إنسانياً الشريحة الثانية من هذا النوع. فقد مرَّ وقت كان المرء يسعى فيه إلى أن يتقن فن الخطابة نثراً باللاتينية، وفن الشعر باليونانية بهدف أن يصبح مستشاراً سياسياً أو مؤرخاً يكتب التاريخ السياسي للأمير. كان الزمن زمن بداية

(32) بموجب التقسيم الطبقي إلى شرائح مقفلة في البراهمية الكلاسيكية المكونة من أربع طبقات، شكّل الكهنة والعلماء الذين يحسنون الكتابة الشريحة الأعلى، إلا أن هذا الموقع كان يخرق من حين لآخر.

(33) تسمية تطلق على الكهنة المتفرغين في البوذية التي عرفت في التيبت، وكانوا يعيشون في الأديرة. ولذلك شكلت الأديرة في التيبت مراكز سلطة اقتصادية وسياسية في آن واحد، ولم تكن مراكز سلطة دينية وحسب.

تفتّح المدارس الإنسانية وأول تأسيس من جانب الأمراء لتعليم «فن الشعر»[34]، وهي مرحلة سرعان ما تطورت عندنا. وقد كان تأثيرها مستمراً في نظامنا المدرسي، في حين أنه لم يكن لها نتائج عميقة في السياسة. وقد كان الوضع في شرق آسيا مختلفاً كلياً. إذ إن الموظف كان قد تلقى تربية إنسانية من خلال إطلاعه على البناءات اللغوية التي ترقى إلى الماضي البعيد، أو كان على الأرجح بالأساس متعلماً، كما كان متأدباً مختبراً. إذا قرأتم يوميات لي هونغ تشانغ (Li - Hung - Tschang)، فستجدون أنه كان شديد الفخر بقدرته على نظم الشعر وبكونه خطاطاً قديراً[35]. وقد استطاعت هذه الشريحة الاجتماعية المكوّنة من الموظفين، وبما اكتسبته من مأثورات تعود إلى تاريخ الصين القديم، أن تحدد قدر الصين. وربما كنا عشنا القدر نفسه، في ما لو قدر لإنسانيينا في زمنهم النصيب الأدنى من الحظ لفرض أنفسهم بالدرجة نفسها من النجاح.

تكوّنت الشريحة الثالثة من نبلاء البلاط. بعد أن تمكّن الأمراء من انتزاع السلطة التي تمتع بها النبلاء بوصفهم طبقة من أصحاب

---

(34) بتشجيع الأمراء على الفنون أنشئ في إيطاليا في القرن الخامس عشر عدة أكاديميات، حيث أمكن لأتباع المذهب الإنساني الذين لم تتح لهم إمكانية الإنطلاق في الجامعات التقليدية، الانصراف هنا إلى متابعة أعمالهم العلمية، ولاسيما الاهتمام بكتّاب من العصور القديمة. وتبعاً لهذا النموذج أسس القيصر ماكسيميليان في العام 1501 في فيينا ما يعرف بـ «Collegium Poetarum».

(35) يوميات نائب الملك لي هونغ تشانغ، وقد تُرجمت إلى الألمانية، انظر: *Memoiren des Vizekönigs Li Hung Tschang*, Gräfin M.vom Hagen (Berlin: Karl Siegismund, 1915),

وقد نشر فيها الكثير من كتاباته الشعرية. وفي يومياته يروي لي هونغ تشانغ، أن حلمه منذ طفولته كان أن يتوج شاعر بلاده. المصدر المذكور، ص 149 وما يلي: وعلى الأرجح أن ما ترجم لاحقاً له من يوميات، هي كناية عن يوميات مزورة أو منحولة، انظر: Hugh Trevor - Roper, *The Hermit of Peking. The Hidden Life of Sir Edmund Backhouse* (London: Macmillan, 1979), S. 236.

سلطة سياسية، استقدموهم إلى البلاط ليكونوا إلى جانبهم في الوظائف السياسية والدبلوماسية. والتحول الذي شهده نظامنا التربوي في القرن السابع عشر قد تحدد جزئياً بتنحي أهل العلم الإنسانيين لصالح السياسيين المحترفين العاملين في البلاط في خدمة الأمراء.

أما الفئة الرابعة فكانت هيئة إنجليزية صرف. إنها شريحة صغار النبلاء المكوّنة من صغار الأعيان وصغار الملاكين من الشيوخ الذين يشار إليهم باستخدام التسمية التقنية «gentry». إنها الشريحة التي تكوّنت في الأصل من الذين استقدمهم الأمير أو العاهل وجعلهم في خدمته لمحاربة البارونات، مغدقاً عليهم صفة «الحاكم المستقل»[36]، ليصبح هو، مع مرور الوقت، أكثر فأكثر تبعية لهم. احتفظت هذه الشريحة لنفسها بكل المراكز الإدارية المحلية متحملة دون مقابل كل النفقات خدمة لمصلحتها الاجتماعية الخاصة. وبذلك تمكنت هذه الفئة أن تحفظ إنجلترا من النزعة البيروقراطية التي كانت قدر كل دول القارة.

وفي الغرب، وفي بلدان القارة الأوروبية بشكل خاص، تكوّنت الشريحة الخامسة التي كان لها الأثر الحاسم في البنية السياسية بمجملها. إنها شريحة رجال القانون الذين تلقوا العلم في الجامعات. إن التأثير الكبير الذي تركه القانون الروماني لاحقاً، وبالشكل الذي اتخذه في الدولة الرومانية البيروقراطية قبل انحسارها، لا يظهر بشكل شديد الوضوح في أي مكان كما يظهر في ما يأتي: إن تثوير الشأن

---

(36) ترك النظام الإنجليزي، «نظام الحكم الذاتي» المهام العامة على المستويات الدنيا من نظام الدولة، وكما كان الحال تقليدياً بيد الذين ينتسبون إلى النبلاء المحليين الذين كانوا في أغلبيتهم يمارسون عملهم بكل شرف. أما قاضي الصلح (انظر لاحقاً هامش رقم 85، من هذا الفصل) والوصي على الفقراء (Guardian of the Poor) فقد كانا يُختاران عادة من صفوف ما يعرف بالـ Gentry، أي من بين النبلاء الأدنى الذين يقيمون في الأرياف.

السياسي في كل مكان، بمعنى التطوير باتجاه الدولة العقلانية كان شأناً ينسب إلى رجال القانون المتنورين. يمكننا معاينة الأمر نفسه في إنجلترا، علماً أن نقابات أهل القانون الوطنية الكبرى قد مانعت انتشار القانون الروماني[37]، ولا نجد في أي بقعة من بقاع العالم مثيلاً لهذه الظاهرة. إن كل جهود الفكر القانوني العقلاني، سواء في مدرسة ميمامسا (Mimamsa) الهندوسية[38]، أو تلك التي بذلها مفكرون في الإسلام بهدف تطوير الفكر القانوني القديم لم تقف حائلاً دون طغيان أشكال الفكر اللاهوتي على الفكر القانوني العقلاني. ولم يكن بوسع هذه التيارات أن تعقلن الإجراءات القضائية كلياً. وحتى يقيض لهذه المهمة أن تصل إلى نتائج جيدة، لابدّ أولاً من تأمين التواصل مع النظام القضائي القديم عند الرومان، الذي كان، كما نعلم، نتاج بنية فريدة كلياً إذ ارتقى من مرتبة المدينة الدولة إلى إمبراطورية عالمية. إنها مهمة تولاها أولاً رجال القانون الإيطاليون، كما نشير إلى «الاستخدام الحديث» من جانب البندكتيين (Pandekten) والقانونيين في أواخر القرون الوسطى[39]، وإلى

(37) كان وضع القضاء الإنجليزي مقارنة بغيره منذ بداية القرن الثالث عشر على درجة عالية من التنظيم، وقد دافع عن ممارسته لما يعرف بالقانون العام «Common Law» الذي أثبت نجاحه في مواجهة تأثير القانون الروماني، والذي ساد في المدارس القانونية التي أسسها، مثل Londoner Inns of Court، ما أسهم في تطور القانون في إنجلترا.

(38) عقيدة فلسفية تعني بتفسير نصوص الفيدا المقدسة، ولاسيما تفسير الفرائض الطقوسية. إن فن التأويل القائم على الوضوح وصحة الاستنتاج الذي أرساه فن تأويل الميمامساكا في الهند قد أدى دوراً في تحليل المواضيع القضائية أيضاً.

(39) البندكتيين، هم جزء من المجموعة الجوستنيانية القانونية وتعود إلى القرن السادس بعد الميلاد، وقد لاقت مع تقبلها للقانون الروماني صدى واسعاً فوق الأراضي الألمانية. في بداية القرن السابع عشر بدأ تطور اتجاه جديد في العلم الحقوقي الألماني، تميز بالتعامل الحر مع مصادر الحقوق والقوانين الرومانية. وقد شارك معلمو الكنيسة القانونيين في هذا التطور. وقد أطلق على هذه المرحلة التي تميزت بممارسة القانون الروماني في العلوم القانونية الألمانية اسم «Usus modernus pandectarum».

نظريات الحق الطبيعي في الفكر القضائي المسيحي التي اتخذت طابعاً دنيوياً في ما بعد. يُعتبر «القضاة الأوّل» (Podestat)[40] الإيطاليون ورجال القانون الفرنسيون التابعون للملك، من كبار ممثلي هذا التوجه العقلاني الذين أوجدوا السبل القانونية لانتزاع سلطة الإقطاع لصالح السلطة الملكية، ومنهم أيضاً اللاهوتيون وأهل القانون الذين نادوا بنظرية الحق الطبيعي في المجامع[41]، ورجال قانون البلاط والقضاة البارعون عند الأمراء القاريين، ومنظرو الحق الطبيعي في هولندا[42]، ودعاة الحد من الملكية[43]، وبنبلاء الثوب في

(40) تعتبر الـ Podestà لقباً أُعطي إلى النبالة القانونية المتمرسة التي تولت منذ القرن الثاني عشر في المدن في القرون الوسطى قيادة الإدارة (بوصفهم القضاة الأول). وكان يلزم أن يكون هذا القاضي من خارج المدينة التي يعمل فيها ومنتخباً من جانب الكومونة (أو الناحية الإدارية) لوقت محدد، وأن يسمى من قبل القيصر في المدن التي تخضع لسيطرته.

(41) ظهرت نظرية الأخذ برأي المجامع كردة فعل على الأزمة مع البابوية في القرن الرابع عشر/ الخامس عشر. ظهر نتيجة ذلك القول إن البابا لا يملك السلطة الكاملة، بل يشاركه في ذلك أيضاً كافة الممثلين في المجمع، وهم يحددون مجتمعين المعايير التي تحدد عقيدة الكنيسة وحياتها.

(42) يستند ماكس فيبر هنا بالدرجة الأولى إلى الفيلسوف جوستوس ليبسيوس (Justus Lipsius) (1547 - 1616) وإلى المفكر القانوني هوغو غروتيوس (Hugo Grotius) (1583 ـ 1645). طور غروتيوس في كتاباته نظاماً منفتحاً من القانون الدولي متحرراً من اللاهوت الأخلاقي كما تصورته السكولائية المتأخرة. وقد أثر بذلك باعتباره مؤسس القانون الطبيعي الحديث بشكل قوي في تاريخ القانون الهولندي والأوروبي.

(43) «Monarchomachos» (أو مناهض الملكية) هو الاسم الذي أطلقه وليام باركلي (William Barclay) (1543 ـ 1608)، وكان كاثوليكياً مؤيداً للحكم الملكي، على القوى السياسية التي تطالب بالحد من سلطة الملك وبحق المعارضة بموجب الدستور. وبالمعنى الضيق للكلمة يشار بهذا التعبير عادة إلى مجموعة من أرباب القلم الفرنسيين، أمثال فرانسوا هوتمان (François Hotman)، وتيودور دو بيز (Théodore de Bèze)، وهوبرت لانغت (Hubert Languet)، وفيليب دوبليسيس ـ مورناي (Philippe Duplessis-Mornay)، الذين استندوا بعد الأعمال العنيفة المناوئة للهوغونوت عشية ليلة (القديس) برتلمارس عام 1572 إلى مبدأ حق المقاومة المشتق من السيادة القومية من أجل إزاحة الحاكم الطاغي، الذي يتوازى برأيهم مع الحاكم العدو.

البرلمان الفرنسي[44]، وأخيراً عند محامي زمن الثورة الفرنسية. من دون هذه العقلنة القانونية لا يمكننا فهم الحكم الملكي المطلق ولا فهم الثورة أيضاً. وإذا ما راجعتم تنبيهات البرلمان الفرنسي[45]، أو دفاتر المظالم عند أهل المراتب والأصناف العامة الفرنسيين[46]، منذ القرن السادس عشر وحتى العام 1789، فستجدون في كل مكان عقلية رجال القانون. وإذا راجعتم الانتماء الوظيفي لأعضاء المعاهدة زمن الثورة الفرنسية[47]، فستجدون هناك بروليتارياً واحداً ـ علماً أنه قد انتُخب بموجب قانون الانتخاب نفسه الذي انتُخب به زملاؤه أيضاً ـ وستجدون عدداً محدوداً جداً من المقاولين البورجوازيين، مقابل عدد كبير من رجال القانون ومن كل الأنواع الذين لا يمكن من دونهم فهم الروحية الخاصة التي خيمت على هؤلاء المثقفين العقلانيين ولا فهم مشاريعهم. منذ ذلك الوقت صار اسم المحامي الحديث لصيقاً بالديمقراطية الحديثة ـ والمحامي بالمعنى الذي نعرفه فيه، باعتباره صنفاً مستقلاً لم يكن بدوره موجوداً إلا في الغرب، وذلك منذ القرون الوسطى، حيث تكاثر عددهم بدءاً من مهمة

(44) إشارة إلى ما كان يجري في فرنسا من إسباغ لقب النبيل على الموظف. إذ كان يسبغ على الموظف في بعض المراكز لقب نبيل في الوقت نفسه، بحيث صار لقب النبالة مرتبطاً بالوظيفة. ومع الوقت، صارت الوظيفة واللقب من الأمور التي تتم بالتوارث.

(45) إن البرلمان انطلاقاً من واجباته، بوصفه الهيئة القضائية الأعلى في البلاد، حيث يجب على الملك تسجيل قراراته لتكتسب قوة القانون، قادت البرلمانات الفرنسية ما يعرف بـ «قانون التنبيه» أي إخضاع هذه القرارات للرقابة والاعتراض عليها كتابياً إذا لزم الأمر.

(46) يعني بذلك دفاتر المظالم، حيث تدون فيها أثناء الانتخابات مطالب وتمنيات الناخبين وترفع إلى الهيئات العامة. وكانت هذه الاعتراضات ـ وبعد جمعها تبعاً لتراتب أهل الأصناف والمراتب ـ تقدم إلى الملك.

(47) نجد معطيات كهذه في: Auguste Kuscinski, *Dictionnaire des conventionnels* (Paris: Au Siège de la Société et à la Librairie F. Rieder, 1916).

الوسيط (الشفيع)[48] الموجودة، والتي تطورت داخل الإجراءات القضائية الشكلية الألمانية بفعل العقلنة داخل القضاء.

لم تكن الأهمية التي اكتسبها المحامون في السياسة الغربية منذ ظهور الأحزاب السياسية وليدة الصدفة أبداً. إذ إن المشروع السياسي الذي قادته الأحزاب ليس تحديداً إلا مشروعاً يقوم على المصالح ـ وسنرى لاحقاً ماذا نعني بذلك ـ حيث إن حرفة المحامي المتمرس تقوم تحديداً على الدفاع الفاعل عن مصالح الذين يلجأون إليه. إنها حرفة تقوم على تجاوز المحامي لكل موظف، وهذا ما يستفاد من تفوق الدعاية[49] العدوة. صحيح أنه بإمكان المحامي أن ينتصر، وأن يربح تقنياً بالتالي قضية لا تستند في حجمها إلا إلى أساس منطقي ضعيف، أي إلى أساس «سيئ» بهذا المعنى، ولكنه كذلك الوحيد القادر على الفوز، وبعد ذلك على «ربح» قضية تقوم على حجج صلبة، أي على حجج «جيدة». وقد يحدث، للأسف غالباً، أن يجعل الموظف، بوصفه رجل سياسة، وباستخدامه التوجيهات الخاطئة تقنياً من القضية «الجيدة» بكل معنى قضية «سيئة»، وهذا ما خبرناه نحن فعلاً[50]. إذ إن السياسة الحالية تدار الآن وبمقدار آخذٍ

---

(48) «الشفيع» أو الوسيط هو المتحدث باسم حزب ما (وليس المحامي) أمام المحكمة. وكان من واجبه أول الأمر أن يواجه ما يعرف «بالخطر» الذي ينجم عن الشكلانية القوية الناجمة عن إجراءات المحاكمات في القرون الوسطى.

(49) أثبتت دعاية القوى الغربية المستندة إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها، والتي اعتبرت الغزو الألماني لبلجيكا انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي، قوة فاعليتها في الدول المحايدة. مقابل ذلك بذلت قيادة الرايخ الألماني جهدها لتبرير السياسة الحربية الألمانية. ولم تتمكن مفوضية العلاقات الخارجية التي كان عليها منذ تشرين الأول/ أكتوبر 1914 أن تتولى في الخارج تنظيم الدعاية ورقابتها أن تتفوق على التقدم الذي أحرزته القوى الغربية في هذا المجال.

(50) الإشارة هنا هي إلى فشل السياسة الألمانية في نهاية فترة الدولة القيصرية. فبحسب النظام الذي ساد آنذاك، كان يتم اختيار وزراء بروسيا ووزراء الرايخ، بما في ذلك المستشار في الدولة القيصرية من بين صفوف الموظفين الأعلى رتبة. انظر نقد فيبر حول هذه العلاقات في: =

بالتوسع في أوساط الرأي العام بوسائل هي الكلمات المكتوبة أو الكلمات التي تتلى. ثم إن قياس تأثير هذه الكلمات هو مهمة تقع على عاتق أوساط المحامين، لا على عاتق الموظف المختص الذي لا يعتبر سياسياً، والذي لا يمكنه أن يكونه تبعاً لتعريف وضعيته بالذات. وإذا حاول مع ذلك أداء هذا الدور فلن يكون عادة إلا سياسياً متملقاً سيئاً.

على الموظف الأصيل ـ وهذه ملاحظة حاسمة في الحكم على نظامنا القديم ـ بموجب ما أوكل إليه من مهمة خاصة أن لا يمارس السياسة بل يجب عليه أن «يدير»، بشكل **محايد** قبل أي شيء آخر، ـ وهذا الأمر ينطبق أيضاً على من نعتبرهم، على الأقل، رسمياً، موظفين سياسيين، أي حيث يجب عدم تعريض «سلامة الدولة العليا»، أي المصالح الحيوية في النظام القائم للخطر. على الموظف أن يمارس وظيفته «دون غضب ودون تحيز» (sine ira et studio)[51]. وعليه تحديداً أن لا يقوم بما يجب على السياسي، وعلى القائد أو على مناصريهما القيام به، **أي الصراع باستمرار.** ذلك أن التخريب والصراع والميل مع الهوى -ira et studium- من خصائص السياسي، وقبل أي شيء آخر من ميزات **القائد** السياسي الذي يخضع **تصرفه** لمبدأ مسؤولية مغاير لما يقوم به الموظف، بل مخالف له إلى حد بعيد. إن جاه الموظف وشرفه، ومهارته في تنفيذ الأمر بضمير وعلى

Max Weber, *Parlament und Regierung im neugeordneten Deutschland. Zur politischen Kritik des Beamtentums und Parteiwesens* (München / Leipzig: Duncker & Humblot, 1918), S. 13-55, =

ولاسيما الفصل الخاص بالعمل الوظيفي والقيادة السياسية، انظر الأعمال الكاملة (MWG I/15, S. 450-486).

(51) Tacitus, *Annales*, 1, 1.

مسؤولية السلطة الأعلى حتى لو اقتضت المسؤولية منه ـ رغم ما له من تصور خاص ـ أن يتبع طريقاً خاطئة، يحتم عليه أن ينقاد إلى مسؤولية مرؤوسيه وأن يتصرف كما لو كان ذلك ينسجم مع قناعته الخاصة، إذ إنه من دون هذا الحس العالي بالانضباط الأخلاقي ودون نكران الذات هذا، يصبح الجهاز كله عرضة للانهيار. وفي المقابل، فإن شرف القائد السياسي، أي شرف رجل الدولة الذي يتولى القيادة، يقوم على تحمله حصرياً المسؤولية الشخصية عن كل ما يقوم به، وهي مسؤولية لا يستطيع رفضها أو التنصل منها، ولا يجب عليه ذلك أيضاً. ثم إن الموظفين الذين يتمتعون بطبيعتهم بحس أخلاقي عالٍ هم بالضرورة رجال سياسة سيئون، وعليهم بالتالي عدم تولي المسؤوليات بالمفهوم السياسي لهذه الكلمة، فهم بهذا المعنى من رجال السياسة أصحاب الحس الأخلاقي الأدنى. نجد أمثال هؤلاء، للأسف، عندنا وهم يشغلون مراكز إدارية قيادية. هذا ما نطلق عليه تسمية «نظام الموظفين»؟ ولن نلوث شرف الوظيفة العامة عندنا إذا ما أظهرنا العيوب السياسية في هذا النظام، ولاسيما إذا ما نظرنا إليه من زاوية النجاح أو الفاعلية السياسية. أما بعد، فلنعد مرة أخرى إلى أنماط الأشكال السياسية.

وُجد «السياسي الديماغوجي» منذ وجود الدولة الدستورية، بل منذ وجود الديمقراطيات، إذ كان هذا هو نمط القائد السياسي في الغرب. إلا أن خلفية مذاق هذه التسمية غير الجيدة، يجب أن لا تنسينا أن بيركليس، وليس كليون كان أول من حمل هذه التسمية. إن السياسي الديماغوجي هو من لا يشغل أي وظيفة، بل يشغل وحده الوظيفة التي يُنتدب إليها ـ وخلافاً لكل الوظائف الأخرى في الديمقراطية القديمة، حيث كانت تُشغل لشعب أثينا، وبالطبع من طريق القرعة. إنها وظيفة الاستراتيجي الأعلى الذي يتولى بموجبها

قيادة الاجتماع العام[52]. تستخدم الديماغوجيا (سياسة التملق) الحديثة الأسلوب الخطابي بنسبة مرتفعة جداً من الناحية الكمية، هذا إذا فكرنا بالخطابات الانتخابية التي على المرشح الحديث إلقاؤها، كما إنها تستخدم كذلك بطريقة أشد تأثيراً من الكلمة المطبوعة. إذ إن المؤلف السياسي و**الصحافي** بدرجة أولى يعتبر اليوم الممثل الرئيس لهذا النوع.

لا يمكن في إطار هذه المحاضرة أن نقدم، ولا حتى على سبيل المبادرة، مبحثاً في علم اجتماع الصحافة الحديثة، فهذه مسألة تحتاج إلى الاحاطة بها من كل جوانبها إلى فصل كامل[53]. ولن نتطرق هنا إلا إلى القليل الضروري. يتقاسم الصحافي مع كل الديماغوجيين ومع المحامي (والفنان)، على الأقل، في هذه القارة، وخلافاً لما هو الحال بالنسبة إلى الأوضاع الإنجليزية أو كما كانت سالفاً في بروسيا، القدر نفسه، وهو الإفلات من أي تصنيف اجتماعي ثابت، فهو ينتمي إلى نوع من شريحة المنبوذين التي يحكم عليها في «المجتمع» باستمرار تبعاً لتصرف ممثليها الأقل كرامة من وجهة نظر أخلاقية. ولهذا السبب ننسب في العادة إلى الصحافيين وإلى عملهم التصورات الأشد سخفاً. لا يخطر في بال كل إنسان أن الإنجاز الصحافي **الجيد** فعلياً هو إنجاز يحتاج إلى الكثير من «العقل»، شأن كل إنجاز آخر يقوم به مثقفون ـ وفي أغلب الأحيان

---

(52) انظر الهامش رقم 3، من هذا الفصل.

(53) سبق لفيبر منذ العام 1910 وفي مؤتمر علم الاجتماع في إطار البحث السوسيولوجي العلمي عن «سوسيولوجيا ماهية الصحافة» ومن خلال الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع أن قدم بحثاً عن «قدر وضع الصحافيين وموقعهم». انظر نقاشات المؤتمر الأول لعلماء الاجتماع بين 19 و22 تشرين الأول/ أكتوبر 1910 في فرانكفورت، انظر: *«Schicksal und der Situation des Journalistenstandes fragen»* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1911), S. 39 - 62. (MWG I/13).

يُتجاهل أن عمل الصحافي هو عمل يخضع للضرورة، وأنه يكون بناء على أمر أو توصية، وأنه يجب أن يكون مؤثراً في الحال وفي ظل شروط إبداع تختلف عن كل الشروط الأخرى التي يخضع لها المثقفون الآخرون. أما أن تكون المسؤولية أكبر جداً، وأن لا يقل الشعور بالمسؤولية عند كل صحافي صاحب شرف بالمعدل عمقاً عما هو عند المثقف عادة، بل أن يكون أعلى، كما علمتنا الحرب ـ فهذا ما لا يمكن تقديره أبداً، ذلك أنه تبعاً لطبيعة الإنجازات الصحافية الخالية من المسؤولية، وبسبب تأثيرها الرهيب أحياناً، فهي الإنجازات التي تظل في المخيلة. إلا أن أحداً لن يقبل أن تكون رزانة الصحافي النشيط بالمتوسط أعلى من الناس الآخرين. ومع ذلك فالأمر هو هكذا بالفعل. إن الإغراءات التي لا مثيل لصعوبتها، والتي ترتبط بمزاولة هذه المهنة، إلى جانب ما لظروف العمل الصحافي الأخرى من أثر في عصرنا الحاضر، قد جعلت الجمهور يصل إلى نتيجة تعوَّد عليها، وهي النظر إلى الصحافة بمزيج من قلة الاحترام ومن جبن مرير. إلا أننا لن نتناول الآن ما يجب فعله في هذا الصدد. ما نود أن نوليه عنايتنا هو التطرق إلى قدر الوظيفة **السياسية** عند الصحافي، ولحظوظ هذه الوظيفة في الوصول إلى موقع القيادة السياسية. وهذا ما لم يتحقق حتى الآن إلا داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. لكن حتى داخل هذا الحزب، فإن مواقع رئاسة التحرير لم تكن على العموم إلا مراكز ذات صفة وظيفية، ولم تكن أساساً تساعد على الارتقاء إلى مركز قيادي[54].

(54) كان عمل المحررين الموظفين في صحافة الحزب الاشتركي الديمقراطي يخضعون لرقابة شديدة من جانب الهيئات الحزبية. كما إن اللجنة الحزبية المعروفة «بمفوضية الصحافة» لا تسهر على التصرف التقني والمبدئي في صحافة الحزب وحسب، بل كانت تأخذ القرارات بتوظيف أو بطرد المحررين. ومع ذلك فإن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني كان يرشح للانتخابات عدداً من الصحافيين أكبر بكثير مما تفعله الأحزاب الأخرى.

على العموم، ومقارنة بالأجيال السابقة، ساءت حالة الارتقاء إلى السلطة السياسية باعتماد الطرق السائدة في الأحزاب البورجوازية الموجودة الآن. فقد بات كل سياسي يتسم بأهمية معينة محتاجاً بالطبع إلى تأثير الصحافة وإلى العلاقات مع الأوساط الصحافية. أما خروج **الزعماء الحزبيين** من وسط صحافي، فكان أمراً استثنائياً بالتأكيد ـ ولا يمكن لنا أن ننظمه أيضاً. ويعود السبب في ذلك إلى «عدم التفرغ الحر» الواضح جداً في الصحافة. ويعود كذلك بالدرجة الأولى إلى افتقار الصحافي المرتبط بمهنته إلى ثروة شخصية، والذي عليه تبعاً لذلك العيش من موارد مهنته، تعتبر هذه التبعية نتيجة التطور الهائل، سواء من حيث الشدة أو من حيث الراهنية، الذي يشهده العمل الصحافي. إن الضرورة التي تفرض على الصحافي كتابة مقالته اليومية أو الأسبوعية أحياناً ليحصل من خلال ذلك على قوته اليومي هي ضرورة تشكل نوعاً من القيد الذي يكبل كل صحافي. وأنا أعرف شخصياً أمثلة، حيث إن عدداً من الأفراد يمتلكون بطبيعتهم صفة القيادة، ويجدون أنفسهم من الداخل عاجزين باستمرار من الارتقاء إلى السلطة. صحيح أن علاقات الصحافة بالسلطات القائمة في الدولة أو في الأحزاب في ظل النظام القديم، كانت علاقات مضرة إلى حد بعيد بمستوى الصحافة، لكن ذلك يشكل فصلاً قائماً بذاته. لقد اتخذت هذه العلاقات مسيرة مغايرة في البلدان المتصارعة. لكن نجد حتى هناك، وفي كل الدول الحديثة، وكما يظهر تصديقاً للفرضية الآتية: إن العامل الصحافي يخسر باستمرار من تأثيره السياسي في الوقت الذي يزيد فيه القطب الصحافي الرأسمالي من تأثيره السياسي، ولنا في اللورد نورثكليف مثال على ذلك[55].

(55) كان ألفريد تشارلز وليام هارمسوورث (Alfred Charles William Harmsworth) منذ العام 1905 بارون نورثكليف، ومنذ العام 1917 فيسكونتاً، وقد خلق =

أما عندنا بالطبع، فقد شكل اتحاد الشركات الصحافية الرأسمالية الذي اعتمد بشكل كلي على الصحف التي تنشر «إعلانات صغيرة» المعروفة باسم «المؤشر العام» المروِّج النمطي لعدم الاكثرات بالشأن السياسي، إذ أدرك هؤلاء أنه لا يمكن الاعتماد على كسب أي مربح من القوى الموجودة في السلطة، بل لا يمكن الاعتماد عليها حتى من حيث تأمين الخطوة النافعة في الشأن التجاري. وتُعتبر تجارة الإعلان أيضاً الطريق الذي تم اعتماده بشكل قوي أثناء الحرب في محاولة لممارسة التأثير السياسي عبر الصحافة[56]. والظاهر أن هذه الرغبة مازالت مستمرة إلى الآن. وإذا كان يؤمل أن تستمر الصحافة الكبرى في التنصل من ذلك، فإن الوضع بالنسبة إلى الصحف الصغرى يبدو شديد الصعوبة. في كل الأحوال، لا تُعتبر المسيرة الصحافية عندنا اليوم طريقاً طبيعياً يوصل إلى مصاف الزعامة السياسية، وذلك بغض النظر عما تملكه من جاذبية وما تملكه من إمكانية في التأثير والفعل ومن قدرة على فتح باب المسؤولية أمام الذين يريدون الانغماس في هذا العمل. وربما كان علينا أن ننتظر لنعرف إذا ما كانت الصحافة قادرة على ذلك أصلاً، أو غير قادرة عليه على الإطلاق. كما يصعب التكهن كذلك إذا ما كان التخلي عن

= بتأسيسه أو تملكه لعدة جرائد، ومنها **التايمز** في بداية القرن العشرين إحدى أكبر المؤسسات الصحافية ذات التأثير الواسع في أوروبا. وقد حرص بوصفه مستشاراً أو مشجعاً للويد جورج (Lloyd George)، وبواسطة جرائده التي شجعت سياسته وقيادته العسكرية عبر كل الوسائل الممكنة أن يؤمن له قاعدة شعبية عريضة.

(56) الأرجح أن ماكس فيبر يشير هنا إلى المؤسسة الإعلانية العامة التي مولتها أوساط الصناعة الكبرى في ألمانيا. صحيح أن هذه المؤسسة الإعلانية التي تأسست عام 1917 كانت رسمياً محايدة سياسياً، إلا أنها ساندت الجرائد اليمينية التي كانت إلى جانبها من حيث تخصيصها بتوزيع الإعلانات عليها. حتى أن **جريدة فرانكفورت** قد تحدثت بعد تأسيس هذه الشركة الإعلانية عن «إرهاب الإعلان» الذي يهدف إلى جعل الجرائد جرائد «مسترقة» (عدد 296 تاريخ 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1917 الصفحة الأولى من الطبعة الصباحية).

مبدأ الإغفال[57] (الكتابة باسم مستعار) الذي يعتمده عدة صحافيين، وليس كلهم بالطبع، سيؤدي إلى تعديل هذا الوضع. إن ما خبرناه بخصوص الصحافة الألمانية أثناء الحرب، عن جرائد أوكلت مهام «رئاسة التحرير» فيها إلى شخصيات أصحاب موهبة كتابية مميزة[58]، والذين عبروا عن آرائهم بتوقيعهم الصريح بأسمائهم، قد أظهر وللأسف، في بعض الحالات المعروفة، أن هذه الطريقة لا يمكن أن تكون جيدة كما ساد الاعتقاد، حتى تُروّج بما لها من حسٍ عالٍ بالمسؤولية. إن ما حصل، ودون تمييز بين الأحزاب، هو أن صحف الإثارة الأكثر شهرة برداءتها هي التي جهدت، وإن جزئياً، لاستخدام هذه الوسيلة لزيادة مبيعاتها. وقد نجحت في ذلك أيضاً. لقد كسب المعنيون بذلك ثروة دون شك، سواء كانوا من ناشري هذه المطبوعات أو من الصحافيين الذي يتعمدون الإثارة، إلا أنهم لم يكسبوا بذلك شرفاً بالتأكيد. هذا لا يعني على الإطلاق أنه يجب التخلي عن مبدأ توقيع المقالات، إذ إن المسألة أشد تعقيداً من هذا الأمر. ولا يمكن اعتبار الظاهرة التي عرضناها ظاهرة عامة. إن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه الممارسة لم تكن حتى الآن السبيل للوصول إلى قيادة فعلية أو إلى مزاولة العمل السياسي **المسؤول**. أما

---

(57) أدى الجدال حول مبدأ إغفال الاسم، أي حول مسألة، وجوب توقيع المقالات في الصحف أو عدم وجوب ذلك بالاسم الصريح، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، دوراً كبيراً في الصحافة الألمانية. وفي الاستفتاء الذي نظمه اتحاد الصحافيين والكُتّاب الألمان عام 1892 حول ذلك أيدت أغلبية الصحافيين والناشرين اعتماد هذا المبدأ، دون أن ينهي ذلك الجدل حول الموضوع. ومن منتقدي مبدأ إغفال الاسم نجد، إلى جانب ماكس فيبر، العالم الاقتصادي المعروف كارل بوخر (Karl Bücher)، انظر: Karl Bücher, «Die Anonymität in der Presse,» *Zeitschrift für Gesamte Staatswissenschaft*, Jg. 72, Heft 3 (1916/1917), S. 289 - 327.

(58) لم نتمكن من إيضاح المقصود بهذه الإشارة.

كيف سيكون عليه الوضع لاحقاً، فالمستقبل كفيل بالإجابة. وفي كل الأحوال، تظل المهنة الصحافية من أهم السبل، من أجل مزاولة النشاط السياسي المهني الاحترافي. إلا أنه ليس سبيلاً ميسراً أمام كل الناس. وهو ليس ميسراً بشكل خاص لمن يتميز بالضعف، ولا أمام الذين لا يستطيعون تحقيق توازنهم الداخلي إلا في وسط اجتماعي آمن. إذا كانت حياة المثقف الشاب عرضة للصدف، فإنها تظل مع ذلك مسورة ببعض التقاليد الاجتماعية الراسخة، وهذا ما يقيها شر العثرات. إن حياة الصحافي هي حياة عرضة للصدف من كل النواحي، وذلك في ظروف تجعله يختبر روح الثقة والاطمئنان بطريقة لا مثيل لها في أي موقع آخر. والتجارب المرة في مسيرة الحياة المهنية ليست في الأرجح إلا المظهر الأقل سوءاً فيها. ذلك أن الصحافيين الأكثر نجاحاً هم الذين يكونون عرضة لمتطلبات داخلية صعبة. في كل الأحوال، إن الأمر ليس سهلاً على الإطلاق في الظهور على قدم المساواة ظاهرياً في صالونات أقوى أقوياء الأرض، والتملق عامة بل غالباً، لأنهم يخشونك، وأن تكون في الوقت نفسه واعٍ تماماً بمجرد دخولك عتبة الباب، إن السيد فيه سيكون ملزماً أمام ضيوفه تبرير تعامله مع «مدعي الصحافة»[59]. كما إنه ليس سهلاً كذلك أن يكون المرء ملزماً أن يقدم بسرعة، وفوق ذلك بقناعة، وجهات نظر تتناول كل ما يطرح في «السوق» من أسئلة، وكل ما يتعلق بالحياة من موضوعات يمكن تخيلها، كل ذلك

(59) دأبت الأدبيات الناطقة بالألمانية منذ القرن التاسع عشر على الحطّ من قيمة الصحافيين ونعتهم «بمدّعي الصحافة» ولنا في أعمال كل من جان بول، وجورج كريستوف ليشتنبرغ (Georg Christoph Lichtenberg) وهاينريش هايني (Heinrich Heine) أيضاً شواهد على ذلك، وهو الذي كتب عام 1841 مقالة صحافية هاجم فيه مهنة «ادعاء الصحافة»، انظر: *Heinrich Heines Sämtliche Werke*, hg. von Oskar Walzel (Leipzig: Insel - Verlag, 1913), Band 8, S. 552 ff.

دون الوقوع في السطحية، لكن أيضاً دون الوقوع قبل أي شيء آخر في النزعة التي تجرده من الكرامة وما يعقبها من نتائج محتومة تجعله عارياً أمام نفسه. لا شيء يثير الدهشة أكثر من أن نجد عدداً كبيراً من الصحافيين قد حادوا عن الخط، أو عن الشرف، أو فقدوا قيمتهم من ناحية إنسانية، بل إن المدهش أن تضم هذه الشريحة في صفوفها، رغم كل ذلك، عدداً كبيراً من الناس أصحاب القيم الحق، ومن الصحافيين الشرفاء، خلافاً لما يمكن أن يتصوره من هم خارج هذه الشريحة.

إذا كان الصحافي يمثل نوعاً من السياسي المحترف الذي يمكنه بمعنى من المعاني الاستناد إلى ماض عريق، فإن صورة **الموظف الحزبي** لم تتبلور إلا خلال العقود الأخيرة، بل وجزئياً في السنوات الأخيرة فقط. وحتى نفهم الصورة من خلال تطورها التاريخي علينا أن نتناول بالدراسة ماهية الأحزاب وماهية تنظيمها.

في كل مكان، وحيث تُجرى حتى في النواحي الريفية الصغيرة انتخابات دورية تتناول من يكون على رأس السلطة، فإن المشروع السياسي الذي يرعى هذه العملية **هو بالضرورة مشروع يقوم على المصالح**. هذا يعني وجود عدد صغير نسبياً من الناس الراغبين في الوصول إلى المرتبة الأولى في الحياة السياسية، أي المشاركة في السلطة السياسية. يعمد هؤلاء، من خلال خلق أنصار لهم عبر التطوع الحر، إلى تقديم أنفسهم للترشح للانتخابات، أو يقدمون من يقومون برعايتهم، ويجمعون المال اللازم للحزب وينطلقون لكسب الأصوات عبر الاقتراع. هذا ولا نعلم الأسباب التي تمكن عملياً تنظيم انتخابات وسط هذا التجمع السياسي الممتد دون وجود هذا النوع من التنظيم. يعني ذلك عملياً انقسام المواطنين الذين لهم حق الانتخاب إلى عناصر فاعلة سياسياً، وإلى عناصر سلبية سياسياً، وبما

أن هذا الفارق يقوم على حرية إرادة كل منهم، فإنه لا مجال لإلغائه، باتخاذ أي إجراءات أخرى، كاعتماد إلزامية الاقتراع أو اعتماد التمثيل بحسب «تفاضل الحرف والمهن» أو ما شابه من وسائل أخرى تؤدي شكلياً أو فعلياً إلى فرض تنحية الأمر الواقع هذا، ومن خلاله إلى تنحية سلطة السياسيين المحترفين. يشكل وجود الزعامة والأتباع الذين يحاولون باعتبارهم عناصر إيجابية وعبر العمل الحر لتطويع المناضلين، أو في الحالة المقابلة، في حالة وجود هيئة ناخبة سلبية، الشروط التي لابدّ منها لأي حزب سياسي كان.

إلا أن بنية هذه الأحزاب قد تكون مختلفة، «فالأحزاب» في مدن العصور الوسطى شأن أحزاب «غولفن» و«غيبليني»[60] كانت أحزاباً مكوّنة من أتباع شخصيين فقط. وإذا ما نظرنا إلى دستور حزب غولفا[61]، أو إذا ما أعدنا إلى الذهن بعض الإجراءات مثل مصادرة أملاك النبلاء، أي ما كان يعني بالأساس في كل الأسر التي كانت تعيش من الفروسية، والتي كانت قادرة بذلك أن تصبح مالكة لإقطاعيات، وإذا تذكرنا كذلك إلغاء حق مزاولة مهنة معينة أو حق

---

(60) تحيلنا الإشارة إلى Guelfen وGhibellinen إلى الأحزاب في القرون الوسطى في إيطاليا أثناء الصراع على السلطة بين أسرتي ولفن (Welfen) وشتوفرن (Staufern) المدعومتين من البابا في بداية القرن الثالث عشر. شكل الغولفيون المجموعة الداعمة للبابوية في حين أن الغيبلينيين، الذين سمّوا بذلك نسبة إلى شتوفرن بورغ في فايبلنغن - قد ظلوا على ولائهم للقيصر. منذ نهاية القرن الثالث عشر أصبحت هذه التسميات الحزبية إشارات إلى جماعات متخاصمة اجتماعياً، ولاسيّما في مدن القرون الوسطى.

(61) أقدم الدساتير التي تواترت إلينا تعود إلى العام 1335، وفيه نجد الأسس التنظيمة الأساسية والاجتماعية السياسية لما يعرف بدستور حزب «Parte Guelfa»، انظر: «Statuto della Parte Guelfa di Firenze,» hg. von F. Bonaini, in: *Giornale Storico degli Archivi Toscani*, Band 1, 1857, S. 4 - 41.

في ما يأتي يشير فيبر على الأرجح إلى ما صدر عام 1293 في فلورنسا من دستور في ظل حكم الشعب ويعرف باسم Ordinamenti di giustizia (ترتيبات العدالة) التي تضمن معارضة ما وضعه النبلاء من شروط.

التصويت لأبناء هذه الأسر، أو إذا نظرنا أخيراً في بنية اللجان الإقليمية لهذه الأحزاب، وفي بنيتها العسكرية الصارمة وما كان يمنحه الحزب من عطايا إلى مخبريه، فإنه لابدّ لنا أن نتذكر الحركة البلشفية، مع مجالس سوفياتياتها ونظامها العسكري الصارم، ولاسيما في روسيا، ولابدّ أن نتذكر انتقاء رجال المخابرات فيها[62] وتجريد المواطنين من السلاح ومن الحقوق السياسية، ما يعني إبعاد المقاولين والتجار وأصحاب المداخيل ورجال الدين والمتحدرين من أسر قبلية وعملاء الشرطة وما قامت به من مصادرات. وإذا ما اعتبرنا من جهة أولى أن النظام العسكري في الحزب المشار إليه قد كان قائماً على مبدأ الجيش المكوّن من فرسان فقط، حيث يشغل النبلاء كل المراكز القيادية فيه، في حين أن السوفيات من جانبهم حافظوا على المقاول أو أعادوا تنظيم وظيفته من جديد وهو الذي يمتاز بأجرٍ جيد، مع دفع المرتب مقابل مقطوعية العمل، وادخال نظام تايلور[63]، والحفاظ على الانضباط القائم في الجيش وفي المصانع، أو فرضه مجدداً، والتطلع إلى الرساميل الأجنبية، وبكلمة موجزة، حتى يتسنى لهم تسيير عجلة الاقتصاد والدولة، وجدوا أنفسهم ملزمين بتبني كل ما أدانوه من مؤسسات اعتبروها خاصة بالطبقة البورجوازية. أضف إلى ذلك قيامهم بإعادة عملاء البوليس السري القدامى (Ochrana)[64]، إلى وظائفهم

(62) الإشارة تحيل على الأرجح إلى اللجنة التي أقامها النظام السوفياتي نهاية العام 1917 والتي أوكل إليها الثورة المضادة والتخريب، إنها كناية عن بوليس سري أوكلت إليه مهمة تعقب المنتمين إلى النظام القديم.

(63) إشارة إلى النظام الإداري العلمي الذي وضعه فريدريك وينسلو تايلور (Frederick Winslow Taylor) (1856 ـ 1915) والهادف إلى تحقيق إنجازات قصوى في العمل من خلال سير العمل وتقسيمه وظيفياً وتقديره بشكل صحيح.

(64) المقصود هنا هو البوليس السري الذي أنشأه القيصر الروسي عام 1881. وكان له فروع منتشرة وشبكة من العملاء في كل أرجاء أوروبا، وكانت فاعلة بشكل خاص في فرنسا وألمانيا.

ليجعلوا منهم الأدوات الأساسية لاستتباب السلطة السياسية. إن من ينظر إلى ذلك كله سيرى مدى ما لهذه المقارنة من وقع. إلا أننا في حديثنا هذا لن نتطرق إلى هذا النوع من التنظيمات القائمة على العنف، بل إلى الذين يحترمون مهنة السياسي، وإلى الذين يسعون إلى الوصول إلى السلطة عبر قوة الحزب السياسي الذي يجهد بطرق «سلمية» معقولة لكسب الأصوات المطروحة في السوق الانتخابي. حتى هذه الأحزاب أيضاً، بالمعنى السائد لكلمة حزب عندنا، كانت في أول الأمر، كما هو الحال في إنجلترا مثلاً، مجرد أتباع للطبقة الأرستقراطية. وإذا قام أحد نظراء الأعيان[65]، لسبب من الأسباب بتغيير حزبه، فإن كل الذين يرتبطون به كانوا يدخلون معه أيضاً في الحزب المناوئ. لقد حافظت العائلات الكبرى المنتمية إلى طبقة النبلاء، وليس الملك وحده، على استقطاب الحشد الأكبر من الأوساط الناخبة حتى صدور إصلاحات بِل[66] (Bill). ونجد إلى

(65) يعتبر من نظراء (Peer) الأعيان أعضاء مجلس الشيوخ الإنجليزي؛ تقليدياً شكّل هؤلاء عادة قمة الأرستقراطية العليا، والذين كانوا بفضل ما يملكون من عقارات واسعة أصحاب قاعدة سلطوية خاصة بهم في الأرياف.

(66) كان النظام المتبع في التمثيل البرلماني حتى ظهور إصلاحات بِل عام 1832 نظاماً يدمج بين ممارسة حق الانتخاب بالقوانين والامتيازات المختلفة الأنواع. وبذلك كانت الأبواب مشرعة أمام رعاية الأرستقراطية العقارية العليا وكذلك أمام التاج، طالما أن عدد الذين كان لهم حق الانتخاب ضئيلاً جداً. أضف إلى ذلك أن جنوب وجنوب غرب إنجلترا، وبسبب التغيرات الديموغرافية قد عرف عدة دوائر انتخابية خالية تقريباً من السكان (ما يعرف باسم «الأقسام الإدارية الحمراء» (rotten boroughs))، والذين كان عدد ناخبيهم القليل يدار إلى الاتجاه المنشود بسهولة إما بفعل التأثير السياسي أو عبر الإغراءات المالية وما شابه. وفي أغلب الأحيان كان نواب هذه الدوائر الانتخابية يدارون أيضاً من قبل الأسر النبيلة التي تسكنها. إن رقابة الانتخاب من جانب النبلاء الأقوياء الذين غالباً ما كانوا إلى جانب الحزب الليبرالي (Whigs) كانت تواجه بمعارضة التاج، حيث كانوا يتمتعون بعدة وظائف في الدولة غير مجزية، ويستطيعون بواسطتها بسهولة التأثير في المرشحين.

جانب أحزاب النبلاء أحزاب الأعيان، بالشكل الذي تطورت فيه مع الصعود السياسي للطبقة البورجوازية في كل مكان. انقسمت الأوساط الاجتماعية التي امتلكت «الثروة والعلم» في ظل القيادة العقلية التي تولتها شريحة المثقفين التي تعتبر نمطاً خاصاً وُجدَ في الغرب، إلى أقسام، بعضها بحسب المصالح الطبقية، وبعضها بحسب التقاليد العائلية، وبعضها الآخر تبعاً لأيديولوجيا خاصة، مشكِّلة أحزاباً تقوم بقيادتها. شكّل أعضاء السلك الكهنوتي، والمعلمون والأساتذة والمحامون والأطباء والصيادلة والفلاحون الميسورون والصناع، وكل أفراد الطبقة التي كانت تعتقد في إنجلترا أنها تنتمي إلى طبقة الجنتلمان، أول الأمر تجمعات سياسية مؤقتة، أو في كل الأحوال نوادي سياسية محلية؛ وشهدنا في الأوقات المضطربة أيضاً ظهور البورجوازية الصغيرة، وحتى ظهور البروليتاريا في بعض الأحيان، حتى لو رست هذه على زعماء، ليسوا من وسطها، كما هي القاعدة عادة. وفي هذه المرحلة، لم تكن الأحزاب المنظمة إقليمياً، باعتبارها تجمعات دائمة، في الخارج، وفي الأرياف، قد وُجدَت بعد. إذ إن البرلمانيين هم من كانوا وراء وجود التماسك السياسي، في حين أدى الأعيان المحليون دوراً حاسماً في اختيار المرشحين. وقد قامت البرامج في جزء منها على ما يعلنه المرشحون من عقيدة، وفي جزء آخر على الاستعانة بالحلول التي تقدمها مؤتمرات الأعيان أو حلول اللجان البرلمانية الحزبية. أما إدارة النادي فكانت عملاً جانبياً شرفياً مؤقتاً يمارس في أوقات الفراغ حيث لا وجود لأندية (والحالة هذه شائعة). ظل هذا النشاط السياسي نشاطاً لا يخضع للتنظيم حتى في أوساط القلة من الناس الذين يهتمون بمصالح البلاد في الأوقات الطبيعية؛ وحده الصحافي كان رجل سياسة محترفاً يتلقى أجراً عن عمله. ووحدها المؤسسة الصحافية كانت تشكل تنظيماً سياسياً يتمتع بالاستمرارية، وكذلك كانت الدورات البرلمانية. في كل الأحوال كان البرلمانيون،

وكذلك رؤساء الأحزاب البرلمانية يعرفون إلى من يجب عليهم التوجه من الأعيان المحليين حين كانوا يرغبون في تحقيق عمل سياسي معين. ووحدها المدن الكبرى كانت مكان إقامة دائم للجمعيات الحزبية التي يسهم أعضاؤها بأقساط معتدلة، وحيث كانت تعقد لقاءات دورية واجتماعات عامة يقدم خلالها النواب تقريراً عن فترة انتدابهم. أما الحياة السياسية فلا وجود لها إلا أثناء المرحلة الانتخابية.

أدت مصلحة النواب في إمكانية تحقيق اتفاقات انتخابية بين شتى الدوائر، والصدمة التي يمكن أن يخلقها برنامج موحد تتبناه الأوساط العريضة في البلاد، إلى جانب تحرك موحد يشمل البعد كله، دوراً حاسماً في تحقيق تحالف وثيق داخل الأحزاب. وحتى لو تم تحقيق شبكة تجمع الأحزاب المحلية، ولو امتد ذلك ليشمل المدن المتوسطة المهمة، ولو تم إلى جانب ذلك توزيع «رجال ثقة»[67]، في شتى أرجاء البلاد، يظلون على اتصال مستمر مع أحد أعضاء المجموعة البرلمانية، بوصفه زعيم المكتب المركزي في الحزب، فإن هيكلية جهاز الحزب لم تشهد أي تطور يذكر، إذ حافظت على الميزة التي يتمتع بها تجمع الأعيان. أما خارج المكتب المركزي فلم نكن نعاين وجود موظفين مأجورين، إذ إن الأشخاص الذين يتولون سياسياً إدارة الجمعيات المحلية هم في الأغلب من الأشخاص «المرموقين» لما يتمتعون به من تقدير في أوساط السكان. أما «الأعيان» اللابرلمانيون فكانوا يشاركون في ممارسة التأثير إلى جانب من تمكن من الدخول إلى البرلمان من شريحة الأعيان. شكلت الصحف التي ينشرها الحزب بالطبع، وبطريقة متنامية، الغذاء الروحي للصحافة والاجتماعات العامة المحلية. وأصبحت اشتراكات العضوية المنتظمة أمراً لا يمكن الاستغناء عنه. إذ إن ثمة جزءاً من هذه الأموال كان يذهب لتغطية

---

(67) انظر أعلاه الهامش رقم 8، من هذا الفصل.

تكاليف اللجنة المركزية. ثم إن التنظيمات الحزبية في ألمانيا وصلت إلى هذه المرحلة، وذلك منذ وقت ليس بالطويل. أما في فرنسا فما زالت الأحزاب عند المرحلة الأولى، مرحلة الارتباط غير الثابت بين البرلمانيين والعدد الصغير من الأعيان في الريف في الخارج. وكان المرشحون أنفسهم يضعون البرامج، أو يضعها لهم حُماتهم إبان الحملة الانتخابية، مع الأخذ بالاعتبار إلى حدٍ ما، أو بحسب الضرورات المحلية، قرارات البرلمانيين وبرامجهم. هذا ولم يُخرق هذا النظام إلا بشكل جزئي. إن عدد السياسيين الذين احترفوا السياسة كان محدوداً جداً، ويتكون أساساً من النواب المنتخبين، وبعض الموظفين في اللجنة المركزية ومن الصحافيين ويضاف إليهم ـ في فرنسا ـ الذين يترقبون الحصول على وظيفة والذين يتولون «مهمة سياسة»، أو الذين يسعون لتوهم إلى الحصول على وظيفة مماثلة. وعلى العموم شكلت السياسة وظيفة ثانية في أغلب الأحيان. وكان عدد النواب الذين تولوا وزارات محدوداً جداً أيضاً. وكذلك كان عدد المرشحين للانتخابات محدوداً، ذلك أن الأعيان تمتعوا بهذه الميزة. مقابل ذلك كان عدد الذين يهتمون بالسياسة بشكل غير مباشر، ومن وجهة نظر مادية بشكل خاص، كبيراً. ذلك أن كل الإجراءات التي يمكن للوزير أن يقوم بها، ولاسيما كل التسويات التي يقدمها بشأن المسائل الخاصة، كانت تأخذ بالاعتبار الأثر الممكن الذي سيعكسه قراره على الانتخابات القادمة. فقد كان السعي جارياً لتحقيق كل أنواع الرغبات بواسطة النائب المحلي، ذلك أن الوزير كان مجبراً، شاء أم أبى، على الاستماع إليه إذا كان منتمياً إلى الأغلبية التي هو منها، وهذا ما يسعى إليه كل نائب. يمسك النائب بنفسه رعاية الوظائف بشكل عام، وبكل أنواع الرعاية للشؤون الخاصة بدائرته الانتخابية، كما يحافظ، من أجل أن يُنتخب مجدداً، على العلاقات مع الأعيان المحليين.

يتعارض هذا الوضع الهادئ، وضع سيطرة أوساط الأعيان والبرلمانيين بشكل خاص وجذري مع بنى التنظيم الحديث في الأحزاب. إذ إن الأشكال هذه هي من رحم الديمقراطية، إضافة إلى حق الانتخاب العام وضرورة تطويع العامة وتنظيمها، وتطور الأحزاب للتوحد على مستوى القيادة، والتطور باتجاه فرض انضباط شديد القسوة. إننا نعاين الآن انحسار سلطة الأعيان وتولي البرلمانيين زمام القيادة السياسية. فقد أمسك السياسيون، الذين يجعلون السياسة وظيفة أساسية لهم مع أنهم من **خارج** البرلمان، بالمؤسسة السياسية. أما بوصفهم «أصحاب مشاريع مقاولين» كما هو الحال مع الرئيس (الريّس) الأميركي[68] أو مع «العميل الانتخابي»[69] الإنجليزي، أو بوصفهم موظفين يتلقون أجوراً ثابتة. من الناحة الشكلية نجد أنفسنا إزاء حركة ديمقراطية رائدة. إذ لم تعد المجموعة البرلمانية هي من يحدد البرنامج الواجب اتباعه، ولم يعد الأعيان المحليون من يملك

(68) حول وظيفة الرئيس وصورته، انظر لاحقاً آراء فيبر نفسه حول هذا الموضوع، وستلي لاحقاً.

(69) حتى بعد صدور الإصلاح الانتخابي عام 1832 لم يقضِ على العادة السائدة القائمة على التقرب من العدد القليل من أصحاب الحق بالانتخاب وكسب أصواتهم عبر عطايا مادية أو سواها لصالح مرشحين معينين. بذلك أدى المال، وسائر أنواع الرعاية دوراً مهماً في المعارك الانتخابية وقد استمر ذلك سائداً. من هنا كانت الوظيفة المفتاحية الأساسية التي أنيطت بالعميل الانتخابي الذي يعمل بتكليف من الأسر الأرستقراطية المسيطرة أو من قبل التاج على كسب الناخبين في الدوائر الانتخابية. بغض النظر عن ذلك، تفترض ممارسة حق الانتخاب تسجيل الناخبين مسبقاً في لوائح انتخابية. وكان هذا الأمر يجري طبقاً لإجراء معقد، بحيث إن إنجازه لم يكن ممكناً إلا على يد أشخاص أصحاب مؤهلات قانونية. ومن مهام العملاء الانتخابيين العمل على تسجيل أكبر عدد ممكن من ناخبي الحزب، وبالتالي التشكيك بناخبي الحزب المعارض قدر الإمكان. وبالتالي فإن المعارك الانتخابية غالباً ما كانت تدور، ولهذا السبب، بشكل سجالات بين العملاء الانتخابيين في الأحزاب المتصارعة حول حق الانتخاب المستحق على اللوائح الانتخابية أو عدمه، وهذا ما كان يحدد نتيجة الانتخابات. وفي ظل هذه الظروف نما دور العملاء الانتخابيين، الذين كانوا تبعاً لكل المعايير من القضاة المحترفين، واكتسبوا في المعارك الانتخابية في الدوائر الانتخابية أهمية كبيرة.

حق تعيين المرشحين، بل آل ذلك إلى الاجتماعات التي يعقدها الأعضاء المنتظمون في الحزب، فيختارون المرشحين وينتدبون من جهة أخرى بعض أعضائهم إلى اجتماعات الهيئات الأعلى التي قد يوجد مراتب عديدة منها قبل الوصول إلى الاجتماع العام، أي «مؤتمر الحزب». وبحسب الوقائع فإن السلطة فعلياً هي بيد من يقومون باستمرار بإنجاز العمل داخل تنظيمهم، أو بيد أولئك الذين يسيطرون شخصياً أو مالياً على المؤسسة، شأن من ينصرون العلوم والفنون، أو الذين يتولون رئاسة الأندية القوية ذات المصالح السياسية (مثل Tammany - Hall)[70]، فالأمر الحاسم هنا، هو أنه بوسع هذا الجهاز البشري ـ أو «الماكينة = Machine» ـ كما يشار إليه بشكل مميز في البلدان الأنجلوسكسونية[71] ـ أو بشكل أخص بوسع المسؤولين عن إدارة هذا التنظيم، إسقاط البرلمانيين، بل إنه قد بلغ موقعاً يؤهله أيضاً أن يفرض إرادته إلى حد بعيد. ولذلك دلالة خاصة من حيث اختيار أعضاء قيادة الحزب، إذ لا يمكن أن يصل إلا من تكون هذه «**الماكينة**» وراءه، حتى لو كان ذلك منافياً لإرادة البرلمان. إن خلق مثل هذه الماكينات، يعني بعبارات أخرى، إدخال الديمقراطية القائمة على **الاستفتاءات** الشعبية.

إن المحازبين، ولاسيما موظفي الحزب ومتعهديه، ينتظرون بالطبع من رئيس الحزب المكافأة الشخصية في حال نجاحه،

---

(70) الحي الأساسي الذي ظهرت فيه جميعة «Tammany» المنظمة بشكل أوتوقراطي. أحكمت هذه الجميعة المكونة من أصحاب المصالح السياسية رقابتها على الحزب الديمقراطي في نيويورك وكان لها تأثير حاسم في تسمية المرشحين، وفي حالة الفوز بالانتخاب على شغل المراكز، انظر: James Bryce, *The American Commonwealth* (London: Macmillan, 1888), vol. 3, S. 179 ff.

(71) حول مصطلح «ماكينة» في النظام الحزبي في الولايات المتحدة، المصدر نفسه، (الهامش السابق) الجزء 2، ص 419 ـ 449.

كالحصول على وظيفة معينة أو ما شابه من منافع، فهم ينتظرون ذلك منه لا من، أو ليس فقط من، أعضاء البرلمان. وهذا أمر حاسم بالنسبة إليهم. إنهم ينتظرون قبل أي شيء آخر أن تؤدي شخصية الرئيس بما لها من تأثير ديماغوجي أثناء قيام الحزب بحملته الانتخابية دوراً في كسب الأصوات والمنتدبين، الأمر الذي يوصلهم إلى السلطة. وبذلك تتاح لهم أيضاً فرصة الحصول على مكافآت جراء اندفاعهم وتفانيهم. لا يوجد وضع أكثر مثالية بالنسبة إلى الإنسان من قناعته بأنه يعمل مع شخص بتفاني المؤمن بقضية شخصية، لا لمصلحة برنامج مجرد يضعه الحزب الذي يقوم على أشياء بسيطة. هذا العنصر «الكاريزماتي» في كل قيادة، هو أحد البواعث على ذلك. فرض هذا الوضع الجديد نفسه، ولكن عبر إجراءات مختلفة وعبر معارك ثابتة ومستترة مع الأعيان المحليين ومع البرلمانيين الذين صارعوا من أجل الحفاظ على نفوذهم. برز ذلك أول الأمر وسط الأحزاب البورجوازية في الولايات المتحدة، ثم في أوساط الحزب الديمقراطي الاشتراكي في ألمانيا أولاً. وبرزت تململات ثابتة، ولاسيما حين وجد الحزب نفسه دون رئيس معترف به بشكل عام، وإن وُجد، فقد كان الأمر يستلزم تقديم كل أنواع التنازلات إرضاء للمصلحة الشخصية حتى إلى أعيان الحزب وإرضاء لغرورهم. ثم إنه كان يمكن لهذه الماكينة أن تقع تحت سيطرة الموظفين الحزبيين الذين يمسكون بأيديهم تنظيم العمل داخل الحزب. تبعاً لما تناقلته بعض أوساط الحزب الاشتراكي الديمقراطي، فإن هذا الحزب أصبح الآن أسير هذا «النمط من البيروقراطية»[72]. فضلاً عن

(72) يشير فيبر هنا على الأرجح إلى كتاب: Robert Michels, *Zur Soziologie des Parteiwesens in der Modernen Demokratie. Untersuchungen über die Oligarchischen Tendenzen des Gruppenlebens* (Leipzig: Dr. Werner Klinkhardt, 1911),
وكان ميشيلز الذي كان آنذاك عضواً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد أبدى رأياً مفاده أن السيرورة البيروقراطية قد أثرت بشكل حاسم في إضعاف الاندفاع الثوري عند الحزب.

ذلك، ينقاد «الموظفون» بسهولة نسبية إلى الشخصية القيادية الديماغوجية التي تعطي انطباعاً بالقوة، ما يعني أن مصالحهم المادية والمعنوية شديدة الارتباط بشكل حميم مع من تأملوا منه توسيع أثر سلطة الحزب. أو أن العمل من أجل القائد هو عمل يؤمّن لهم بحد ذاته الاكتفاء الداخلي. ويزداد الأمر صعوبة أمام ارتقاء زعامة الحزب، وهذا ما يحصل عادة في الأحزاب البورجوازية حيث يمارس «الأعيان» إلى جانب الموظفين نفوذاً على الحزب. ذلك أن هؤلاء «يربطون» معنوياً «حياتهم» بالمراكز الصغيرة التي يتولونها، سواء في مجلس الإدارة أو في اللجان الإدارية. ويتحدد سلوكهم بشكل عام بما يحملونه من حقد على الديماغوجيين الذين يعتبرون بمثابة الإنسان الجديد (homo novus)، ومن قناعة بأنهم الأكثر تفوقاً من الناحية السياسية الحزبية بما لهم من «خبرة» ـ وقد يكون لذلك أهمية واقعية بالفعل ـ وبما يحملونه من انهمام أيديولوجي إزاء القطيعة مع التقاليد الحزبية القديمة. وبإمكانهم الاعتماد داخل الحزب على كل العناصر التقليدية. إذ إن الناخب في الريف أولاً، بل وفي أوساط البورجوازية الصغيرة، يظل ينظر إلى أسماء الأعيان الذين ألفهم منذ زمن قديم، ويبدي حذره من الرجل الذي لا يعرفه، مع احتمال أن يعلن ثقة لا محدودة به في حال قُدّر أن يكون النجاح لاحقاً من نصيب هذا الرجل. لننظر الآن في بعض الأمثلة الأساسية ذات العلاقة بالصراع بين هذين الشكلين من البناء الحزبي، وتحديداً في التقدم الذي حصل على شكل الاستفتاء الشعبي الذي وضعه أوستروغورسكي[73] (Ostrogorski).

---

(73) انظر: Moisei Ostrogorski, *Democracy and the Organization of Political Parties*, 2 vols. (London: Macmillan, 1902),

حول مسألة الدوائر الانتخابية المشار إليها، انظر حول إنجلترا، الجزء الأول ص 135 وما يليها، وحول الولايات المتحدة، الجزء الثاني ص 39 وما يليها.

لنبدأ مع حالة إنجلترا أولاً: هناك، وحتى العام 1868 كان التنظيم الحزبي تقريباً كناية عن تنظيم للأعيان[74]. اعتمد المحافظون في الريف على رجال الدين (القساوسة) الأنجليكان، كما اعتمدوا إلى جانب ذلك - وبل غالباً - على المدرسين (في المدارس) وعلى كبار الملاكين في كل مقاطعة بالدرجة الأولى. أما الليبراليون فقد اعتمدوا من جانبهم على أمثال الوعاظ غير الامتثاليين (حيث كان لهم وجود بالطبع) وعلى موظف البريد والخياط والإسكافي، وباختصار على هذا النوع من الحرفيين اعتقاداً منهم أن سهولة التعاطي بالحديث معهم قد توفر لهم تأثيراً سياسياً. أما في المدينة، فقد انقسمت الأحزاب، فمنها من اتبع الأمور الاقتصادية، ومنهم من اتبع الشؤون الدينية، ومنهم من حافظ ببساطة على الآراء المتوارثة تقليدياً في العائلة. لكن ظلّ الأعيان رغم ذلك كله يمسكون بالسلطة داخل التنظيمات السياسية. وفوق ذلك كله يأتي البرلمان والأحزاب مع الوزراء و«رئيسهم»[75]، الذي هو في الوقت نفسه رئيس مجلس الوزراء أو رئيس المعارضة. وإلى جانب هذا الرئيس نجد شخصاً معاوناً آخر هو الشخصية الأهم من الناحية الوظيفية السياسية في تنظيم الحزب، إنه «السوط» أو «ضابط الانتظام»[76] (whip). فهو القيم على الوظائف، وإليه يجب أن يتوجه من يبحث عن

(74) يشير فيبر هنا إلى إصلاح القانون الانتخابي عام 1867، الذي كان له التأثير البالغ في تنظيم الأحزاب الإنجليزية. قبل هذا التاريخ، كان التنظيم الحزبي يعتمد بشكل خاص على العلاقات الشخصية بين أعضاء الأرستقراطية العليا بالأعيان المحليين في الدوائر الانتخابية المنتشرة في الأرياف. أما إصلاح القانون الانتخابي عام 1867 فقد أدى نتيجة تقلص الأهلية على الامتلاك وتغير تقسيم الدوائر الانتخابية إلى مضاعفة عدد الذين يحق لهم الانتخاب. هذا ما ألزم الأحزاب الإنجليزية بناء تنظيمات حزبية صارمة حتى تتمكن من توسيع آفاق نجاحها في الانتخابات القادمة.

(75) انظر أعلاه، الهامش رقم 26 من هذا الفصل.

(76) كان على الحزب الليبرالي العمل بشكل أساسي على تأمين الانضباط الحزبي أثناء الاقتراع في البرلمان. قبل إصلاحات القرن التاسع عشر كان ضابط الانتظام يتولى إدارة =

مركز سياسي، وهو الذي يسميهم بعد استشارة النواب في الدوائر الانتخابية. وفي هذه الدوائر بدأنا نعاين ببطء تطور شريحة من السياسيين المحترفين، حيث أصبحوا فيها عملاء محليين، إلا أنهم لم يكونوا مأجورين أول الأمر. إنه وضع يشبه إلى حد ما، ما يعرف عندنا «برجال الثقة»[77]. إلى جانب ذلك شهدت الدوائر الانتخابية تطور نمطٍ جديد من المقاولين الرأسماليين: إنه «الوكيل الانتخابي». الذي كان وجوده ضرورياً بموجب تشريع إنجليزي جديد يؤمن صحة الانتخابات. حاول هذا التشريع مراقبة المصاريف الانتخابية، والوقوف بوجه سلطة المال، إذ قضى بإلزام المرشحين التصريح عن مصاريف الحملة الإنتخابية[78]. لذلك كان على المرشح إلى جانب ما تكلفه عملية التصويت من تعب، الاكتفاء بصرف مبلغ معين من المال، وإن فاق ذلك ما كان يجري عندنا آنذاك. في اختيار الوكيل، كان على المرشح دفع مبلغ إجمالي مقطوع، الأمر الذي يشكل غالباً صفقة جيدة. إذ إن تقاسم السلطة بين «الزعيم» (رئيس الحزب) وأعيان الحزب في البرلمان وفي البلد ككل، قد ترك

= الحزب، وكان في الوقت نفسه يتولى وظيفة عليا لدى التاج، من الوظائف التي كانت توزعها الحكومة باعتبارها مراكز ومكافآت. وإضافة إلى ذلك كانت توضع في تصرفه، بوصفه يتولى سكرتارية خزانة البرلمان مبلغاً من المال، «مصاريف الخدمات السرية»، وبواسطة هذا المبلغ يحاول الإبقاء على أغلبية حزبه في البرلمان ـ سواء من خلال شراء الأصوات في دوائر انتخابية محددة أو برشوة بعض النواب.

(77) انظر أعلاه، الهامش رقم 8 من هذا الفصل.

(78) ربما كانت هذه إشارة من فيبر إلى «ممارسة الأعمال الفاسدة واللامشروعة» لعام 1887 التي كانت تمارس من جانب المرشحين ومساعديهم، أو ما يعرف «بالعملاء الانتخابيين» من حيث التأثير في الانتخابات باستخدام الوسائل المادية (انظر أعلاه، الهامش رقم 69 من هذا الفصل)، والتي جاء تقليص المصاريف الانتخابية في الدوائر الانتخابية لإقفال الباب بوجهها. ومنذ ذلك الوقت تم تحديد سقف المصاريف الانتخابية لكل مرشح. كما تم ربط العميل الانتخابي بالدستور الانتخابي البريطاني، حيث صار يكلف رسمياً بإدارة الوسائل المالية التي تكون بحوزة المرشحين. وكان عليه بعد الانتخابات تقديم كشف حساب عن استعماله لهذا المال أمام لجنة تحقيق.

للأول (للزعيم)، ومنذ البداية، في إنجلترا موقعاً شديد الأهمية، حيث كان لابدّ من إعطائه الوسائل اللازمة لتسهيل استمرارية السياسة والقيام بها بالشكل الأفضل. مع ذلك، فإن نفوذ الأعيان والبرلمانيين استمر محافظاً على قوته.

لقد بدا التنظيم الحزبي القديم على الشكل الآتي: يقوم نصفه بالاعتماد على الأعيان، بينما نصفه الآخر من شأن الموظفين والمتعهدين. ولكن بعد العام 1868 ظهر لأول مرة، وفي ما يتعلق بالانتخابات المحلية في برمنغهام، «نظام كوكس[79] (Caucus)»، الانتخابي الذي ما لبث أن تطور ليشمل البلاد بأسرها. تم ذلك على يد أحد القساوسة غير الامتثاليين[80]، وإلى جانبه كان جوزيف تشمبرلين (Josef Chamberlain)، وهما من بعثا الحياة في هذا النظام، وكانت

---

(79) أوجد إصلاح النظام الانتخابي عام 1867، في ما أوجد ولأول مرة دوائر انتخابية في المدن الصناعية الكبرى في شمال إنجلترا. وحتى يتم تأكيد حصول الأقليات على ممثلين لها، جرى تخصيص ما يعرف في أوساط الأكثرية الانتخابية بثلاثة مقاعد لكل من الأقليات، لكن مع وجوب أن يتقيد الناخب بالتصويت لمرشحَيْن فقط. وبواسطة آلة حزبية منظمة مركزياً (كوكس) وعلى صعيد الدوائر الانتخابية، حاول الليبراليون في برمنغهام وبزعامة جوزيف تشمبرلين التجاوز سهواً عن هذا التحديد. وقد تمكنوا عام 1868 لأول مرة من خلال إرشاد دقيق للناخب في التحكم بسلوكه الانتخابي بحيث تمكن الليبراليون من الحصول على المقاعد الثلاثة.

(80) كما يستفاد من الورقة التي تضمنت رؤوس أقلام الخطاب، فإن الإشارة المقصودة هنا هي إلى فرانسيس شنادهورست (Francis Schnadhorst) الذي كان لمدة طويلة من مساعدي تشمبرلين. إلا أنه لم ينتخب إلا عام 1873 سكرتيراً «للتجمع الليبرالي في برمنغهام» خلفاً لوليام هاريس (William Harris). في السنوات التي تلت قام هاريس أيضاً بتنظيم الحزب الليبرالي في المدن الأخرى طبقاً لنظام «الكوكس» المطبق في برمنغهام. أما وصفه «بالأسقف اللاامتثالي» فيعود أغلب الظن إلى كون شنادهورست تاجر قماش، وإلى عدم انتمائه إلى الرتب العالية في الكنيسة الأنجليكانية، وقد اكتسب صيتاً واسعاً في بداية مسيرة حياته السياسية بوصفه عضواً في «اللجنة اللاامتثالية العامة» في برمنغهام، انظر: Barry McGill, «Francis Schnadhorst and Liberal Party Organization,» *The Journal of Modern History*, vol. 34 (1962), S. 19 - 39.

حجتهم دمقرطة قانون الانتخاب. ومن أجل تأمين كسب العامة اعتُبر أنه من المستحسن تحريك أداة قوية من مجموعات ذات مظهر ديمقراطي، وتشكيل لجنة انتخابية في كل حي من أحياء المدينة والحفاظ على الاستمرارية في المؤسسة وإدارة الكل بشكل بيروقراطي صارم، الأمر الذي استوجب إذاً زيادة عدد الموظفين المأجورين من جانب اللجان المحلية التي سرعان ما تجمعت ونظمت ما يقارب 10٪ من الناخبين. وما لبث الوسطاء الأساسيون المنتخبون الذين كان لهم بموجب القانون حق اختيار زملائهم أن أصبحوا الممثلين الشكليين لسياسة الحزب. تكونت القوة الدافعة داخل الدوائر المحلية، ولاسيما في أوساط المهتمين بالسياسة البلدية التي كانت في كل مكان مصدر المناسبات المادية الأكثر ربحية، إذ كانت هذه القوة هي التي تقدم الأمور المادية بالدرجة الأولى. كان على هذه الماكينة الجديدة، التي لا تخضع أبداً للإدارة البرلمانية، أن تقود للتو صراعاً مع من كانوا يمسكون بالسلطة حتى ذلك الوقت، ولاسيما مع «ضابط الانتظام»، إلا أن هذه الماكينة قد نجحت في الخروج منتصرة في صراعها بفضل مساندة الأشخاص المحليين الذين رأوا في ذلك مصلحة لهم، الأمر الذي دفع «بضابط الانتظام» إلى الخضوع بوجوب التحالف معها. أدى الصراع إلى النتيجة الآتية: مركزة السلطة بكليتها في أيدي قلة من الناس، وفي نهاية الأمر بيد شخص واحد، وهو الذي كان على رأس الحزب. وبالفعل، فإن هذا النظام تطور بكليته داخل الحزب الليبرالي، ذلك بالتوازي مع ارتقاء غلادستون (Gladeston) إلى السلطة. أما الأسباب التي جعلت هذه الماكينة تنتصر بهذه السرعة على الأعيان فتكمن في ما أثارته ديماغوجية غلادستون من إغراء وفتنة، وإيمان العامة الوثيق بمضمون سياسته الأخلاقي، وقبل أي شيء آخر لما تميزت به شخصيته من ميزة أخلاقية. يوازي ما طغى على سطح السياسة نوعاً من النظام القيصري الاستفتائي: دكتاتور المعركة

الانتخابية يدخل الميدان. وهذا ما اتضح لاحقاً. في عام 1877 اعتُمد نظام الكوكس لأول مرة في الانتخابات العامة التي أجرتها الدولة(81). وكانت النتيجة مدوية إذ كان على دزرائيلي (Disraeli) أن يتخلى عن السلطة وهو في ذروة نجاحه(82). منذ العام 1886 أصبحت هذه الماكينة منقادة كلياً، وبشكل كاريزماتي إلى الشخص الذي يقودها، بحيث إنه حين طرحت قضية الحكم الذاتي الوطني(83)، فإن الماكينة كلها من أعلاها إلى أدناها لم تطرح السؤال: هل نقف فعلاً على أرضية غلادستون؟ بل قالت بكل بساطة مغيرة اتجاهها معه: نحن نتبعه في كل ما يقوم به، بل إن هذه الماكينة تخلت عن من كان قد أوجدها، أي عن تشمبرلين(84).

كانت هذه الماكينة بحاجة إلى عدة أشخاص لإدارتها. ويصل

(81) لم تجرِ أي انتخابات عام 1877. وعلى الأرجح أن إشارة فيبر هنا إلى العام 1877 هي إلى الاتفاق الذي حصل والذي بموجبه شكلت عدة منظمات حزبية محلية، «الاتحاد الليبرالي الوطني». والذي أمنت أعماله قاعدة نجاح الليبراليين في انتخابات العام 1880.

(82) في انتخابات العام 1880 تعرض المحافظون بقيادة دزرائيلي إلى هزيمة قاسية. إثر ذلك انسحب دزرائيلي تاركاً الحكم لليبراليين بزعامة غلادستون. علماً أن سياسته أمنت لبريطانيا العظمى مكانة كقوة عالمية.

(83) ربط الحزب الوطني الأيرلندي بزعامة تشارلز بارنيل (Parnell)، وهو الحزب الذي أصبح منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر في وضع يتيح له اتخاذ القرارات في مجلس العموم، تعاونه المشترك مع الليبراليين بإقرار حق الحكم الذاتي المحلي «Home Rule»، أي منح أيرلندا وضعية تتيح لها تأسيس حكم مع برلمان خاص بها، لكن في إطار الاتحاد مع المملكة المتحدة. وبهدف تأمين دعم النواب الأيرلنديين أطلقت حكومة غلادستون عام 1886 مشروع قانون الحكم الذاتي الوطني.

(84) أدى وقوف غلادستون إلى جانب إقرار قانون الحكم الذاتي الوطني لأيرلندا إلى حدوث أزمات كبرى داخل الحزب الليبرالي. وقف كل من تشمبرلين وديلك (Dilke)، وهما من قادة الأجنحة الراديكالية في الحزب الليبرالي ضد قرار منح أيرلندا حق الاستقلال الذاتي وهددوا بشق الحزب. إلا أن المنظمات التي شكلت الاتحاد الليبرالي الوطني (انظر أعلاه الهامش رقم 81 من هذا الفصل) وقفت إلى جانب غلادستون. إثر ذلك شكّلت أقلية بقيادة تشمبرلين فصيلاً منشقاً عرف باسم «الاتحاديون الليبراليون» الذي انضم لاحقاً إلى الحزب المحافظ.

عددهم اليوم إلى الألفين تقريباً في إنجلترا، وهم يعتاشون مباشرة من سياسة الأحزاب. أما عدد الذين يبحثون بكل بساطة عن مركز لهم أو الذين يظهرون فعاليتهم بهدف الحصول على مصالح أخرى، فكان دون شك أكبر من ذلك، ولاسيما في مجال السياسة البلدية. وإلى جانب الاستفادة من الحظوظ الاقتصادية، فقد كان بإمكان السياسيين المنضوين إلى نظام الكوكس التأمل بنوع من الوجاهة والخيلاء، كالحصول على وظيفة «قاضي الصلح»[85] أو عضو في البرلمان (M. P.)[86]، ويُعهد بهذه الوظائف خاصة إلى كل من يستطيع أن يبرهن تلقيه تربية عالية أو إلى كل من حمل صفة «جنتلمان». أما الجاه الأعلى فكان بانتظار المتبرعين بالمال، وإليهم كان يُعطى لقب نظير عضو في مجلس الأعيان ـ ذلك أن مالية الحزب تعتمد في ما نسبته 50 بالمئة على متبرعين غير معلنين.

ماذا كان الأثر الذي تأتى عن هذا النظام بكليته؟ إن البرلمانيين الإنجليز هم اليوم وبكل بساطة، باستثناء بعض أعضاء مجلس الوزراء، (وبعض المتميزين)، ليسوا أكثر من حيوانات تقترع بانضباط شديد. أما عندنا في مجلس الرايخ النيابي فقد جرت العادة حين ينجز (النائب) مراسلاته الخاصة على الطاولة أمام مقعده أن يسجل أنه هنا يعمل لصالح وخير البلاد. لم تكن مثل هذه البادرة مطلوبة في

(85) Justice of the Peace = J. P.، أصبح قاضي الصلح منذ نهاية القرن الثالث عشر رجل الثقة لدى التاج لتأمين السلم في الريف. وإلى جانب صفته كقاضٍ جزائي، زوّد أول الأمر بصلاحية إدارية واسعة. كانت وظيفة قاضي الصلح وظيفة شرفية غير مأجورة. وغالباً ما كانت توكل إلى أعيان محليين.

(86) Member of Parliament = M. P.، وحتى بعد إقرار دمقرطة القانون الانتخابي بشكل مكتوب تم الحفاظ بشكل أساسي على الصفة الأرستقراطية في حياة الدولة الإنجليزية، إذ بقي مجلس العموم تجمعاً يضم «الجنتلمانيين». ويحمل الانتداب النيابي لصاحبه المزيد من الصيت الاجتماعي ومن الرفعة في وضعيته الاجتماعية.

إنجلترا: فما على العضو في مجلس النواب إلا أن يصوّت، وليس له أن يخون حزبه. إن عليه أن يؤمن حضوره حين ينادي ضابط الانتظام في الحزب وأن ينفذ تبعاً للمناسبة ما يأمر به رئيس الوزراء أو زعيم المعارضة. أما في الخارج، في الريف، فإن ماكينة الكوكس تسير بشكل كامل، خاصة حين تكون في يد قائد قوي أو في يد زعيم عديم الكرامة. هكذا إذاً يقوم الدكتاتور المنتخب فوق البرلمان، وباستخدامه لهذه «الماكينة» يجعل الجمهور يسير خلفه. أما البرلمانيون، فإنهم بالنسبة إليه ليسوا سوى مأجورين سياسيين يتبعون له.

كيف يتم انتقاء هذه الزعامة؟ وتبعاً لأي مؤهلات؟ لابدّ أولاً من توفر صفة الإرادة، وهي من الصفات الحاسمة في كل مكان، وإليها يضاف بالطبع قوة الخطاب الديماغوجي القاطعة. لقد تغير هذا الوضع مع مرور الزمن حين كان الخطاب مع كوبدن (Cobden) يتوجه إلى العقل، ومع غلادستون، تقنيّ العبارة، كانت تبدو العبارة حصيفة بحيث «تدع الوقائع تتكلم». وحتى عصرنا الحاضر حيث يستخدم الخطاب في تحريك الجماهير بأساليب محض عاطفية كتلك التي يتبناها جيش الخلاص. يمكننا أن نطلق على الوضع القائم صفة «الدكتاتور» الذي يعمد إلى استغلال الحالة الانفعالية عند الجمهور[87]. إلا أن نظام العمل المتطور جداً في لجان البرلمان الإنجليزي قد أسهم، بل ألزم كل سياسي، يطمح أن يكون عضواً في قيادة التنظيم، أن يعمل في اللجان أولاً، إذ إن كل الوزراء المهمين في العقود الأخيرة تلقوا تعليماً فعلياً في هذه اللجان وتدربوا فيها من الناحية العملية على كتابة التقارير وعلى النقد العام وعلى الأعمال الاستشارية بحيث تُعتبر هذه المدرسة بالفعل مجالاً لاختيار القيادي الفاعل ولاستبعاد الديماغوجي الساذج.

---

(87) لم نجد سنداً لهذا الاستشهاد.

هكذا كان الوضع في إنجلترا، فنظام الكوكس الذي ساد هناك لم يكن إلا شكلاً مخففاً إذا ما قيس بنظام الأحزاب في أميركا، حيث تم ومنذ وقت مبكر اعتماد مبدأ نظام الاستفتاء الشعبي. بحسب فكرة واشنطن، يجب أن تكون أميركا جماعة يديرها من يتمتعون بصفة «جنتلمان»[88]. وكان الذي يتمتع بصفة جنتلمان في ذلك الوقت هناك، صاحب الأملاك أو الرجل الذي تلقى تعليمه في إحدى الكليات. هكذا كان الأمر في البداية. وحين تشكلت الأحزاب أبدى أعضاء مجلس الممثلين رغبتهم بتولي مناصب القيادة السياسية، على غرار ما كان سائداً في إنجلترا، حيث سادت سيطرة الأعيان. في هذه الأثناء كان التنظيم الحزبي ضعيفاً جداً. واستمر هذا الوضع حتى العام 1824. لكن قبل عشرينيات ذلك القرن كانت الماكينة الحزبية قيد التكون وفي عدة بلديات، مشكّلة بذلك أولى الأماكن في هذا التطور الحديث. ولكن انتخاب الرئيس أندرو جاكسون (Andrew Jackson) الذي كان مرشح الفلاحين في الغرب، أدى فعلياً إلى إحداث انقلاب على التقاليد القديمة[89]. أما النهاية الشكلية لقيادة البرلمانيين للأحزاب فقد حصلت بعد العام 1840 بوقت قصير، حين انسحب البرلمانيون الكبار مثل كالهون، وويستر (Calhoun, Webster) -

(88) تكوّن المؤتمر الدستوري الأميركي الذي انعقد بزعامة جورج واشنطن في أيار/ مايو 1787 من أعضاء ينتمون في أغلبيتهم إلى الطبقة العليا، وكان فكرهم السياسي مبنياً على قناعة تقول بأن قدر الدولة الفتية سيكون أفضل بقيادة من هم بصفة جنتلمان، مما لو كان بقيادة «الجمهور العادي».

(89) بعد الانتخابات الرئاسية عام 1824 التي استطاع فيها جون كوينسي آدامز (John Quincy Adams) الفوز بصعوبة على أندرو جاكسون، قام أنصار جاكسون ببناء تنظيم حزبي صارم تحول لاحقاً إلى «الحزب الديمقراطي». وبعد حملة انتخابية كبيرة انتصر جاكسون على آدامز في انتخابات العام 1828، وفي هذه الانتخابات تم انتقاء المندوبين الانتخابيين في معظم الولايات من قبل الشعب بشكل مباشر، وليس من قبل البرلمان في الولايات.

من الحياة السياسية، ذلك أن البرلمان فقد كل سلطة له تقريباً إزاء ماكينة الحزب التي سيطرت على البلاد. وإذا كان قد قدر «للماكينة الانتخابية» أن تتطور منذ وقت مبكر في أميركا، فلذلك سببه، وهو أنه هناك، وهناك فقط، كان رئيس السلطة التنفيذية هو من يقوم بتوزيع الوظائف، وكان رئيساً منتخباً من طريق الاستفتاء، وكان نتيجة فصل السلطات مستقلاً إلى حد بعيد عن البرلمان[90]. هكذا لاح إذاً أن ثمن الانتصار بعد الانتخابات الرئاسية كان توزيع المناصب والمكافآت على أنصار المرشح الرابح. وسرعان ما تم استخلاص النتائج من النظام الذي أرساه أندرو جاكسون نسقياً إذ تم رفعه إلى درجة جعله مبدأً عرف باسم «نظام الغنائم»[91] (spoils system).

لكن ماذا يعني «نظام الغنائم» هذا، والقائم على تحويل كل الوظائف الفدرالية إلى أتباع المرشح الناجح بالنسبة إلى تشكّل الأحزاب في أيامنا؟ إنها وبكل بساطة أحزاب لا عقيدة لها، متعارضة في ما بينها، إنها مجرد تنظيمات تسعى إلى اصطياد المراكز، فتغير برامجها في كل معركة انتخابية تبعاً لحظوظها في جمع الأصوات، والبرامج تتغير عندنا بشكل لم نعهده في أي مكان آخر، ذلك رغم كل التشابهات. ثم أن بنية الأحزاب قد فُصّلت بالتمام والكمال على

(90) يقوم مبدأ توزيع السلطات الكلاسيكي على الفصل الصارم بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. وفي النظام الرئاسي في الولايات المتحدة، حيث السلطة التنفيذية، أي الرئيس، هي سلطة منتخبة من الشعب يعتبر هذا المبدأ أشد مرونة من معظم النظم البرلمانية في أوروبا حيث تنبثق الحكومة من الأغلبية البرلمانية.

(91) إن صياغة مبدأ وظائف النظام باعتبارها المكافأة بالوظيفة لبعض الأتباع وإلحاقهم بما يناسب من وظائف هو مبدأ يعود إلى جون ليرند مارسي (John Learned Marcy) الذي تحدث في العام 1832 أمام مجلس الشيوخ معتبراً أن السياسيين «لا يرون شيئاً خاطئاً في القاعدة التي تفيد أن تذهب غنائم العدو إلى المنتصر»، انظر: Bryce, *The American Commonwealth*, vol. 2, S. 480 f., Anm. 1.

شكل المعركة الانتخابية الضرورية كلياً لرعاية الوظائف واستقطابها: ولاسيما وظيفة رئيس الدولة ووظيفة الحكام في مختلف الولايات. تتحدد البرامج وأسماء المرشحين بموجب «المؤتمرات الوطنية» التي تعقدها الأحزاب ودون تدخل البرلمانيين: ـ أي عند انعقاد مؤتمرات الأحزاب التي تتكون من الناحية الشكلية بطريقة ديمقراطية جداً من مندوبي التجمعات، الذين يدينون بدورهم في ترشيحهم إلى «الانتخابات الأولية» التي تجري داخل الحزب على مستوى القاعدة[92]. إبان هذه الانتخابات الأولية يصار إلى اختيار المندوبين إلى المؤتمرات لتسمية المرشحين لمنصب الرئاسة في الدولة: هكذا نشهد داخل الأحزاب احتدام الصراع المرير حول مسألة «التسمية». فالرئيس هو من يقرر تسمية ما يقارب 300,000 إلى 400,000 منصب وظيفي يقوم بتوزيعها بنفسه وبعد التشاور مع شيوخ الولايات المختلفة. ولهذا السبب يعتبر الشيوخ من السياسيين النافذين. أما بالمقابل فيعتبر مجلس الممثلين (النواب) نسبياً عديم النفوذ من الناحية السياسية، إذ إن عملية انتقاء الموظفين قد سحبت منه كلياً، ولأن الوزراء ليسوا سوى مجرد مساعدين للرئيس المنتخب شرعياً مباشرة من الشعب، ضد أي كان وضد البرلمان أيضاً، فبإمكانهم ممارسة وظيفتهم سواء حصلوا على ثقة النواب أو لم يحصلوا: إنها نتيجة أخرى تترتب على مبدأ «فصل السلطات».

إن «نظام الغنائم» المبني على دعم فصل السلطات لم يكن تقنياً

(92) تتم تسمية المرشحين للرئاسة من جانب الحزب في الولايات المتحدة الأميركية من قبل ما يعرف بـ «المؤتمرات الوطنية» التي تحصل قبل عدة أشهر من الانتخابات الرئاسية، والتي يمثل فيها المندوبون إرادة المنتسبين إلى هذا الحزب أو ذلك. في القرن التاسع عشر حصل انتخاب المندوبين بموجب نظام تراتبي، تشكلت قاعدته الدنيا من «المندوبين الأول»، أي تجمع المنتسبين الانتخابي لحزب ما على صعيد محلي، على صعيد المكان.

ممكناً في أميركا إلا لأن حداثة حضارتها كانت قادرة على تحمل إدارة يتولاها الهواة. وبالفعل فإن اختيار ما يقارب 300,000 إلى 400,000 من أعضاء الحزب لا كفاءة عندهم إلا ما قدموه للحزب الذي ينتمون إليه من خدمات قد أدى مع الوقت إلى ظهور مساوئ لا تحتمل: فساد وتبذير لا مثيل لهما ولا يمكن احتمالهما إلا في بلد يتمتع بفرص اقتصادية مؤاتية لا محدودة.

والشخصية السياسية التي يفرزها هذا النظام الانتخابي المستند إلى ماكينة الحزب الاستفتائية هي شخصية «الرئيس» (Boss). فمن هو هذا الرئيس؟ إنه متعهد سياسي رأسمالي، يتعهد جميع أصوات الناخبين لمصلحته ويتحمل مخاطرها وعواقبها. قد يكون في الأساس محامياً أو مدير حانة أو مالك مؤسسات من هذا النوع أو قد يكون أيضاً مقرضاً للديون، أي لديه ما يؤهله لإرساء أولى علاقاته. ومن هناك يقوم بتوسيع خيوط شبكته حتى يتمكن من كسب عدد محدد من الأصوات والتحكم بها. وما أن يصل إلى هذه النتيجة حتى يقيم تواصلاً مع «الرؤساء» المجاورين، مثيراً بما يتمتع به من حمية، ومن مهارة وقبل أي شيء آخر من سِرِّية، انتباه من سبقوه في هذه المهمة، وبذلك تتاح له فرصة الارتقاء. فلا غنى عن «الرؤساء» في تنظيم الحزب، فهو الذي يسيطر مركزياً على كل شيء. وهو الذي يؤمن إلى حد كبير كل الوسائل المادية. فكيف يتوصل لتأمين ذلك؟ جزئياً على الأقل من خلال اشتراكات الأعضاء، لكن قبل أي شيء آخر من خلال الضريبة على مداخيل كل موظف ممن استطاع بفضله، أو بفضل حزبه الحصول على وظيفته، ثم من خلال الرشاوى والبرطيل. ومن يعتمد انتهاك أحد القوانين المتعددة في الولاية فعليه أن يتواطئ مع «الرؤساء»، وعليه أن يدفع لهم مبلغاً مالياً معيناً وإلا كان عرضة لما لا تحمد عقباه. إلا أن ذلك كله لا

يكفي لتأمين ما يلزم من رأسمال تستلزمه سياسة الحزب. والرئيس هو وحده المخول مباشرة بتسلم الأموال التي يقدمها كبار الأقطاب الماليين. فهؤلاء لا يثقون أبداً بدفع أي مبلغ يخصص لأغراض انتخابية إلى أيٍ من موظفي الأحزاب المأجورين، أو إلى أيٍ ممن يتولون أعمال المحاسبة العامة في الحزب. فالرئيس بما يتمتع به من حذر ومن حرص على المسائل المالية، هو بالطبع الرجل الذي يقوم من داخل الأوساط الرأسمالية بتمويل الانتخابات. والرئيس النمطي هو على العموم رجل حصيف بإطلاقٍ. فهو لا يسعى إلى جاه اجتماعي؟ إذ إن «المهني المحترف» هو رجل لا يحظى بالاحترام في أوساط «المجتمع الراقي». هو يسعى إلى السلطة حصراً، السلطة كمصدر مالي، أو أيضاً إلى السلطة من أجل السلطة. إنه يعمل في الخفاء، فهو نقيض الزعيم الإنجليزي، فلا نسمعه يتكلم علناً، بل هو يوحي إلى الخطباء ما يجب قوله خدمة لغاياته، أما هو فيظل صامتاً. في العادة لا يتولى بنفسه أي وظيفة، باستثناء منصب عضو في مجلس الشيوخ. وبما أن للشيوخ بموجب الدستور حق الفصل في ما يخص تولي الوظائف، فإن الرؤساء القياديين الحزبيين غالباً ما يتولون شخصياً منصباً في هذا المجلس حيث توزع المناصب بالدرجة الأولى تبعاً للخدمات التي تؤمن للحزب. ولكن قد يحدث أيضاً، وبشكل متكرر، أن يمنح المنصب لقاء دفع مبلغ محدد، بل إن لبعض الوظائف تعرفه محددة: إنه نظام بيع المناصب، يشبه ما كان سائداً في ملكيات القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولا يستثنى من ذلك أيضاً ما ساد في المملكة البابوية[93].

لا يتمتع الرئيس «بمبادئ» سياسية ثابتة، فهو عديم الكرامة ولا

(93) انظر أعلاه هامش رقم 12 من هذا الفصل.

يسأل إلا عن الطريقة التي تسمح باكتساب الأصوات. وليس نادراً أن يكون شخصاً لم يتلقَّ تعليماً جيداً، لكنه يحيا حياة خاصة صحيحة لا تشوبها شائبة. إلا أنه وبالطبع وفي ما له علاقة بالأخلاق السياسية، فهو يتأقلم مع الأخلاق التي تسود في هذا القطاع، تماماً كما طاب للعديد منا فعله في مجال الأخلاق الاقتصادية زمن الاحتكار (أو تخزين البضائع)[94]. وأن يوصف «بالمهني» بصاحب الحرفة السياسية وإن كان ذلك يوحي بقلة الاحترام من الناحية الاجتماعية، فأمرٌ لا يعنيه بشيء. وطالما أنه لم يرتقِ إلى أعلى مراتب «الاتحاد» أو لم يرد أن يرتقي إليها فعلاً، فلذلك حسنته: إذ لا يندر أن ترى عقولاً غريبة عن الحزب، أو شخصيات تتقدم بترشيحاتها للانتخابات إذا ما رأى «الرؤساء» في الأحزاب أنها تعدُ بتأمين المزيد من الجاذبية للحزب إبان الانتخاب. يختلف الوضع عما نشهده عندنا حيث يصار باستمرار إلى ترشيح الأعيان القدامى في الحزب، رغم ذلك استطاعت بنية هذه الأحزاب التي لا تقوم على قاعدة عقيدية، وبما عندها من ممسكين بزمام السلطة مع عدم تمتعهم بالاحترام الاجتماعي، أن توصل إلى موقع الرئاسة رجالاً أكفاء، ما كان يقدر لهم الوصول أبداً لو كانوا عندنا. وبكل تأكيد كان «الرؤساء» يقفون بوجه كل منافس ضعيف الحظ يمكنه أن يهدد في حال انتخابه مصادر دخلهم أو سلطتهم. لكن بسبب المنافسة لكسب ودّ الناخبين، لم يترددوا أحياناً في القبول ملزمين ببعض أمثال هؤلاء المرشحين الذين اشتهروا بكونهم من محاربي الفساد.

(94) أثناء الحرب العالمية الأولى، وبسبب الحصار الذي أطلقته قوى الحلفاء تعرضت ألمانيا إلى نقص حاد في المؤن. وقد عانى سكان المدن بالدرجة الأولى من هذا النقص، وقد حاولوا بموجب ما يعرف برحلات التخزين تحسين أوضاعهم بالاستفادة من الفلاحين في الأرياف.

إننا هنا إذاً إزاء منشأة حزبية، منظمة من أعلاها إلى أسفلها بطريقة رأسمالية صارمة جداً وتلقى إلى جانب ذلك حماية أندية منظمة بشكل صلب، يحاكي التنظيم النقابي مثل نادي «تاماني هيل»[95]، والتي كانت تسعى هنا أيضاً إلى الاستفادة من السيطرة السياسية، ولاسيما في إدارة البلديات، الأمر الذي يشكل هنا أيضاً كما في أميركا موضوع الاستغلال الأكثر أهمية. ما كان لبنية الحياة الحزبية هذه أن تكون ممكنة لولا الدرجة العالية من الديمقراطية في الولايات المتحدة بوصفها «بلداً جديداً». إلا أن هذا الوضع مشروط بكون النظام محكوماً الآن بالموت البطيء، فأميركا لا يمكن أن تحكم بعد الآن من خلال الهواة غير المختصين. حين كان يُسأل العمال الأميركيون، قبل 15 عاماً، لماذا يقبلون بحكم سياسيين يعترفون هم أنفسهم بعدم احترامهم لهم، كان الجواب: «نفضل أناساً على موظفين نقوم نحن بالبصق عليهم، بدل طبقة من الموظفين كما هو الحال عندكم، تقوم هي بالبصق علينا»[96]. هذا ما كان عليه موقف الديمقراطية الأميركية القديم: أما الاشتراكيون فقد كان تفكيرهم مختلفاً حتى في تلك الفترة الزمنية. والموقف لم يعد يطاق الآن. فالإدارة التي يتولاها هواة، لا أهل الاختصاص، لم تعد تستجيب للحاجات الجديدة في البلاد، ومجلس إصلاح الخدمة

(95) انظر أعلاه هامش رقم 70 من هذا الفصل.

(96) لم نتوصل إلى إثبات مصدر هذا القول. تعرض ماكس فيبر أيضاً لتوصيف الموقف المعادي للحياة البيروقراطية لدى العمال الأميركيين في محاضرته التي ألقاها في فيينا عام 1918 بعنوان «الاشتراكية». انظر: Max Weber, *Der Sozialismus* (Wien: Phöbus Kommissionsverlag Dr. Victor Pimmer, [1918]), S. 6 f. (MWG 1/15, S. 604).

ربما تسنى لفيبر أن يكون قد سمع هذا النوع من التصريحات في العام 1904 حين توقف في سان لويس وجال في أميركا لعدة أشهر بمناسبة مشاركته في مؤتمر علمي عقد في إطار المعرض العالمي.

المدنية[97] يخلق الآن وبعدد يتزايد باستمرار المراكز الوظيفية مع حق الاستفادة من معاشات التقاعد، الأمر الذي يؤدي إلى استقدام موظفين حصّلوا تعليماً جامعياً، وهم بالتالي ممن لا يقبل الرشوة ومن أهل الكفاءة، كما هو الوضع عندنا. ثمة الآن ما يقدر بـ 100,000 وظيفة لم تعد تشكل جزءاً من غنيمة أو من حصاد السباق الانتخابي، بل لقد صار لهم حق الاستمرار بالوظيفة حتى التقاعد مع الخضوع في الوقت نفسه لإظهار الكفاءة، الأمر الذي يجعل نظام الغنائم الانتخابي نظاماً يتراجع باطراد. كذلك فإن نظام إدراة الحزب أصبح في الوقت نفسه عرضة للتبدل، ولكن دون أن نعلم الآن كيفية هذا التبدل.

أما الشروط الحاسمة السائدة في المؤسسة السياسية فهي في **ألمانيا** وإلى الآن على الشكل الآتي تقريباً. **أولاً**: عجز في سلطة البرلمان، ما استتبع عدم تولي أي إنسان يتمتع بصفات قيادية منصباً فيه بصفة مستمرة. ولنفترض الحالة النقيضة، إذا أراد أحدهم الدخول إليه ـ فماذا يمكنه أن يفعل هناك؟ في حالة شغور مركز وظيفي في المستشارية كان بإمكان رئيس مجلس الإدارة المسؤول في حالة السؤال عن الأمر المعني أن يجيب: لدي في دائرتي الانتخابية الرجل الكفؤ لذلك، وهو أهل لهذا المركز، فلنوظفه إذاً. وهكذا كانت تجري الأمور. وقد كان هذا تقريباً كل ما كان بوسع البرلماني القيام به إرضاء منه لغرائز السلطة فيه ـ هذا إذا سلمنا بوجودها عنده. يضاف إلى ذلك **عامل آخر**، يعطف على الأول وهو شرط له: إنه الأهمية الكبرى التي تُعطى للموظف المختص في ألمانيا. وقد كنا نحن الأول في ذلك في العالم. إلا أن هذه الدلالة قد حملت في

(97) انظر أعلاه هامش رقم 20 من هذا الفصل.

طياتها أن هؤلاء الموظفين لم يكن طموحهم الحصول على مركز وظيفي بحد ذاته، بل كانوا يطمحون إلى المناصب الوزارية. وقد حصل ذلك في البرلمان الإقليمي في منطقة بافاريا حيث جرى النقاش بشأن إدخال الحياة البرلمانية السنة الماضية حول ما يأتي: إذا تم القبول بإسناد المناصب الوزارية إلى البرلمانيين، فإن الموظفين الأكفاء سيعمدون إلى ترك وظائفهم[98]. أضف إلى ذلك أن ممارسة الوظيفة الإدارية عندنا لا تخضع كما هو الحال في بريطانيا إلى رقابة اللجان البرلمانية، الأمر الذي يوقع البرلمان في حالة عجز، إلا في بعض الحالات الاستثنائية التي تمنعه من أن يكون في صفوفه قادة سياسيون يديرون الإدارة بكفاءة.

والعامل الثالث، هو أننا في ألمانيا، وخلافاً للوضع في أميركا، لدينا أحزاباً على مستوى سياسي عالٍ، وبإمكانها أن تزعم بكل نية طيبة أن أعضاءها يملكون «تصوراً عن العالم». والحزبان الرئيسيان بين هذه الأحزاب هما حزب الوسط من جهة أولى، والحزب الاشتراكي الديمقراطي من جهة ثانية اللذان ولدا لتوهما، وهما من أحزاب الأقلية، وهما كذلك بمحض إرادتهما. ثم إن الأوساط القيادية في حزب الوسط في الدولة الألمانية لم تخفِ على الإطلاق أنها كانت ضد النظام البرلماني خشية منها أن تكون ضحية الأقلية، الأمر الذي يجعل الالتحاق بأي وظيفة عامة، وبسبب ضغط الحكومة

---

(98) في الأعوام 1917/ 1918 ناقش البرلمان الإقليمي في منطقة بافاريا مراراً مسألة إدخال الحياة البرلمانية في دستور بافاريا، انظر: Willy Albrecht, *Landtag und Regierung in Bayern am Vorabend der Revolution von 1918. Studien zur gesellschaftlichen und staatlichen Entwicklung Deutschlands von 1912 - 1918* (Berlin: Duncker & Humblot, 1968), S. 259 ff.,

هذا ولم نتمكن من إيضاح الواقعة التي يجري الحديث عنها.

صعباً للغاية[99]. أما الاشتراكية الديمقراطية فكانت من حيث الأساس حزباً أقلوياً، كما كانت عقبة أمام تطور الحياة البرلمانية لأنها لم تكن تريد أن تلطخ سمعتها بالتعامل مع النظام السياسي البورجوازي القائم آنذاك. ولأن هذين الحزبين قد أقصيا نفسيهما عن النظام البرلماني، فإن إدخال الحياة البرلمانية قد صار أكثر صعوبة.

في ظل هذه الظروف، ما هو موقع رجال السياسة المحترفين في ألمانيا؟ إنهم لا سلطة لهم، ولا مسؤوليات تلقى على عاتقهم. إن جُل ما يستطيعون القيام به هو أداء دور أعيان من درجة ثانية، ونتيجة ذلك كانوا قد تميزوا حديثاً بغرائز أهل النقابات التي تعتبر صفات نمطية في بلدان أخرى. كان من المستحيل على المرء في أوساط هؤلاء الأعيان الذين يجعلون حياتهم وقفاً على ما يحصلون عليه من مراكز صغيرة،

---

(99) قبل وقت قصير من انتخابات العام 1907، وبسبب النقد القاسي من جانب الوسط لسياسة الإمبراطورية الاستعمارية، وما ألحقته البعثات الكاثوليكية من إجحاف بالمستعمرات الأفريقية، اتهم ماكس فيبر قيادة الوسط بعدم رقابة برلمان الدولة الألمانية على إدارة المستعمرات وطالب بالإبقاء على «الرعاية البرلمانية» التي كانت تجري خلف الكواليس. بعبارات أخرى، لم تمارس قيادة الوسط سلطة فعلية بوصفها ممثلة للشعب تجاه ما يريده التاج، بل سعت إلى كسب بعض «الترضيات الشخصية» مما سمحت به إداراته. وفي هذا الإطار اعتبر فيبر الوسط بوصفه الحزب الذي يقبل بالحكم الدستوري القائم على المظاهر. انظر رسالته إلى فريدريش نومان بتاريخ 14 كانون الأول/ ديسمبر 1906 (MWG II/15, S. 201 ff.). وانطلاقاً من هذا الحكم وجد فيبر نفسه معنياً من خلال تمايز الوسط في النقاش البرلماني الذي حصل في تشرين الثاني/ نوفمبر 1909 حول تغيير دستور الدولة بهدف إقصاء «السلطة الشخصية» لفيلهلم الثاني. وبالفعل اعتبر حزب الوسط أن الدفاع عن ما تعرض له القسم الكاثوليكي من الشعب من إجراءات في مجالات الإدارة والتشريع يشكل واجباً ملحاً، كما اعتبر أن من أولى واجباته الحفاظ على المساواة المدنية داخل الدولة بالنسبة إلى الأقلية الكاثوليكية. في حين أن هذه الأقلية كانت تعتبر نفسها في «صلب الدستور» ولم تكن بالضرورة ترى لزوماً لتنشيط الحياة البرلمانية، انظر: «Berliner Erklärung der Zentrumspartei vom 28. November 1909,» in: Wilhelm Mommsen, (Hg.) *Deutsche Parteiprogramme*, 2. Aulf. (München: Isar Verlag, 1960), S. 245 f.

أن يرتقي مَنْ لم يكن من أمثالهم. بإمكاني بالطبع أن أذكر عدة أسماء ومن كل حزب، ودون أن أستثني الاشتراكية الديمقراطية بالطبع، ممن عاشوا مآسي الحياة السياسية، لأن المعني بذلك امتاز بصفات القيادة، ولكنه، ولهذا السبب بالذات، لم يكن ليُقبل من جانب الأعيان. لقد سلكت جميع أحزابنا الطريق نفسه الذي جعل الأعيان يتطورون إلى روابط حِرفية. فقد كان بيبل (Bebel) مثلاً قائداً بسبب ما يتمتع به من طبع ومن صفاء نفس، علماً أن عقله لم يكن راجحاً جداً. أما حقيقة أنه مات شهيداً[100]، وأنه لم يخيب ثقة الجماهير (من وجهة نظرهم بالطبع) قط، فكان من نتيجتها أنها كانت تسير خلفه، وأنه لم توجد أي قوة داخل الحزب كان يمكن لها أن تقف بوجهه بشكل جدي. بعد وفاته وُضع حدٌ لكل ذلك، وابتدأ عهد الموظفين حيث تصاعد دور الموظفين النقابيين وأمناء الأحزاب والصحافيين فوقع الحزب تحت سيطرة غرائز الموظفين. لقد كانوا موظفين على درجة عالية من الاحترام، بل يمكن القول إنهم يتمتعون باحترام نادر قياساً بالموظفين في بلدان أخرى، ولاسيما بالموظفين النقابيين في أميركا الذين غالباً ما يقبلون الرشاوى، إلا أن ما سبق

---

(100) تحيل الإشارة هنا إلى أوغست بيبل الذي حكم عليه بسبب قناعاته السياسية بالسجن، إذ حكم عام 1871 بالسجن لثلاثة أسابيع في لايبزغ بسبب تلاوته نداء «للشعب الإسباني» وفي عام 1870/ 1871 بالسجن الاحتياطي لمدة 101 يوماً لمعارضة سياسة بسمارك، إلا أن ذلك لم يقف دون انتخابه في أول برلمان ألماني. وفي آذار/ مارس 1872 حكم بيبل بالسجن لمدة عامين مع احتساب شهرين من الحبس الاحتياطي. وفي العام نفسه أيضاً حكم عليه بالسجن مجدداً لمدة شهرين لتشهيره بالملكية، إلا أن هذا الحكم لم ينفذ لوقوعه ضمن فترة الحكم السابقة. وفي العام 1877 حكم على بيبل مجدداً لمدة ستة أشهر بسبب ما زعم من تشهيره ببسمارك. استخدم بيبل أحكام السجن هذه، وكذلك ما كان يجري في المحاكمات ومنذ البداية، بنجاح كبير في التحريض والدعاية لسياسته، انظر: August Bebel, *Aus meinem Leben*, 3 Bände (Stuttgart: J. H. W. Dietz Nachf., 1910 - 1914), Band 1, 1910, S. 214 ff., Band 2, 1911, S. 205 ff., 245 ff., 257 f. und 390 ff.

التطرق إليه من نتائج سيطرة الموظفين سرعان ما لحقت بهذا الحزب أيضاً.

لقد أصبحت الأحزاب البورجوازية منذ ثمانينيات (القرن التاسع عشر) أحزاباً منظمة كلياً مثل روابط الأعيان. وكانت هذه الأحزاب مضطرة أحياناً ولأسباب دعائية إلى الاستعانة بأدمغة من خارجها وذلك حتى تتمكن من القول «هذا الشخص أو ذلك الشخص معنا». وكانت رغم ذلك تتحاشى قدر الإمكان قبول ترشيح هؤلاء للانتخابات، إلا حين تعجز عن ذلك وحين لا يقبل المعني بأمرٍ آخر سوى التقدم للانتخابات[101].

سادت الروحية نفسها في البرلمان. كانت أحزابنا البرلمانية ومازالت أحزاباً أشبه ما تكون بالروابط النقابية، إذ إن كل خطاب يلقى في جلسة البرلمان كان يخضع لرقابة الحزب المسبقة. هذا ما نلحظه من حالة الضجر الشديد التي تخيم على الجلسات، فلا حق بالكلام إلا لمن تم اختياره ليكون المتحدث باسم الحزب. بالكاد يمكن أن نتصور ذلك مناقضاً لما كان مألوفاً في العادات البرلمانية الإنجليزية أو الفرنسية، وإن لأسباب أخرى مختلفة كلياً[102].

---

(101) الأرجح أن فيبر يشير هنا إلى عدم اكتراث الحزب الألماني الديمقراطي بالتزام فيبر به والعمل معه في معركته الانتخابية، وبالتالي فإن الحزب لم يعمد إلى ترشيحه. راجع التقرير الذي سبق نص هذه المحاضرة.

(102) بحسب المبادئ المعتمدة في الإجراءات البرلمانية الإنجليزية تعتبر كل استشارة برلمانية نقاشاً من حيث الأساس، أي إنها ليست تسلسلاً لمونولوجات متتابعة، بل خطاباً وخطاباً مضاداً حول موضوع معين يدرج على جدول الأعمال. لذلك لا نجد في البرلمان الإنجليزي لائحة بأسماء الخطباء: ويخضع تتابع الخطباء لقرار «رئيس الهيئة التشريعية» الذي يكون قد سجل رغبة النواب بالمشاركة في النقاش. صحيح أن النظام البرلماني الفرنسي قد عرف في الجمهورية الثالثة وجود أجنحة برلمانية، إلا أنها كانت أجنحة منظمة من طريق الصدفة. ثم إن مبدأ عدم الخضوع للتوجيهات، بل وجوب التزام النواب بالأمة قد عطل لوقت طويل قيام تقسيمات أو أجنحة حزبية.

ربما نشهد في أيامنا تحولاً واضحاً، نتيجة الإنقلاب العنيف وإن تم التواضع بتسميته ثورة. أقول ربما، لأني غير متأكد. بداية نحن إزاء اتجاهات توحي ببناء جهاز أحزاب جديدة، إلا أنها **أولاً** ليست إلا أجهزة يقوم بها الهواة. وهي تتمثل بشكل خاص بطلاب يتخرجون من المعاهد العليا، الذين ما أن يروا شخصاً يتوسمون فيه صفات قيادية حتى يبادرون إلى القول: نحن نريد أن نقوم من أجلك بما يجب من عمل ضروري، وما عليك إلا أن تتولى التنفيذ فقط. ثم إنها **ثانياً**، أجهزة يغلب عليها الطابع التجاري. فقد يحدث أن يأتي بعض الأشخاص عند آخرين يتوسمون فيهم صفات قيادية فيعرضون عليهم تولي كسب الأصوات لقاء مبلغ مقطوع عن كل صوت جديد يكسب في الانتخابات. وإذا ما سألتموني الآن أن أعطي رأياً بصدق حول الطريقة التي أراها الأجدر بالثقة من الناحية السياسية التقنية الصرف، فأنا اعتقد أني سأميل إلى اختيار الطريقة الأخيرة. في كل الحالات لم تكن هاتان الطريقتان أكثر من فقاعة سرعان ما ارتفعت حتى اختفت مجدداً، إذ إن الأدوات الموجودة تتبدل وتتعدل ولكنها تعاود العمل كما في السابق. وكل من هاتين الظاهرتين لم تكن أكثر من عرض يوحي بإمكانية ظهور أدوات جديدة، لكن في حالة ظهور قادة جدد فقط. ولا شيء يمنع من تجدد هذه الظاهرات إلا اعتماد الخصائص التقنية المرتبطة بالتمثيل النسبي[103]. ما شهدناه حتى اليوم لم يكن أكثر من بعض الدكتاتوريين الذين ألهبوا الشارع ثم

(103) تبعاً لوجهة نظر أبداها فيبر مراراً، يتمتع نظام الانتخاب النسبي خلافاً لقانون الانتخاب الأكثري بحظ أوفى في أن يوصل شخصيات مرموقة تتصدى للآلة الحزبية، وأن ينتخبوا بسبب ما يتمتعون به من صفات قيادية، ذلك أن عرض لوائح المرشحين التي يمكن للناخب الاختيار منها من المهمات التي تخضع لكفاءة الآلة الحزبية وحدها.

اختفوا بعد ذلك[104]. وحدهم المؤيدون لدكتاتور الشارع كانوا منظمين ويخضعون لانضباط شديد. من هنا تنبع القوة التي تكتسبها هذه الأقليات الآخذة بالاختفاء السريع.

لنفترض الآن، أن الوضع قد تغير، عندها لابدّ لنا بعد الذي سبق وقلناه أن نعي ما يأتي. بإمكاننا القول، إنه حين تُدار الأحزاب عبر قادة يُنتخبون باستفتاء عام، فذلك يستتبع أن يفقد الأتباع «روحهم»، وأن يفقدوا سعيهم البروليتاري الروحي. وحتى يكون بمقدور هؤلاء الأتباع خدمة الزعيم بوصفهم أداة، فما عليهم إلا الطاعة العمياء، فهم «ماكينة» بالمعنى الأميركي للكلمة، لا يزعجها زهو الأعيان وغرورهم ولا طموحات من يسعى إلى تحقيق فرادة شخصية. لم يكن انتخاب الرئيس لنكولن ممكناً لولا هذه الميزة التي تمتع بها التنظيم الحزبي، والأمر نفسه تكرر أيضاً، كما رأينا مع الكوكس لصالح غلادستون[105]. هذا هو الثمن الذي يجب دفعه حين تترك إدارة الحزب إلى الرئيس. ومع ذلك فليس لنا إلا خيار واحد: القبول بديمقراطية يترأسها زعيم، والقبول تالياً بوجود «ماكينة» أو القبول بديمقراطية ترفض وجود قائد، ما يعني: الوقوع تحت سيطرة «السياسيين المحترفين» ولكن دون أن يكون لهم «الدعوة أو الإلهام لذلك»، أي دون تمتعهم بالصفات الكاريزماتية الداخلية التي تصنع منهم قادة أو زعماء. ذلك يعني أننا في هذه

---

(104) يفكر فيبر هنا، وكما يستفاد من مخطوط رؤوس الأقلام بكارل ليبكنخت، وربما أيضاً بروزا لوكسمبورغ اللذين أسسا معاً نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1918 الحزب الشيوعي الألماني. وكلاهما قُتل بعد اعتقاله في 15 كانون الثاني/ يناير 1918 على يد فريق من المتطوعين، وذلك بعد مشاركتهما في حركة التمرد التي قام بها اليسار المتطرف في برلين بهدف قلب الأكثرية الديمقراطية الاشتراكية التي كانت تسيطر على البرلمان، وقد استطاعت هذه الحركة أن تحرك الحركة العمالية في برلين.

(105) انظر ص 321 من هذا الكتاب.

الحالة إزاء ما تطلق عليه المعارضة الحزبية عادة اسم سيطرة «الزمر، أو الشلل». وحالياً سيستمر الوضع قائماً على ما هو عليه، على الأقل، في دولة «الرايخ». يتعزز هذا الاحتمال أولاً بما يُرتقب من إعادة إحياء المجلس الاتحادي (الفدرالي)[106]، ما يستتبع بالضرورة الحد من سلطة مجلس نواب الرايخ، ومن أهميته في عملية اختيار منصب القادة. وبالتالي يصبح الوضع أكثر تناسباً مع قانون الانتخاب بحسب التمثيل النسبي بالشكل الذي يتصور فيه الآن، إذ إن النظام هذا هو ظاهرة نمطية لديمقراطية لا قائد لها، لا

---

(106) يعتبر ماكس فيبر أنه من المستبعد، في حالة وضع دستور جديد للرايخ إهمال موقع القوى الفعلية التي احتلت موقعها في الأقاليم منذ العام 1913، خلافاً لما كان يريد هوغو برويس (Hugo Preuβ)، هكذا سارع منذ تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر 1918 إلى كتابة عدة مقالات في جريدة **فرانكفورت**. ظهرت لاحقاً بشكل كُتيب معبّراً فيها عن رأيه بأنه «من الممكن الآن استعادة مجلس الاتحاد كأحد الحلول الأكثر صفاء»، انظر: Max Weber, *Deutschlands künftige Staatsform* (Frankfurt a. M.: Verlag der Frankfurter Societäts - Druckerei, 1919), S. 22 (MWG I/16, S. 123),

وفي الاجتماعات الاستشارية التي عقدت برئاسة هوغو برويس في مقر الداخلية لدولة الرايخ (MWG I/16, S. 49-90) أبدى تقبله للنزعة التوحيدية السائدة آنذاك ولكن بقدر ما توصل الفدرالية إلى التوحيد (المصدر المذكور، ص 57). وقد وقف آنذاك لا مع الإبقاء على قوانين موسعة تحتفظ بها الحكومات في كل ولاية، بل مع مجلس عام (المصدر المذكور، ص 74). وقد أبدى ريبته بخصوص إبطال العمل بنظام المجلس الاتحادي. هكذا أبدى تأكيده في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1918 «بأن المجلس الاتحادي سيعود، بأي شكل كان، لأن حكومات الولايات تريد التدخل في الإدارة أيضاً» (رسالة من فيبر إلى برويس بتاريخ 25 كانون الأول/ ديسمبر 1918) (أرشيف الدولة المركزي في وزارة الداخلية رقم 16807، ورقة 262 ـ 263). يعتبر فيبر نتيجة ذلك أن مجلس الاتحاد لن يأخذ دور مجلس الرايخ في اتخاذ القرارات، ولذلك سيتعذر الوصول إلى نظام برلماني محض. حول موقف فيبر من هذه النقاط، انظر: Wolfgang J. Mommsen, *Max Weber und die deutsche Politik 1890 -1920*, 2. Aufl. (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1974), S. 360 ff.,

مع ذلك أقر برويس وحكومة الرايخ رغم معارضة حكومات الولايات دستوراً موحداً، اعتبره فيبر ممكناً. صحيح أن مجلس الرايخ أقر تمثيل المجالس الاتحادية إلا أن القرار السياسي ظل حكراً على المجلس النيابي للرايخ.

لأنه نظام يسهل الصفقات التي يقوم بها الأعيان في إعداد اللوائح، بل لأنه يمنح مستقبلاً التجمعات صاحبة المصالح الفرص بإلزام أخذ موظفيها على اللوائح الانتخابية، ما يسهم بخلق برلمان لاسياسي حيث يجد القادة الفعليون فيه مكاناً لهم. وحده رئيس الدولة (الرايخ) يمكنه أن يشكل صمام الأمان إزاء حالة نقص وجود القادة، شرط أن يكون منتخباً باستفتاء عام، وليس من طريق البرلمان(107). إن اختيار القادة على أساس ما حققوا من عمل لا يمكن أن يحصل إلا بالطريقة التي تطبق في الولايات المتحدة، إذ يُختبر الموظف في البلديات الكبرى بشكل خاص، وحيث يُترك له الحق أن يختار بنفسه من يريد التعامل معه من أجل مكافحة الفساد. هذه هي النتيجة التي يمكن التأمل بها في ما لو تم اعتماد تنظيم الأحزاب بحسب شروط الانتخاب هذه. إلا أن عداء البورجوازية الصغيرة بشكل خاص لوجود القادة الذي يديرون كل الأحزاب، بما فيها أيضاً الحزب الديمقراطي الاشتراكي، يجعل التشكل المستقبلي لهذه الأحزاب أمراً غامضاً، وكذلك كل الحظوظ التي أشرنا إليها هنا.

من أجل هذه الأسباب لا يمكننا اليوم أن نتكهن ولا بأي طريقة من الطرق كيف سيتحقق على الأرض هذا المبدأ الذي يجعل من العمل السياسي مهنة أقرب ما تكون إلى «الدعوة». كما لا يمكننا أيضاً نتيجة ذلك أن نرى ما هي الطرق التي ستتيح للموهوبين سياسياً الحظوظ للقيام بمهام سياسية يرضون عنها، فبالنسبة إلى من عليه أن يعيش «مِنْ» السياسة بسبب ما يعاني من ظرف اقتصادي يجعله محتاجاً، سيجد نفسه باستمرار أمام أحد البدائل الآتية: إما العمل في

---

(107) أبدى ماكس فيبر حماسته شتاء 1918/1919 لانتخاب الرئيس من قبل الشعب، انظر مقالته بعنوان «رئيس الرايخ» التي نشرت في عدة جرائد، وقد أعيد طبعها في الأعمال الكاملة (MWG I/16, S. 220 - 224).

الصحافة، وإما القبول بمركز وظيفي داخل الحزب، باعتبار ذلك من الطرق النمطية المباشرة، أو محاولة شغل وظيفة تقوم على تمثيل مصالح بعض الفئات: في النقابات مثلاً، أو في غرف التجارة أو في غرف الزراعة أو في الغرف المهنية أو في بورصات العمل وتجمع النقابات العمالية وما شابه، أو التطلع إلى عمل ملائم في إطار البلديات. أضف إلى ذلك أنه ليس بالإمكان أن نضيف إلى هذا الجانب الخارجي أكثر من القول بأن الموظف الحزبي يتشارك مع الصحافي سمعة انعدام انتمائه «الطبقي». فهو إما «كاتب مأجور» أو «خطيب مأجور»، هذه هي وللأسف العبارات التي ترن في أذنه، حتى لو لم تُقل بشكل علني. أما من يجد نفسه من الداخل عاجزاً عن هذه الإهانة، أو غير قادر على إعطاء جواب صحيح، فسيظل بعيداً عن هذا العمل الوظيفي الذي عدا عن كونه من الإغراءات الصعبة، فهو لن يكون أكثر من مصدر لخيبات أمل متواصلة. أما الآن فما هي البهجة الداخلية التي يشعر بها من يقوم بعمل سياسي، وما هي الشروط المسبقة التي تجعله يتوجه إلى عمل كهذا؟

والآن، يؤمّن امتهان العمل السياسي الشعور بالقوة حتى لو لم يشغل من يمتهن العمل السياسي إلا مراكز صورية متواضعة، فهو قد يشعر بممارسته التأثير في الناس الآخرين، وبالمشاركة في السلطة عليهم، بل إنه قد ينتابه قبل أي شيء آخر، الشعور بأنه يمسك بيده بعصب مهم من أحداث التاريخ قيد الصيرورة، وهذا ما يجعله يشعر أخيراً أنه يتعالى على مسار الحياة اليومية. لكن السؤال الذي يسيطر عليه الآن هو الآتي: ما هي الصفات التي تجعله يتأمل أنه أهل لهذه السلطة (حتى لو افترضنا أنها سلطة ضئيلة جداً)، ولما تلقي عليه بالتالي من مسؤولية؟ يقودنا هذا التساؤل إلى التطرق إلى مجال الأسئلة الأخلاقية؟ والسؤال الآتي من هذا القبيل: أي نوع من البشر

يجب أن يكون من يعتقد أن له الحق أن يسيِّر بيده عجلة التاريخ؟

بالإمكان القول إن السياسي يتمتع بصفات ثلاث حاسمة: الشغف، والشعور بالمسؤولية، وبعد النظر. الشغف بالمعنى «الموضوعي للكلمة»، أي الانكباب على «القضية» بشغف، أو على الإله أو على الشيطان الذي هو الآمر بها وليس بمعنى السلوك الداخلي الذي دأب صديقي المرحوم جورج سيمل (Georg Simmel) على تسميته «بالإثارة العقيمة»[108]، إنه سلوك يتميز به نمط خاص من المثقفين، ولاسيما الروس منهم، (لا كلهم بالطبع)، سلوك يؤدي الآن دوراً كبيراً في أوساط مثقفينا الذين تبلدت أذهانهم الآن في هذا الكارنفال الذي يطلقون عليه زهواً اسم «الثورة»، وذلك كله ليس أكثر من «رومانسية تدور في الفراغ»[109]، دون أي ربط بشعور المسؤولية، ذلك أن الشغف وحده، ومهما كان الإحساس به صادقاً، فهو لا يعتبر كافياً. هذا الشعور لا يصنع سياسياً، ما لم يكن في خدمة «قضية»، وما لم نجعل من المسؤولية المقابل لهذه القضية النجم الهادي الذي يحدد سلوكنا. يضاف إلى ذلك أيضاً الحاجة إلى بعد النظر، وهذه صفة نفسية حاسمة بالنسبة إلى السياسي. إنها الملَكة التي تدع الوقائع تؤثر فيه بما له من قوة صفاء وروح سكينة. إنها باختصار المسافة التي تقوم بينه وبين الأشياء والناس. إن «انعدام المسافة»، الانعدام الخالص، هو أحد الأخطاء القاتلة بالنسبة إلى كل من يتعاطى السياسة. إنها إحدى الصفات التي يؤدي انغراسها في

(108) ربما كان ماكس فيبر يريد الإشارة هنا إلى تصريح جورج سيمل في مقالته حول «مفهوم التراجيديا في الثقافة»، حيث يعتبر سيمل أن ما يثير في الثقافة الإنسانية هو أنها لا توصل إلى إبداع يتجاوز الألم الثقافي الخاص، انظر: Georg Simmel, *Philosophische Kultur. Gesammelte Essais* (Leipzig: Dr. Werner Klinkhardt, 1911), S. 276.

(109) لم نتوصل إلى معرفة مصدر هذا الاستشهاد.

الأجيال الجديدة من مثقفينا إلى الحكم عليهم بعدم القدرة على العمل السياسي. إن المسألة التي تطرح بعد ذلك هي الآتية: كيف يمكن العمل على الجمع في نفسٍ واحدة بين الشغف الحار وبعد النظر البارد؟ إن السياسة هي من عمل الرأس (العقل) وليست عملاً تقوم به أعضاء الجسد أو النفس الأخرى. ومع ذلك، فإن الاستسلام للعمل السياسي، ما لم يكن مجرد لعبة عقلية عبثية، بل سلوكاً إنسانياً أصيلاً، لا يمكن أن يكون إلا وليد شغف، ولا يتغذى إلا بالشغف. إن كل ترويض قوي للنفس، وهو الأمر الذي يتميز به كل سياسي يتصف بالشغف عن السياسيين «الهواة» الذين يتميزون «بالانفعال السياسي العقيم» يقوم أو يصبح ممكناً على التعود على اكتساب عادة اتخاذ هذه المسافة بكل ما للكلمة من معنى. إن ما نطلق عليه صفة «قوة» الشخصية السياسية يعني بالدرجة الأولى أن هذه الشخصية قد اكتسبت بالفعل صفات كهذه.

من أجل ذلك على السياسي أن ينتصر على عدو إنساني جداً، وعدو شديد الابتذال، لا يوماً بيوم، بل ساعة بساعة أيضاً. إن هذا العدو هو الزهو أو الغرور العادي جداً، فالغرور هو العدو القاتل لكل تعاطٍ مع قضية، ولكل اتخاذ مسافة ما، وحتى في حالتنا هذه، اتخاذ مسافة من الذات أيضاً.

إن الغرور صفة متفشية، وربما كان صفة لا يسلم منها أحدٌ البتة، بل هو نوع من المرض المهني الذي يصيب الأوساط العلمية والأكاديمية. علماً أن هذه الصفة وفي حال انتشارها بين العلماء، ومهما ارتدى شكل التعبير عنها وجهاً سمجاً، فهي تظل صفة غير مؤذية نسبياً، بمعنى أنها صفة لا تشوش في العادة على النشاط العلمي. يختلف الأمر بالنسبة إلى السياسي، إذ إنه يعمل من أجل السعي إلى السلطة باعتبارها وسيلة لابدّ منها. إن «غريزة السلطة» ـ

كما يعبر عن ذلك عادة ـ هي في الواقع إحدى الصفات الطبيعية التي يتميز بها ـ إلا أن الخطيئة التي تُقترف تجاه روح قدس دعوته المهنية تبدأ هنا حيث يصبح السعي إلى السلطة سعياً لا غرض له، وموضوعاً لا يفيد إلا إشباع نشوة خاصة، هذا بدلاً من أن يكرس نفسه كلياً لخدمة «القضية». وفي نهاية الأمر لا نجد في مجال السياسة إلا نوعين من الخطايا المميتة: عدم الدفاع عن أي قضية وانعدام المسؤولية، علماً أنه لا يجب علينا أن نعتبر وجود تطابق أو تماهٍ بين هذين الأمرين. ثم إن الغرور، أو لنقل الحاجة التي تدفع المرء قدر الإمكان أن يكون محط الأنظار في الصفوف الأمامية، هو ما يدفع بالسياسي إلى الإغراء حتى يقترف إحدى هاتين الخطيئتين أو كلتيهما معاً، بل طالما أن الديماغوجي (المتملق) ملزم بالاعتماد على «الأثر الذي يحدثه»، فهو لذلك يواجه على الدوام خطر أن يتحول إلى بهلوان، أو أن يقدر بخفةٍ المسؤولية التي تترتب عن نتائج أعماله، فلا يسأل إلا عن «الانطباع» الذي يمكن أن يتركه في الآخرين. إن عدم الالتزام بقضية معينة تجعله أقرب إلى السعي إلى المظهر البراق من السلطة، بدلاً من السعي إلى السلطة الفعلية. أما انعدام الحس بالمسؤولية فيعني عدم التمتع بالسلطة إلا من أجل السلطة، ودون ربطها بأي هدف. وبما أن السلطة هي الوسيلة التي لابدّ منها للسياسة، أو طالما هي كذلك، ولأن الرغبة بالسلطة هي بالتالي إحدى القوى المحركة، فإننا لا نجد مسخاً أكثر ضرراً بالسياسة مما يقوم به شجاع في فريق يلعب بالسلطة كما يلعب بها حديث نعمة فشَّار أو نرجسي مغرور بالسلطة، أو كما هو الشأن على العموم عند كل من يقوم بعبادة السلطة بوصفها سلطة. قد يكون بإمكان «سياسي السلطة» الذي يُضفى عليه عندنا قداسة ملؤها الحمية، أن يكون شديد التأثير، إلا أن أثره يضيع بالواقع في الفراغ وفي العبث، والذين ينتقدون «سياسة السلطة» هم محقون في ذلك

كلياً. لقد قدر لنا أن نختبر من خلال الانهيار الداخلي المفاجئ لبعض الممثلين النمطيين لهذا التوجه، مدى الضعف والعجز الكامن خلف هذه الحركات المليئة بالغطرسة، مع كونها فارغة تماماً. إن سياسة كهذه ليست إلا نتاج عقلية متعجرفة غالباً ما تكون سطحية وهزيلة، مقابل المعنى الذي ينطوي عليه أي سلوك إنساني، إنها عقلية لا قرابة لها إطلاقاً مع الوعي المأسوي الذي نجده في كل عمل، ولاسيما في العمل السياسي بشكل خاص.

من الأمور الثابتة ـ وإن كنا لا نريد هنا مقاربة الموضوع بشكل أكثر دقة ـ هو أن الحدث الأساسي في كل تاريخ نادراً ما يكون النتيجة النهائية لكل عمل سياسي، بل يمكن القول بشكل عام أنه لا يتطابق معه أبداً، بل إن هذه النتيجة قد تكون غالباً على علاقة متناقضة مع معناها أو مع دلالتها الأولية. ولكن، ولهذا السبب بالذات، يجب على هذه الدلالة أن لا تعتبر حجة للامتناع عن خدمة قضية معينة، وإلا يفقد الفعل ما يستند إليه. أما كيف تبدو القضية من زاوية السياسي الساعي إلى السلطة، أو الذي يستخدمها، فذلك من الأمور التي يترك أمر التقرير فيها إلى القناعة الشخصية. بإمكان السياسي أن يكون في خدمة غايات قومية أو إنسانية، أو غايات اجتماعية أو أخلاقية أو ثقافية دنيوية أو دينية. قد يكون مستنداً بقوة أيضاً إلى الإيمان «بالتقدم» ـ ولا يهم هنا أي معنىً من معاني التقدم ـ كما بإمكانه أن يعلن رغبته في أن يكون في خدمة فكرة ما، وأن يرفض لأسباب مبدئية قيمة هذه الأفكار رغبةً منه في خدمة أهداف الحياة المادية فقط ـ ثمة إيمان يجب أن يكون موجوداً في كل الحالات. وإلا ـ ولا أحد يستطيع أن ينكر صحة ذلك ـ فإن لعنة عدم الخلق ستلحق السياسي الذي يبدو ظاهرياً أنه الأقوى.

بعد ما قمنا بعرضه، نصل الآن إلى نقاش المسألة الأخيرة التي تهمنا هذا المساء. نعني بها مسألة «**روح**» السياسة بوصفها «قضية».

ما هي «الحرفة الدعوة» التي تستطيع السياسة أن تؤديها، وبغض النظر عن الأهداف الخاصة بها، في التدبير الكامل للسلوك الحياتي؟ وأين يكمن إن صح القول الموضوع الأخلاقي الذي يعتبر موطناً لها؟ يطالعنا حول هذه النقطة تصادم تصورات العالم في ما بينها بالطبع، ومع ذلك فلابدّ لنا في نهاية الأمر من الاختيار بينها. لنتوجه إذاً وبكل تصميم إلى هذه النقطة المستجدة على بساط البحث، وإن كانت قد بحثت برأيي من جهه سيئة[110].

لنطرح عنا أول الأمر التزييف الرديء. فقد تؤدي الأخلاق أحياناً دوراً في غاية السوء أدبياً أو معنوياً. وهاكم بعض الأمثلة. نادراً ما تجدون رجلاً تخلى عن حبه لزوجته وتوجه إلى سيدة أخرى يشعر بالحاجة إلى تبرير ما قام به أمام نفسه بالقول: إنها لم تكن جديرة بحبه، أو إنها خيبت أمله، أو أي «سبب» من هذا النوع وهي أسباب متوفرة بكثرة. يتعلق الأمر هنا وبما يخص الرجل بقلة أدب أو انعدام فروسية إضافة إلى القدر السيئ: إنه لم يعد يحب زوجته، على هذه الزوجة أن تتحمل ذلك وهو يحاول بانعدام فروسية عميقة أن يجد لنفسه «عذراً مشروعاً» يبرر فعلته، وبالاستعانة بهذا التبرير يحاول أن يعطي لنفسه الحق، ناسباً إلى زوجته كل الأخطاء بما فيها التعاسة التي ابتليت بها. والمنتصر أيضاً في هذه المنافسة الإيروتيكية يتصرف

(110) لم نستطع أن نحدد بدقة المصدر المطبوع الذي يحيل إليه فيبر هنا. فقد يكون في ذلك إشارة إلى الطبعة الثالثة من كتاب فريدريش فيلهلم فورستر *Staatsbürgelichen Erziehung* الذي صدر عام 1918 تحت العنوان التالي: *Politische Ethik und politische Pädagogik* (انظر لاحقاً الهامش رقم 130 من هذا الفصل). أو قد يكون في ذلك إشارة إلى الكتاب الصادر أيضاً عام 1918 بعنوان *Imperialismus und Pazifismus als Weltanschauungen* لمؤلفه سيغفريد مارك (انظر أدناه الهامش رقم 147 من هذا الفصل)، هذا وقد أشار فيبر إلى كلا الكتابين لاحقاً.

بالطريقة نفسها: إن خصمه هو الأقل قيمة، وإلا لما كان قد خسر. لا فرق هنا على الإطلاق مع المنتصر الذي يعلن بعد انتصاره في معركة عسكرية بطريقة عديمة الكرامة لمن يعتبر نفسه محقاً دائماً: لقد انتصرت لأني كنت على حق. ينطبق الأمر نفسه أيضاً على الإنسان الذي ينهار أخلاقياً عندما يرى فظائع الحرب والذي بدلاً من أن يقول الآن وببساطة: هذا كثير فعلاً ولم يعد بإمكاني تحمل المزيد، فيشعر بالحاجة إلى تبرير تعبه من الحرب تجاه نفسه بحيث يبدل هذا الشعور محتجاً بالقول: لم يكن بإمكاني تحمل ذلك لأني وجدت نفسي مجبراً على القتال من أجل قضية غير عادلة أخلاقياً. والأمر نفسه يمكن حمله على من انهزم في الحرب، والذي بدلاً من أن يتصرف مثل النساء العجائز وأن يحاول البحث عن «المسؤول» بعد وقوع الهزيمة ـ حيث تتولد الحروب عن البنية التي تكون عليها المجتمعات، عليه، ومن الأفضل له أن يتبنى موقفاً رجولياً ولائقاً وأن يقول للعدو: «لقد خسرنا الحرب ـ ولقد ربحتموها أنتم. لقد انتهى الأمر الآن. ومن ثم لنناقش الآن النتائج المترتبة التي يجب علينا استخلاصها بشأن المصالح المادية التي كانت مدار ما حدث ـ والأمر الأساسي والأهم ـ هو مناقشة المسؤولية أمام المستقبل والتي تثقل كاهل المنتصر بالدرجة الأولى»(111). أما ما تبقى فلا يعدو كونه انعدام كرامة وسيثأر له يوماً ما. إن الأمة قد تغفر لمن انتهك مصالحها، إلا أنها لا تغفر لمن أساء إلى كرامتها، على الأقل، بالنسبة إلى من يحاول تبرير حقه بأي ثمن كان. وكل وثيقة جديدة تُكشف ولو

---

(111) قدم فيبر حججاً مشابهة في مقالة له نشرت في جريدة **فرانكفورت** حول موضوع المسؤولية عن الحرب (عدد 43 بتاريخ 17 كانون الثاني/ يناير 1919 العدد الصباحي، ص 1) (MWG I/16, S. 179-190). هنا يشير في ما يشير إليه إلى مسؤولية المنتصر مشيراً إلى إمكانية سلمٍ يفرض بالقوة باعتبار ذلك تبعة تلقى على المستقبل.

بعد عقود من السنوات لن يكون لها من نتيجة سوى إثارة الكراهية والغضب وصرخات الاستهجان، في حين أن الأجدى دفن الحرب بعد أن وضعت أوزارها، على الأقل، من الناحية **الأخلاقية**. إن الأمر لا يبدو ممكناً إلا إذا تمتع المرء بالموضوعية وبحس الفروسية وإذا تمتع قبل ذلك كله بالإحساس **بالكرامة**. لا يمكن التحلي «بأخلاقية» لا تعني في حقيقة الأمر أكثر من انعدام الكرامة لدى كل من الطرفين. وبدلاً من الاهتمام بالأمر الخاص بالسياسي أي بالمستقبل وبالمسؤولية الواجب تحملها إزاءه، يهتم السياسي بالمسائل السياسية العقيمة التي لا أفق لها، كالاهتمام بمسألة من يتحمل ذنب ما حصل في الماضي. إن القيام بذلك هو الذنب السياسي بعينه، هذا إن كان هذا الذنب موجوداً. عدا ذلك يقترف هنا ذنب إضافي يتمثل بتزوير المسألة الأساسية من خلال تجاوز المصالح المادية، مصالح المنتصر بكسب الحد الأعلى من الربح ـ المادي والمعنوي ـ ، وآمال المهزوم في المساومة على شعوره بالذنب مقابل الامتيازات[112]: هذا إذا كان ثمة وجود لشيء يكون بهذه **الدناءة** فلن يكون إلا ذلك. وهذه هي النتيجة حتى تستخدم «الأخلاق» وسيلة «تبرير الحصول على الحق».

---

(112) يشير فيبر هنا إلى سياسة رئيس وزراء بافاريا كورت أيسنر حول قضية تبعات الحرب. لقد أبدى أيسنر قناعته ومع القسم الأكبر من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل أن الإقرار الصريح بمسؤولية إشعال الحرب العالمية الأولى سيؤدي إلى تحسين الموقف الألماني في المفاوضات حول الصلح الذي كان يسعى إليه. لذلك سمح أيسنر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 بنشر تقارير المبعوث البافاري إلى برلين في الفترة الممتدة بين تموز/ يوليو وآب/ أغسطس 1914، وذلك حتى يُظهر أن حكومة النمسا ـ هنغاريا الألمانية قد دفعت لاتخاذ موقف متشدد تجاه دولة صربيا، وأنها انطلقت بوعي كامل لتوسيع الأزمة المحدودة بينها وبين صربيا. ثمة نسخة حافلة بنقد لمصادر التقارير التي نشرها أيسنر نجدها في المصدر الآتي: *Bayerische Dokumente zum Kriegsausbruch und zum Versailler Schuldspruch*, hg. von Pius Dirr (München: Oldenbourg, 1922), S. 3 ff.

ولكن كيف تطرح عندئذٍ مسألة العلاقة الحق بين الأخلاق والسياسة؟ ألا توجد أي علاقة بينهما على الإطلاق كما يحلو القول لبعضهم أحياناً؟ أو أن العكس هو الصحيح، وهو أن الأخلاق «نفسها» تصح بالنسبة إلى السلوك السياسي كما إلى أي سلوك آخر؟ لقد ساد الاعتقاد أحياناً بوجود تعارض مطلق بين الزعمين: فإما أحدهما على حق أو الآخر. ولكن هل يصح أن نجد أخلاقاً قادرة أن تفرض من حيث مضمونها الإلزامات عينها على العلاقات الجنسية والتجارية بين الرجل وزوجته وعلى بائعة الخضار والابن والصديق ومنافسه والمتهم؟ وهل يجب على المرء أن يعتقد حقاً أن مقتضيات الأخلاق يمكن أن تظل لامبالية تجاه واقع أن السياسة تستخدم القوة وسيلة لازمة بها، وأن **العنف** هو في أساس كل سلطة؟ ألم ندرك أن الأيديولوجيين البلاشفة والسبارتكيين، وبسبب استخدامهم للعنف وسيلة سياسية[113] قد انتهى بهم الأمر إلى النتيجة **عينها** التي آل إليها أي دكتاتور عسكري آخر؟ بماذا تتميز سلطة مجالس العمال والجنود عن سلطة أي قابضٍ على زمام السلطة في النظام القديم، إن لم يكن ذلك إلا مجرد اختلاف لأشخاص القابضين على زمام السلطة ومن معهم من الهواة؟ بماذا يتميز السجال بين أغلبية المدافعين عن ما يزعم بأنها أخلاق جديدة، حتى حين ينتقدون أخلاق خصومهم، عن السجال الذي يمارسه أي ديماغوجي آخر؟ قد يقال إن التميز يحصل بالنية النبيلة! حسناً. ولكن الحديث يدور هنا حول الوسيلة، ذلك أن

(113) انظر أعلاه الهامش رقم 1 من هذا الفصل. نجد في برنامج وضعته روزا لوكسمبورغ لعصبة سبارتكوس مثلاً: «إن الثورة البروليتارية لن تقوم بحال من الأحوال بقولبة العالم بالعنف تبعاً لمثالها، بل إن عليها أن تواجه المقاومة الموجهة ضدها خطوة خطوة بشكل حاسم وبطاقة لا هوادة فيها،» انظر: Mommsen (Hg.), *Deutsche Parteiprogramme*, S. 430-439.

الخصوم الذين يحاربونها يثيرون وبالطريقة نفسها وبالغيرة الذاتية نفسها النبالة التي تتميز بها نواياهم. «فمن يقتل بالسيف، بالسيف يُقتل»[114]، والصراع هو الصراع في كل مكان. إنها إذاً أخلاق **الموعظة فوق الجبل**؟ وبالموعظة فوق الجبل يشار إلى: أخلاق الإنجيل المطلقة ـ وهي شيء أشد جدية مما يعتقد من يعمدون في أيامنا إلى الاستشهاد بطيبة خاطر بهذه الوصايا. فلا مجال للمزاح مع هذه الأخلاق، إذ ينطبق عليها ما ينطبق على ما نقوله في السببية في العلم، إذ إن الأخلاق هذه ليست عربة يمكن للمرء أن يوقفها كما يحلو له، يصعد إليها أو ينزل منها بحسب ما تكون الحالة[115]، بل إنها أخلاق الكل أو لا شيء إلا إذا وجب أن لا نرى فيها إلا جملة من التفاهات. نشير مثلاً إلى مثال: الشاب الغني إذ «انصرف حزيناً لأنه كان ذا مال كثير»[116]. إن وصية الإنجيل غير مشروطة ولها معنى واحد: إذهب وزِّع أموالك، **كل** أموالك دون تردد. قد يطيب للسياسي القول أن هذه الوصية ليست سوى مطلب اجتماعي لا معنى له، طالما أنها وصية لا تطبق على **الجميع**. وبالتالي فإن السياسي قد يقترح إلغاء وضع ضريبة على الأغنياء، وفرض الضرائب ومصادرات ـ وبكلمة واحدة: فرض الإلزام والانضباط على **الجميع**. إلا أن

(114) **الكتاب المقدس**، «إنجيل متى،» الإصحاح 26، الآية 52 والنص كاملاً: «فقال له يسوع: إغمد سيفك فكلُّ من يأخُذ بالسيف، بالسيف يهلِك».

(115) تعيدنا الصورة هذه إلى آرثر شوبنهاور الذي لاحظ في كتابه حول أصول الأحكام ما يأتي: «إن قانون السببية ليس موضوع مجاملة، يمكن استعماله كعربة نرتادها حيث نريد أو نرسلها إلى البيت»، انظر: *Arthur Schopenhauer's sämmtliche Werke*, hg. von Julius Frauenstädt, 2. Aufl., neue Ausg. (Leipzig: F. A. Brockhaus 1891), Band 1, S. 38.

(116) **الكتاب المقدس**، «إنجيل متى،» الإصحاح 19، الآية 22: «فلما سمع الشاب هذا الكلام، انصرف حزيناً لأنه كان ذا مالٍ كثير».

الوصية الأخلاقية لا هَم لها بذلك كله، وهذا هو جوهرها. إذ هي تقول: «من لطمك على خدك الأيمن، فاعرض له الآخر»[117]، ودون شرط، ودون سؤال الآخر عما حمله على ضربك. قد يقال، إنها أخلاق لا كرامة فيها ـ إلا باستثناء ما ينطبق على القديسين. أجل هذا هو الحال: يجب أن يكون المرء قديساً في **كل شيء**، على الأقل، أن يرغب في أن يكون كذلك وأن يعيش مثل يسوع والرسل والقديس فرانسيس <الأسيزي> وأمثاله، بذلك تكتسب الأخلاق كامل معناها وتكون تعبيراً عن الكرامة. وفي الحالة المعاكسة لا يكون **لها شيء من ذلك**. وبالتالي فإذا كانت أخلاق الحب اللاكونية[118] تعني: «لا تقاوموا الشرير»[119]، فإن ما ينطبق على السياسي هو الحكم الآتي: يجب أن تقاوم الشرير بالقوة، وإلا فستكون أنت المسؤول عن انتصاره. إن من يريد التصرف بحسب أخلاق الإنجيل، فعليه إذاً أن يتخلى عن المشاركة بالإضرابات ـ ذلك أن الإضرابات ضرب من الإكراه، وما عليه إلا الانضمام إلى النقابات الصفراء[120]. كما عليه أيضاً وقبل أي شيء آخر الامتناع عن الحديث عن

---

(117) **الكتاب المقدس**، «إنجيل متى،» الإصحاح 5، الآية 39: «أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر».

(118) يفهم فيبر بعبارة «أخلاق الحب اللاكونية» هروباً من العالم يتخذ صورة الإخلاص لمن نحب دون الارتباط بأي غرض، انظر: Max Weber, «Zwischenbetrachtung,» in: *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1920), Band 1, S. 546 (MWG I/19, S. 490).

(119) انظر أعلاه، الهامش رقم 117 من هذا الفصل.

(120) يشار باسم «النقابات الصفراء» إلى النقابات المسالمة اقتصادياً التي ظهرت في فرنسا حوالى نهاية القرن التاسع عشر والتي ظهرت في ألمانيا منذ العام 1905 باعتبارها اتحادات عمل وقد لاقت تأييد أرباب العمل. خلافاً للنقابات الاشتراكية «الحمراء» التي تروج للصراع الطبقي، تؤكد النقابات الصفراء على توافق المصالح بين المتعهدين والعمال وهي ترفض بالتالي الإضراب وسيلة لإقرار مصالح الحركة العمالية.

«الثورة»، إذ إن هدف الأخلاق بالفعل ليس تعليمنا: إن الحرب الأهلية هي الحرب الوحيدة المشروعة. والإنسان المسالم الذي يعمل بموجب تعاليم الإنجيل سيقوم برفض السلاح أو الابتعاد عنه كما يصار إلى إسداء النصح في ألمانيا باعتبار ذلك واجباً أخلاقياً، يهدف إلى إنهاء الحرب فيها، وإلى إنهاء أي حرب أخرى. أما السياسي فسيقول: إن الوسيلة الوحيدة الكفيلة أن تفقد الحرب حظوتها في مستقبل منظور هو إقامة سلام يبنى على الوضع القائم. وبالفعل قد يحلو للشعوب أن تتساءل: وبماذا أفادتنا هذه الحرب؟ لقد كانت حرباً عبثية ـ وبالتالي لم يعد بالإمكان الآن الدخول في حلٍ من هذا النوع، إذ كانت الحرب مجزية سياسياً بالنسبة إلى المنتصرين، أو إلى بعضهم. ولذلك فإن كل سلوك مسؤول كان ذلك الذي جعل كل مقاومة غير ممكنة[121]. والآن ـ وبعد انقضاء فترة الضنى والتعب ـ ، فلن **تكون الحرب هي التي فقدت حظوتها، بل السلام**: تلك هي النتيجة المترتبة عن الأخلاق المطلقة.

وأخيراً هناك واجب الحقيقة. وهو بدوره واجب غير مشروط من وجهة نظر الأخلاق المطلقة. ومن هنا كان الاستنتاج بوجوب نشر كل شيء، ولاسيما الوثائق التي ترهق بلدنا ولنوضح عبر هذه المنشورات الأحادية الاتجاه: الإقرار بالذنب من جانب واحد ودون شروط ودون نظرٍ في العواقب[122]. سيجد السياسي في طريقة التصرف هذه وبالحكم عليها من نتائجها أنها مازالت أعجز عن إظهار

---

(121) في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1918 ظهرت لبعض الوقت مقاومة للفكرة التي شاعت حول ضغوطات إقرار وقف للنار ومعاهدة سلام من خلال «دفع العامة للمقاومة»، انظر مقالة: Walter Rathenaus, «Ein dunkler Tag,» *Vossischen Zeitung*, Nr. 512 (7 Okt. 1918),

إلا أنه وبسبب حنين العامة إلى تحقيق السلم بدت هذه الدعوة غير قابلة للتطبيق.

(122) انظر أعلاه، الهامش رقم 112 من هذا الفصل.

الحقيقة، بل إن الحقيقة قد باتت بالتأكيد أكثر غموضاً بسبب تفلت الأهواء من كل قيد. يعلم السياسي أيضاً أن الوقائع المبرمجة من كل الجوانب يقوم بها أشخاص محايدون هي الوقائع التي تؤتي ثمراً[123]، وإن أي سلوك آخر سيكون له على الأمة التي تنتهجه عواقب ربما تطلب الأمر عقوداً من السنين قبل التمكن من علاجها. إلا أن الأخلاق المطلقة **لا تبحث** إطلاقاً عن مسألة «العواقب».

هنا نصل إلى النقطة الحاسمة. لابدّ لنا من الإشارة بوضوح إلى ما يأتي: يمكن لكل سلوك موجه وفق ما تقتضيه الأخلاق أن يخضع لمبدأين مختلفين كلياً، بل ومتعارضين جداً: قد يكون السلوك محكوماً إما «بأخلاق المسؤولية» أو «بأخلاق الاعتقاد». هذا لا يعني القول إن أخلاق الاعتقاد تماثل انعدام المسؤولية ولا أن أخلاق المسؤولية تماثل انعدام الاعتقاد. لا أحد يتكلم عن ذلك بالتأكيد. مع ذلك، فإن ثمة تعارض كبير بين موقف من يتصرف طبقاً لمبادئ أخلاق الاعتقاد ـ أو لنقل بلغة دينية ـ : «إن المسيحي يقوم بواجبه، وأما العواقب فيتركها إلى الله»[124]، أو موقف من يتصرف تبعاً

(123) إن المطالبة بتأليف لجنة تحقيق محايدة للتحقق بمسألة المسؤولية كانت قد انطلقت فعلاً وقبل نشر ملفات أيسنر (انظر أعلاه الهامش رقم 112 من هذا الفصل) من جانب حكومة الرايخ، انظر: *Schultheß' Europäischer Geschichtskalender*, hg. von Hans Delbrück (1918), 1. Teil, S. 531,

من جانبه أيد ماكس فيبر هذه المطالبة، وذلك من خلال توقيعه على البيان التوضيحي الصادر عن «جمعية العمل التعاوني في السياسة والقانون (اتحاد هايدلبرغ)» في شباط/ فبراير 1919 (MWG I/16, S. 523-525) كما أبرز ذلك أيضاً في كتابه المفتوح حول مسألة المسؤولية، في **جريدة فرانكفورت** عدد 22 آذار/ مارس 1919 (MWG I/16, S. 230-232).

(124) الأرجح أن فيبر يشير هنا إلى محاضرات لوثر عن سفر التكوين، حيث جاء فيها قوله: «Fac tuum officium, et eventum Deo permitte,»

انظر: *D. Martin Luthers Werke. Kritische Gesamtausgabe* (Weimar: Hermann Böhlaus Nachfolger, 1915), Band 44, S. 78.

لأخلاق المسؤولية التي تقضي بأن المرء مسؤول عن **العواقب** (المرتقبة) من أفعاله. قد يحلو لكم، وبأكثر الطرق إقناعاً كشف نقابي مقتنع بحقيقة أخلاق الاعتقاد[125]، وبأن عواقب فعله لن توصل إلّا إلى تحفيز فرص الرجعية وتأخير إرتقاء طبقته وزيادة استعبادها ـ إن ذلك كله لن يثير فيه أدنى انطباع. وإذا كانت عواقب فعل مرتكبٍ باعتقاد صافٍ عواقب سيئة، فإن القائل بهذه الأخلاق لن ينسب المسؤولية إلى الفاعل، بل إلى العالم أو إلى حماقة البشر أو ـ أيضاً إلى مشيئة الله الذي خلق الناس هكذا. خلافاً لذلك، سيعتمد من يقولون بأخلاق المسؤولية على المساوئ المشتركة بين الناس ـ إذ ليس له الحق، على ما قال فيخته بصواب، أن يفترض مسبقاً الصلاح والكمال في الناس جميعاً[126] ـ كما إنه سيشعر أنه ليس في موضع لا يتيح له تقدير إمكانية إلقاء تبعات أعماله على الآخرين،

---

(125) أرادت الحركة النقابية تحرير اليد العاملة من الرأسمالية بالدرجة الأولى وذلك بالاستناد إلى استراتيجية «العمل المباشر» ضد الأعداء الطبقيين المباشرين، ولاسيما أرباب العمل، سواء تم ذلك بواسطة الإضراب العام أو بالتظاهرات، أو بالعمل العنيف الموجه ضد الأشخاص أو الأشياء، ولكن ليس بالوسائل البرلمانية أو النقابية المألوفة. ومع أنه لم يكن يُرتقب أن توصل مثل هذه الأعمال إلى إحداث تغيرات مباشرة في العلاقات الموجودة، فإنها كانت تهدف إلى خلخلة النظام الاجتماعي القائم وإن بالتدرج. أما الهدف النهائي فقد تمثل بإعادة تنظيم المجتمع بشكل جذري على قاعدة وحدات إنتاج نقابية لا مركزية، وليس خلق نظام اشتراكي ذي نمط بيروقراطي.

(126) في مقالته عن «مكيافيلي بوصفه كاتباً مع مقاطع من كتاباته» يذكر فيخته مقطعاً ينصح فيه مكيافيلي كل رجل دولة أن يفترض أن الخبث والشر موجودان بشكل أصيل في الإنسان، وأن يفتكر باستمرار أن الناس سيظهرون هذه الشرور الداخلية حالما تتسنى لهم فرصة أكيدة لذلك. وقد أرفق فيخته على ملاحظة مكيافيلي تعليقاً أشار فيه إلى أن هذه القضية الأساسية في السياسة عند مكيافيلي مفهومة وواضحة بالنسبة إلى كل نظرية تتعلق بالدولة، وبالتالي فهي قضية مازالت تحافظ على صلاحيتها، انظر: *Johann Gottlieb Fichtes nachgelassene Werke*, hg. von Immanuel Hermann Fichte (Bonn: Adolph-Markus, 1835), Band 3, S. 420.

بالقدر الذي يستطيع معه التكهن بها مسبقاً. لذلك سيقول إن هذه العواقب قد ترتبت على فعلي الخاص. ولن يعتبر من يأخذ بالأخلاق الاعتقادية نفسه «مسؤولاً» إلا عن ضرورة السهر على الحفاظ على شعلة العقيدة الصافية دون انطفائها، كالحفاظ مثلاً على الشعلة التي تغذي الاحتجاج على الظلم في النظام الاجتماعي. إن إحياء شعلة اعتقاده باستمرار إذا ما حكمنا على ذلك من زاوية احتمال النجاح، هي الهدف من أعماله اللاعقلانية، التي لا يمكن أن يكون لها، ولا يجب أن يكون لها أيضاً، إلا قيمة نموذجية.

إن تحليلنا لم يوصل إلى استنفاد البحث في هذه المسألة. لا وجود لمذهب أخلاقي في العالم يمكن أن يتنصل من الواقعة الآتية: علينا من أجل بلوغ الأهداف «النبيلة» في عدة حالات أن نعتمد أحياناً وسائل غير شريفة، أو وسائل خطيرة على الأقل، أو أن نتقبل أيضاً ما يترتب عليها من احتمالات أو من نتائج ثانوية، كما إنه لا وجود لمذهب أخلاقي في العالم يمكن أن يقول لنا في أي لحظة وبأي مقدار «تبرر» الغاية الجيدة أخلاقياً الوسائل والعواقب الخطيرة من الناحية الأخلاقية.

إن العنف هو الوسيلة الحاسمة في السياسة. بإمكاننا أن نقيس إلى أي مدى يمكن أن يوصل التوتر من الناحية الأخلاقية بين الوسائل والغاية، هذا إذا، ما قدَّرنا وكما يعرف الجميع موقف الاشتراكيين الثوريين (الاتجاه الذي تبنته جماعة زيمرفالد[127] (Zimmerwald)) أثناء الحرب من المبدأ المعروف والذي يمكن

(127) يقصد فيبر بذلك الجماعة المعارضة ذات التوجه الاشتراكي الراديكالي والتي التقت في مدينة زيمرفالد القريبة من بيرن بين الخامس والثامن من أيلول/ سبتمبر 1915 في لقاء أممي والذي اتفق الأعضاء فيه، من جملة ما اتفقوا عليه، على وضع برنامج مشترك مناهض للحرب.

التعبير عنه بطريقة صاعقة كما يأتي: «إذا كان لابدّ أن نختار بين حلَّين، إما بضع سنوات من الحرب تعقبها ثورة، أو السلم الفوري دون أن تعقبه ثورة فإننا مع خيار الحل القائل باستمرار الحرب لبضع سنوات أخرى»[128]. وعلى السؤال الآخر: «ماذا يمكن أن تجلب هذه الثورة معها؟» سيعمد كل اشتراكي يفكر بشكل علمي إلى الإجابة كما يأتي: لا مجال في الوقت الحاضر لطرح موضوع الانتقال إلى اقتصاد يمكن اعتباره اشتراكياً بالمعنى الخاص بهذه الكلمة، بل إن ما سيحصل بالتحديد هو أن الاقتصاد البورجوازي سيرى النور مجدداً، ولكن بعد إزالة العناصر الإقطاعية وبقايا السلالة الحاكمة. من أجل الحصول على هذه النتيجة المتواضعة نقبل إذاً «استمرار الحرب لبضع سنوات أخرى»! بودنا القول فعلاً، إنه وحتى في حال كوننا من الاشتراكيين أصحاب القناعة، أنه من الملائم رفض غاية تقتضيها وسيلة كهذه. إن المسألة لا تطرح بشكل مغاير في حالة الحركة البلشفية أو الحركة السبارتكية، ولا في حالة أي نوع من الاشتراكية الثورية، إذ من السخرية أن يعمد هذا الجانب من الثوريين الاشتراكيين **باسم الأخلاق** إلى إدانة «سياسة العنف» عند أهل النظام القديم بينما هم في نهاية الأمر يستخدمون الأسلوب **الأخلاقي** نفسه أياً كان تبرير موقفهم إذ يعمدون إلى رفض **أهداف** خصومهم.

---

(128) ينسب ماكس فيبر هذا الرأي في موقع آخر ـ كما في ملاحظاته على كتاب تذكاري عن ماكس فون بادن بمناسبة تأسيس اتحاد هايدلبرغ في 3 شباط/ فبراير 1919، (انظر MWG I/16, S. 206) إلى الطبيبة جيني آدلر (Jenny Adler) في فيينا، وهي زوجة الاشتراكي النمساوي ماكس آدلر. ومن الجائز أن يكون فيبر قد عرف تصريحاً كهذا أثناء إقامته في فيينا صيف العام 1918. وقد كان له في ذلك الوقت علاقات مع ماكس آدلر. انظر رسالة ماكس فيبر إلى ماريان فيبر دون تاريخ [6 حزيران/ يونيو 1918].

هنا، وتحديداً في مسألة تبرير الوسائل بالغاية لابدّ لأخلاق الاعتقاد أن تجد مقتلها. وبالفعل لم يعد أمامها من الناحية المنطقية إلا الإمكانية الآتية: **استبعاد كل** سلوك أو فعل يستدعي استعمال وسائل خطيرة أخلاقياً. من الناحية المنطقية كما أقول. أما في عالم الوقائع فإننا نلاحظ دون انقطاع وبالتجربة أن السياسي الآخذ بأخلاق الاعتقاد غالباً ما ينقلب فجأة ليتحول إلى نبي ألفي بحيث إن الذين سبق لهم أن بشروا لتوهم مثلاً «بالحب بدل العنف» قد تحولوا في لحظة تالية للجوء إلى هذه القوة ـ بل القوة حتى آخر مداها، القوة التي توصل إلى موقف يؤدي إلى إنهاء كل عنف ـ على طريقة القادة العسكريين عندنا الذين يجهرون بالقول عند كل هجوم جديد: إنه الهجوم الأخير، الهجوم الذي سيحمل لنا النصر والسلام تالياً. لا يمكن للسياسي الآخذ بالأخلاق الاعتقادية أن يتحمل لاعقلانية العالم الأخلاقية. إنه «عقلاني» كوني ـ أخلاقي. وبعضكم ممن يعرف دستويفسكي سيتذكر مشهد المفتش الكبير[129] حيث عرضت هذه المسألة بطريقة موفقة جداً. من المستحيل أن يوفق بين أخلاق الاعتقاد وأخلاق المسؤولية، كما يستحيل أيضاً التقرير باستخدام الأخلاق رداء. **ما هي** الغاية التي يجب أن تبرر الوسيلة، ما لم نقم بأدنى تنازل على حساب المبدأ؟

يعتقد زميلي فريدريش فيلهلم فورستر، الذي أكن له شخصياً

---

(129) المقصود القصة التي تحمل الاسم نفسه في رواية دستويفسكي **الأخوة كرامازوف** حيث أبدى ماكس فيبر اهتماماً فائقاً بالمسائل التي طرحت في هذه القصة. في النسخة الخاصة والمترجمة إلى الألمانية من **الأخوة كرامازوف**، (والموجودة في كونستانس، ملكية (Max Weber - Schäfer)، نجد على الصفحات المذكورة تخطيطات بالخط الأحمر تحت عدة مقاطع). انظر: F. M. Dostojewski, *Die Brüder Karamasow*, Deutsch von H. von Samson - Himmelstjerna, 2. Aufl. (Leipzig: O. Gracklauer, 1901), Band 2, S. 48-73,

احتراماً شديداً بسبب ما يتمتع به من صفاء اعتقاد، إلا أنني أنكر عليه مطلقاً صفة الرجل السياسي، يعتقد في أحد كتبه أنه بإمكانه الالتفاف حول هذه المعضلة من خلال الأطروحة البسيطة الآتية: لا يتولد عن الخير إلا الخير، ولا يتولد عن الشر إلا الشر[130]. لو سارت الأمور على هذا النحو لما كان لدينا أدنى إشكال. ومن المدهش حقاً أن ترى أطروحة كهذه النور مجدداً بعد مضي 2500 سنة على ظهور كتابات الأوبانيشاد[131]. إن مسيرة التاريخ العالمي كلها ليست وحدها التي تقول العكس تماماً، بل التحري دون قيد أو شرط عن التجربة اليومية. ثم إن تطور ديانات العالم كلها مبني على حقيقة الرأي المعاكس. إن معضلة العدالة الإلهية القديمة تكمن في الرد على السؤال الآتي: كيف تسنى لقوة قدمت لنا باعتبارها قوة خيِّرة كلية القدرة أن تتمكن من خلق عالم يمتاز بهذه الدرجة من اللاعقلانية من حيث الآلام غير المستحقة، ومن الظلم الذي لا عقاب عليه ومن الحماقة التي لا شفاء منها. فإما أن هذه القوة صالحة وكلية القدرة أو أنها ليست كذلك، أو أن ثمة مبادئ مختلفة كلياً تتعلق بالثواب والعقاب تتحكم بالحياة، وهي مبادئ يصعب تأويلها إلا بالطرق الماورائية، هذا إن لم تكن عصية على التأويل من جانبنا. إن هذه المسألة، ونعني بها مسألة اختبار اللاعقلانية في العالم كانت كما

---

(130) الأخلاق السياسية والتربوية عند فورستر. مع الإشارة إلى الطبعات الألمانية. في كتاب: *Staatsbürgerlichen Erziehung* (München: Ernst Reinhardt, 1918), S. 202,

نجد ما يأتي: «علينا أن نوضح أولاً الحقيقة الأساسية التي تقول إن الشر لا ينتج من الخير وأن الخير لا يولد الشر» وفي الطبعة الرابعة التي صدرت عن هذا الكتاب عام 1956 يقيم فورستر ص 323، الهامش رقم (26 أ) سجالاً مع فيبر حول موقفه من هذه النقطة.

(131) الأوبانيشاد كتابات فلسفية لاهوتية هندية قديمة، وهي تشكل المجموعة الأحدث في أدبيات الفيدا. ظهرت الأوبانيشاد القديمة على الأرجح (بين 800 و600 ق.م.) في شمال الهند. تقوم العقيدة على القول بارتباط الوجود المستقبلي للإنسان بعمله الأخلاقي وبتفكيره.

نعلم القوة المحركة لتطور كل الديانات. إن عقيدة الكارمان الهندوسية [كل عمل يصدر عن الإنسان مقدر له] والثنائية الفارسية والخطيئة الأصلية والتقدير المسبق وعقيدة الإله الخفي، جميعها عقائد تولدت من هذه التجربة. حتى المسيحيون الأُول كانوا يعرفون جيداً أيضاً أن العالم مسيَّر من قبل الشياطين وأن من يتعامل مع السياسة، أي من يتورط بالتعامل مع القوة وأعمال العنف باعتبارها وسائل، فهو كمن يعقد حلفاً مع القوى الشيطانية. وكانوا يعرفون أيضاً أنه من غير الصحيح في عملهم وسلوكهم أن الخير يولد الخير فقط، وأن الشر يولد الشر فقط، بل إن ما يحدث كان العكس تماماً. ومن لا يرى ذلك هو في الواقع طفل من الناحية السياسية.

تلاءمت الأخلاق الدينية وبشتى الطرق مع هذا الواقع الأساسي الذي يؤدي إلى جعلنا في أنظمة حياة مختلفة تخضع بدورها لقوانين مختلفة. إذ إن المذهب الهلليني الذي يقول بتعدد الآلهة كان يقدم الأضاحي إلى أفروديت كما يقدمها إلى هيرا أيضاً، وإلى ديونيزوس كما إلى أبولو، مع علمه أن هذه الآلهة كانت غالباً ما تتصارع في ما بينها. كان نظام الحياة الهندوسي يجعل من كل مهنة من المهن المختلفة موضوعاً لقانون أخلاقي خاص، دهارما، ثم يقيم في ما بينها فصلاً كاملاً إلى الأبد إذ يجعلها ضمن نظام من الطبقات المغلقة، ثم يدرجها في ما بعد وسط تراتبية لا تتغير، والفرد الذي يولد في طبقة لا يستطيع الخروج منها أبداً إلا بولادة جديدة في الحياة المستقبلية. وبذلك فإن لكل مهنة مسافتها التي تبعدها وبدرجات متفاوتة عن الخلاص الديني الأسمى. هكذا تسنى إذاً لكل طبقة مغلقة أن تقيم دهارما لها اعتباراً من النساك والبراهمة حتى الأوغاد والعاهرات، داخل شبكة قوانين خاصة ترتبط مراتبياً بكل مهنة. وهذا ما جعلها عرضة للسياسة والحرب. وأما أن تكون الحرب جزءاً مكملاً لنظام الحياة، فهذا ما تجدونه حين تقرأون كتاب

بهاغافادجيتا في الحوار الذي يجري بين كريشنا وأرجونا[132]. «افعل ما يجب فعله» ـ أو بكلام آخر، افعل ما ينسجم مع ما تفرضه عليك الدهارما الخاص بطبقة المحاربين والقوانين الخاصة بها، ما يعني أتمم «العمل» الضروري موضوعياً بما يتناسب مع الهدف الحربي لطبقتك[133]. فالعمل بموجب هذا الاعتقاد لا يضر بالخلاص الديني، بل يُعتبر دعماً لهذا الخلاص. إن المحارب الهندوسي كان شديد الثقة بملاقاة سماء إندرا (إله العواصف والمطر)[134] بعد موت بطولي، تماماً كما كان الألماني واثقاً من الوصول إلى فالهال[*] (Walhall). هذا وقد رفض الواحد منهم باحتقار النيرفانا، تماماً كما رفض الألماني أيضاً الفردوس المسيحي مع ما فيه من جوقات ملائكية. أتاحت تخصصية الأخلاق هذه للأخلاق الهندوسية أن تجعل من فن السياسة الملكي نشاطاً منسجماً، خاضعاً لقوانينه دون سواها بل ولممارساته المتسارعة. إن الأدب الهندوسي وكما تجلى في

---

(132) «**بهاغافادجيتا**» (نشيد المتعالي) هي جزء من قرابة 100,000 بيت شعري مثنوي تنطوي عليها الملحمة الهندوسية «مهابهاراتا». في وقت سبق معركة كان يحضّر لها، راقب أرجونا من عربته الحربية ليرى في معسكر الخصم العديد من أقاربه الأمر الذي زاده شكاً بصحة العمل الذي يقوم به. أتى أمر من قائد عربته للشروع بالمعركة، وقائد العربة هنا هو كما نعلم من الحوار هو المتجسد في كريشنا، إذ إن هذا هو المسؤول منذ ولادته عن سير حياته. في هذا الحوار يطور كريشنا عقيدة فلسفية ـ أخلاقية تقوم على الانعطاء غير المشروط إلى الله بالترافق في الوقت نفسه مع تحقيق الواجبات الإنسانية في هذا العالم. تُرجمت بهاغافادجيتا من السنسكريتية إلى الألمانية، انظر ترجمة: *Die Bhagavadgītā,* Aus dem Sanskrit übersetzt von Richard Garbe (Leipzig: H. Haessel, 1905), S. 67 ff.

(133) المصدر نفسه، ص 81.

(134) بوصفه إله العواصف والمطر، كان إندرا (Indra)، الشخصية الأساسية في عالم الآلهة الهندوسية.

(*) مكان إقامة المحاربين الأبطال الذين يقتلون في المعارك. وفي الميثولوجيا الألمانية، المكان عبارة عن قعر واسع حيث يقيم أودين (Odin) وحوله قاتل المحاربون الأبطال.

الأرتاشاسترا[135] التي وضعها كوتيليا يقدم لنا عرضاً كلاسيكياً «للمكيافيلية» الراديكالية بالمعنى الشعبي لهذه الكلمة. يكفي أن نقرأ هذا الكتاب الذي وضع قبل الميلاد بوقت طويل، وعلى الأرجح في زمن تشاندرا غوبتا، حتى نتيقن أن كتاب **الأمير** لمكيافيلي[136] كان بالمقابل كتاباً لا حول له ولا طول. ومن المعروف أن «التعاليم الإنجيلية»[137] في الأخلاق الكاثوليكية، والتي يبدو واضحاً ميل فورستر إليها، تشكل أخلاقاً خاصة ترتبط بالذين أوتوا امتياز كاريزما حياة القداسة. وفيها نجد إلى جانب الراهب، الذي يمنع عليه سفك الدم أو البحث عن مكسب، الفارس والبورجوازي التقي اللذين يحق لهما، سفك الدماء للأول، وتحصيل المكسب للثاني. إن تمايز الأخلاق بحسب المرتبة واندراجها في نظام عقيدة خلاص هي أقل انسجاماً مما هي عليه في الهند. مع ذلك وبسبب ما يفترضه الإيمان المسيحي مسبقاً، كان من الممكن، بل من اللازم أن يتم الأمر بهذا الشكل. لقد سمح القول بفساد العالم بسبب الخطيئة الأصلية باستخدام العنف بسهولة نسبية في الأخلاق

---

(135) يعتبر أرتاشاسترا (Arthaşāstra) أحد المؤلفات التي وضعت في وقت متأخر، قرابة القرن الثالث بعد الميلاد حول فن تدبير الدولة. وبحسب التقليد الهندوسي، ينسب هذا المؤلف إلى وزير يدعى كوتيليا (Kauṯilya). وهو يقدم للحاكم نصائح عملية تتعلق بتثبيت سلطته وبنائها. ومن ذلك تقديم نصائح بوجوب اتخاذ إجراءات دفاعية قوية ضد الأعداء في الداخل أو في الخارج. حول تاريخ النص ومضمونه حول النظام الهندي والسلطة، انظر: Ludger Kühnhard, «Staatsordnung und Macht in indischer Perspektive. Chanakya Kautilya als Klassiker der politischen Ideengeschichte,» *in: Historische Zeitshrift*, Band 247 (1988), S. 333 - 355.

(136) *Il Principe di Niccolò Machiavelli al Magnifico Lorenzo di Piero de' Medici* (Rom: Antonio Blado, 1532).

(137) «التعاليم الإنجيلية» (Consilia evangelica) هي التعاليم من أجل حياة تقتدي بالمسيح: وهي تقوم على نذر العزوبية، والفقر والطاعة.

وسيلة تربية في مواجهة الخطيئة والهرطقات التي تتهدد النفس بالأخطار. مع ذلك فإن الفرائض اللاكونية كما تجلت في العظة على الجبل، والتي اتخذت شكل أخلاق اعتقادية صرف، ومعها الحق الديني الطبيعي الرزين بوصفه واجباً مطلقاً بني على هذا الاعتقاد، قد حافظت على قوتها الثورية وعادت لتطفو على السطح كل مرة وبكل عنفوانها في كل الأزمنة التي شهدت انقلابات اجتماعية. كما ولدت بشكل خاص طوائف تقول بنزعة سلمية ـ راديكالية. ومنها واحدة في بنسلفانيا جربت أن تؤسس دولة تُبنى على رفض العنف في علاقاتها مع الخارج، ـ وهي تجربة كانت مأسوية في مسيرتها، ذلك أنه لم يكن بمقدور الكويكر (الصاحبيين)، حين اندلعت حرب الاستقلال استعمال السلاح للدفاع عن مُثُل كانوا من حملتها أيضاً[138]. أما البروتستانتية العادية وبالمقابل، فقد اعترفت بشرعية الدولة: أي إنها بررت استخدام العنف وسيلة باعتبار ذلك تدبيراً إلهياً مطلقاً، كما شرعت بشكل خاص الدولة السلطوية الشرعية. لقد انتزع لوثر المسؤولية الأخلاقية للحرب عن الأفراد وعزاها إلى السلطة الأعلى، بحيث إن طاعة السلطة العليا لم يعد إطلاقاً ذنباً يحاسب عليه إلا ما خلا مسائل الإيمان. وبدورها اعترفت الكالفينية أيضاً ومن حيث المبدأ بالقوة وسيلة للدفاع عن الإيمان، ما يعني تشريع الحرب الدينية، والتي كانت في الإسلام ومن البداية عنصراً حيوياً. هكذا نرى، أن عدم الإيمان

(138) رفض «الكويكر» (الصاحبيون) الخدمة العسكرية بشكل صارم. وبسبب مواقفهم المسالمة ظلوا على الحياد في حرب الاستقلال الأميركية بين عامي 1775 و1787 ولم يساندوا أياً من الحزبين المتحاربين. وهذا لم يؤدِ إلى الحظوة بأنصار، ولاسيما من أوساط الفرق الأميركية. أو من جانب الثوريين، بل فاقم في عزلتهم السياسية والاجتماعية، الأمر الذي جعلهم في العقود التي تلت طائفة متشددة ومنعزلة.

الحديث، النابع من طقس تقديس عصر النهضة للأبطال(139)، ليس هو من أثار مسألة الأخلاق السياسية. لقد جادلت الأديان جميعها حول هذه المسألة، وإن بنجاح يتفاوت بين دين وآخر، ـ وبعد ما قدمنا نقول، إن الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك. إن الأصالة الخاصة بالمسائل الأخلاقية السياسية إنما تكمن في الوسائل الخاصة **بالعنف الشرعي** الخالص بوصفه كذلك، وبين أيدي التجمعات البشرية.

إن كل إنسان يقيم عهداً مع هذه الوسيلة، وأياً كانت غايته ـ حيث إن كل سياسي يفعل الشيء نفسه ـ فهو يتحمل عواقب ما ينتج من فعله هذا. يصح ذلك بشكل خاص على كل من يقاتل من أجل معتقداته، كما يصح على المناضل الثوري أو المناضل الديني. ولا حرج لنا أن نعتبر الحاضر مثلاً لنا. فمن يريد إقامة العدالة المطلقة على الأرض **بالقوة**، فهو يحتاج إلى أنصار له: إنه بحاجة إلى «جهاز» بشري. والجهاز هذا لا يمكنه القيام بوظيفته ما لم تظهر المكافآت النفسية والمادية الضرورية ـ الأجر السماوي أو الأرضي ـ، ولنفصل في المكافآت النفسية أولاً: إنها في ظل الظروف الحديثة لصراع الطبقات، إشباع أحقاده ونزعته للأخذ بالثأر، وقبل أي شيء آخر إشباع أحاسيسه وميوله الأخلاقية الكاذبة بأنه على حق، أي بعبارات أخرى إرواء رغبته بالتشنيع على الخصوم وإتهامهم بالهرطقة. أما المكافآت المادية، فهي المجازفة، النصر، الغنيمة، السلطة ومصادر الربح الكبيرة. ثم إن نجاح القائد يرتبط كلياً بوظيفية جهازه هذا.

(139) بحسب طقوس تقديس القديسين في القرون الوسطى، سرت إبان النهضة فكرة الإعجاب بـ «الرجال المشهورين» والذين لم يكونوا قديسين، بل هم يستحقون بما يتميزون به من قوة خارقة ومن روح عالية أن ينسبوا إلى القديسين، انظر: Jakob Burckhardt, *Die Kultur der Renaissance in Italien. Ein Versuch*, 10. Aufl., hg. von Ludwig Geiger (Leipzig: E. A. Seemann, 1908), Band 1, S. 152 - 165.

ولذلك فهو يرتبط كلياً بحوافز هذا الجهاز، لا بحوافزه الشخصية. ولذلك يرتبط نجاحه بتأمين كل هذه المكافآت إلى أتباعه الذين لا غنى له عنهم وبطريقة مستمرة سواء أكانوا من الحرس الأحمر[140] أم المخبرين أم المحرضين. إن ما يتم التوصل إليه في ظل هذه الشروط المؤثرة يُظهر أنه ليس سيد نفسه، بل عليه الخضوع بشكل كبير لمطالب أتباعه التي قد تكون نابعة عن حوافز سلوك دنيئة أخلاقياً، وهو لا يمسك بزمام هؤلاء الأتباع إلا إذا استطاع أن يحرك جزءاً منهم على الأقل للإيمان بشرف شخصه وبقضيته: فلم يسبق أن رأينا على وجه الأرض مشاعر مماثلة يتحلى بها الغالبية من البشر. إلا أن هذا الإيمان وحده وحتى حين يكون صادقاً جداً وبشكل ذاتي، فهو لا يستخدم في الحقيقة وفي أغلب الحالات إلا لـ «شرعنة» الشهوة في الانتقام وفي السلطة والغنيمة وتحصيل الإقطاعات. لن نطيل الحديث حول هذه النقاط، ذلك أن التفسير المادي للتاريخ ليس عربة يستقلها المرء كما يحلو له[141]، ولا تتوقف إلا أمام رواد الثورة! ـ لكن لابدّ أن نعرف قبل أي شيء آخر: إن **الروتين** اليومي التقليدي يعقب كل ثورة مدادها الحماس، وإن بطل الإيمان قبل الكل، بل إن الإيمان نفسه سيتراجع وسيصبح ـ وهذا هو الأمر الأشد تأثيراً ـ جزءاً مكملاً من الكلام التقليدي عند عديمي الذوق وتقنيي السياسة. يبلغ هذا التطور سرعته القصوى بشكل خاص في الصراعات العقائدية إذ يكون بقيادة قادة **حقيقيين**: فأنبياء الثورة هم من يقود أو من يلهم هذا النوع من الصراعات. ذلك أنه وكما هو الحال في كل جهاز قيادي، فإنه لابدّ للوصول للنجاح من شروطٍ تتمثل في الإضعاف وفي

(140) الحرس الأحمر: كان ميليشيا عمالية مسلحة، ظهرت لأول مرة في ثورة شباط/ فبراير 1917 في بتروغراد وكانت مهمتها الحفاظ على الأمن العام ومناصرة الثورة.

(141) انظر أعلاه، الهامش رقم 115 من هذا الفصل.

المكننة، أو في التحول البروليتاري الروحي لصالح «الانضباط».
ولذلك سرعان ما يتدنى مستوى أتباعٍ منتصرين لقائد يقاتل من أجل معتقد إلى مستوى شريحة من المأجورين المبتذلين.

على كل من يرغب على العموم أن يعمل في السياسة وأن يجعل منها دعوة له بشكل خاص، أن يعي هذه التناقضات الأخلاقية وأن يعي مسؤوليته تجاه ما سيتحول إليه هو نفسه جراء ضغط السياسة. وأنا أكرر هنا، إنه يورط نفسه بالتحالف مع قوى شيطانية تقف له بالمرصاد في كل عنف. إن المتألقين في المحبة والطيبة اللاكونية للإنسان، سواء تحدروا من الناصرة أو من أسيز أو من قصور الهند الملكية لم يتعاملوا مع العنف وسيلة للسياسة. إن مملكتهم لم «تكن من هذا العالم»[142]. ومع ذلك فقد أثروا فيه ومازالوا يؤثرون. إن شخصيات أمثال أفلاطون، وكاراتاجيف[143] وقديسي دستويفسكي هي باستمرار الصور الأكثر مطابقة مع هذا النوع من المشاهير. إن على من يبحث عن خلاص نفسه، أو عن خلاص نفوس آخرين، أن لا يبحث عن ذلك من طريق السياسة التي تنجز مهام أخرى مختلفة تماماً: إنها تُنجز المهام التي لا يمكن حلها إلا بواسطة القوة. إن عبقر السياسة أو شيطانها يحيا في حالة من التوتر الداخلي مع إله المحبة، وكذلك أيضاً مع إله المسيحيين كما في تجلياته الكنسية، وهو توتر يمكن أن ينفجر في كل لحظة ليتحول إلى صراع لا حل له. وهذا ما كان يعرفه الناس أيضاً حتى في زمن

---

(142) انظر: **الكتاب المقدس**، «إنجيل يوحنا،» الإصحاح 18، الآية 36: «أجاب يسوع: ليست مملكتي من هذا العالم».

(143) شخصية ثانوية في رواية تولستوي **الحرب والسلم** وهي تجسد مبدأ البلاهة والحقيقة (Leo N. Tolstoj, *Sämtliche Werke*, hg. von Raphael Löwenfeld, III. Serie, Bände 11-14 (Jena: Eugen Diederichs, 1911)).

سيطرة الكنيسة. فطالما طال الحرم مدينة فلورنسا ـ والحرم كان يعني في ذلك الوقت بالنسبة إلى الناس ولخلاصهم الروحي قوة ضغط تفوق ما يمكن اعتباره (إذا ما عدنا إلى ما يقوله فيخته) «مجرد إقرار بارد»[144] بالحكم الكَنْتي الأخلاقي ـ ومع ذلك فإن مواطني فلورنسا[145] قد استمروا في التمرد على الدولة الكنسية [المملكة البابوية]. وفي إشارة منه إلى مثل هذه المواقف يورد مكيافيلي، ما لم تخنّي الذاكرة، في مقطع جميل من قصصه عن فلورنسا حيث يورد على لسان أحد أبطال هذه المدينة قولاً يمجد فيه مواطنيه الذين فضلوا عظمة مدينتهم الأم على خلاص نفوسهم[146].

وإذا استبدلتم المدينة الأم أو «الوطن» وهي كلمات لم يعد لها في أيامنا هذه معنى واضحاً موحداً عند كل الناس، بالقول: «مستقبل الاشتراكية» أو «السلم العالمي» أيضاً، ـ فأنتم ستقعون على التعابير الملائمة للإحاطة بالمسألة كما هي الآن. ذلك أن هذا كله لا يُسعى إليه **بالعمل السياسي**، الذي يقوم على الوسائل العنفية وبسلوك دروب

(144) Johann Gottlieb Fichte, «Das System der Sittenlehre nach den Principien der Wissenschaftslehre,» in: *Johann Gottlieb Fichtes sämmtliche Werke*, hg. von Immanuel Hermann Fichte. (Berlin: Veit & Comp., 1845), Band 4, S. 167, بحسب ما يقول فيخته: تستند الحياة الأخلاقية إلى قناعة الفرد بما يقع عليه من واجب. يحتاج هذا القانون، على ما يقول فيخته، إلى «مجرد إقرار» خلافاً «للشعور الجمالي»، انظر أيضاً: Heinrich Rickert, *Fichtes Atheismusstreit und die Kantische Philosophie. Eine Säkularbetrachtung* (Berlin: Reuther & Reichard, 1899), S. 81 f.

(145) غالباً ما حصلت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر صراعات وصدامات مسلحة بين فلورنسا والإدارة المركزية البابوية. أثناء ذلك غالباً ما أنزل الحرم على فلورنسا، وعندها كان يحرم أهل المدينة من تقبل الأسرار المقدسة ومن تأدية الصلوات والقداديس كما يمنعون من دفن موتاهم بموجب التقاليد المسيحية.

(146) *Niccolò Machiavelli's Florentinische Geschichten*, übersetzt von Alfred Reumont, Erster Theil, 3. Buch. (Leipzig: F. A. Brockhaus, 1846), S. 195.

أخلاق المسؤولية، الأمر الذي يتهدد «خلاص النفس»[147]. أما إذا حاولنا بلوغ هذه الأهداف من خلال معركة إيمان تقودها أخلاق الاعتقاد، فإنه لا يمكن تحاشي ما يلزم من أخطار ومن إساءة ستمتد إلى أجيال لاحقة، ويعود ذلك كله لخلو النتائج من أخلاق المسؤولية. حينها لا يبقى للفاعل بالطبع إلا القوى الشيطانية المؤثرة فيه والتي لا وعي له بها. والقوى هذه قوى لا ترحم وهي تحتم على فعله، بل وعلى نفسيته بالذات أيضاً نتائج، سيجد نفسه عاجزاً إزاءها ما لم يرها أو يترقبها. «الشيطان شيخ عجوز»، هذا لا يعني «صيروا أنتم كذلك حتى يتسنى لكم فهمه»، إذ لا يُقصد بهذا القول احتساب السنين ولا العمر[148]. ولم يخطر في بالي إطلاقاً أن يحاول أحدهم من خلال إبراز التاريخ على شهادة ميلاده إظهار تفوقه في النقاشات، بل إن الواقعة البسيطة المتمثلة في كون أحد المناقشين مازال في العشرين من عمره، في حين أني قد تجاوزت الخمسين من عمري، ليست في نهاية الأمر مناسبة تحملني على الاعتقاد أن ذلك بحد ذاته مأثرة علي أن أتحدث عنها بصوت خافت. فالعمر ليس سبب الهيبة،

---

(147) كما يستفاد من الكلمات المفتاحية في مخطوط مسودة المحاضرة، تذهب أفكار ماكس فيبر هنا بشكل خاص إلى سيغفريد مارك، الذي تطرق في كتابه قبل وقت قصير من ذلك إلى هذه القضية الإشكالية من وجهة نظر اشتراكية، انظر كتابه: *«Imperialismus und Pazifismus als Weltanschauungen»* (Tübingen: J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), 1918),

في كتابه هذا يصف مارك الإمبريالية والنزعة السلمية بوصفهما «التناقضين الأساسيين اللذين يشكلان صورة الإنسانية الآن ومستقبلاً، واللذين يدوران في خلدها أكثر من أي شيء آخر»، المصدر المذكور، ص 1. ينطلق مارك في ذلك من أن النزعة السلمية غالباً ما تكون معاندة لإكراه الأكثرية، المصدر المذكور، ص 24 ـ علماً أن النزعة السلمية غالباً ما تكون محدودة «بمتطلبات السياسية الواقعية»، المصدر المذكور، ص 53، «وإن نظام الدولة لا يمكن أن يبنى هنا على مبدأ خلو المؤاخاة الإنسانية من كل أشكال الإكراه»: «لا يمكن للمسالم بلوغ هدفه إلا بوصفه منظماً تقنياً للحقيقة السياسية، لا بوصفه رسولاً دينياً»، المصدر المذكور، ص 54.

(148) انظر: Goethe, *Faust*, Teil 2, Vers 6817/18.

بل ما تتمتع به النظرة من أهلية سامية، النظرة التي تقوى على سبر وقائع العالم، ثم هي القوة التي تظهرها النفس في احتمال هذه الوقائع وفي أن تبدو من الداخل أهلاً لها.

صحيح أن السياسة تصنع بالرأس، لكن الصحيح أيضاً أنها لا تصنع بالرأس وحده. والقائلون بأخلاق الاعتقاد على حق كامل في هذه النقطة. لا يمكن لنا أن نملي على أحد أياً كان ما إذا كان عليه أن يتصرف بموجب أخلاق الاعتقاد أو أخلاق المسؤولية، أو متى عليه أن يختار هذه أو تلك. بإمكاننا أن نقول شيئاً واحداً فقط: حين نرى الآن في هذه الأوقات «**إثارات غير عقيمة**»[149] كما تعتقدون، فإنه لابدّ لكم أن تعلموا أيضاً أن الإثارة ليست باستمرار ولا هي أيضاً عاطفة أصيلة بشكل دائم ـ ، خاصة حين ينبري سياسيو أخلاق الاعتقاد معلنين بشكل قوي وواسع قولهم: «إن العالم هو الأحمق والسطحي وليس أنا، وإن المسؤولية المترتبة عن العواقب لا تطالني، بل تطال الآخرين الذين أنا في خدمتهم، وأنا من سيتولى اجتثاث حماقتهم وسطحيتهم»[150]، إلى هؤلاء أقول وبصراحة: إني أنا نفسي سأقوم بالسؤال أيضاً عن مقدار التوازن الداخلي الذي يكمن خلف أخلاق الاعتقاد هذه، وإنه قد تكوّن لديّ الانطباع الآتي: أجد نفسي في تسع من عشر من الحالات إزاء قِرَبٍ مليئة بالهواء، لا تشعر فعلاً بما يلقى على عاتقها من مسؤولية، بل هي تنتشي بالمقابل بالأحاسيس الرومانسية التي لا تهمني إطلاقاً من الناحية الإنسانية، بل هذا لا يهزني ولا بشكل من الأشكال. وبالمقابل فأنا أشعر بوقع عميق، حين أجد رجلاً ناضحاً ـ ولا يهمّ إن كان شاباً أو عجوزاً ـ يشعر فعلاً من كل كيانه بمسؤوليته عن العواقب ويتصرف تبعاً

---

(149) انظر أعلاه، الهامش رقم 108 من هذا الفصل.

(150) انظر سابقاً بين أخلاق المسؤولية والأخلاق الاعتقادية، ص 352 ـ 353 من هذا الفصل.

لأخلاق المسؤولية ويصل في بعض الأحيان إلى حد القول صراحة: «لا أستطيع أن أتصرف بشكل مغاير، وها أنا أتوقف عند هذا الحد»[151]. وهذا موقف إنساني أصيل ومؤثر أيضاً. إنه موقف يجب أن يكون بالطبع موقف كل منا، هذا ما لم يكن قد مات من الداخل، بل هو موقف يمكن لكل منا أن يواجهه. وبالتالي نكتشف أن مفهوميْ أخلاق الاعتقاد والمسؤولية ليسا نقيضين مطلقين، بل يكمل أحدهما الآخر، وكلاهما معاً يكوِّنان الإنسان الأصيل، الذي **بإمكانه** أن يكون الرجل الذي حظي بالدعوة لامتهان السياسة.

والآن أيها الحضور الأعزاء، قد يقدر لنا ربما بعد **عقد من السنين** أن نتكلم مجدداً حول هذه النقطة. إن أخشى ما أخشاه في تلك اللحظة ولسوء الحظ ولأسباب عديدة أيضاً، أن تكون الرجعية قد داهمتنا منذ وقت طويل، ومن المحتمل أيضاً أن لا يصار إلى تحقيق إلا القليل من الأمور التي تمنيتم وتأملتم بها، وأعترف لكم، أني أنا أيضاً قد تمنيت تحقيقها، بل إنه ورغم كل المظاهر أقول تحقق القليل منها حتى لا أقول لم يتحقق أي شيء إطلاقاً ـ هذا محتمل، لكن ذلك لا يحطم عزيمتي، إلا أن معرفته تجعلني أحمل عبئاً داخلياً بالطبع ـ ثم إني أرغب فعلاً أن أرى آنذاك ما سيحل بالبعض منكم ممن يشعرون بأنهم من «سياسيي الاعتقاد» الأصليين، والذين يشاركون بالنشوة في ما تعنيه هذه الثورة ـ إني أرغب أن أرى فعلاً ما «سيصيره» الواحد منكم بالمعنى الداخلي لهذه الكلمة. وسيكون الأمر رائعاً فعلاً أن تجري الأمور بالشكل الذي عبَّر عنه شكسبير في مقطوعته (رقم 102):

---

(151) الإشارة إلى كلمة لوثر الختامية في خطابه أمام مجلس نواب فورمس (Worms) في نيسان/ أبريل 1521: «لا أقوى على فعل شيء آخر، أنا هنا، ليساعدني الله، آمين»، انظر: Martin Luther, *Werke*, Band 7 (1897), S. 838,
علماً أن الشك يحيط بصحة هذا القول ونسبته إلى لوثر.

كان الوقت ربيعاً آنذاك وكان حبنا شاباً،

كنت أحييه كل صباح بما أصدح به من أغانٍ

هكذا يصدح البلبل بأغانيه صيفاً

ويصمت اللحن مع نضوج الأيام[152].

إلا أن الأمر لم يصل بعد إلى هذا الحد. فازدهار الصيف ليس أمامنا، بل ما ينتظرنا ليل قطبي جليدي مظلم وقاسٍ، ولا يهم الآن ظاهرياً من هي المجموعة التي ستنتصر. ذلك أنه حيث لا وجود لشيء، فإن القيصر ليس وحده من فقد حقوقه، بل البروليتاري أيضاً. وحين ستنقشع هذه الليلة وإن ببطء، فمن ذا الذي سيحيا أيضاً ممن كان ربيعهم على ما يظهر، الآن حافلاً جداً؟ وما الذي سيحل بهم جمعياً إذ يعودون إلى قرارة أنفسهم؟ هل سيعيشون المرارة وانعدام أي تذوق فني ببساطة، أو القبول بالخنوع للعالم ولما يقومون به من مهنة، أو القبول بالحل الثالث وهذا ليس بالحل النادر: الأخذ بالحل الصوفي عند كل من أوتي النعمة لذلك أو - وغالباً ما يحصل ذلك مع كونه سيئاً - القبول به باعتباره تقليعة يتحملون معاناتها؟ عليّ في كل حالة من هذه الحالات أن أعمد إلى استخلاص النتائج: إنهم لم يصلوا في ما يقومون به من فعل إلى مستوى أفعالهم، كما إنهم لم يبلغوا مستوى قياس العالم كما هو بالفعل، وكما هو في معيشهم اليومي: إنهم لم يشعروا في قرارة أنفسهم لا بالدعوة إلى السياسة، التي يعتقدون أنهم خلقوا لها، لا موضوعياً ولا فعلياً بالمعنى العميق

---

(152) ينقل فيبر هنا مقطعين من ترجمة ستيفان جورج دون مراعاة أنها كتبت هناك بخط أصغر. معلوم أن ستيفان جورج أعاد نقل شكسبير شعراً، انظر: William Shakespeare, *Sonnette*, Umdichtung von Stefan George (Berlin: Georg Bondi, 1909), S. 108.

للدعوة إلى السياسة. كان الأجدر بهم ممارسة الأخوة بين إنسان وآخر ببساطة وتواضع وفي ما عدا ذلك الانصراف لممارسة عملهم اليومي.

تقوم السياسة على ممارسة جهد مضنٍ مع ما فيه من معاناة ومن بعد نظر في ثقب ألواح من خشب قاس. ومن الصحة القول أيضاً، وهذا ما يتأيد من خلال كل تجربة تاريخية، إنه ما كان بالإمكان تحقيق الممكن، لو لم يقم المرء في هذا العالم بالتصدي لما هو مستحيل. إلا أن على القادر القيام بذلك أن يكون قائداً، ليس ذلك وحسب، بل يجب أن يكون بطلاً أيضاً، وبالمعنى الأشد بساطة لهذه الكلمة. حتى أولئك الذين ليسوا لا هذا ولا ذاك، فعليهم التحلي بقساوة القلب، حتى يتاح لهم الانتصار في حال ذهاب آمالهم أدراج الرياح، عليهم القيام بذلك الآن وإلا لن يكون بمقدورهم تحقيق ما هو ممكن الآن. وحده من يكون أكيداً أنه لن ينهار في ما إذا كان العالم من وجهة نظره شديد الحماقة أو حقيراً جداً حتى يستحق ما يريد أن يفعله من أجله، وحده الذي سيظل إزاء ذلك كله قادراً على القول: و«إن يكن»، هذا وحده هو من يمكن القول إنه امتلك «الدعوة» إلى السياسة.

ثبت بأسماء الأعلام

يتناول ثبت الأعلام هذا الأشخاص الذين ورد ذكرهم في النص. باستثناء الشخصيات العامة المعروفة.

آدلـــر، مـــاكـــس (Adler, Max) (15/ 1/ 1873 ـ 26/ 6/ 1937) : رجل قانون وعالم اجتماع نمساوي. أصبح محامياً في فيينا بعد دراسة العلوم القانونية وحصوله على الدكتوراه عام 1896. حصل 1920 على شهادة التأهّل في علم الاجتماع وفي نظرية تاريخ الاشتراكية. كان أستاذ علم الاجتماع في جامعة فيينا ما بين 1921 - 1937، وأول المنظرين للماركسية النمساوية.

الأسيزي، فرانسيس (Assisi, Franz von) (3/ 10/ 1226 ـ 2/ 8/ 1181) : أحد مؤسسي الرهبنات. كان ابناً لأحد أثرياء تجار القماش. اعتزل منذ حداثة سنه الحياة الاجتماعية وآثر العزلة، مكرساً نفسه للفقر ولحب الآخرين على الطريقة المسيحية، وكان واعظاً جوالاً. كان له كثير من الأتباع. كوّن في العام 1211 في إيطاليا، ثم في كل أنحاء أوروبا، العديد من الأخويات الفرنسيسكانية التي انبثق منها عام 1223، بمباركة بابوية، الرهبنة الفرنسيسكانية التي تعهد أعضاؤها التزام الفقر الكامل. طُوّب قديساً في العام 1228.

ألتهوف، فريدريش تيودور (Althoff, Friedrich Theodor) (19/ 2/ 1839 ـ 20/ 10/ 1908): رجل قانون. كان موظفاً في الوزارة البروسية عام 1872. عمل في العام 1880 أستاذاً مساعداً، ثم أستاذ القانون المدني الفرنسي في ستراسبورغ. كان بين 1882 و1897 مستشاراً سرياً في وزارة الثقافة البروسية، وخبيراً في مجال التعليم العالي. تولى بين 1897 و1907 مهام إدارية وزارية، فكان رئيس قسم الشؤون الجامعية والتعليم العالي، ومن أبرز المنظمين له في بروسيا. توجه إليه توجه بقسوة، ولاسيما، في المؤتمر الثاني حول التعليم العالي في ألمانيا الذي عُقد عام 1911 في درسدن، خاصة في ما يتعلق «بمكونات نظام ألتهوف» القاسية جداً.

أوستروغورسكي، مواسي (Ostrogorski, Moisei) (1854 ـ 1914): سياسي روسي وباحث في العلوم السياسية. عمل بعد دراسته القانون لعدة سنوات في وزارة العدل. حاز عام 1892 جائزة كلية الحقوق من جامعة باريس لأعماله حول حقوق المرأة. تنقل بين 1880 و1890 بين إنجلترا والولايات المتحدة. أصدر أعمالاً في غاية الأهمية حول تاريخ الأحزاب الإنجليزية والأميركية تناولت لأول مرة مظاهر من التنظيم الحزبي. عاد بعد ثورة 1905 إلى روسيا. أصبح عضواً في أول مجلس للنواب (الدوما)، منتخباً عن الديمقراطيين الليبراليين الدستوريين. انسحب بعد حل مجلس الدوما الأول من العمل السياسي، عاد إلى الولايات المتحدة.

أوغسطين، أوريليوس (Augustinus, Aurelius) (13/ 1/ 354 ـ 28/ 8/ 430): من آباء الكنيسة. كان في العام 374 معلم البلاغة في تاغاست، وفي العام 375 في قرطاجة، وفي العام 383 في روما

وميلانو في البلاط القيصري. عُيّن بعد العام 395 أسقفاً على هيبو. كان مانوياً قبل اعتناقه المسيحية عام 386.

أولاند، لودفيغ (Uhland, Ludwig) (26/ 4/ 1787 ـ 13/ 11/ 1862): شاعر ودارس للآداب الجرمانية. درس القانون والدراسات اللغوية في توبنجن بين 1802 و1808. أصبح بين 1810 ـ 1814 سكرتير وزارة العدل في منطقة فورتمبورغ، ثم محامياً في شتوتغارت. انتخب عام 1819 في اتحاد النقابات. أصبح في العام 1829 أستاذاً للدراسات الجرمانية في توبنجن، ثم انتخب عام 1848 في التجمع القومي في فرانكفورت. تميز شعره بقوة بما استقاه من عناصر غنائية شعبية تعود إلى العصر الرومانسي الغنائي.

أيسنر، كورت (Eisner, Kurt) (14/ 5/ 1867 ـ 21/ 2/ 1919): كان سياسياً اشتراكياً وصاحب دار نشر. عمل في الصحافة بعد دراسته الفلسفة والدراسات الجرمانية. دخل بعد العام 1899 حلقة الكتّاب المعروفة باسم «التقدم» (Vorwärt)، لكنه طرد منها بعد العام 1905 بسبب موافقة الرجعية. كان بين 1907 و1910 رئيس تحرير مجلة *Fränkischen Tagespost* في نورمبرغ، ثم أصبح عضواً في الحزب الاشتراكي. ساهم في الإضراب الذي حصل في كانون الثاني/ يناير 1918. اعتقل بسبب ذلك حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1918. أصبح في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 زعيم الحركة الثورية في بافاريا. تولى رئاسة وزراء بافاريا في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. اغتيل في 21 شباط/ فبراير 1919 على يد الكونت أنطون فون أركو ـ فالاي.

إيهرنغ، رودولف فون (Ihering, Rudolf von) (22/ 8/ 1818 ـ 17/ 9/ 1892): رجل قانون. درس القانون في هايدلبرغ ثم في

غوتنجن، وميونيخ. تقدم في 1840/ 1841 لشهادتي الدكتوراه والتأهل في برلين. أصبح في 1845 أستاذاً مساعداً في القانون الروماني في بازل، ثم في روستوك، وكيل، وغيسن، وفيينا، وغوتنجن. أسس نظرية قضاء المصالح.

بايكون، فرانسيس (Bacon, Francis) (22/ 1/ 1561 ـ 9/ 4/ 1626): رجل دولة إنجليزي وفيلسوف. أصبح في العام 1617 كبير حاملي أختام الملك. عمل بين 1618 ـ 1621 مستشاراً في مجلس اللوردات. يعتبر من ممثلي الفلسفة الإمبيريقية التي تعتبر المراقبة والتجربة نقطة انطلاق المعرفة.

بوتكامر، روبرت فون (Puttkamer, Robert von) (5/ 5/ 1828 ـ 15/ 3/ 1900): موظف إداري بروسي محافظ. رجل سياسة. عمل في العام 1854 بعد دراسة القانون في برلين، وهايدلبرغ، وجنيف في السلك الإداري البروسي. كان بين 1874 ـ 1885 عضواً في مجلس النواب، وبين 1882 ـ 1885 في مجلس نواب بروسيا. أصبح في العام 1877 رئيساً أعلى في منطقة شليزين. كان في العام 1879 وزير ثقافة بروسيا. وفي العام 1881 وزير داخلية بروسيا. عُرف بتشدده على موظفي الدولة الذين يتجاوزون خط سياسة الحكومة. تخلى عنه القيصر فريدريش في العام 1888. كان بين 1891 ـ 1899 الرئيس الأول في بومرن.

بودلير، شارل (Baudelaire, Charles) (9/ 4/ 1821 ـ 31/ 8/ 1867): شاعر فرنسي. كان ناقداً فنيّاً وكاتب مقالات. أطلق علم جمال جديد يتجاوز مفهوم الجمال الكلاسيكي، فأعطى الشر والقبيح أيضاً قيماً جمالية.

بيبل، أوغست (Bebel, August) (22/2/1840 ـ 13/8/1913): سياسي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي. تولى بعد حياة من التجوال، عمل فيها في الحرف اليدوية، منصباً سياسياً في مجلس التكوين العمالي. كان بين 1867 و1869 كان عضواً في مجلس النواب في شمال ألمانيا عن الحزب الشعبي الذي أسهم بتأسيسه في منطقة الساكس. في العام 1869 أسهم بتأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. كان منذ العام 1871 عضواً في مجلس الرايخ. وظل منذ 1875 حتى وفاته رئيساً للحزب الديمقراطي الاشتراكي. كان من المتشددين للمسار المركزي، واعتبر أن وحدة الحزب هي فوق كل التناقضات الأيديولوجية.

بيركليس (Perikles) (حوالى 490 ـ 429 ق.م.): رجل دولة أثيني. كان ناشطاً سياسياً منذ العام 463 ق.م. أصبح في العام 461 زعيم الاتجاه الديمقراطي الراديكالي في أثينا. أمّن لأثينا السيطرة في حروبها مع الفرس واسبارطة على بحر إيجه. بوصفه مخططاً للتحالف البحري الأتيكي تحولت أثينا إلى أداة سيطرة، وبإشرافه بدأ بناء الأكروبوليس بشكل منظم.

تروتسكي، ليو (Trotzkij, Leo) (7/11/1879 ـ 21/8/1940): ثوري وسياسي روسي. كان بين 1902 ـ 1904 رئيس تحرير **إيسكرا** (*Iskra*) أداة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. تولى عام 1905 منصباً هاماً في مجلس سوفيات بطرسبرغ. هاجر بين 1907 ـ 1917 إلى فيينا، ثم إلى باريس، فالولايات المتحدة. عاد في أيار/مايو 1917 إلى روسيا، والتحق بالبلاشفة. أصبح في تشرين الأول/ أكتوبر 1917 عضواً في المكتب السياسي. نظم

على رأس اللجنة الثورية العسكرية التمرد الذي قاده البلاشفة ضد حكومة كيرنسكي في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917). أصبح في التاسع من كانون الأول/ديسمبر 1917 مسؤولاً عن العلاقات الخارجية. وفي نهاية العام 1917 رئيساً للبعثة الروسية في محادثات الصلح مع قوى التحالف في برست ـ ليتوفسك. سمّي في أيار/ مايو 1918 عضواً في اللجنة العسكرية. أعلن بعد موت لينين معارضته لستالين. أُبعد عام 1929 من الاتحاد السوفياتي وقُتل في المنفى عام 1940.

تشاندراغوبتا (Tschandragupta) (القرن الرابع ـ 297 ق.م.): حاكم هندي. تولى الحكم بين 321 و297 ق.م. تقريباً. أسس سلالة موريا الحاكمة. مع تصاعد المعارك ضد حاميات الإسكندر الأكبر في وادي الإندوس، تولى بشكل منظم بناء الجيش والإدارة. وسع بعد العام 305 ق.م. سلطته ومجال دولته باتجاه المناطق إلى شرق كابول.

تشمبرلين، جوزيف (Chamberlain, Joseph) (8/ 7/ 1836 ـ 2/ 7/ 1914): سياسي بريطاني ورجل صناعة ناجح. زعيم الحزب الليبرالي في برمنغهام. كان من العام 1873 ـ 1876 رئيساً لبلدية برمنغهام. انتخب في 1876 نائباً بوصفه ليبرالياً في مجلس العموم وقائداً للجناح الاشتراكي الليبرالي في الحزب الليبرالي، كما أسهم بتأسيس التحالف القومي الليبرالي. كان ما بين 1880 ـ 1985 وزيراً للتجارة. بعد تحوله إلى الاتحاديين أصبح وزيراً للمستعمرات بين 1895 ـ 1903.

تولستوي، ليو نيكولافيتش (Tolstoj, Leo Nikolajewitsch) (9/ 9/ 1828 ـ 20/ 10/ 1910): روائي روسي. عاش في أغلب

الأحيان في إرث والده في منطقة تولا. عبر في رواياته عن أخلاقية راديكالية تقوم على حب المسيحي للآخر، وعلى رفض النظام الاجتماعي والثقافي القائم. كان له تأثير شديد في مثقفي بداية القرن العشرين. يعتبر تولستوي بالنسبة إلى فيبر من المعبرين عن المثال النموذجي في أخلاق النية والروح الأخلاقية الزاهدة في العالم.

جاكسون، أندرو (Jackson, Andrew) (15/ 3/ 1767 ـ 8/ 6/ 1845): رئيس الولايات المتحدة. كان في 1797/ 1798 عضواً في مجلس الشيوخ. أصبح بين 1798 ـ 1804 قاضياً في المحكمة العليا في تنيسي، ثم جنرالاً في الجيش الأميركي. خسر معركته لرئاسة الجمهورية عام 1824، لكنه انتخب عام 1828، وأعيد انتخابه عام 1832. انبثق الحزب الديمقراطي في ظل رئاسته من رحم الحزب الجمهوري.

دا فنشي، ليوناردو (Da Vinci, Leonardo) (15/ 4/ 1452 ـ 2/ 5/ 1519): رسام وباحث في العلوم الطبيعية. إيطالي. دخل عام 1472 نقابة الرسامين الفلورنسيين. بعد العام 1481 رسام ومهندس البلاط في ميلانو. عاد في العام 1500 إلى فلورنسا. بعد 1502 أصبح مهندس قلاع قائد الجيوش البابوية سيزار بورجيا. قدم إليه خرائط وتصاميم مدن. عمل بين 1506 و1513 في خدمة الفرنسيين في ميلانو. كرس جهده في أواخر سني عمره للمسائل التقنية للعلوم الطبيعية، بما في ذلك أيضاً الأبحاث التشريحية.

دزرائيلي، بنيامين (Disraeli, Benjamin) إيرل بيكونسفيلد (Earl of Beaconsfield) (21/ 12/ 1804 ـ 19/ 4/ 1881): رجل دولة

إنجليزي، كان منذ العام 1837 عضواً في مجلس العموم، وفي 1848 زعيماً للمحافظين. كان في العام 1852، وبين 1858 ـ 1859، و1866 ـ 1868 مسؤولاً عن المالية. أصبح في العام 1868 رئيساً للوزراء، ثم تولى الوزارة ما بين 1874 ـ 1880. مثَّل سياسة إمبريالية، تعتمد القوة، بلغت ذروتها بإعلان الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند عام 1876.

دستويفسكي، فيدور ميخائيلوفيتش (Dostojewski, Fjodor Michajlowitsch) (11/ 11/ 1821 ـ 9/ 2/ 1881): روائـــي روســـي. درس في المعهد الهندسي العسكري أصبح منذ العام 1844 كاتباً حراً في سان بطرسبرغ: كان عضواً في جمعية اشتراكية طوباوية. ابعد بين 1850 ـ 1859 إلى سيبيريا، وعاد بعدها مسيحياً مؤمناً.

رانكه، ليوبولد فون (Ranke, Leopold von) (21/ 12/ 1795 ـ 23/ 5/ 1886): مؤرّخ. درس اللاهوت والفلسفة في لايبزغ بين 1814 و1818. أصبح أستاذاً مساعداً عام 1825 للتاريخ في برلين. كان بين 1834 و1871 أستاذ التاريخ في برلين. مؤسس علم التاريخ الحديث وأحد أبرز ممثلي المدرسة التاريخانية.

سيمل، جورج (Simmel, Georg) (1/ 3/ 1858 ـ 26/ 9/ 1918): فيلسوف وعالم اجتماع. حاز الدكتوراه في الفلسفة في برلين عام 1881، ثم التأهّل عام 1885. أصبح في العام 1901 أستاذاً مساعداً في برلين، وفي العام 1914 أستاذاً في ستراسبورغ. يعتبر سيمل، بما كتب حول علم الاجتماع، من مؤسسي هذا العلم في ألمانيا. أرسى في أعماله حول «النقد» أو «المدن الكبرى» أو حول «الحياة العقلية» صورة ثقافية نقدية حول الحداثة. كان على صداقة مستمرة مع ماكس

فيبر ومع ماريان فيبر. كان فيبر قد انتقل إلى هايدلبرغ عام 1907/ 1908 بناء على دعوة من سيمل.

سينجر، بول (Singer, Paul) (16/ 1/ 1844 ـ 31/ 1/ 1911): صاحب مصنع وسياسي اشتراكي ديمقراطي. كان بين 1884 ـ 1911 عضواً في برلمان الرايخ ورئيساً لكتلته الحزبية مع أوغست بيبل. وأصبح معه أيضاً رئيساً للحزب. تخلى عام 1887 كلياً عن معمل النسيج الذي كان يملكه مع أخيه، ليتفرغ كلياً للعمل الحزبي. أسس عام 1884، بما يملكه من وسائل مالية، جريدة *Berliner Volksblatt*، ومنها انبثقت عام 1891 صحيفة الحزب الاشتراكي الديمقراطي *Vorwärts* (التقدم).

شبينر، فيليب جاكوب (Spener, Philipp Jacob) (13/ 1/ 1635 ـ 5/ 2/ 1705): لاهوتي إنجيلي. كان عام 1666 قسيساً في فرانكفورت. أصبح في العام 1686 الواعظ الأول في بلاط درسدن. صار في العام 1691 قسيساً لكنيسة نيكولا في برلين. فرض اهتماماً عميقاً بالتوراة، وتوجه ضد نقد عصر التنوير للإيمان وللكنيسة. كان من مؤسسي الحركة التقوية اللوثرية.

شفامردام، يان (Swammerdam, Jan) (12/ 2/ 1637 ـ 15/ 2/ 1680): عالم حيوانات هولندي. أسهمت أبحاثه ومناهجه فيها (استخدام حقن الألوان والحقن المساعدة على النمو) بتطوير العلم بالحشرات وتطور علم التشريح.

شنادهورست، فرانسيس (Schnadhorst, Francis) (24/ 8/ 1840 ـ 1/ 2/ 1900): سياسي إنجليزي. عمل في التجارة وفي السياسة في آن واحد. أصبح في العام 1873 سكرتير الحزب الليبرالي في

برمنغهام، الذي شكل تنظيمه الصلب نموذجاً لكل التنظيمات الحزبية في بريطانيا. كان بين 1877 و1893 سكرتيراً للحزب الليبرالي القومي.

شيفر، ديتريش (Schäfer, Dietrich) (16/ 5/ 1845 ـ 12/ 1/ 1929): مؤرخ. نال شهادة الدكتوراه عام 1871. صار أستاذاً مساعداً عام 1877، ثم أستاذاً للتاريخ في العام 183 في فيينا، وفي 1885 في بريسلاو، وفي 1888 في توبنجن، وفي 1896 في هايدلبرغ، ومن 1903 إلى 1921 في برلين. كان عضو اتحاد كل ألمانيا. تولى في الحرب العالمية الأولى رئاسة لجنة المستقلين من أجل سلم ألماني. انضم في العام 1917 إلى «الحزب الوطني». كان لكتاباته الأثر الكبير في الفكر القومي في دولة الرايخ.

غاليليه، غاليليو (Galilei, Galileo) (15/ 2/ 1564 ـ 8/ 1/ 1642): رياضي وفيلسوف إيطالي. أصبح في العام 1589 أستاذ الرياضيات في بيزا، ثم في العام 1592 في بادوفا، حيث طور الدراسات الاحتمالية واكتشف قانون السقوط (الجاذبية) حوالى العام 1609 أثناء انشغاله بعلم الفلك وتأمله في الأجرام السماوية. أيد في العام 1610 نظرية كوبرنيكوس، فاصطدم مع السلطة البابوية. حوكم كنسياً عام 1633 وأدين.

غلادستون، وليام إيوارت (Gladstone, William Ewart) (29/ 12/ 1809 ـ 19/ 5/ 1898): رجل دولة إنجليزي. أصبح في العام 1832 عضواً في مجلس العموم. كان وزيراً للتجارة بين 1843 ـ 1845، ثم وزيراً للمستعمرات بين 1845 ـ 1874. انتقل من حزب المحافظين إلى الحزب الليبرالي. تولى وزارة المالية أكثر

من مرة. أصبح في العام 1865 زعيم الحزب الليبرالي. أدخل في الحملة الانتخابية عام 1879 لأول مرة أشكالاً من استفتاء الرأي العام بهدف تكوين أتباع سياسيين؛ كان رئيساً للوزراء بين 1868 ـ 1874، ثم بين 1880 ـ 1868، ثم بين 1892 ـ 1894.

فاغنر، ريتشارد (Wagner, Richard) (22/ 5/ 1813 ـ 13/ 2/ 1883): مؤلف موسيقي. كان عام 1833 قائد أوركسترا كنيسة في فيرزبورغ، وفي عام 1834 في مجدبورغ، وفي عام 1837 في ريغا. أصبح في العام 1843 قائد أوركسترا بلاط درسدن. هرب إلى سويسرا بعد مشاركته في تمرد أيار/ مايو 1849. تنقل في أماكن متعددة من أوروبا. انتقل عام 1864 للعيش في ميونيخ وقد حصل على مساعدة مالية من الملك لودفيغ الأول. انتقل عام 1872 للعيش في بايروت. يعتبر من أكثر الموسيقيين تأثيراً في القرن التاسع عشر. حاول في موسيقاه تحقيق عملٍ فنيّ موسيقي متكامل.

فورستر، فريدريش فيلهلم (Foerster, Friedrich Wilhelm) (2/ 6/ 1869 ـ 9/ 1/ 1966): فيلسوف ومربٍّ. درس بين 1889 ـ 1893 الفلسفة والاقتصاد والفيزيولوجيا في فرايبورغ وبرلين. تقدم لشهادة الدكتوراه في فرايبورغ. أسس عام 1892 بالتعاون مع والده فيلهلم فورستر، وجورج فون جيزيكي، وفرديناند تونيس الجمعية الألمانية للثقافة الإثنية. أسس عام 1892 دورية *Ethische Kultur*. حكم عليه بالحجز الاحتياطي عام 1895 بسبب هجومه العنيف على سياسة فيلهلم الثاني. تقدم عام 1898 لشهادة التأهّل في زوريخ. وكان بين 1889 و1912 أستاذاً مساعداً في جنيف. أصدر في تلك الأثناء العديد من المؤلفات في حقل التربية. كان في

1913/ 1914 أستاذاً للفلسفة وللتربية في فيينا. أصبح في العام 1914 أستاذاً للتربية في ميونيخ. أُعفي من التدريس لفصلين متتاليين في العام 1916 بسبب انتقاده لسياسة الدولة الألمانية. انتقل في 1916/ 1917 إلى سويسرا. في صيف 1917 تحدث مع القيصر النمساوي كارل حول إمكانية التفاهم على الصلح. بعد عودته إلى التدريس في خريف 1918 في جامعة ميونيخ حصل صدام هام بين جناحي الطلاب من اليمين واليسار. أصبح في 1918/ 1919، أثناء تولي أيسنر الحكم، مبعوثاً في سويسرا. ترك جامعة ميونيخ نهائياً عام 1920. انتقل 1922 للعيش في سويسرا. انتقل في العام 1926 إلى فرنسا، ثم هرب في العام 1940 إلى أسبانيا، ثم البرتغال، فالبرازيل، فالولايات المتحدة. عاد إلى سويسرا عام 1963.

فيخته، يوهان غوتليب (Fichte, Johann Gottlieb) (19/ 5/ 1762 ـ 29/ 1/ 1814) فيلسوف. عمل في التدريس بعد دراسته الفلسفة والعلوم القانونية. أصبح في العام 1794 أستاذاً في فيينا. ترك الجامعة عام 1799. ألقى بعد العام 1800 محاضرات في برلين. كان في 1805 أستاذاً زائراً في أرلنغن. أصبح في 1806 أستاذاً في كونيغسبرغ. عاد إلى برلين عام 1807. في العام 1810 أصبح أستاذاً في برلين، وأول رئيس للجامعة فيها. يعتبر فيخته من أبرز ممثلي المثالية الألمانية، ومن أبرز المدافعين عن الفكر القومي، فكان يرى أن الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته إلا في دولة قومية منظمة بشكل عضوي.

فيرستراس، كارل (Weierstraß, Karl) (31/ 10/ 1815 ـ 19/ 2/ 1897): اشتغل في حقل الرياضيات. وكان مدرساً بين 1841

و1855. عمل أيضاً على حل المسائل الرياضية. كان بين 1856 ـ 1864 أستاذاً في المعهد الصناعي في برلين، ثم في 1864 أستاذاً مساعداً في جامعة برلين. قدم أعمالاً أساسية تتعلق بالنظرية التحليلية والوظائف الإهليلجية.

كارل الخامس (شارلكان) (Karl V) (24/ 2/ 1500 ـ 21/ 9/ 1558): قيصر الدولة الرومانية المقدسة والأمة الألمانية، وملك أسبانيا. ظل حتى العام 1503 ملك ألمانيا. وحد في ظل حكمه الرايخ مع إسبانيا والمستعمرات. تميزت فترة حكمه بالصراعات مع فرنسا ومع الدولة العثمانية. وتميزت على المستوى الداخلي بالتوترات التي تأتت عن حركات الإصلاح الديني البروتستانتية. تخلى عام 1556 عن عرش القيصرية ليعيش منعزلاً في أحد الأديرة في إسبانيا.

كالفن، يوهان (Calvin, Johann) (اسمه الأصلي جان كوفين) (10/ 7/ 1509 ـ 27/ 5/ 1564): من رجال الإصلاح البروتستانتي. بعد دراسته الإنسانيات والحقوق واللاهوت في فرنسا احتك بكتابات لوثر. هاجر إلى سويسرا عام 1534 بعد اعتناقه الأفكار البروتستانتية. نشر هناك نمطاً جديداً من التدين البروتستانتي تميز بتربية كنسية قاسية.

كالهون، جون كالدويل (Calhoun, John Caldwell) (18/ 3/ 1782 ـ 31/ 3/ 1850): سياسي أميركي. كان بين 1810 ـ 1817 نائباً في الكونغرس، وما بين 1817 ـ 1825 وزيراً للحربية، وبين 1825 ـ 1832 نائب رئيس. كان في الفترة ما بين 1832 ـ 1850 سيناتوراً عن جنوب كارولينا (مع بعض الانقطاعات)، وما بين 1844 ـ 1845 وزيراً للخارجية. كان من أبرز ممثلي

جماعة الجنوب في الحزب الديمقراطي، وهي الجماعة التي أخذت على عاتقها تمثيل حقوق الولايات الجنوبية تجاه الاتحاد.

كليون (Kleon) (سقط عام 422 قبل الميلاد): سياسي أثيني. أحد الوجوه العامة المعروفة في أثينا بعد وفاة باريكلوس عام 429 ق.م. يتحدر من طبقة صاعدة مارست الصناعة ووجدت قبولاً بين عامة الشعب، تورط في الحرب البيلوبونيزية حتى النصر على اسبارطة. رفض عام 425 ق.م. عرض عقد صلح مع اسبارطة. تولى قيادة بعثة حربية ضد اسبارطة، وسقط فيها عام 422 ق.م. في أمفيبوليس.

كوبدن، ريتشارد (Cobden, Richard) (3/ 6/ 1804 ـ 2/ 4/ 1865): سياسي اقتصادي إنجليزي. مثّل السياسة الاقتصادية الليبرالية. أسس عام 1839 منظمة من أجل رفع القوانين الخاصة بالقمح (Anti - Corn - Law - League). عقد في العام 1860 اتفاقية بريطانية ـ فرنسية تجارية تقوم على التجارة الحرة عرفت باسم معاهدة كوبدن.

كوتيليا (Kautilya) (يعرف أيضاً باسم كاناكيا) (نهاية القرن السابع قبل المسيح): فيلسوف ورجل سياسة هندي. لا يُعرف الكثير عن حياته. كان مستشاراً، وربما أيضاً، وزيراً للحاكم الهندي شاندراغوبتا، الذي أسس سلالة موريا الحاكمة. تبعاً لما هو متوارث هندياً تنسب إليه نصوص «أرتاشاشترا»، وهي نصوص خاصة بنظرية الدولة والإدارة، إلا أن تحرير النص النهائي يعود إلى القرن الثالث بعد الميلاد.

لنكولن، أبراهام (Lincoln, Abraham) (12/ 2/ 1809 ـ 15/ 4/ 1865): رئيس الولايات المتحدة. صعد نجمه بسرعة منذ العام 1865 في أوساط الحزب الجمهوري الناشئ. انتخب عام 1860 رئيساً للولايات المتحدة. كان معارضاً قوياً لنزعات الجنوب الانفصالية. وقعت في عهده الحرب الأهلية الأميركية 1861 ـ 1865 التي انتهت بانتصار الولايات الشمالية. قُتل عام 1865 على يد أحد المتعصبين للولايات الجنوبية.

لوكاش، جورج فون (Lukács, Georg von) (13/ 4/ 1885 ـ 4/ 6/ 1971): فيلسوف ومؤرخ آداب ومنظر. درس منذ العام 1902 العلوم القانونية والاقتصاد في بودابست. بدأ في العام 1906 دراسة الفلسفة في برلين. حاز في العام 1909 دكتوراه فلسفة في بودابست، ثم انتقل عام 1910 إلى برلين، ومن ثم عام 1912 إلى هايدلبرغ بهدف التقدم للحصول هناك على شهادة التأهل. عاد في العام 1917 إلى بودابست. أصبح في العام 1918 عضواً في الحزب الشيوعي في المجر. كان مفوضاً شعبياً عن التعليم أثناء الحكم الجمهوري. مارس بين 1919 و1929 العمل الحزبي غير المشروع في فيينا وبودابست. أقام لفترات متقطعة بين 1930 و1944 في موسكو. كان من 1945 حتى 1985 أستاذ الجماليات وفلسفة الثقافة في بودابست. كان في فترة حكم ناجي (Nagy) في العام 1956 وزيراً للتعليم الشعبي. توطدت صداقته أثناء إقامته في هايدلبرغ بماكس فيبر.

لي ـ هونغ ـ تشانغ (Li - Hung - Tschang) (15/ 12/ 1823 ـ 7/ 11/ 1901): رجل دولة صيني. حاكم إقليم شيهلي ومفوضاً عالياً في المرافئ الشمالية الثلاثة. تولى عدة مهام دبلوماسية.

ليبكنخت، كارل (Liebknecht, Karl) (13/ 8/ 1871 ـ 15/ 1/ 1919): سياسي اشتراكي. درس القانون والاقتصاد في لايبزغ وبرلين. نال شهادة الدكتوراه في القانون، ثم في السياسة في فيرزبورغ، ثم أصبح محامياً في برلين. انتسب عام 1900 إلى الحزب الديمقراطي. حكم عام 1907 بالسجن لمدة 18 شهراً بتهمة الخيانة العظمى. طُرد في العام 1908 من مجلس النواب. كان محسوباً على الجناح الاشتراكي الديمقراطي. سُجن بين 1916 و1918 بتهمة الخيانة العظمى. قُتل مع روزا لوكمسبورغ، التي أسس معها عصبة سبارتاكوس، بعد تمرد كانون الثاني/ يناير عام 1919.

مارك، سيغفريد (Marck, Siegfried) (9/ 3/ 1889 ـ 16/ 2/ 1957): فيلسوف وعالم اجتماع. تقدم لشهادة التأهل عام 1917. كان بين 1919 و1926 عضواً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي ونائباً عن مدينة بريسلاو. كان في العام 1924 أستاذاً مساعداً، وفي 1930 أستاذاً في بريسلاو. هاجر عام 1930 إلى فرنسا، ثم إلى الولايات المتحدة عام 1939. أصبح في العام 1940 أستاذ الفلسفة في شيكاغو.

ماكسيميليان الأول (Maximilian I) (22/ 3/ 1459 ـ 12/ 1/ 1519): قيصر الدولة الرومانية المقدسة والأمة الألمانية. وسع سلطة دولة آل هابسبورغ باتجاه الغرب. حصلت حركات إصلاحية واسعة في الدولة في فترة حكمه.

ماير، يوليوس روبرت فون (Mayer, Julius Robert von) (25/ 11/ 1814 ـ 20/ 3/ 1878): طبيب وعالم فيزياء. اكتشف من طريق المراقبة عام 1840، وكان حينها طبيباً في باخرة في رحلة

باتجاه باتافيا، المعادلة بين العمل والحرارة. قدم عام 1845 صياغة لقانون حفظ الطاقة. لم يعترف بزيادته على هذا الاكتشاف إلا بعد وقت طويل.

مكيافيلي، نيكولو (Macchiavelli, Niccolò) (3/ 5/ 1469 ـ 22/ 6/ 1527): مؤلف وسياسي إيطالي. أصبح عام 1498 سكرتيراً في المستشارية الثانية في جمهورية فلورنسا. عملت في إمرته العديد من البعثات الدبلوماسية. دخل في خدمة أسرة مديتشي بعد وصولها إلى الحكم عام 1512. كتب في العام 1513 كتابه **الأمير** الذي لم يصدر إلا عام 1532 الذي اعتبر بعد ذلك «من الكتب الممنوعة». عبر الكتاب بعد ذلك عن شكل مثالي في القيم السياسية الخاصة بالسلطة المتحررة من المعايير الاجتماعية الخلقية. أثار الكتاب الكثير من المعارضات والانتقادات في أوروبا لزمن طويل.

مِل، جون ستيوارت (Mill, John Stuart) (20/ 5/ 1806 ـ 8/ 5/ 1873): فيلسوف وسياسي اقتصادي إنجليزي. عمل بين 1823 و1858 في «India - House» مقر شركة الهند الشرقية في لندن. كان بين 1865 ـ 1886 عضواً في البرلمان. ألّف العديد من الكتابات السياسية والاقتصادية والفلسفية.

نيتشه، فريدريك فيلهلم (Nietzsche, Friedrich Wilhelm) (15/ 10/ 1844 ـ 25/ 8/ 1900): فيلسوف. درس بين 1864– 1868 فقه اللغة الكلاسيكي في بون ولايبزغ. أصبح في العام 1869 أستاذاً في بازل. تخلى عام 1879 عن التدريس بسبب المرض. عاش بعد انهيار صحته عام 1889 تحولاً ذهنياً متزايداً. أثرت انتقادات نيتشه الجذرية للأحكام المتوارثة وللقيم الأخلاقية بشكل كبير في معاصريه.

هارمسوورث، ألفريد تشارلز وليام (فيسكونت نورتكليف) (Harmsworth, Alfred Charles William (Viscount Northcliffe) (15/ 7/ 1865 ـ 14/ 8/ 1922): ناشر إنجليزي. صاحب أكبر مركز صحافي في أوروبا ورائد الصحافة الجماهيرية الحديثة. أسس عام 1869 جريدة *Daily Mail*، وفي العام 1903 *Daily Mirror* استحصل عام 1894 *The Evening News*، وفي العام 1903 الصحيفة الأسبوعية *Weekly Dispatch*. كان بين 1905 ـ 1911 مالكاً للـ *Observer*، وبين 1908 ـ 1922 مالكاً لمجلة *Times*. يعتبر من مؤيدي لويد جورج ومن مستشاريه. شجع سياسته في قيادة الحرب بكل قواه كما ساعده بكل ما يملك من وسائل صحافية.

هلمهولتز، هرمان فون (Helmholtz, Hermann von) (31/ 8/ 1821 ـ 8/ 9/ 1894): فيزيائي وفيزيولوجي. بعد دراسة الطب أصبح طبيباً عسكرياً. كان من 1849 إلى 1851 أستاذاً مساعداً، فأستاذاً للفيزيولوجيا والتشريح في كونيغسبرغ، ثم في بون وهايدلبرغ وبرلين. أصبح بعد العام 1888 رئيساً للمؤسسة الفيزيائية ـ التقنية التابعة للدولة في برلين. اشتغل على فيزيولوجيا السمع والبصر، وأطلق العديد من النظريات الكهربائية. حدد بدقة القوانين التي أطلقها روبرت ماير حول حفظ الطاقة.

واشنطن، جورج (Washington, George) (22/ 2/ 1732 ـ 14/ 12/ 1799): أول رئيس للولايات المتحدة. كان في العام 1759 عضواً في البرلمان عن فيرجينيا. شارك منذ وقت مبكر في التمرد على الإنجليز. أصبح عام 1775 قائد الجماعات التي تولت الثورة. اختير عام 1789 رئيساً للولايات المتحدة.

وبستر، دانيال (Webster, Daniel) (18/ 1/ 1782 ـ 24/ 10/ 1852): سياسي أميركي. انتخب بين 1813 ـ 1817، وبين 1823 ـ 1827 عضواً في الكونغرس. انتخب بين 1827 و1841، وبين 1845 و1850 عضواً في مجلس الشيوخ عن ماسّاتشوستس. أصبح وزيراً للخارجية بين 1841 ـ 1843 و1850 ـ 1851. مثّل بوصفه خطيباً بليغاً بقوة مصالح الوحدة ضد ما يعرف بالولايات اليمينية.



الثبت التعريفي(*)

الأعيان (Honoratioren): يشكل الأعيان شريحة تعتبر بحسب تقييم فيبر من أهل المكانة أو الرتب الرفيعة (Stände) وهم يتميزون بانتماء طبقي وشرفي وبالانتماء إلى جسم حرفي أو مهني معين. والأعيان هم من «أهل الثقة» الذين يتمتعون بنفوذ محلي يساعد في العمليات الانتخابية لكسب مؤيدين للأحزاب في مواسم الانتخابات. يشبه ذلك ما يسمى عندنا «بالمفاتيح» الانتخابية أو الوجهاء. ولا علاقة هنا لذلك بالنبلاء أو بتصنيفات طبقية أخرى.

ثقافة (Bildung / Kultur): تطرق فيبر إلى الثقافة من منظور تاريخي عالمي، مستعيناً بذلك بالتطور التاريخي والعلم المقارن. إلا أنه ربط ذلك كله بمسألة القيم وبالعقل، مستبعداً بذلك النظرة الرومانسية أو الشديدة الوطنية التي أعطيت لهذا المفهوم. ومعارضاً في أحيان كثيرة شقيقه ألفريد فيبر الذي قدم عرضاً تاريخياً لهذا المفهوم. كما يجب عدم ربط هذا التعبير بالتعبير المشابه حضارة (Zivilisation).

(*) ورد ثبت تعريفي في أغلب مجلّدات هذه الطبعة. أما هذا الثبت فمن وضع المترجم.

حرفة/ دعوة (Beruf): يعتبر فيبر العمل حتى يكون منجزاً من الداخل، أي حتى لا يكون الفرد ملزماً به من جهة خارجية، أياً كانت بمثابة دعوة، تقارب إلى حد بعيد الدعوة الدينية بالمفهوم المسيحي للكلمة. أي بوصفه خياراً ينبع من الداخل وبتثبيت يكون نوعاً من الإرشاد الذي يدعم الاستعداد للعمل. غالباً ما ترفق الترجمة الفرنسية كلمة Beruf، بمعناها العادي حرفة أو مهنة، بكلمة دعوة vocation، فتكون على الشكل التالي ـ métier vocation في حين أن الكلمة الألمانية تؤدي المعنيين معاً، إذ تشير إلى المهنة وإلى الكفاية وإلى معنى الاستدعاء الذاتي، أو حتى الإلهي لأداء مهمة معينة. والجدير بالذكر أن فيبر قد استعار هذا التعبير من ترجمة لوثر **للكتاب المقدس** إلى الألمانية.

للتشديد على هذا المعنى يستبدل فيبر أحياناً كلمة Beruf، بكلمة Berufung التي تشدد على المعنى الديني والداخلي.

الحركة الطالبية (Studentenbewegung): ترد الإشارة إلى الحركة الطالبية مراراً خلال النص بوصفها كذلك، أو إلى جمعيات طالبية معينة. ومنها عصبة، أو رابطة الطلاب الأحرار التي دعت إلى إلقاء هاتين المحاضرتين.

شهدت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية نشاطاً طالبياً محموماً إذ انتشرت الجمعيات والاتحادات الطالبية في كل الجامعات. كما إن الأحزاب قد رعت هذه الحركات حيث كان الطلاب عادة جزءاً من نشاطها ومن إطلالتها على الأوساط في مجالي التعليم الثانوي والجامعي. وقد سجلت الجامعات الألمانية جزءاً من السجالات بين أركان هذه الحركات حيث كان لها مؤيدوها في أوساط الطبقة الأكاديمية إن من تربويين أو

من فلاسفة وعلماء اجتماع أو ناشرين أو رجال سياسة.

ديماغوجي (Demagoge): يستعمل فيبر هذا اللفظ للإشارة إلى السياسي المتملق، أو إلى الخطيب المتملق الذي يكثر من الحديث، والذي يقنع بأسلوب خطابي، مشيراً إلى وجوده في حقبات تاريخية متعددة.

الرئيس (Boss): كلمة مستعارة من الإنجليزية للإشارة إلى من يتولى مهنياً قيادة الحزب في الولايات المتحدة، أو إدارة من إداراته في منطقة انتخابية معينة. اتسمت الكلمة بمعنى سلبي إذ تشير أحياناً إلى من يقود الحزب بشكل دكتاتوري، أو إلى الزعيم الذي يتولى إدارة ماكينة فاسدة. إنه أقرب ما يكون إلى العميل الانتخابي، دون الارتكاز على مبادئ أخلاقية صارمة.

السلطة (**Macht = Pouvoir** (بالفرنسية)): شغلت فكرة السلطة، وبالتالي الشكل الأمثل للسلطة، حيزاً واسعاً من أعمال فيبر. وهذا ما نلمسه في المحاضرة الثانية عن السياسة. إن البحث عن الشكل الأمثل للسلطة كان أمراً ملحاً قبيل الحرب الثانية، وصار أكثر إلحاحاً بعدها. وهذا ما تجلى في محاضرات فيبر وخطاباته واقتراحاته المتعلقة بوضع نظام جديد لألمانيا، وقد شارك شخصياً بوصفه مستشاراً قانونياً في معاهدة فرساي، كما عمل لفترة مستشاراً قانونياً في البرلمان الألماني لتقديم مقترحات من أجل وضع دستور جديد للحكم في ألمانيا.

السيطرة (Herrschaft): مفهوم قائم بذاته عند فيبر لا تخلو صفحة من مؤلفاته منه. وقد خصص لذلك فصلاً كبيراً في كتابه الأساسي «الاقتصاد والمجتمع» وقد صدر هذا الفصل

جزءاً كاملاً في هذه السلسلة من المؤلفات الكاملة. وهو يميز باستمرار بين أنماط ثلاثة من السيطرة: التقليدية، الشرعية، والكاريزماتية. يصعب في كثير من الأحيان التمييز في مفاهيم فيبر، بين السيادة والسلطة مثلاً، أو السيادة والسيطرة. وقد استعاد هو نفسه هذه المفاهيم في مناسبات متعددة وطوال مرحلة وضعه لمؤلفاته.

العقلانية (Rationalismus): ترد هذه العبارة بصيغها المتعددة كمذهب فلسفي، أو كسيرورة أو دعوة لاستخدام العقل، أو للتعقل وأحياناً مع مرادفتها Intellectualismus التعقلية. اللافت عند فيبر أنه يعتبر باستمرار العقلانية مذهباً وسيرورة، طريقة غربية في التفكير فهو يعتبر الغرب الحاضن والمروّج لهذا المذهب، الذي ترقى مبادئه إلى كَنْت الذي جعل العقل حكماً في كل الأمور، والمعروف أن فيبر كان أحد المنضمين إلى مدرسة كَنْتية في جنوب ألمانيا. ومن ثم أصبحت العقلانية شعار عصر التنوير، أو التنوير كحركة قائمة ومستمرة. تعرضت العقلانية لأكثر من نقد، ولاسيما في الاستخدام الأداتي للعقل. لكن ذلك لم يكن قد بدأ مع فيبر.

غنائم (Spoils): التعبير أساسه إنجليزي، وهو يتعلق بنظام الأحزاب وتطوره في الولايات المتحدة الأميركية، وكذلك في بريطانيا، حيث يعتبر النجاح في الانتخابات مناسبة للحزب لتوزيع المناصب والوظائف على أركانه، أو على المتبرعين له، وفي بريطانيا كان يعطى هذا الحق لممثلي الشعب في الأرياف. فيبر أشار أيضاً إلى نظام الغنائم في الفتوحات، ولاسيّما مع بداية الإسلام، رابطاً ذلك بالحياة الاجتماعية ككل.

فك السحر عن العالم (Entzauberung der Welt): تعبير قصد منه فيبر الانتقال من مرحلة تفسير العالم بطريقة سحرية أو لاهوتية، إلى مرحلة تفسيره بشكل عقلاني، ما يقود إلى عدم القبول بقوى لا يمكن تفسيرها بشكل سببي، والى القبول بفكرة التقدم، أي تخليصه من التفسيرات الغيبية، ومن المؤثرين في هذه التفسيرات، كالساحر أو الكاهن أو العرّاف.

الكاريزما (Charisma): يعتبر فيبر الكاريزما موهبة يتمتع بها بعض الأشخاص الأمر الذي يؤهلهم لتولي مراكز قيادية وهذه خاصة بالأمراء والأنبياء وبالقادة العسكريين. ولذلك تعتبر الكاريزما واحدة من الصفات الملازمة للسيادة أو للسلطة. وقد توسع فيها في فصل خاص حول السيادة. وربطها بفئة من الناس منهم الأنبياء والقادة ومؤسسي الديانات الوضعية.

كوكس (Caucus): نظام انتخابي قاعدي ربما كانت الكلمة من هنود أميركا، وتشير إلى المجموعات غير المنضوية التي تهيئ للقرارات الحزبية وتؤثر فيها. أما بعد القرن التاسع عشر فأصبحت تشير إلى أشكال التنظيم الحزبي الحديث لتحريك الانتخابات والتأثير فيها، وقد استخدم هذا النظام بنجاح عام 1868 في بريطانيا (برمنغهام).

ماكينة (Machine): العبارة وردت من الممارسة الانتخابية في الولايات المتحدة وهي تشير إلى نمط توزيع العمل داخل الحزب حيث تتولى القيادات توزيع العمل والدعاية واستقطاب الناخبين بشكل تراتبي، وكذلك لاحقاً لتوزيع مكاسب النجاح في الانتخابات أي عبر توزيع الغنائم.



ثبت المصطلحات

عربي ـ فرنسي ـ ألماني

عربي	فرنسي	ألماني
اجتماع هيئة مستشارين		Curia (Lat.)
اختبار/ تجربة معيشة	expérience vécue	Erlebnis
أخلاق/ علم الأخلاق	éthique	Ethik
إدارة	administration	Verwaltung
إدارة بابوية مركزية	curie	Kurie
أرستقراطية	aristrocratie	Aristokratie
أعيان/ وجهاء	notables	Honoratioren
الإله الخفي		Deus absconditus (Lat.)
أمة	nation	Nation
أمير	prince	Fürst
انتخاب	option/ élection	Wahl
انتقاء	sélection	Auslese
إيمان/ معتقد	foi/ croyance	Glaube
بطل	héros	Held
بورجوازية	bourgeoisie	Bürgertum

Burokratie	bureaucratie	بيروقراطية
Erfahrung	expérience	تجربة/ خبرة
Mystik	mystique	تصوف
Fortschritt	progrès	تقدم
Ästhetik	esthétique	جمالية/ علم الجمال
Apparat	appareil	جهاز إداري
Gefolgschaft	partisans	حاشية/ أتباع
Podestat (ital)		حاكم صلح (قاضٍ أعلى)
Bürgerkrieg	guerre civile	حرب أهلية
Beruf	profession/ vocation	حرفة/ دعوة
Partei	parti	حزب
Naturrecht	droit naturel	الحق الطبيعي
Wahrheit	vérité	حقيقة
Absolutismus	absolutisme	حكم مطلق
Erbsünde	péché original	خطيئة أصلية
Heil	salut	خلاص
Erlösung	salut/ délivrance	خلاص/ تحرر خلاصي
Staat	état	دولة
Demagoge	démagogue	ديماغوجي/ متملق
Aristokratischer Geist	esprit aristocratique	روح أرستقراطية
Geist	esprit	روح (عقلية)
Boss	patron/ dirigeant	رئيس
Asket	ascète	زاهد/ متقشف
Führer	chef/ leader	زعيم/ قائد
Askese	ascèse	زهد/ تقشف
Magie	magie	سحر

Verwaltungsbehörden	services administratives	سلطات إدارية/ خدمة إدارية
Autorität	autorité	سلطة
Behörde	autorité/ administration	سلطة/ إدارة
Macht	pouvoir/ force	سلطة/ قوة
Frieden	paix	سلم
Herrschaft	domination/ pouvoir	سيطرة/ سلطة
Ehre	honneur	شرف
Beamtenehre	honneur du fonctionnaire	شرف الموظف
Arbeiter	ouvrier	عامل
Kult	culte	عبادة/ تقديس
Dilettantismus	amateurisme	عدم الاحترام
Election Agent (eng.)		عميل انتخابي
Gewalt	violence/ pouvoir	عنف/ سلطة
Altes Testament	ancien testament	العهد القديم
Eitelkeit	vanité	غرور
Kunst	art	فن
Gesinnung	conviction	قناعة/ ضمير/ اعتقاد
Wert	valeur	قيمة
Charisma	charisme	كاريزما
Würde	dignité	كرامة
Katheder	chaire	كرسي علمي/ منصة المدرس
Maschine	machine	ماكينة
Senat	sénat	مجلس الشيوخ
Ekklesia (Lat.)		مجلس عام/ كنيسة
Reichstag	Diète d'Empire	مجلس نيابي للرايخ

Tories (eng.)		محافظون
Heiland	sauveur	مخلِّص (المسيح عادة)
Intellektualismus	intellectualisme	مذهب تعقلي
Rationalismus	rationalisme	مذهب عقلاني
Stand	rang (ordre)	مرتبة/ مكانة/ صنف
Legitimität	legitimité	مشروعية/ شرعية
Pfründe	prébende	مصادر ربح/ دخل الكاهن
Friedensvertrag	traité de paix	معاهدة سلمية
Erkenntnis	connaissance	معرفة
Bürger	citoyen	مواطن (في الأصل ساكن المدينة)
Beamte	fonctionnaire	موظف
Abgeordnete	député	نائب
Adel	noblesse	نبيل/ أصالة
Weltanschauung	vision du monde	نظرة إلى العالم
Gewerkschaft	syndicat	نقابة
Zunft	corporation	نقابة حرفية
Dillettant	amateur	هاوٍ
Pflicht	devoir	واجب
Amt	service/ poste	وظيفة/ منصب
Alltag	quotidien	يومي/ عادي

ثبت المصطلحات

ألماني ـ فرنسي ـ عربي

ألماني	فرنسي	عربي
Abgeordnete	député	نائب
Absolutismus	absolutisme	حكم مطلق
Adel	noblesse	نبيل/ أصالة
Alltag	quotidien	يومي/ عادي
Altes Testament	ancien testament	العهد القديم
Amt	service/ poste	وظيفة/ منصب
Apparat	appareil	جهاز إداري
Arbeiter	ouvrier	عامل
Aristokratie	aristrocratie	أرستقراطية
Aristokratischer Geist	esprit aristocratique	روح أرستقراطية
Askese	ascèse	زهد/ تقشف
Asket	ascète	زاهد/ متقشف
Ästhetik	esthétique	جمالية/ علم الجمال
Auslese	sélection	انتقاء
Autorität	autorité	سلطة

Beamte	fonctionnaire	موظف
Beamtenehre	honneur du fonctionnaire	شرف الموظف
Behörde	autorité/ administration	سلطة/ إدارة
Beruf	profession/ vocation	حرفة/ دعوة
Boss	patron/ dirigeant	رئيس
Bürger	citoyen	مواطن (في الأصل ساكن المدينة)
Bürgerkrieg	guerre civile	حرب أهلية
Bürgertum	bourgeoisie	بورجوازية
Burokratie	bureaucratie	بيروقراطية
Charisma	charisme	كاريزما
Curia (Lat.)		اجتماع هيئة مستشارين
Demagoge	démagogue	ديماغوجي/ متملق
Deus absconditus (Lat.)		الإله الخفي
Dillettant	amateur	هاوٍ
Dilettantismus	amateurisme	عدم الاحترام
Ehre	honneur	شرف
Eitelkeit	vanité	غرور
Ekklesia (Lat.)		مجلس عام/ كنيسة
Election Agent (eng.)		عميل انتخابي
Erbsünde	péché original	خطيئة أصلية
Erfahrung	expérience	تجربة/ خبرة
Erkenntnis	connaissance	معرفة
Erlebnis	expérience vécue	اختبار/ تجربة معيشة
Erlösung	salut/ délivrance	خلاص/ تحرر خلاصي
Ethik	éthique	أخلاق/ علم الأخلاق
Fortschritt	progrès	تقدم

Frieden	paix	سلم
Friedensvertrag	traité de paix	معاهدة سلمية
Führer	chef/ leader	زعيم/ قائد
Fürst	prince	أمير
Gefolgschaft	partisans	حاشية/ أتباع
Geist	esprit	روح (عقلية)
Gesinnung	conviction	قناعة/ ضمير/ اعتقاد
Gewalt	violence/ pouvoir	عنف/ سلطة
Gewerkschaft	syndicat	نقابة
Glaube	foi/ croyance	إيمان/ معتقد
Heil	salut	خلاص
Heiland	sauveur	مخلِّص (المسيح عادة)
Held	héros	بطل
Herrschaft	domination/ pouvoir	سيطرة/ سلطة
Honoratioren	notables	أعيان/ وجهاء
Intellektualismus	intellectualisme	مذهب تعقلي
Katheder	chaire	كرسي علمي/ منصة المدرس
Kult	culte	عبادة/ تقديس
Kunst	art	فن
Kurie	curie	إدارة بابوية مركزية
Legitimität	legitimité	مشروعية/ شرعية
Macht	pouvoir/ force	سلطة/ قوة
Magie	magie	سحر
Maschine	machine	ماكينة
Mystik	mystique	تصوف
Nation	nation	أمة

Naturrecht	droit naturel	الحق الطبيعي
Partei	parti	حزب
Pflicht	devoir	واجب
Pfründe	prébende	مصادر ربح/ دخل الكاهن
Podestat (ital)		حاكم صلح (قاضٍ أعلى)
Rationalismus	rationalisme	مذهب عقلاني
Reichstag	Diète d'Empire	مجلس نيابي للرايخ
Senat	sénat	مجلس الشيوخ
Staat	état	دولة
Stand	rang (ordre)	مرتبة/ مكانة/ صنف
Tories (eng.)		محافظون
Verwaltung	administration	إدارة
Verwaltungsbehörden	services administratives	سلطات إدارية/ خدمة إدارية
Wahl	option/ élection	انتخاب
Wahrheit	vérité	حقيقة
Weltanschauung	vision du monde	نظرة إلى العالم
Wert	valeur	قيمة
Würde	dignité	كرامة
Zunft	corporation	نقابة حرفية

الفهرس

- ث -

- ج -

- ح -

- د -

- ر -

- س -

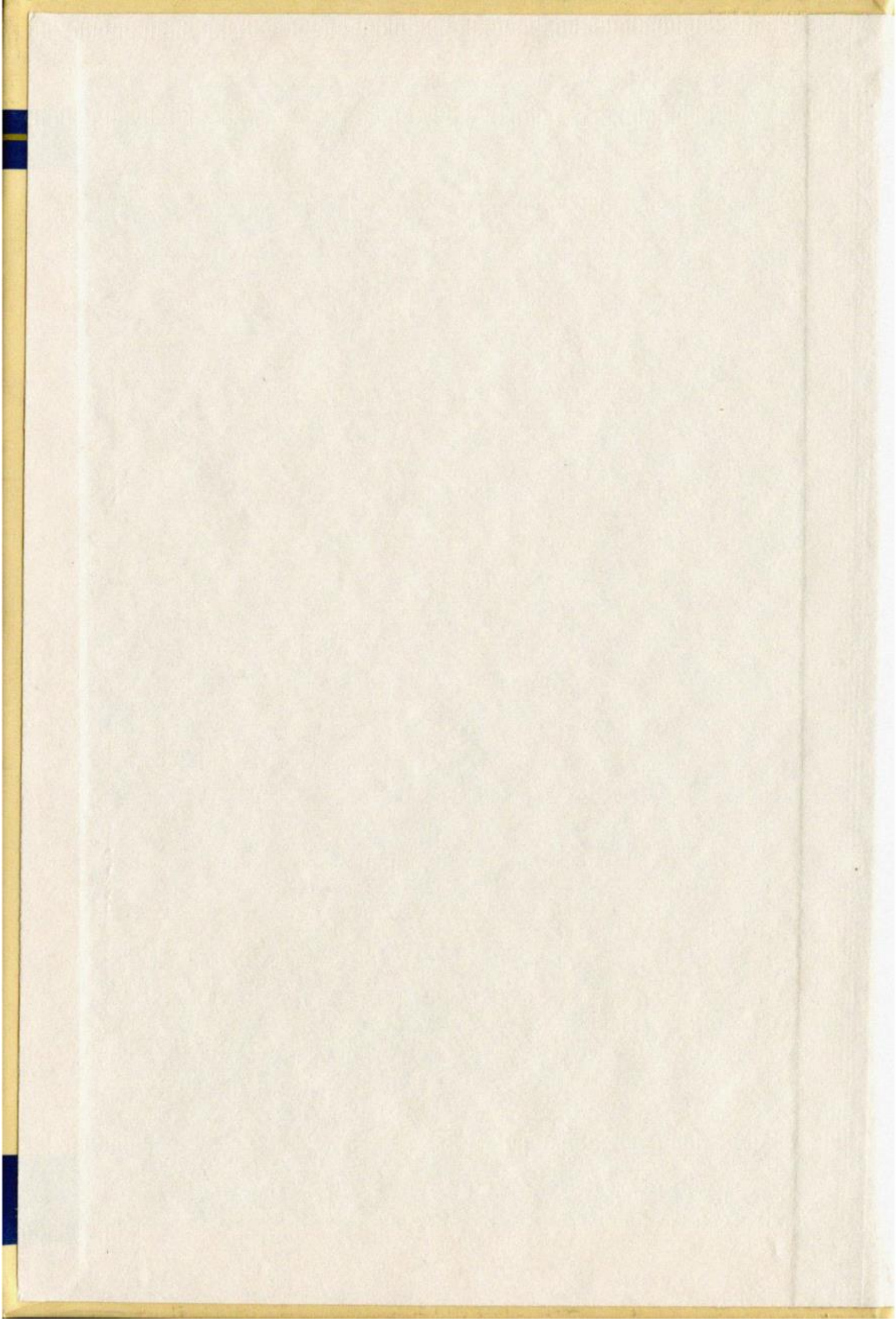
- ش -

- ض -

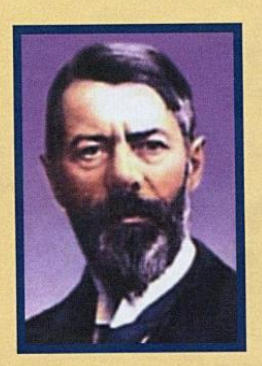
- ع -

ـ غ ـ

ـ ف ـ



العلم والسياسة بوصفهما حرفة



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية (لجنة ماكس فيبر)
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

لا ينظر فيبر إلى العلم والسياسة بوصفهما حرفةً مهنية صرفاً، بل هو يربط المهنتين ببعديهما الأساسيين: البُعد الأخلاقي والبُعد الروحي، إذ المهنة التي يزاولها العالِم أو السياسي تظلّ دون عمقٍ إن لم تكن نابعة منَ اعتقاد من يقوم بها أنه يقوم بالأفضل أخلاقياً، مستجيباً لدعوةٍ أو نداءٍ داخلي: نداءِ الضمير أو الوعي، متجاوزاً مظهر المهنة الخارجي.

يضم هذا الكتاب محاضرتين تندرجان في سياق مرحلة حرجة من تاريخ ألمانيا الخارجة مهزومةً بعد الحرب العالمية الأولى، عندما كان عليها أن تعيد بناء نفسها علمياً وسياسياً وأخلاقياً، أي أن تجمع بين النظر والعمل. من هنا وجه التكامل ومدّ النظر إلى العمل، حيث امتزج عند فيبر النظرُ بالنقد، والنقدُ بالتوصيات. وهكذا يعتبر هذا الكتاب تأملاً في الطريق الأمثل نحو إعادة البناء العلمي والسياسي والاجتماعي.

- **ماكس فيبر (1864 –1920)**: أستاذ القانون، والعلوم المالية، وعلم الاجتماع، في جامعات ألمانيّة عديدة وفي فيينا. أرسى ما بات يعرف بعلم الاجتماع الفهْمي، وعلم الاجتماع الديني. من مؤلفاته: **الاقتصاد والمجتمع**، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، **الأخلاق الاقتصادية والأديان العالمية**.

- **د. جورج كتورة**: أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية. من مؤلفاته: **طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد** (1988)، ومن ترجماته: **جدل التنوير** لـِ أدورنو وهوركهايمر (2006)، **الفلسفة الأميركية** (صادر عن المنظمة في 2009).



المنظمة العربية للترجمة

الثمن: 20 دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN 978-9953-82-392-8
9 789953 823928